



الْوَلِيسِطَةُ

﴿ في معرفة احوال مالطة ﴾

﴿ و ﴾

كشفاً لمخبرنا

﴿ عن ﴾

﴿ فنون اوربا ﴾

تأليف

﴿ احمد فارس افندى ﴾

﴿ صاحب الجوائب ﴾

﴿ الطبعة الثانية ﴾

﴿ طبع في مطبعة الجوائب ﴾

﴿ قسطنطينية ﴾

سنة

١٢٩٩

الْوَالِيسِيَّةُ

﴿ في معرفة احوال مالطة ﴾

﴿ و ﴾

كشَفُ المَخْبِئَاتِ

﴿ عن ﴾

﴿ فنون اوربا ﴾

﴿ تأليف العلامة الرحلة امام الارب * محيى لغة العرب * التحرير ﴾

﴿ المحقق * الجهبذ المدقق * الشاعر المفلق * سحاب الفضل ﴾

﴿ المصدق * احمد افندى فارس صاحب التأليف ﴾

﴿ المأثوره * صاحب الجوائب المشهوره * ﴾

﴿ الطبعة الثانية ﴾

﴿ طبع في مطبعة الجوائب ﴾

﴿ قسطنطينية ﴾

سنة

١٢٩٩

﴿ الواسطة في معرفة احوال مالطة وكشف المخبا عن فنون اوربا ﴾
 ﴿ لصاحب الجواب ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لحمد لله الذي احصى كل نبي كتابا * واعد للمتقين جراً حسابا * والهم ابن
 دم ان يضرب في الارض ويكدح لنفسه كدحا * ويجوب مناكب البلاد ويسعى
 بدرك نجحا * والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الذي بهت آيات نبوته
 لناطرين * وبرغت شمس دينه فافل منها سها الكافرين * ونادى بالحق فزهق
 لباطل وامحى ظلمه * وانذر فارهب وبشر فارغب وطاب مقاله ومقوله ومقوله *
 خير من دعا وامر * ونهى وزجر * ووعد فانجز * وقال اطنب او اوجز *
 ارشد فهدى * واجدى من اجتدى * صلاة وسلاما دائمين * متلازمين متلائمين *
 على آله وعترته * واصحابه وعشيرته * ما سرى السارى * وطلعت الدرارى *
 اما بعد ﴿ فان الاسفار طالما ذكرها الذاكرون * وبالف في وصفها الواصفون *
 فدحها من علت مروءته * وسمت همته * وذمها من قصر عنها * ولم يحن
 منها * ففهم من شبه صاحبها بدر ان لم يتقل لم يكن في التيجان منضودا *
 وبهلال ان لم يسر لم يصر بدرا مشهودا * ومنهم من زعم انها الحاملة على
 الذل * المضطعة لحسب المرء والموقعة له في الضل * والخول وعدم النكل *
 وان الشئ انما يرزن اذا كان في مستقره * حتى عرفوا الظلم انه وضع الشئ
 في

في غير مقره * ومعلوم ان محل العرب مبين لمحل العجم * فكأن احد الفريقين
اذا جاوز محله فقد ظلم * الى غير ذلك من تنافض العبارات والاعتبارات *
كما جرت بذلك عادة البلغاء في المحاورات * اذ كل حكم وقضية من القضايا
الجارية اطالوا فيها المقال * وجالوا فيها من حيث لا مجال * كاعتزال الناس
والانفراد عنهم * والمخالطة لهم والاختذ منهم * فبعضهم آزر الاول * وود لو
يقضى عمره على قنة جبل * وبعضهم شبه الزحام * بمنهل عذب لذى الاوام *
وامثال ذلك لا تحصى * ولا تعد ولا تستقصى * فكان الركون الى ما قالوا *
والعول على ما فيه جالوا واطالوا * غير هاد وحده سبيلا قويا * ولا شاف
كايما * الا اذا امتحن الناقد اللبيب بنفسه اى الفريقين اصدق قيلا * واهدى
سبيلا * واطلع على ماذا حملهم على الذم والقدح * والنساء والمدح * وماز
المعلم من المجهل * والحالى من المعضل * فهو حينئذ خير واى خير * غير
مفتقر الى ناصح منهم ومشير * والحاصل ان لكل امرئ شأنا يعنيه * ومطلبا
هو مقتفيه * وان ما قضى الله يكون * سواء اذم الدامون ام مدح المادحون *
هذا وقد كنت في عنفوان شبابي * وجة جلماي * وازهار سنى * وازدهار
ذهنى * لهججا بالسفر والاغتراب * والترحل عن الوطن والاصحاب * الى بلد
ينضر فيه غرسى * وتطيب فيه نفسى * واقتبس فيه من مصاييح العلم قيسا *
والنى اذ الدهر لى موحش خليلا بصادقنى مونساً * حتى ادتنى اعمال حابطة *
الى جزيرة مالطة * فالفيتها لا كما املت * وكابدت منها ما لا يفى بما عنه
ترحلت * فعن لى ان اطهر ما بطن منها * واكنف محبأها لمن رغب فيها
او عنها * فلفت فيها كتابا سميت « الواسطة في معرنة احوال مالطة » ثم لما رأيت
ان هذا الشرح لا يروى غليلا * ولا يشفى غليلا * لكونه مقصورا على وصف
الجزيرة * وهى من الصغر بحيث لا تمكن الواصف من ان يطيل فيها من
القول مأثوره * او يضيف اليه فوائد تاريخية خطيره * ظل خاطرى حائما
على مورد التأليف * وقلبي هائما بسفر طريف * الى ان مكنتنى التقادير
الممكنة * بعد لبثى على تلك الصخرة الدرنة * نحو اربع عشرة سنة * من
السفر الى بلاد الانكليس المتمدنة * فاختتمت هذه الفرصة عجلا * وظننت انى

ادركت املا * وعولت على ان اشفع تأليف الوسطة برحلة يعظم وقعها *
 ويعم نفعها * فصرت اقيد ما عن لي من الخواطر في وصفهم وسبح * وتارة
 انقل من الكتب ما ليس فيه للفكر مسرح * وللطرف اليه مطمح * فان
 شؤونهم متشعبة * واحوالهم مستغربة * وانحاءهم شتى * ومقاصدهم تستغرق
 وصفا ونعتا * ويعلم الله اني مع كثرة ما شاهدت في تلك البلاد من الغرائب *
 وادركت فيها من الرغائب * كنت ابدا منقص العيش مكدره * كمن فقد
 وطره * ولزمته معسره * لا يروقي نضار ولا نضرة * ولا نعمة ولا مسرة *
 ولا طرب ولا لهو * ولا حسن ولا زهو * لما اني كنت دائم التفكير في خلو
 بلادنا عما عندهم من التمدن * والبراعة والتفنن * ثم تعرض لي عوارض من
 السلوان * بان اهل بلادنا قد اختصوا باخلاق حسان * وكرم يغطي العيوب
 ويستر ما شان * ولا سيما الغيرة على الحرم * وصون العرض عما من هذا الصوب
 يذم * ثم اعود الى التفكير في المصالح المدنية * والاسباب المعاشية * وانتشار
 المعارف العمومية * والى اتقان الصنائع * وتعميم الفوائد والمنافع * فيجفل ذلك
 السلوان * واعدود الى الاشجان * وكذا كانت حالة السيد الاكرم المونس * امير
 الامراء حسين باشا من امراء تونس * فانه لبث في باريس مدة طويلة *
 وخواطره ببلاده ابدا مشغولة * فكان يلزمه الارق * والههم والقلق *
 حتى مكنته اليوم الباري تعالى من تحسين تلك الحاضرة * وامدادها بالمرافق
 الوافرة * فله الحمد على بلوغ اربه * وحصول مطلبه * فان تبهية الامصار
 الاسلامية * اشهى الى * والله من كل امنية * كيف لا وعن المسلمين كان اخذ
 التمدن والفنون في الاعصر الغواير * وكانوا قدوة في جميع المناقب والمفاخر *
 والمحامد والمآثر * وهذا التفكير والاسف * والتفكن المستأنف * كثيرا ما حملني
 على الاضراب عن التأليف * لعلى ان كلامي فيه لا يكون الا دون التاريف
 والتعريف * وانى لمثلى ان يدرك جميع ما عند اولئك الناس من الاختراع *
 والاحداث والابداع * الا ان رغبتى في حب اخواني على الاقتداء بتلك المفاخر *
 هي التي سهلت على هذا الخطب واطالت باعى القاصر * فامسكت القلم من بعد
 القائه مرارا * وتوكلت على الباري المعين ان يكشف لذهنى ما عنه توارى *
 ويدنى الى فصيحى ما شط عنه مزارا * وحررت هذه الرحلة وسميتها
 كشف



« كشف المخبا عن فنون اوربا » وذلك لاني لم اقتصر فيها على شرح ما عند
الانكليز وحدهم من الفنون * بل استطردت الى وصف غيرهم ايضا والحديث
ذو شجون * وليكن معلوما عند القارى * والسامع والدارى * انى فى كل ما وصفت
به الانكليز والفرنسيس وغيرهم من اهل اوربا * لم يمل بي هوى ولا غرض بغضا
او حبا * اذ ليس لى حذل مع احد منهم ولا ضاع * ولا انحراف ولا ميل ولا ضرر
ولا نفع * وانما رويت عنهم ما رويت * وحكى ما حكيت * بحسب ما ظهر لى انه
الصواب * فلا ينبغي ان يحمل قولى على ضغن او اغضب * واعوذ بالله
من ان ابخس الناس اشياءهم * فاعمد القول فيما شانهم وساءهم * الا انه
لا ينكر ان الانسان محل النقص والمعيب * وانه قل من ينظر الى نفسه بعين
المصيب * وكذا كنت اقول للانكليز * فلم يكن احد منهم يشكر قولى او ينسبه
الى التجبير * ثم انى بعد الفراغ من تحرير الرحلة المشار اليها عرضت عوارض
كثيرة * واحوال خطيرة * كحرب امريكا و بولاند مثلا * وكزيادة فى عدد
سكان الممالك او فى اعمالهم مما استعظمه الناس وعسار لهم شغلا * من جملة
ذلك ما جرى فى الممالك الاسلامية من التحسين والتنظيم * والترتيب والتميم *
الا انى رأيت ايداعها فى الرحلة نصبا مستأنفا * وشغلا لا ينتهى
ولا يستوفى * فصرفت عنه صفحا * وصدفت

كشحا * اذ حوادث الدهر * اكثر

من ان يحصرها ذكر *

او يحيط بها

زبر *



الجزء الأول

فصل في تخطيط مالطة معربا

اعلم ان تخطيط مالطة هو في ٢٢ درجة و ٤٤ دقيقة من الطول وفي ٢٥ درجة و ٥٤ دقيقة من العرض اما موقعها في الكرة فان بعض الجغرافيين الحقوه بافريقية بالنظر الى المكان وبعضهم الحقه بجزائر ايطاليا بالنظر الى عادات اهل مالطة واحوالهم وديانتهم والمراد بذلك انها من اوربا فمن الحقها بافريقية بشواحي ومن الحقها باوربا بليوس وسطرابوس ودليلهما على ذلك كونها على بعد ستين ميلا من رأس باسرو وعلى مائتين من كلبه نوميثا اركولى والمحل الاول اقرب الى اوربا والثاني اقرب الى افريقية • قال فاما عرضها فاثنا عشر ميلا وطولها عشرون ودورتها ستون وقاعدتها الآن هي المدينة المسماة فالتة فاما في الاعصر السالفة فكانت نوتابيلي ويقال لها الآن المدينة وموقعها في وسط الجزيرة في ارفع موضع منها وكان الجزيرة منقسمة بها الى شطرين احدهما يمتد جهة الشرق والاخر جهة الغرب والذي بنى فالتة كان احدا مرآء الافرنج وسماها باسمه وذلك سنة ١٥٧٦ وهي على ربوة بقرب البحر يقال لها شبراس • قلت زعم بعض المايطيين ان اصل هذه الكلمة شبر الراس وبعضهم انها جبل رأس وعندى انها شعب الرأس قال في الصحاح شعب الرأس شأنه الذي يضم قبائله اه وهو كناية عن اصل الشيء ومجتمعه كما ان قبائل الرأس مرجعها الى الشعب ويحتمل انها سميت بشيب الرأس لان اهل مالطة اذ ذاك كانوا يناصرون المسلمين الحرب والثار وكل فريق ملاق من فريقه ما يشيب الرأس • وذكر بوليه المؤلف الفرنساوى ان قاعدة هذه الجزيرة سميت باسم الامير لافاليت رئيس طريقة الفرسان ولد في سنة ١٤٩٤ ومات في سنة ١٥٦٨ وكان شهيرا بالبأس والاقدام واول ما استولى عليه من الجزيرة عند محاصرته المسلمين بها برج صانت الموثم قوى عليهم واخرجهم منها • قال المؤلف ثم خلفه باولودل مونتى فاتم بناءها في الثامن عشر من ايار وذلك في سنة ١٥٧١ وقبل بنائها كان مقام الزعماء المتسبين الى طريقة مار يوحنا في برملة والبرغو بشرقي فالتة ويقال للثانية فيتور يوزا اى المنصورة لحرب انتصر فيها اهل مالطة على المسلمين وذلك في سنة

سنة ١٥٥٦ قال وفي ضواحي هذه المدينة قرية اسمها الفلوريانة وهي اعمر جميع
 قرى الجزيرة وجلائها اربع وعشرون قرية وهي جديرة بان تسمى امصارا لكثرة
 سكانها وحسن بنائها وكنائسها • وعدد اهل الجزيرة كلهم نحو ١٢٠.٠٠٠
 نفس • ولفالته مرسىان احدهما كبير يعد من اعظم المراسى وذلك لسعته
 بحيث يسمع عدة بوارج مع الامن ولكونه في وسط بحر الروم فن ثم كانت الجزيرة بهذا
 الاعتبار اعظم محل للتجارة على ان تلك المخازن العديدة والشؤون الرحبة المبنية
 عند هذا المرسى تغرى الطاعن والمقيم بتعاطى التجارة فيها والثاني صغير وهو
 مرسى المراكب التى ترد من البلاد المشوبة بالوباء ويقال له مرسا مشطو محرفة
 عن مرسى الشط اما هواء الجزيرة فالغالب عليه الاعتدال غير ان ارضها صخرة
 لا تصلح من اصلها للحث ومع ذلك فان السنبلة الواحدة تخرج فى تربتها التى
 ليست بالطيبة ولا الرديئة ست عشرة سنبلة او عشرين وفى عام الحصب ثمانى
 وثلاثين وفى الجيدة احدى وستين واخص اصناف غلالها التى يجر بها القطن
 وقد يبعث منه الى جهات مختلفة فى اوربا مقدار جزيل الا ان بخس ثمنه رغب
 الاهلين عنه الى غيره فصاروا يصرفون همتهم فى تربية التوت فان فيه نفعا
 كبيرا وقد علم بالتجربة انه يتحصل منه حرير اعلى من حرير ايطاليا • قلت وقد
 علم بالتجربة ايضا ان دود القز لا يعيش فى هذه الجزيرة والمؤلف انما كتب هذا
 عند الشروع فى تربية التوت • قال وفى هذه الجزيرة تنمو الاشجار المثمرة
 لاصناف الفاكهة الطيبة كالرمان والتفاح والعنب والاجاص واعظمها
 الاترج • فاما عدد الاهلين الآن بالنظر الى صغر الجزيرة فانه عظيم جدا ولم
 يعهد من قبل قط انها كانت تحوى هذا المقدار وانما يعلم انها كانت مأهولة
 باسرها الا ان بعض جهات منها خلت عن السكان كما يستدل على ذلك من
 الآثار الباقية وما وصل الينا من اسماء بعض قرى لا وجود لها وسبب ذلك
 فيما قيل ان المايطيين حين كانوا تحت سلطة الارجونيين وجدوا انفسهم
 عرضة لغزو المسلمين المتتابع ولهجوم لصوص افريقية فجعلوا مقرهم شرق
 المدينة صيانة لعرضهم ومالهم واخلوا الجهة الغربية • وذكر بعض
 الجغرافيين ان مالطة كانت تسمى فى القديم هيبرية وقال بعض انه لم يوجد فى
 ملاد اوربا جزيرة عرفت بهذا الاسم وانما هو اسم مدينة قديمة فى صقلية ثم

حرب حبر، باسم كامريزة ولما استوطن الفينيقيون هذه الجزيرة سموها اوجاجية
وسماها اليونانيون مليئة واشتهر ذلك في سنة ٨٢٢ قبل الميلاد وسماها المسلمون
مالطة ومعنى ميليسة او مليئة في لغة اليونان النحل وزعم قوم انها سميت باسم
مليئة ابنة دوريس على جهة التعظيم وهو مشتق من ملت في السريانية وهو
اسم الله ويعرف في غيرها بجونو ولا يبعد ان يكون ذلك ايضا في اللغة الفينيقية
قال وروى بعض المؤرخين ان بناء مدينة فوتابيلي كان بعد الطوفان بنحو
١٤٠٠ سنة واعظم ما فيه عبرة من مبانيها قبل تاريخ النصرى هياكل جونو
وابروسرين وهركوليس وابولو • فوقع الاول هو بين فيتوريوزة وصانت انجلو
ويحكى ان ملك نوميدية الذي كان دأبه غزو مالطة كان قد اخذ منه
قطعة بديعة من العاج واهداها الى استاذة ففرح بها اولا غاية الفرح ولكن
لما علم انها اخذت من الهيكل ردها الى الملك والتس منه ان يعيدها في محلها •
وموقع هيكل ابروسرين في قلعة تسمى مطرفة وقد وجد فيه آثار • وموقع
هيكل هركوليس في جهة الجزيرة الجنوبية بالقرب من مرسى سير وكو
(اى مرسى الشرق) وهو من بناء الفينيقيين وقد وجد فيه آثار كثيرة •
وموقع هيكل ابولو عند فوتابيلي وهو بناء الاغريقين وكان ذارونق عظيم
ويقال ان جلته ما انفق في بنائه بلغ سبعمائة وتسعين ستريا وقد علم
ذلك من وجود صنم نصبه له مجلس عام ووجد ايضا آثار حمام في محل اسمه
قرطين • ومن ذكر حكومة مالطة من الشعراء الاقدمين اوميروس واوفيدىوس
ويفهم من كلام الاول ان القبيلة التي يقال لها الفياكنس هم اول من استوطنوا
هذه الجزيرة وكانوا ذوي قوة وبأس ثم خلفهم الفينيقيون وهم من جهات
مصر وصيدا وذلك سنة ١٥١٩ قبل الميلاد وكانوا اهل سعى وكسب وتجارة
فلبثوا فيها نحو اربعمائة وخمسين سنة حتى تغلب عليهم الاغريقيون ثم سلموها
للقرطاجنيين وذلك نحو سنة ٥٢٨ قبل الميلاد ثم جاء من بعدهم الرومانيون
في سنة ٢٨٣ من التاريخ المذكور فاقروا فيها احكامهم وسننهم واعظم ما حدث
في دولة الرومانيين مما لا ينبغي ان يهمل ذكره قدوم مار بولس وانكسار السفينة به
ومن كان معه وذلك سنة ٥٨ للميلاد في عهد القيصر طيباريوس في موضع يقال له
الآن خليج مار بولس ومنذ ذلك الوقت تنصر اهل الجزيرة ثم بعد انقراض دولة
الرومانيين

الرومانيين منها استولت عليها قبيلة الفندلس ثم القوث ثم تغلب على هؤلاء
البليساويون وطردهم منها والحقوها بحكومة البلاد الشرقية وبقيت كذلك
إلى سنة ٧٨٠ فاخذوا في هضم الرعية فقاموا عليهم وسلموا الجزيرة للمسلمين •
قلت ذكر في كتاب الجمع والبيان في اخبار القيروان ان مالطة قحت في ايام
ابي الغرائيق محمد بن احمد بن محمد بن الاغلب توفي سنة احدى وستين ومائتين
وانما لقب بالغرائيق لانه كان مشغوقا بالصيد روى انه بنى قصرا في السهلين
لصيد الغرائيق انفق فيه ثلاثين الف دينار فكفى بهذه الكنية وكان في غاية
الجود الا انه غلب عليه اللهو والطرب والاكل والشرب ولم يزل مقيما على
لذاته طول عمره انتهى فعلى هذا فلا معنى لقول المؤلف وسلموا الجزيرة للمسلمين
قال ثم قام الامير روجر النورماني بعدها بمائتي سنة واسترد الجزيرة والحقها
بصقلية فبقيت كذلك نحو سبعين سنة ولما تزوج القيصر هنري السادس
قيصر جرمانية ودية عهد صقلية دخلت مالطة في حكمه وذلك سنة ١٢٦٦
وبقيت كذلك اثنتين وسبعين سنة وفي اثناء ذلك ولي اخو لويس ملك فرنسا
حكم صقلية ومالطة معا وبعد سنتين تغلب عليه الامير بطرس الارجونى
ثم آل امرها الى الملك كرلوس ملك صقلية فولى عليها الفرسان من نظام
مار يوحنا برضى الاهلين واتفاق دول اوربا وكان قد جرى هذا النظام عندهم
اولا ثم لما نبغ نابوليون واستولى على البلاد سلمت له الجزيرة على ان يرخص للاهليين
في التصرف بحقوقهم الا ان الفرنسيين لم يلبثوا ان هتكوا بعض السنن القديمة
وانتهكوا حرمة الكنائس فحزب عليهم المالطيون تحزبا لم يخل عن سفك دم
كثير منهم وعن تلف اموالهم الى ان اتت الانكليز فسلموها لهم وكان
ذلك في سنة ١٨٠٠ • قلت لما دخلها نابوليون وجد فيها الفا ومائتي
مدفع ومائتي الف رطل من البارود واربعين الف بندقية وعدة بوارج
و ٤٥٠٠ اسير من المسلمين فاطلقهم وذلك في سنة ١٧٩٨ • قال فاما اخذ المسلمين
لها فانه كان من باب المصادقة اولى منه من المغالبة وعاملوا الاهليين اولا بالرفق
والمياسرة ووقروا سننهم واحكامهم وامتنعوا بهم للغاية حتى كان الجليلين
واحدا كما يتبين ذلك من بقاء لغتهم فيهم • قال اما لغة مالطة فذهب بعضهم
الى انها عريضة فاسدة وذهب آخرون الى انها فينيقية لان اليونانيين بعد ان

فتحوا الجزيرة لم يخرجوا منها الفينيقيين بل ظلوا فيها آمنين محافظين على لغتهم وما برحت مستعملة حتى بعد استيلاء الرومانيين عليها و انها لم تتغير في مدة القرطاجنيين لان لغة هؤلاء ايضا كانت فينيقية ومع ان داب الرومانيين كان حمل الناس على التخلق باخلاقهم والسلوك بسننهم اينما ملكوا فلم يجبروا الرعية هنا على التكلم بلغتهم والدليل على ذلك ان الرومانيين الذين كانوا مع مار بولس سموا المالمطين بربرا ولم يكن يطلق هذا الاسم الا على من جهل اللاتينية واليونانية قال ثم بقيت في دولة المسلمين ايضا ولم تتغير وانما دخل فيها بعض الفاظ اجنبية و يؤيد ككونها فينيقية مشابهة بعض الفاظ منها للغتنا نحو بير وصيد فانهما في الفينيقية بروصد وغير هذا كثير مما له لفظ واحد ومعنى واحد في كلتا اللغتين والحاصل ان مأخذ اللغة المالمطية من الفينيقية ارجح من ان يكون من العربية و ان كانت قريبة من هذه ايضا • قلت دليله هذا اوهى من بيت العنكبوت فان البير والصيد ينطق بهما في لغتهم كما في لغتنا سواء ما عدا موافقتها في تصريف الافعال والاسماء وفي الضمائر وغير ذلك من اساليب الكلام كما سيأتى بيان ذلك • ومن الغريب ان المؤلف لا يعرف الفينيقية ولا العربية ولا المالمطية و ان كانت لغته ويتعرض للحكم والاستدلال فكيف يحكم على الشئ وهو مجمله وكيف يقول اولا ان لغة المسلمين بقيت في اهل مالطة لسدة الالتحام الذى كان بين الفريقين ثم يقول الآن انها فينيقية لمجرد وجود كلمتين فيها و انما حمله على هذا بغضته وبغضة اهل بلاده للعرب وتبرئة انفسهم انهم ليسوا منهم بل من الفينيقيين اذ كان هؤلاء كما ذكر ارباب جد وتجارة والعرب عند اهل مالطة كناية عن الهجج وذلك لجهلهم التواريخ ولانهم لا يرون الآن الا صعاليك المغاربة والظاهر ان المسلمين الذين فتحوا مالطة لم يكونوا من اهل العلم والتمدن كالذين كانوا في صقلية وغيرها فاني لم اجد فيما قرأت قط من كتب الادب والتواريخ قال المالمطي والسيوطى رحمه الله لم يغادر في كتاب الانساب الذى سماه لب اللباب احدا من اهل العلم الا وذكره ما خلا المنسوب الى مالطة • قال اما جزيرة غودش وتسمى بالافرنجية كوتزو فزعم بعض ان هذه اللفظة يونانية ومعناها مركب مستدير وهى كأنها ذيل انقطع من مالطة وطولها اثنا عشر ميلا في عرض ستة و اهلها نحو خمسة عشر الفا و جملة قراها ست ومدينتها

ومدينتها تسمى الربط (كأنه محرف عن الربض) وفيها آثار قلعة قديمة و بقول الجزيرة وفاكهتها طيبة جدا وكذا عسلها حتى ان الاقدمين كانوا يفضلونه على عسل جبل هبلا و يرد منها الى مالطة قوارب كثيرة مشحونة بالفاكهة والبقل والسك وحكومتها ملحقه بمالطة وكذا كانت في الزمن القديم وزعم بعض ان مالطة و غودش وكونة كانت في الاصل جزيرة واحدة وحدث لها من الزلازل ما فرقتها (انتهى المنقول من كتاب مختصر الفه مكلف في تاريخ مالطة)

واقول قد رأيت جزيرة غودش غير مرة اما اسمها فاطنه محرفا عن لفظة اليهودج سماها به المسلمون لشدة شبهها به **ك** كما سماوا الجزيرتين الاخرين كونة ولفلة لصغرهما الا ان اهلها ينطقون بها بالغين المعجمة لا بالمهملة كما ينطق به اهل مالطة ولا اعلم في لغتهم كلمة غيرها قلت فيها الهاء غينا فاما قلب الجيم شيئا فكثير اما ارضها فاحسن من ارض مالطة ولا سيما كون حثولها مكشوفة للنظر كحقول فرنسا وانكلترة لا كحقول اهل مالطة كما يأتي وهي ازكى ثمر ونباتا واهلها اخلص طوية وفيها الحمير والبغال ضليعة لكنها غير فارهة وربما بيع الحمار منها باربعين ليرة اما شجرها فان التفاح لا يكاد يكون **ك** كبير من العليق في الشام وشجر التين منبسط على الارض وليس فيها من شجر الجوز سوى شجرة واحدة وفيها ايضا نخلة لكنها لا تثمر واسماء قراها ومواضعها كلها عربية محضة ومما اضحكني من خرق اهلها انهم يدرسون القمح على البهائم من دون نورج وذلك بان يربطوا مثلا كل زوج منها في قرن ويمشوهما على السنابل فيثور هذا ناحية وذاك اخرى وكذا هي في مالطة ومن غرابة ارض غودش ان جمع محالها مزروعة محروثة الا ما قابل مالطة فكأنه من قبيل مراعاة النظير اما كونة فليس فيها سوى بيت واحد وكنيسة وارضها قليلة الجدوى

❖ فصل في هواء مالطة ومنازلها وغير ذلك ❖

انما قدمت هذا الفصل من كلامي لاهميته فان العافية خير ما ملاك الانسان وان ارضا لتأكل من نازلها لجديرة بان لا يؤكل منها فاقول قد تقدم فيما مر بك موقع هذه الجزيرة وبقى الآن الكلام على هوائها من حيث هو هو فان الهواء لا يعرف غالبا من مجرد نسبة الموقع اما اشتقاق اسمها ان كان تحريبا فمن لم ط

ومعظمه يدل على التجرد والخلو أو التجريد والاختلاء فتكون قد سميت بذلك لخلوها عن الغياض والجبال والانهار وغيرها وفي القاموس ومالطة كصاحبة د (اى بلد) وكان عليه ان يذكر خصوص كونها جزيرة فانه كثيرا ما يتعقب الصحاح بمثل ذلك فاما قوله اولا ملط شعره حلماته ثم قوله بعد فاصل والاملاط من لا شعر على جسده وقوله في اول المادة الملط الحبث لا يرفع له شئ الا سرقه ثم قوله عند الآخر وامتلاطه اختلسه فن اختلاط الترتيب في التركيب • ومن ذكر مالطة ايضا المطران جرمانوس فرحات في كتابه المسمى « باب الاعراب عن لغة الاعراب » قال ومالطة جزيرة عاصية متقاصية قرب صقلية سكانها لصوص البحر • قلت لعل تأليف هذا الكتاب كان قبل سفره الى رومية والا لما قال متقاصية او انه جاء بها للمجانسة اما قوله سكانها لصوص البحر فينبى بما كان لاهلها حينئذ من الشهرة الذميمة عند اهل المشرق وكان هذه الصفة كانت غالبية عليهم حتى انسته ان يقول لغتهم العربية ودينهم النصرانية فاما الصحاح فذكر ملطية في بلاد ارمينية والآن تعد من الممالك العثمانية • اما هواء مالطة فلا يحمد من الف البرور الواسعة لانه كثير القلب فيختلف في الليل والنهار عدة مرار فقد يكون في الصباح صحو فلا تسعر الا والغيم قد طبق اعنان السماء فيكفهر الجو ويهيج البحر وتثور الزوابع وتزمر الرياح فترقص لها الابواب بل قد يكون في النهار برد وفي الليل حر هذا في الشتاء فاما في الصيف فلا ترى في الجو لطخة سحاب ولا غادية اصلا وفصل الشتاء يتبدى فيها من شهر تشرين الاول و ينتهى الى ايار والباقي صيف شديد وان وقع في خلال ذلك يوم معتدل فتأتى فيه نفعة من الريح باردة واخرى حارة او تكون العور وهى من الرياح ما فاجأك ببرد وانت في حر او عكسه وفي الجملة فانها جديرة بان تسمى مخزن الرياح فهى لا تخلو منها باردة كانت او حارة واكثر رياحها في الصيف السافى تأتى بغبار وتراب دقيق تطيره على وجوه الناس وتدخله في الديار من خصائص ازجاج • ومن الغريب ان الريح الشرقية التى تكون في الشتاء زمهريرا نصير في الصيف سموما فتتشقق بها اخشاب المنازل وهى مصبوغة وتصصر بها روافد السقوف ويحجف بها الزجاج ويتصلب فيكسر بادنى مس ويقرمدها الجلد والورق بل يتأثر بها الحديد

الحديد والنحاس والعظم ونحوه وينتن شمع الشمع فتكون الشمعة في البيت كالخيفة وقد تبلغ درجات الحر فيها فوق المائة فيةضى الومد حينئذ باللباس الخفيف من الكتان وبالنوم من دون غطاء واكثر اهل مالطة ينامون ليلا على السطوح لكون سطوح ديارهم غير مسنة بخلاف الديار في اوربا واذا مشى الانسان خطوات في الصيف يعوم في عرقه ثم لا يلبث ان تلفحه لفة من الريح فينبغي ان يكون احذر من غراب هذا ولما كانت ارض الجزيرة خالية عن الاجم والغياض والجبان والانهار اذهى عبارة عن صحن في وسط البحر فتصابتها الشمس مسحتها مسحا على السواء فلا ملطا فيها من شئ وربما زاد حرها ايضا بسبب النار التي تخرج من جبل صقليه ومع قربها من ايطاليا فليس في ديارها رخام كديار تونس وليس في شئ منها مياه جارئة كديار الشام * ومن جملة الاسباب التي تجعل شتاءها عارما مكروها كون بنائها من حجر رطب لو جعل في مقامة بضع سنين لا كلاً وحين يستخرج اولاً من متطوع يكون اخضر مأبياً ولا يبيض الا اذا نصب للهواء والشمس سنين ومن خواصه انه قابل للنش فلهذا ترى منه في الديار والكنائس نسمات شتى وقد يبعث منه على سبيل التجارة الى جميع البلاد وكثيراً ما تتوارى الشمس في فصل الشتاء فلا تطل فيه ولا من شباك فاين هذا من شتاء مصر حين يترحب بالشمس طالعة وتشيع غاربة وفي الصيف يطفو نيلها فيرطب الارض وينتظم به شمل الاحباب وعقود المسرات * واذا اتفق في مالطة يوم صحو في الشتاء رأيت الناس جميعاً يعددون محاسنهم ويصفونه ويلهون عن سوء ايامهم الاخرحين اذ الرياح تأخذ بناصية السائر والمياه تهطل من انف كل محاسب والزكام ملازم للانوف والسعال قابض على الحلقوم واشد ما يسوء منها استمرار الرياح اياماً متوالية من دون مطرفانه قد يأتي دليها من السنين ما لا يغزر فيه المطر والرياح مع ذلك لا تهدأ اصلاً وقد احتاجوا في بعض السنين الى الغيث غاية الاحتياج حتى فرض عليهم اسقفهم دعاء للاستطار في الكنائس مع الصيام والريح مع ذلك تزيد عصفوا فقلت

* ولما لم يطق كانون قطرا * تولى وهو يحرق بالرياح *
 * فيا قوم اغسلوا بالدمع فيه * وجوهكم وصوموا عن سجاج *

وفي الجملة فان صيف مالطة وشتاءها شاقان جاهدان يهجمان بغتة فأخر
 ذنب الشتاء معقود بناصية الصيف ذليست كصرو والشام فان الانسان فيه ما
 يتعود على تخالف الفصول شيئا فشيئا وليس من علامات الربيع شيء بمالطة
 سوى تكاثر البراغيث فهي آفة من الآفات ولا من علامات الخريف سوى تناثر
 اوراق الشجر المعدودات ومع ذلك فان كثيرا من الانكليز يأتون اليها ليمضوا
 فيها الشتاء اما عدم المطر فيها في الصيف فسيء قلة الشجر والغياض فان
 السحب اذا مرت فوقها لم تجد ما تجذب منه رطوبة ولعل الادوية والعقاقير
 التي تبقى مدة طويلة في مالطة تفسد بالكلية ويزول ما بها من الخاصة فان التبغ
 والنشوق والخمر اذا بقيت فيها زمنا يزول طيبها رأسا لان مبلط الديار وحيطاتها
 وسقوفها من حجر ندي كما مر فاذا وضعت مثلا ملحا في خزانة لا يلبث ان يندى كأنه
 خلط بالماء وكذلك تعفن المأكولات والمشروبات اذا وضعت في مخدع من خشب
 مصبوغ فان النداءة تسري الى الصبغ ولذلك كان البدل وهو داء المفاصل
 شائعا في مالطة وقل من يسلم منه وقد اصبحت به اول سنة فكنت اقوم في الصباح
 موجع الاعضاء لا انشط الى شيء وما زال ذلك يترأى بي حتى لزمت الفراش
 فلما عادني الطبيب ورأى مبلط المنزل اخبرني بالسبب فعظم على ذلك ثم لما سمعت
 بان أكثر الناس ممنيون به هان علي ما لاقيت ونأسيت بهم ودواء هذا الداء
 الإقامة في محل مواجه للشمس عند طلوعها وقد كان يعملوكتبي من اثر النداءة
 عطن يلتصق به بعض الورق ببعض ومن جعل مرقدته قرب حائط فلا يأمن
 غائلة صداع او وجع اسنان ومن يكن ذا علة في صدره فاعظم خطر عليه
 التعرض للريح بعد ان يكون في محل دفي مع ان الغالب على اهل مالطة السدة
 والقوة غير انهم ولدوا على هذه الحال فلا تؤثر فيهم رداء المكان ولا الزمان ومما
 توصي به الاطباء هنا اتخاذ غلائل الصوف المسماة فلانله صيفا وشتاء اما في
 الشتاء فللدفء واما في الصيف فلتنشيف العرق ومنع ضرر الريح النافذة في
 المسام حتى انهم يخشون من الريح على الحيوانات فانهم اذا اوقفوا الحصان
 في سيره اداروا وجهه الى غير جهة الريح وقس على ذلك • اما ارض مالطة
 فانها ملطمة صخرة جرداء قليلة الثرى والشجر والنبات ودائرها كله صخر لا ينبت
 فيه شيء الا انه لشدة اجتهاد اهلها وفرط كدحهم ينبت فيها أكثر

اصناف البقول والفاكهة لكن غلتها لا تكفيهم أكثر من أربعة أشهر والباقي يجلب اليهم من بلاده فيجلبون القمح والقطاني من مصر ومن بلاد البرك والروم ويجلبون الفاكهة والخمر من صقلية والتمر والضمان والزيت من افريقية وهم جرا وزعم بعض ان ترابها مجلوب في الاصل من صقلية وترى شجر الخرنوب والصبار التي لا تتوقف على كثير من الثرى اعز من شجر الجوز في الشام اما شجر الخرنوب فيكون لاصقا بالارض كأنما هو ازرار واما الصبار فتراه محوطا بالجدران العالية كأنما هو حديقة وينوطون بكل منها ورقة من الثوم منعاً لاصابة العين مع انها مما تنبذ عنه العين واذا سألت احدهم عن قله الغياض عندهم قال نحن معاشر الافرنج لا نصرف همنا الا الى زرع الارض فما اقل ظلمهم واكثر ظلمهم • واذا ضحيت الى الخلاء وجدت بين كل حقلين جدارا عاليا لحجز رؤية ما دونه فإين هذا من سهول فرنسا وانكلترا البادية للعين على نضرتها وريعها وعلى كثرة ما فيها من الكاديس الغلال والعنب من دون ناطور يحفظها او حائط يسترها • ويوجد في مالطة اكثر اصناف الاشجار المثمرة والبقول المأكولة وفاكهتهم طيبة في الجملة الا الليمون الحلو وقصب السكر والخيار فاما الصبار فأكثره نوى وكذا الرمان واكثر الفاكهة يباع فجاً وقلما يدعونها تنضج خوفاً من اللصوص ان تسرقها وجميع اصنافها ارخص منها بمصر والتين على اصناف متنوعة والعنب لا يدوم أكثر من ثلاثة أشهر اما البردقان فانه يدوم نحو سبعة أشهر ويرسل منه الى بلاد الانكليز وغيرها كاطرفة فاما ما يأتيها من الثمر من صقلية فانما هو سداد من عوز وعندهم من الفاكهة اصناف لا توجد في بلادنا منها صنف يقال له الفراولى وهو حب احمر صغير بقدر غمر العليق حامض يصلح السكر وآخر يقال له نصبلى وهو شبيه بالشَّمش او بعين البقر ونواه كبير وآخر اسمه زربي وهو اشبه بالزعرور شديد الفجية يجعلونه اعذاقا كاعذاق التمر فينضج منه كل يوم حبات ويدوم العذق بجملة اشهرها ولا يعرفون حفظ الفاكهة الى اوان الشتاء كما يفعل في بلاد الافرنج فان العنب والتفاح في فرنسا وانكلترا لا ينقطعان اصلا اما بقولهم فغير طيبة وذلك لكثرة مايتها فاذا رأيتها في السوق سرك نضارتها ولكن متى طبخت نجأت مسيخة حتى ان الهصل والفجل

وما اشبههما مما طبعه الحرافة لا طعم له عندهم لا بل اذا جلبت من بلاد اخرى يتغير طعمها وكذا الكرب والباذنجان ونحوه ولا يكاد يبدو نوع منها الا ويغلظ ويحسو ومن الغريب ان نباتها مع كونه بهذه الصفة فعسلها في غاية الجودة ومما لا يوجد عندهم من الحضرة الكوسى والفتاء والملوخية ومن غيرها اللبن والقشطة والسمن وانما يجلبون نفاية هذا احيانا من طرابلس الغرب واهل مالطة جميعا يتقززون منه ويطبخون ادامهم بشحم الخنزير • اما ماؤها فانه ماء المطر مخزونا في الآبار غير سائغ فما شربه ذو تعب او ظمأ الا واصابه سعال وكثيرا ما يحدث عن شربة واحدة نفث الدم فستان بينه وبين ماء النيل الذى يطيب شربه على التعب والظمأ ولا يزيد الشارب الا صحة ونماء جسم فلا ينبغي لاحد ان يشرب من ماء مالطة الا ترشفا ونقل عن ارسطو ان الماء الراسك الذى لا تقع عليه الشمس لا يكون الا ثقيلًا وتولد فيه مادة طينية • اما حداثتها فاشهرها حديقة صانت انطونيو مقر الحاكم فى الصيف وهى التى نزل بها الامير بشير شهاب باهله اخلاها له الحاكم اجلالا لسانه وهى نضيرة حسنة الوضع الا انها فى منخفض من الارض وليس فيها مقاعد او مواضع لياكل فيها المتفرج او يشرب وليس للمالطين عادة ان يأخذوا الى مثل هذه المنزهات طعاما لا فى الاعياد ولا فى غيرها اتباعا لعادة الانكليز اذ لا يمكن لهم الجلوس الا على كرسى فغاية حظهم من ذلك انما هو المشى او ان يضع احدهم ذراعه بذراع صاحبه ويمشيان الخلاء او ان يمشى وحده وهو يصفر ويمكو وعلى تقدير وجود رصف عندهم او روضة فلا يعرفون كيف ينسبطون عندهما سوى بالشى واعرف رصفا يسمى البياتا انيقا جدا ولكن ليس فيه محل للقهوة ولا للملوج ولا مطعم ولا آلة طرب ولا كرسى يجلس عليه ولو كان مثله فى باريس او فى مصر او الشام لرأيت من اوله الى آخره مرصوفا بالكراسى والمتكآت ومشتلا على كل ما تطيب به النفس وفى الجملة فان الانكليز والمالطية جميعا لا ذوق لهم فى مثل هذه الامور • ثم البوسكت ومعناه الغيضة وهو على بعد ثلاث ساعات من قالة وهو سبى النخدر قليل الجدوى فانه عبارة عن شجرات معدودات وزهرات شعث لا صنعة فى تزيينها الا ان فيه قبوة فيها عين نضاحة وحولها مائدة ومقاعد

من حجر يقعد عليها الاسكلون فهذا الموضع اتره موضع في الجزيرة و ذلك الماء اعذب ماء بها وبقره برج كان في القديم سجن يعذب فيه من يخالف الكنيسة كما كانت العادة ايضا في اسبانيا وغيرها • ثم الملحلب وهو انضر من البوسكت وابعد لكونه عند اقصى مالطة طولا • وفيه بركة يعلو ماءها طحلب وكان الموضع سمي به • ونواغيرهم نحو نواغير الشام ومصر • واهل تونس وطرابلس يستعملون الساية وهي في اللغة الناقة يسقى عليها ويطاؤونها على البستان • والحاصل ان جزيرة مالطة لا تعجب من الافرنج الا القليل وذلك لانهم اذا جاؤها لم يجدوا فيها شيئا غريبا لا يوجد في بلادهم فان كل ما فيها ان هو الا نفاية ما عندهم • هذا وليس منهم من يرغب في علم اللغة المالطية اذ كانوا يعلمون انها عربية فاسدة وليس فيها من الصنائع والفنون ما يجمله اهل الرستاق منهم فضلا عن المتدينين وانما هي مجاز يجوزون منها الى الشرق نعم ان بعضا من المظلومين في ايطاليا وخصوصا صقلية يأتون اليها للاستئان و انها لما كان موقعها بين عدة برور شرقية وغربية حصلت على هذه الشهرة ولا سيما الآن فانه قد يتعذر السفر الى بعض جهات الشرق من دون المرور بها • فاما العرب فربما لا تعجب منهم احدا وذلك لان اهل مالطة جميعا يكرهون جنس العرب والمسلمين على الاطلاق ومنتهى الذم عندهم ان يقولوا عربي بسكون الراء على انها في جميع لغات الافرنج بالفتح ولا يمكن ان يخطر ببالهم ان من العرب من هو ذو ادب وكياسة بل لا يكادون يظنون ان اللغة العربية يتكلم بها غير المسلمين وحيث كانوا يعلمون ان الافرنج ينسبونهم الى العرب زادت بغضتهم له فما احد ممن الف الحظ في الحمام والبساتين والغياض والمواسم والتأنق في المطاعم يترك بلاده ويأتي الى هذه الصخرة الصماء • هذا ومن يكن من العرب ذا غيرة على لغته فلا يطيق ان يسمع الكلام المالطي على فساد و مع كون هذه الجزيرة قريبة جدا من تونس وطرابلس فابها احد منهما الا عابر طريق قال الشاعر

* واصعب ما يلقى الفتى في زمانه * اذا حل نجم السعد في برج نحسه *

* اقامته في ارض من لا يوده * وصحبته مع غير ابناء جنسه *

هذه المدينة هي مقر الحاكم الانكليزي واعجب ما فيها حصانة اسوارها وحسن
مرسيتها • اما الاسوار فربما كان نصف احدها من صخر وتمامه مبني ببناء •
واما المرسى فقد مر ذكره والغالب عليها الرنق والبيجة حيث كان
بناؤها من الحجر كما مر وطيقانها من ججة ولا سيما اذا عرضتها من بعد
غير انها خالية من النائر ونحوها فهي بدونها كالهامة القرعاء
واحسن ما يستحب من ديارها ككونها مبنية من الحجر على صف مستو فلا
ترى فيها دارا خارجة عن الخط اصلا غير انها متفاوتة الارتفاع وليست مرتبة
في وضع الغرف والمساكن فان الدار الكبيرة تكون عبارة عن علية واسعة
طويلة ثم صف حجرات متنافذة المدخل فلا يمكن للانسان ان ينفرد بواحدة منها
دون الاخرى فاما الديار الصغيرة ولا سيما القديمة فهي خالية عن الترتيب
اصلا ومنجورها يصبغ غالبا في كل سنة وحيطانها ملبسة بالورق المنقوش كما في
بلاد اوربا الا ان طاقاتها لا تفي بالمراد فان بين الاهلين حقوقا في المطال
فلا يمكن قمع الطيقان في جميع الحيطان وما عدا ذلك فان لها رواشن
خارجة من الحائط موضوعة بحيث تمتع النور والهواء وهي عالية لا يمكن لمن
يكون في الحجرة ان يرى منها شيئا الا اذا كان واقفا فيها او جالسا على كرسي
وهي اشبه بما يسميه اهل الشام كشكا ويقال ان وجود هذه الرواشن بمالطة
هو احد الادلة على كونهم عربا اذ هي لا توجد في بلاد الافرنج الا في ما فتحته
العرب منها وربما كان في الدار الواحدة ثلاثة رواشن وقل ان تجد
دارا ذات ثلاث طبقات صالحة للسكنى والاغلب اثنان وان وجد
فالثالثة انما تكون للوازم الدار وقل ان ترى فيها دارا مبلطة بالرخام
حتى ان قصر الحاكم ليس فيه ولا بلاطة منه وانما المستعمل في ديار
كبرائهم البلاط المعروف وان كان يدهنونه بالزيت مرارا بعد ان يكشط
وحده فصفه له ان كالكه له وكذلك قا ان ترى في الديار التي تكثر
خزائن

خزائن او مخزادع او رفوف وانما يلزم شراء ذلك على حدته وليس فيها ولا في غيرها فوارات ولا ساحات فسيحة كديار دمشق ولا اسطبلات ومن كان عنده فرس ربطه في الخارج واقل من ذلك الممارات فانهم يشترون مؤنتهم يوما فيوما بل ربما اذا ادخروها فسدت كما تقدم ويرون ذلك تخفيفا للكلفة فان صاحب العيلة اذا ربي في منزله الحيوان وخزن المؤنة واتخذ الخبز كان له ولاهله شغل شاغل ولعل سبب ذلك في الاصل عدم انتقال الاسعار • ومما يفتح ذكره هنا ان اكثر البيوت الصغيرة ليس فيها مراحيض فيرفع اهلها اقذارهم في وعاء ويقذفون بها في الطرق ليلا فيأتي الكناسون للطرق صباحا ويزيلونها وقد كانت العادة من قبل ان المحبوسين لجرائرهم هم الذين ينظفون الطرق بان يخرج بهم شرطى وهم مقيدون والظاهر ان المالطين قبل مجئ الانكليز الى جزيرتهم لم يكن عندهم مراحيض وانما كانوا يستغنون عنها بثقوب يتقربونها في اسفل الدار وكانوا غير محتاجين اليها اصلا كما قال الشاعر

* من يكن عيشه كعيشك هذا * فلتكن داره بغير كنيف *
وقل ان توجد دار باثاثها وفرشها كما في مدن الافرنج ومن شروط الايجار ان يستأجر الانسان الدار على ثلاثة اشهر فما فوق ذلك ويعطى الاجرة سلفا وقبل انقضاء المدة بايام يؤذن المستأجر ربها بانه يريد ان ينتقل منها او يحدد استئجارها فاذا انقضت المدة ولم ينتقل لزمه اعطاء الاجرة غير انه لا يسوغ للمالك ان يرمى بامتنعة المستأجر او يخرجها كرها وانما عليه ان يضرب له اجلا ولو شهرا واذا عرفت دار للكراء كتب صاحبها ورقة تؤذن بذلك والصقها ببابها اذ ليس عندهم شيخ حارة تجمع عنده المفاتيح كما في مصر • ومن استأجر دارا فلا بد وان يدخلها مبيضة مصبوغة المنجور وصيغ الخشب عادة جيدة فانه ابهى للنظر وابقى للخشب وقد تظهر به الدار بهية في الخارج وربما كان داخلها بخلاف ذلك وهي عكس العادة عندنا فان خارج ديار مصر والشام مظنة للهمجية مع ان داخلها منقوش مزخرف وسبب ذلك ان الحكماء في السابق كانت ايديهم ممتدة لاخذ اموال الناس فلم يكن احد من الرعية يتظاهر بالفنى لا في بناء ولا في لباس اما صيغ الزجاج في مالطة فقير مستعمل • ثم ليس على عزب اراد ان يسكن بين المتزوجين من حرج ولا حرج عليه ايضا في الصعود

الى سطحه ولا يطلب منه ضامن من حيث ادبه وحسن تصرفه، ولكن من حيث كونه قادرا على الاداء. • وللديار آبار يجتمع فيها الماء من المطر فاذا نفذ التمس صاحب الدار من ناظر الاقنية فامده بماء من عين جارية وسواء في ذلك القريب والغريب ومن لا يثر له استسقى من العين المشاعة. • وكثيرا ما تجعل المطابخ تحت الارض ولها خروق في سطح الطريق ليدخل منها الضوء فتكون سقوفها مساوية لسطح الطريق وكذا هي مطابخ لندرة غالبا. • ولا تخلو كل دار عن فسحة صغيرة لقوارير الزهور ومن هذه الزهور ما لا رائحة له ولا وجود له في بلادنا. • وفي الديار الكبيرة ولا سيما التي يتبوأها الانكليز اجراس صغيرة مدلاة باسلاك حديد نافذة في الغرف ويتصل بها شرائط من حرير فاذا اراد المخدم احضار الخادم جيب الشريطة فسمع الخادم صوت الجرس من كل جهات الدار وهذا اوفق من التصفيق باليدين وربما كتبوا على صفحة الباب اقرع الباب او اطن الجرس وكذا العادة في بلاد الانكليز ولكن ليس في الابواب هنا خروق لوضع المكاتب كما في ديار لندرة. • اما طريق المدينة فان الماشي فيها ابدا يصعد ويهبط كحيزوم السفينة في الامواج غير ان لها درجا يهون من صعبها ويمكن المشي على حافاتها تحت المطر ولكل طريق حافتان عن اليمين والشمال لمر الناس ومرور الخيل والعجلات في الوسط وقد كانت جميعها سابقا مبلطة فكانت قرعة العجلات عليها لا تطاق فاقلعت الانكليز بلاطها من الوسط وجعلوا بدله ترابا وحصى فتعال اهل مالطة ان الانكليز دأبهم ان يحربوا بلادهم كما حربوهم من قبل باخذهم مدافع النحاس ووضعهم مكانها اخرى من حديد والحق يقال ان فرش الطرق بالتراب والحصى يجعلها في الصيف مثارا للنقع وفي الشتاء منافع للوحل وانما فعلت الانكليز ذلك مراعاة لرضى بعض الاعيان الذين لهم عواجل فلنفع هؤلاء وحدهم اغضوا عن نفع العامة وهذا دأبهم من انهم يراعون خاطر العلية دون الجمهور والباقي من الحجر على الحافتين متى تصبه الشمس في الصيف يصرمسدرًا. • هذا ولما كان اهل مالطة احرص الناس على ملابسهم واحذيتهم كان خروجهم في الطرق ولا سيما في الشتاء قليلا فبقى الطرق دائما نظيفة فاما في لندرة فان النساء يخرجن صيفا وشتاء ويلبسن نحو قباقب تقيهن من الوحل فلهذا تكون طرقها وسنخة جدا وقد رأيت كثيرا

كثيرا من الافرنج يعجبون بنظافة طرق مالطة و يفضلونها على كثير من طرق المدن العظيمة باوربا غير ان زوايا كل منها ممتلئة قذرا ونجاسة و منها ما لا يمكن لآثنين ان يمشيا فيه معا و في كل زاوية فانوس مـرـكـوز على دعائم من حديد يوقد الليل كله و مثل هذه الفوانيس لا يوجد في لندرة و باريس الا في اضيق الطرق و اردأها وقد بلغنى بعد تحرير هذا الكتاب ان انوار فالتة تستعمل الآن من الغاز • ثم لا يخفى ان الافرنج دأبهم ان يشنعوا على العرب و الترك ان بلادهم غير نظيفة الطرق و لا مرتبة الاسواق وقد ملأوا الكتب بذلك ولم ار منهم من مدح مدينة ما الا انهم قد افراطوا في ذلك فان أكثر هؤلاء يذهب الى بلادنا مستوفزا و يرقد في الخانات فلا تمكن له مشاهدة ما فيها من الديار الرحبية و المنازة الفسيحة النضيرة فيتأذى مما عاى و يحمل ذلك على مناكب البلاد جزافا و يغض النظر عن سيئات بلاده فان حوانيت اهل الحرف والصنائع في فالتة وغيرها ايضا متفرقة في جميع اطراف المدينة فرما كان دكان الحداد تحت دار قاض او مطران و لا تزال اصوات المطارق باللغة مسامعه وكذا الزواني ففي كل طريق هنا ترى منهن جملة حتى قدام قصرى الحاكم والمطران وكثيرا ما يتفق ان صاحب العيلة يستأجر دارا بجانب زانية تكون اذ ذاك غائبة فلا يدري بها حتى اذا تبوأ محله اقبلت تجر ذبول عهرها فتى قدمت البحرية سمعت لهم و لهم ضجيجا منكرا و لا تزال تسمع سفلة اهل البلاد هنا يغنون في الليالى و يزأطون ولا وازع لهم فهل هذا يعد من الترتيب اما اصوات الاجراس من الكنائس فبلية كبرى وبالجملة فانه قلما يتنهأ الانسان هنا في سكنى دار • ثم انه ليس في فالتة حمام منظور يتطهرون به من نجاستهم فاذا اضطروا الى كسـطـ الوسخ عن ابدانهم استحجموا في البحر نعم انه يوجد محل اطلق عليه لفظ الحمام ولكنه ليس في صفة الحمامات التى في بلاد المسلمين اذ هو عبارة عن مغطس فقط من دون تكيس و لا تكيس و لا عرق على انه غال جدا ونحو حمامات بلاد الافرنج غالباً من حيث الكيفية لا من حيث الغلاء و المتكـلـزون من المـالـطين يـقلـدون و اليهم في اتخاذهم مغاطس من قصدير او خشب في ديارهم ويدعون ان ذلك اسلم للجسم و انظف و لعمري ليس السبب في عدم الحمامات هنا الا رداءة الهواء فان من كان في محل دفى و خرج منه مقابلا للريح لا يأمن ان يبنى بداء

وكننت قد ذكرت يوما لبعض الاطباء عادتنا على الحمام وتنصت لفقده فقال لي لو كان عندنا حمامات لما كان من يستحم فيها وقوله هذا يحتمل معنيين فاما ان يكون قد اراد ان المالاطين لا يستعملون ذلك او ان الحمام يميت الناس حتى لا يعود احد يدخله وهذا دأب هؤلاء في الاعتذار عما لا يوجد في بلادهم فانهم يقولون انه غير نافع او غير موافق بكجواب آخر وقد سألته عن وجود رفائين للجوخ والشال الكشميري فقال نحن الافرنج لانعى بمثل هذه الصنائع مع انهم اعظم الناس اقتصادا وتوفيرا واكبرهم هنا يرقع سراويله من دبر ويمشي كذلك من دون رداء يستر رقعته • وليس في هذه المدينة كلها مصطبة يقعد عليها فلا يمكن للانسان الجلوس الا في بيته او في محل قهوة نعم انه يوجد مصطبة عند قصر الحاكم ولكن لا يقعد عليها الا الاوباش فان التعود عند الانكليز على هذه الصفة عيب وتابعهم المالاطيون على هذا ويقال انه كان في المدينة سابقا عدة مصاطب فازالها الانكليز الخافا لها بلندرة • فاما محال القهوة في فالتة فانها عبارة عن مخازن مظلمة ليس فيها شباك يطل على البحر او على حديقة واذا اطلت الجلوس جاءك الساقى ومسح المائدة قدامك اشارة الى انه ينتظر غيرك او كأنه يقول بلسان الحال لقد ابرمت بي فنتى تفارق • ولا يمكن لاحد ان يقعد ناحية البحر ساعة واحدة لانها جميعها قدرة ولا يمكن له في المطال المرتفعة الكاشفة على البحر ان يأكل او يشرب او يدخن احتراماً للنساء الانكليز • وفي شواطئ البحر حيث يعوم الناس مدة خمسة اشهر لن ترى كنا او عرشا او خيمة وانما ينصب السابج حر وجهه للشمس فيحترق قبل طلوعه من السماء • وفي الحقيقة فان الانكليز جعلوا ماعلة خالية عن المنازه والمثابات السارة اصلا • ومن اعظم اسباب الحظ عند المالاطين الذهب في القوارب ليسالى الصيف ليغتسلوا في البحر فتذهب الرجال والنساء معا ويقضون هزيعا من الليل بالسباحة والغناء • والقوارب في مرسى فالتة كثيرة جدا وكلها مصبوغ ظريف ولكن ليس فيها مقاعد كقنج مصر ولا زرابى او زخرفة كقوارب الاستانة الا ان هذه خطر على راكبيها فانها لحقتها تميد من ادنى شئ • ولقائل ان يقول ان المالاطين هم مثل الانكليز في كونهم لا يلاحظون في لوازمهم سوى مجرد المصلحة بقطع النظر عن الترفه والطلاوة

والطلاوة فان متكآآتهم ورواشينهم وكراسيهم وقواربهم وسروج خيلهم ليست
 بمجوعة الا لقضاء الحاجة فقط • واغرب من ذلك حوانيتهم فان التاجر لا يزال
 واقفا من الصباح الى المسآء وقل من كان عنده كرسي له او للمشتري وفي هذا
 الأخير خالفوا الانكليز • ويقولون للتسارب « دعيصة » وكأنه تصغير دعيصة
 الرمل شبهوه بها لاستدارته وصغره وهذا داب العرب في انهم يسمون الاشياء
 الغريبة عنهم بما الفوه في بلادهم • فان قلت اذا كان هذا داب العرب فمن
 اين للمالطيين ذلك قلت لا ينكر احد ان اللغة المالطية هي عربية وان المسلمين
 حين استولوا على الجزيرة كما مر هم الذين سموا هذه الاشياء وانما لم يقولوا
 قارباً مع كونها عربية فصيحة لان في اللغة المالطية اشياء كثيرة عدل بها عن
 استعمالها الاصلى واستعير لها اسماء مشابهة لها او مجاورة فيقولون مثلاً
 للقليل فئت ولل كثير وسق وللحصان زامل بالامالة وهو ما كأنه يطلع من
 الدواب لنشاطه وللغربة رحل وهو في اللغة مسكن الرجل وما يستحبه من
 الاثان وغير ذلك • ومن ذلك اى الحط عندهم التماشى امام قصر الحاكم
 حين يعزف بالآلات الطرب العسكرية فيذهب الى هناك جميع المتشبعين المتكيسين
 فتنو الرجال الى النساء وتدل النساء على الرجال • ومن ذلك الاعياد الكنائسية
 وهي كثيرة جدا فان لكل قديس عيداً مختصاً به في زمن مخصوص ومكان
 معلوم فيرحل اليه عند اقترابه المتلهون ويقضون ما تيسر لهم من اللذات
 وسماع الموسيقى ورؤية لعب النار وما اشبه ذلك ولا يد للاوباش في هذه الاعياد
 ان يسكروا ويفحشوا ما امكن • ومن ذلك حلبة السباق وقد تكون في الخيل
 والحجر والقوارب و السابق يفوز بالخطر • ومن ذلك زحلوقة لهم يحضرها
 الوف من الناس وهي انهم يربطون خشبة طويلة كصاري المركب الى سفينة
 ويدهنونها بما تزل عنه القدم وينصبون امامها غرضاً ثم يمشون اليه على تلك
 الخشبة فمن زل عنها وقع في البحر • ومن ذلك ثلاثة ايام في المرفع ويعرف بالكرنيفال
 وهي الاحد والاثنين والثلاثا يلبس فيها ازجل كالمرأة والمرأة كالرجل وبتريون
 بهيئات متنوعة واشكال مختلفة ويغطون وجوههم بجلود على هيئة الوجه
 ويطوفون في المدينة حيارى سكارى ويسمون هذا التشكيل مسكرة

وكأنه محرف عن المسخرة ولا يتحاشون في هذه المدة شيئا من الخلاعة والقصف والمنكرات ويومئذ تغص الطرق بالناس والمراكب فاذا أصبح يوم الاربعاء ذهبوا الى الكنائس ونثروا الرماد على رؤسهم اشعارا بالانابة ومن ثم يقال لهذا اليوم اربعاء الرماد وهذا الاسم باق عند الانكليز مع الغاء هذه العادة عندهم ومعنى الكرنيزال رفع اللحم اى ازالته ومما جرت به العادة في هذه الايام ان الحاكم يولم وليمة فاخرة ويدعو اليها وجوه اهل البلد بتذاكر يرسم فيها بقدمهم بملابس مسخرية فيلبونه ويستأجرون هذه الثياب من الحوانيت فيقف لهم في غرفة في قصره وكلما قدمت عليه عيلة انحنت له فاحتفل بها فاذا انقضى السلام شرعوا في الرقص وكلما رقصت النساء قليلا اخذهن الرجال الى المائدة ليشأكلن او يشربن ما شئن ثم يعدن الى الرقص حتى مطلع الفجر فتتفرق الاصحاب وربما اتخذ بعض جشعي المالطين من تلك المائدة خبنة وهى ما يحمل من الطعام في الكم وكنت اذهب الى تلك الدعوة يزىي المألوف فيخالوننى من الساخرين وكانوا يسألوننى هل في بلادكم مثل ذلك فاجيب مغالطيا ان لم يكن عندنا هذا فخبر منه ولعمري قبيح بالرجل الفاضل ان يرى راقصا كالولد • ومن اعظم مواضع الحظ واللذات الملهى وهو المسمى عندهم بلفظة الشياطين او الشياطين وليس في فائدة كلها سوى ملهى واحد وجل اللاعبين فيه من ايطاليا ولكن ليسوا من الطراز الاول وسيأتى الكلام بالتفصيل على ذلك ان شاء الله تعالى فأتى التزمت ايجاز الكلام على هذه الامور في مالطة ليكون مناسبا لاحوالها اذ جميع ما فيها ان هو الا مختصر من بلدان اوربا والظاهر ان المسلمين كانوا يطأون على هذا الموضع اسم الملهى فقد كتب عمرو بن العاص الى عمر ابن الخطاب ما نصه اتى فتحت مدينة المغرب ولا اقدر ان اصف ما فيها غير ان فيها اربعة آلاف حمام واثنى عشر الف بقال يبيعون البقل الاخضر واربعة آلاف يهودى يؤدون الجزية واربعمائة ملهى اه غير ان هذا القدر كثير على اى مدينة كانت فان باريس وما ادراك ما باريس لا تحوى الا ثلاثين ملهى ويحمل ان المراد بالملهى هنا كل موضع يكون للهو فيدخل فيه موضع الحكايات والنشى والاجتماع ونحو ذلك واما قول بقال ففي القاموس في ب ق ل والبقال

والبقال لبياح الاطعمة عامية والصحيح البدال ونحوه قوله في ب د ل غير انه
 فسر القربق في باب القاف بانه دكان البقال فليحذر • ومن الغريب ان احد
 المشعوذين الطليانيين ابدى في ملهى فالتة من التمثيل والتخييل امورا غريبة ثم
 ارأهم ايضا منشورا من البابا بالرخصة له في هذه الحرفة فصدقه كل من رآه
 فهلا كان هذا المنشور ايضا من جملة شعوداته • ومن المباني العظيمة في هذه
 المدينة الكنائس وهي حسنة البناء متقنة مزخرفة بالنقوش والدمى والتماثيل
 والصور مزينة بالارجوان والاستبرق وادوات الفضة والذهب وفيها
 عشرون كنيسة على هذا النسق واعظمها كنيسة صان جوان وهي مبلطة
 كلها بالرخام المنقش المصور عليه صور اعيان مالطة الاقدمين المدفونين فيها
 وفي صدر الكنيسة تمثالان للمسيح ولصان جوان رافعا يده فوق رأسه (اى
 رأس المسيح) يعمده وهما من الحجر يراهما الداخل من الباب اكبر من الرجل
 الجسيم وبخارج الكنيسة صفحة ساعة يعلم منها الساعات والايام والشهور
 والسنون واذا ضرب جرسها سمع صوته كل من في المدينة فيضبطون ساعاتهم
 عليها وفي هذه الكنائس من الذهب والفضة والتحف ما يغنى جميع
 صعاليك مالطة ولكل يوم من الاسبوع بدلة للقسيس خصوصية وقس على
 ذلك ايام الاحاد والاعياد والاحوال الطارئة كالزواج والعمودية والموت وفي
 الحقيقة فان كثرة الكنائس الحسنة في جزيرة مالطة على نحسها لما يجب منه
 وفي كل قرية ترى ثلاث كنائس فاكثر واول اقتحار المالطين انما هو بكثرة
 كنائسهم اذ ليس عندهم شئ آخر يتباهى به والتفاخر صفة قائمة في النفوس
 واذا سرت الى قرية ما متزنها فلا تكاد تصل الا وتحقق بك جماعة ليروك
 كنائسهم وجملة ما يصرف على الكنائس والقسيسين يبلغ ثلاثين الف ليرة في
 العام ولا يعرفون ضرب الاجراس بالحبال كما يفعل الانكليز وانما يصعدون
 الى قبة الجرس ويحركون مطرقته باليد بما تنقبض منه النفس ويشتمز الطبع •
 ومن ذلك مدرسة جامعة يعلم فيها الفنون واللغات وفيها كنت اعلم اللغة
 العربية الا ان المالطين يتعلمون كل شئ ما عدا لغتهم وفي مدة الصيف
 يعطل المعلمون نحو ثلاثة اشهر واجرهم غير ممنون وعند انقضاءها يعين يوم
 لاجتماع التلامذة ومشائخهم في حجرة في المدرسة وفي الصدر مائدة عليها كتب ثم

يقوم احد المشايخ وهو في الغالب صاحب المعاني و البيان فيلقى على الحاضرين
خطبة ثم تقرأ أسماء من نبغوا في العلم من الطلبة و يعطون من تلك الكتب
ما يليق بهم وربما حضر الحاكم بنفسه لهذا ولا بد من ان يعطى لكل معلم دفتر
يكتب فيه أسماء الطلبة و ما يحصلونه من القنون و يشترط عليه ان لا يعلم
تعلما مغايرا للديانة الكاثوليكية الرومانية • ومن الغريب ان اهل مالطة
مع كون لغتهم فرعا عن العربية فليس منهم من يحسن قراءتها و التكلم بها و اذا
شاء احد ان يفتح مكتبا بمالطة فتحته علماء هذه المدرسة اولا فاذا رأوه اهلا
لذلك اعطى رخصته من الديوان فيه و جملة ما يصرف على هذه المدرسة وعلى
مكاتب اخرى في القرى في كل سنة نحو ثلاثة آلاف و ثلاثمائة ليرة • ومن ذلك
دار كتب موقوفه باللغات الافرنجية فمن شاء ان يطالع كتابا منها ذهب اليها
واستوعبه وان كان من الوجوه يحضره الى منزله و عدة ما فيها ثلاثة و ثلاثون
الف سفر وليس فيها من الكتب العربية ما تحته طائل • وفي المدينة ايضا عدة
حوانيت مشحونة باصناف الكتب ليس فيها خرم ولا نقصان ويمكن ان يقال ان
الكتب باوريا ارخص ما يكون لا جرم ان المولع عندهم بالعلوم مع سعة ذات
اليد لا سعد الناس لانه اذا شاء ان يتعلم اى فن كان وجد له فيه شيئا ولان الكتب
والادوات اللازمة لذلك الفن حاضرة عنيدة يجدها باهون سعى ولا يخشى في
الكتاب خرما كما ذكرنا ولا تحريقا فكل كتبهم مصححة ولان المدارس الوقفية
تعلم فيها العلوم مجانا او يعطى في مقابلة ذلك شئ زهيد فطالب العلم في مالطة يعطى
في الشهر شلنين و نصف و طالب اللغة شلينا واحدا ولعمري ان طالب العلم في
لغتنا لو لم يصدده عن المطالعة الا تعذر وجود نسخة صحيحة لكفاه ذلك عذرا
فضلا عن نصبه و حرمانه و نحوه • وفي فالتة سبع مطابع احداها للميرى تطبع
فيها الاوامر والنواهي التى تصدر من ديوان الحكم والباقي للاهلين وفيها ايضا
دار لصحف الاخبار الواردة من اوربا و داران للصرف توضع فيهما الاموال
ومارة فيها فانوس كبير لهداية السفن و عدة مكاتب للصبيان والبنات يعلم فيها
القراءة والكتابة والحساب والتطريز والخياطة وغير ذلك غير ان الاولاد
تغلب عليهم لغتهم و تمنعهم عن التكلم بغيرها اذ كانت هى اللغة الغالبة والى الآن
لم يعلم من نساء مالطة من نبغت في المعارف والتأليف فغاية ما يتعلمن انما هو ان
يفرأن

يقرأن بعض كتب كنائسية وقد كان في السابق دار معدة للمقى النغول و تربيتهم
وقد بطلت الدار و بقيت عادة النغول وعادة التبني من اليتامى وفيها ثلاثة
منه تشفيات احدها للعسكر والثاني للرجال والثالث للنساء ومن لم يكن لها مأوى
تأوى الى هذا المستشفى وتمكث فيه ما شاءت و بخارجها ايضا اربعة اخرى
احدها للجهانين واكثر جنون اهل مالطة يكون عن وساوس في الدين وقد
رأيت فيه عجوزا تهذى وتقول اليوم عيد كما امر بذلك القسيس والثاني للمرضى
من العساكر البحرية والثالث للفقراء والرابع للطاعنين في السن العاجزين عن
تحصيل معاشهم المادين لوداع الدنيا يدا والغمرضين عن درزها و نعيمها عينا قد
اصبحوا من هذه الحياة على شفا جرف هار يعتبر بهم اللبيب ويتعظ بهم المستهتر
في حب هذه الدنيا الغرور اذ تراههم كالاغرار من الاولاد قد انحلت منهم القدود
لما استوى عندهم داعى الاجل واظلمت منهم الابصار بعد ان اضاء فيهم صبح
المشيب وانحلت منهم القوى بعد ان غلت منهم الافكار والتهى قثم يقضون
ما بقى من ظم حياتهم بكان و صار • و في فالتة عدة فنادق للسافرين بهية ذات
حجرات مفروشة عديدة اجرة كل منها في اليوم نصف شلين في الاقل • و فيها من
الذكور اكثر من اثني عشر الفا وخسمائة نفس ومن الاناث اكثر من احد عشر
الفا وثمانمائة و سبعين جملة ذلك اربعة وعشرون الفا و ثلثمائة و سبعون نفسا
ومن القناصل اربعة عشر ومن التيسيسين نحو مائتين وخسين و سبعة اديار
للرهبان والراهبات • و جملة ما في الجزيرة كلها من الكنائس الكبار سبع و سبعون
ومن الصغار مائتان واربع واربعون ومن الاديار واحد وعشرون ومن
الاطباء مائة وتسعة وعشرون ومن الدوائية والعقاقيرية تسعة واربعون ومن
كتاب الصكوك والعقود مائة واربعون ومن اصحاب الموسيقى مائة وثلاثة
وستون ومن المعلمين في المكاتب مائة واثنان واربعون ومن المصورين مائة
وثلاثة وتسعون ومن المتوظفين في خدمة الميرى خسمائة وواحد وثلاثون
ومن المرتب لهم عمريات ولا شغل لهم ثلثمائة وستون ومن التجار ستمائة وستة
وثلاثون ومن السماسرة مائة واثنان وسبعون ومن اصحاب الخوانيت الفان
وستمائة واربعون ومن المزارعين ثلاثة آلاف و ثلثمائة وستة وعشرون ومن
الفلاحين ثمانية آلاف وسبعمائة وستون ومن صاغة الفضة والذهب مائتان

واثنان وثلثون ومن النجارين الف ومائتان وثلثة وثمانون ومن الاساكفة
الفان واربعمئة ومن النزالين والغزالات ثمانمئة واربعون ومن النساجين
والنساجات ثلثة عشر الفا وستون ومن الخياطين تسعمئة وائتان وثمانون
ومن لفافي ورق التبغ تسعمئة وثلثون ومن الخدام ثلثة آلاف ومئة
وعشرون ومن اصحاب القوارب ستمئة وائتان واربعون ومن الساعاتية ستة
وعشرون ومن المتعلمين في المدرسة الجامعة وفي غيرها ثلثة آلاف وثمانمئة وثلثة
وثلثون ومن الديار الكبار احدى وعشرون الفا ومائتان وائتان وستون
ومن البيوت الصغار الفان ومائتان وواحد وسبعون ومن الحجرات على حداثها
ثمانية آلاف وثلث واربعون ومن الدكاكين ثلثة آلاف وخمسمة وعشرون ومن
المخازن خمسمة وستون ومن الشون للقمح خاصة مئة وسبع وعشرون ومن
الذين لا عمل لهم من الاعيان ستة آلاف ومائتان وتسعة وستون ومن العامة
نحو اربعين الفا وجملة من يزيد عمرهم على الثمانين سنة سبعمئة وثلثة وسبعون
وجملة ما يولد فيها في السنة اربعة آلاف واربعمئة وجملة اهل الجزيرة نحو
مئة الف نفس منهم احدى عشر الفا وخمسون من الانكليز وسبعمئة وسبعون
من الغرباء

* كثيرون ان عدوا قليلون ان رجوا * فهم دون عد العشر ان تنوخيرا *
وجملة ما يرد اليها في السنة من المسافرين ثمانية آلاف ومائتان وستة عشر وما
يصدر عنها تسعة آلاف وخمسمة وثلثون • وفي فالتة سوق تباع فيها سائر اصناف
المأكول فتجد فيها جميع انواع السمك واللحم كالتمر والضان والعجل والدجاج والطير
اما السمك فانه لذيذ جدا واما اللحم فاطيب انواعه الحروف الصغير يذبحونه وهو
دون ثلثة اشهر فيكون الذ من لحم الطير وهذه الطرفة النفيسة لا وجود لها
في لندرة ولا في باريس اما الطير فانه قليل جدا ولا عيب على من يشتري نصف
دجاجة بل ربعها او جناحها او راسها بل مصارينها كل ذلك من اقتصادهم
فانهم اعظم الخلق خبرة به ولا عيب ايضا على من يذهب بنفسه ويشتري مؤنة
يومه وان يكن قاضيا بل النساء السيدات يفعلن ذلك ايضا ومتى اشترت شيئا
تحملة احد الأولاد الذين مهنتهم الخمل وهم كثيرون وكذلك لا عيب على من
يشترى

يشترى من البقول والحليب ما قيمته فلس واحد فقط وليس في المدينة حبر فارهة للركوب كحمبر مصر وإنما يذهب الناس في عواجل وهي ليست كهواجل الأفرنج وليس لسائقها مقعد فيها وإنما يمشى بجانبها على رجله الحافيتين ومتى رأى أصحابها أحدا مقبلا ازدحوا عليه ولا ازدحام حارة مصر • وليس في مالطة كلها مصانع للساعات أو الزجاج أو الأدوات الحربية والمنقشة وغيرها فاشهر الصنائع عندهم التجارة والخباطة والسكافة والحداة والنساجة والصياغة واخص أعمال النجارين الكراسى والتكآت والموائد والخزائن والصناديق والاصونة ونحو ذلك وقد يحسنون أيضا انشاء المراكب وعمل الحداة مقصور على سرد النوم وما يلزم للبناء وعمل الصياغة من الذهب إنما هو الشنوف والخواتم والسلاسل والاسورة واشكال طيور وزهور والابازيم والابر ونحوها ومن الفضة الملاعق والمصارف وباريق التهمة والناسى والاقداح والاداباق والمسارج واوعية السكر ونحوها فاما النساجة فلا تتعدى شتى القوط واغطية الفرش وقلوع المراكب ومن هذا الاخير يبعث الى بلاد المسلمين متدار جزيل وليس من اهل هذه الصنائع من يصل الى درجة الانكليز والفرنسيين في الجودة والاتقان الا ان عمل المالطية وثيق متين فاذا اشتريت مثلا حذاء او ثوبا مخيطا ببق مدة لا يحتاج الى تصحيح اما عمل الانكليز منها فحسن في الظاهر لكنه لا يبقى على الاستعمال وعمل الفرنسيين ما بينهما ومن الرسوم الحسنة في مالطة انه اذا اراد احد شراء شئ من الفضة والذهب ذهب الى قيم الصنعة وسأله عن قيمته فيرتنه ويكتب له تذكرة بذلك فاما الجعل فوكول الى التراضى والغالب في مشترى الجواهر ان يكون انقص من التمين • ومما يكره بمالطة كثرة الشحاذين والخافهم بالسؤال حتى انهم يقرعون الابواب وقت الغداء ويجرون مع المشاشى ولا يبرحون مستجدين حتى يفوزوا بشئ وهم يرون ان حقا على الموسرين ان يواسوهم باموالهم واذا اعطيت احدهم مرة فكأنما قد دون ذلك عليك في الدستور فانما يرك يلزمك واول كلامهم في الاجتداء قولهم « عن روح مسيرك » اى ابيك او « عن ارواح البوركاتوريو » اى المطهر وكان بعضهم يقول لى عن روح المحمد تبعك والاجتداء فى باريس ولندرة ممنوع • ومما يكره ايضا ما عدا طنطنة اجراس الكنائس المتابعة اصوات البساعة الذين

يطوفون في الاسواق لبيع الفاكهة والبقول والسمك والحليب والماء فان فغر افواههم ومط اصواتهم وفضاعة لحنهم على اختلاف معنييه لما يستعاز منه • كيف لا وهم يقولون للافاح تفتح وللرمان رمين ولا يطبخ بتيح (بالحاء المهملة) وللخيار حيار (بالحاء المهملة ايضا) واللاجاص للنجاس وللدلاع دليع وللخبر حبس وللماء للماء وللخوخ حوخ (بالحاءين المهملتين) وما اشبه ذلك •

فلا يمكن للعربي استماع ذلك ولا سيما اذا كان في اليوم مرارا من اشخاص ذوى شراسة وفضاظة • وعلى ذكر الخوخ يحسن هنا ايراد ما قاله بعض الادباء وفي الناس من يبدل الحاء المعجمة حاء مهملة فيقول في خوخ حوح وفي خلخال خلخال وهي مستحسنة من الغلمان والجواري وكذلك ابدال السين ثاء وعليه قول الشاعر

* واهيف كاللهلال شكوت وجدى * اليه بحسنه واطلت بئى *
* وقلت له فدتك النفس منى * تحز في النواب فقال بئى *

قلت هذه اللفظة ذكرها صاحب القاموس بالضم فتقال وبس بمعنى حسب او هو مسترذل واهل مالطة يبدلون سينها زايا ويكسرون اولها واهل تونس وطرابلس لا يعرفونها ويستعملون بدلها لفظة بركة وهي قبيحة جدا • وقلت انا في مليحة مالطية

* بدت في النياب السود والوجه زاهر * وماست بقدي نخجل الغصن الغضا *
* لها منطق عذب على قبح لحنه * وفي حسن من تهواه عن لحنه اغضا *

الا ان هؤلاء الباعة ليسوا من هذا الطراز لا جرم ان النطق يؤثر في ذى الذوق السليم اكثر من الحسن وانه من خصوصيات الانسان والحسن يوجد في جميع المخلوقات • ولقائل ان يقول ان النظر الى ذى جمال رائع بغتة يدهش له ويتأثر به اكثر من استماع متكلم بليغ من اول وهلة قلنا هذا على اعتقاد الناطقية فيه فلو فرضنا ان الناظر يرى جيلا معتقدا انه اخرس وقبيحا منطيتا لتأثر بالتأني دون الاول • واشد ما يكره في هذه الجزيرة هو ان الاوباش والاوغاد يترددون حيث تتردد الخاصة وذوو الفضل فقلبا رأيت مكانا خاليا منهم واذا لقوا احدا من الوجوه سلقوه بالسنتهم ولمزوه فعلى الكريم ان يجتنب محضرهم ويتباعد

عن مثابتهم واسوأ من ذلك ان القضاة يعتبرون هؤلاء الانجاس عند التحاق
والتخاصم اعتبار الخيرين من الناس وهذا الذي جرأهم على التمسك في القبائح
وهؤلاء الاراذل اذا شربوا قدحا واحدا من الخمر طافوا الاسواق وهم
زائطون ضاجون يظهرون بذلك طاقتهم على الانفاق وفي ليالى الاحاد والاعباد
تغص بهم المسالك فلا يطيق احد سماع غنائهم ولغظهم • هذا وكثيرا ما
ترى الملاحين والبحريين سكارى في الاسواق حيارى واذا صرعتهم الخمر في
الطريق يمر الناس بهم ولا يبالون وربما سرق منهم وهم على هذه الحالة ما بقى
لهم من الحانة او جروا عن ثيابهم وهم لا يشعرون وربما تقاى احدهم ثم عاد
الى الشرب الا ان منزلة السكارى من عسكر المدينة اجل من العسكر البحرية
فان اولئك يجردون الى مقامهم تجريرا وهؤلاء يغادرون صرعى عرضة للناهبين •
ومما يحمد في مالطة عدم العتارب والحيات وسائر الهوام المضرة وان
وجدت فلا سم لها واهل مالطة يزعمون ان ذلك من كرامة مار بولس حين
التقى الشعبان من يده في النار واخبرني ثقة بان الحيات في جزيرة كريد ايضا لا سم
لها واهل ايطاليا يقولون ان مار بولس ازال السم من افواه الحيات فانتقل
الى افواه اهل مالطة وزعم بعض من الانكليز ان مار بولس لم يمر بمالطة وانما
كان مروره بمالطية الا انه يكثر عندهم البق والذباب وهذا يوسخ كل شئ
ابيض والعناكب تلتق لعابها بين كل شيئين اما العثة فانها لا تلبس الصوف
لحسا كما يقول صاحب القاموس وانما تسترطه استراطا وفي معنى العناكب
قلت

* غدا بيتي كثير الفرش لما * تو لمهل فيه نهج العنكبوت *
* فلا عجب اذا ما قلت يوما * لكيد الناس انى ذويوت *

❖ فصل ❖

❖ في عادات المالطين واحوالهم واخلاقهم واطوارهم ❖

عادة اهل مالطة المتشبعين في اللباس كمادة الافرنج الا ان نساءهم
يلبسن وشاحا من الحرير الاسود وعلى رؤوسهن غطاء منه ايضا من دون برنيطة

واقبح شيء في الصيف رؤية هذه الثياب السود وقد يحسكى بعضهن نساء الانكليز في الزى والكن كن متى ذهبن الى الكنيسة لبسن زيهن الاصلى توهم ان اللون الاسود البق بالكنيسة واولى بالتنوت وهو كوههم الجهلة من نصارى الشام ان من يلبس سراويل فوق ثيابه لا يليق به ان يتقدم الى محراب الكنيسة • اما اهل القرى فان الرجال منهم ينقبون آذانهم ويتقرطون باقراط من الذهب ويرخون سوارف مجمعة من افوادهم الى طلاهم وهاتان صفتان من صفات الاناب ويلبسون طرايدش مختلفة الالوان مسدلة على اكفافهم وهى شبيهة بالاجربة ويمشون حفاة ويخزمون باحزمة ومنهم من يتختم بعدة خواتم من ذهب ويجعل ازرار صدرته منه او من الفضة ويحمل سترته على كتفه ويمشى حافيا مشية المفراح البطروان الجرار منهم او الخمار ونحوهما ليخرج في الاعياد وفي اصابه عشرة خواتم من الذهب ومثلها في سلسلة ساعته وفي صدرته ازرار كثيرة من الذهب او الفضة اما النساء فان من كان لها حذاء لا تلبسه الا اذا جاءت المدينة وهى معجبة به حتى اذا خرجت منها نأبطته وجميع الاعيان في مالطة يخرجون في الصيف من دون اريدة تستر ادبارهم خلافا لعادة الافرنج في اوربا والتكيس الغيساني منهم هو الذى يزلق سراويله على فخذه واليتيه حتى لا يعود يمكنه التقاط شيء من الارض فاذا صعد فى درج ونحوه استعمل الحيلة حتى لا تنمذ من دبر واكثرهم يفخم فخذه ومؤخره بحشوفى السراويل ويستر كل عظم نائى فى بدنه ويبدى ما ينبغي ان يستر فاذا مشى احدهم على هذه الصفة نظر الى عطفيه كالزوزك والى سراويله وحذائه معجبا بما لديه • وللنساء زهو وعجب اذا مشين اكثر من زهو الرجال فترى المرأة تخطو كالعروس المزفوفة الى بعلها وهى ممسكة بطرف الوشاح باليد اليسرى وبطرف غطاء راسها باليمنى فتكون على هذه الحالة اشغل من ذات التحيين فتى اوين الى بيوتهن لبسن اخلق ما عندهن من الثياب وسواء فى ذلك الفقراء والاغنياء والرجال والنساء وهذا هو احد الاسباب التى حببت الى الماطلين تجنب المعاشرة والمخالطة وربما عدت المرأة التى تبقى فى منزلها بلباس حسن من المتبرجات واذا زرت احدهم فلا يستحي ان يقول مهلا فان زوجتى تبدل ثيابها لتخضرين يدك ومتهن من تبقى فى بيتها بغير حذاء ثم اذا خرجت

خرجت في يوم الاحد لبست جوارب من حرير وكفوفاً منه وتبهرجت غاية ما يمكن فان الماططين يتفخمون في الاعياد كل التفخيل بخلاف الانكليز هنا فانهم يقيمون على حالة واحدة • وفي الجملة فان هم هؤلاء الناس كله مصروف في التفاخر بالرياش وهو شان حديث النعمة • ومتى كانت احدى نساء مالطة حاملاً مشيت الخيلاء ورفعت بطنها ليراها كل من مر بها ومتى ابصرت ذا شوهة رسمت شكل الصليب على بطنها تعودا من سريان الشوهة الى الجنين واذا شمت في الطريق رائحة طيبخ وتوجت عليه بعثت تستهدي منه • اما حلى النساء فالذهب غالباً للاغنياء والفضة للفقراء الا انه قل ان ترى امرأة من دون حلى من ذهب واصناف الحلى الشنوف ويقولون لها مسالت وفي لغة اهل الغرب مصالت والاسورة يلبسها فوق الاكام والابر والخواتم والسلاسل والساعات ويندر جداً تحليهن بالجواهر النفيسة وانما تحلى بها الخواتين في الرقص والولائم وقد يجزى عنها الجزع وفي الجملة فلايس نساء مالطة ولا لنساء الافرنج جميعاً كثير من الحلى كما لنساء مصر والنسام وانما اعجابهن مقصور على نظافة الثياب واتخاذها بحسب الزى وكما ان لباس رجال الافرنج لا يخلو من اخلال بالحياء كذلك كان لباس نسائهم ادعى الى الحشمة والتصاوان من لباس نساءنا فاما تغيير الزى عندهم فانه نافع لاصحاب التجارة ومضر بعامة الناس فانه يقضى بمصاريف حديثة غير ضرورية ومنشأ هذا التغيير يكون في باريس فتطبع صورته على اوراق وترسل الى جميع البلاد وهذا داب الناس من انهم اذا رغبوا عن رذيلة اقبلوا على غيرها فان الافرنج لما رغبوا عن المزركش والمرقش من الثياب وعدوها من داب الصبيان اولعوا بتغيير الشكل هذا ولما كان لباس الافرنج في الشتاء لا يتعدى اللون الاسود من الجوخ وغيره وفي الصيف لا يتعدى الثياب البيض لم يكن لاسواقهم ومواسمهم بهجة وليس ما تسر رؤيته الا ملابس العسكر وبعض النساء ولا شك ان حب الالوان الزهية طبيعي لانا نراه في الاولاد وهم يقولون ان الميل اليه من طبع الهيج وانما ميلهم الى الالوان مقصور على فرش ديارهم واثائها والحق يقال ان ملابس الافرنج اوفق للعمل وادعى الى قلة المصروف فانها ما عدا كونها مزينة وهو اصل في الاقتصاد فهي عارية عن كلفة الرقم والوشى وربما كانت ادعى الى النظافة ايضا

ومن عادة الانكليز هنا الاكثار من الثياب البيض والاقلال من الجوخ ونحوه فان الغنى منهم لا يكون له اكثر من ثلاث جبات او اربع ولكن قد يكون له ستون قميصا وعشرون سروالا من الكتان وعشرون ملالة للفرش وقس على ذلك • وقد رأيت كثيرا من الاعيان هنا لهم جبب قد تلبد على ازيائها الوسخ والعرق لا سيما ان منهم لمن يرخي شعر راسه حتى يصل الى قداله فتراه اذا نزع برنيطته تتطاير هبرية على كنفه ومع ذلك فهم يحلمون شواربهم بدعوى النظافة ومن الانكليز من يلبس كل يوم قميصا ويخلق في كل صباح وربما فعل ذلك في النهار مرتين وذلك مطرد سواء كانوا في البر او البحر ومنهم من يجعل صدر القميص او طوقه واطراف كفيه منفصلة عنه فيغيرها في كل يوم ومما يحمد عند الافرنج استعمال الشا في الثياب البيض حين تغسل فانها تأتي بها جديدة والغسلات في مالطة لا يغسلن الا بالماء البارد فان وضع اليد في الماء السخن ومقابلة الريح بعده يعقب ضررا وصابونهم احسن من صابون فرنسا وودونها صابون الانكليز وعندي ان احسن صابون في بلاد اوربا هو صابون قسطنطينية في اسبانيا والظاهر انه من صنعة العرب فان اهل تونس لا يزالون يصنعون شيئا منه على لونه وهيئته ولكن شتان ما بينهما واجرة غسل القميص بمالطة صاى واحد وفي باريس ثلاثة وفي لندرة اربعة او خمسة • اما عادة المالطيين في الاكل فللموسرين الشورية في الغداء واللحم والخضر والحمرو وفي العشاء السمك والسلطة وافخر شئ عندهم لحم الخنزير الا انهم لا يكثرون منه ومن غيره كما يكثرون من اكل الخبز بخلاف عادة الانكليز اما الفقراء فان احدهم لياكل رطلا من الخبز من ارطالهم بخمس حبات من الزيتون او بقطعة من الجبن او بصحناء والرطل المالطي هو نحو رطلين من ارطال مصر وثمنه نحو قرش ولهذا كان المالطيون جميعا كثيرى اللهج بذكر الخبز فاذا زارك احد مثلا وسأله عن اهله قال لك كلهم طيبون يأكلون الخبز او كأن يقول الطيب هو من ياكل الخبز واذا اردت ان تشتري شئ من احد التجار ولم توفه ثمنه قال لك انا قائم بمؤنة عيلة تاكل الخبز واذا رايت احدا ياكل بعيدا عنك رفع اليك ما في يده وقال لك يعجبك اى ان يك يعجبك وان كان يعلم ان اقتراك منه محال ثم لا يخفى ان خبر الافرنج يكون كبيرا

كبيراً جاهضاً يقطعونه بالسكين والحكمة في ذلك الاقتصاد فان الأكل اذا قطع منه شيئاً وبقى منه ما ابقى فلا يكون الحرص على الباقي عيباً وربما جئ بالمنفعة منه الى المائدة مرات بخلاف عادة الشرقيين فان الرغيف اذا قطع منه شئ فلا يؤتى به الى السفرة وهو ناقص فذلك يعدلؤماً وبخلاً غير ان جعل الرغيف كبيراً يوجب عدم نضج لبه فتحبز اهل مالطة يكاد ليه وهو الجزء الأكبر منه ينصرف فلا يمكن اكله الا بعد يوم وهو اردأ خبز في بلاد الافرنج فانه ما عدا كونه معجوناً بالارجل حامض وغير مرئ غير انه فيما اظن ليس مخلوطاً باجزاء كثيرة كخبز الانكليز • وعندهم نوع من الخبز مستدير مثل خبزنا يسمى الفطائر وباكلونه على نوع التفكه وقد سالت عن سبب قلته وعدم بيعه في جميع الحوانيت فقالوا انه موجب لزيادة المصروف لطيبته وهم اذا جاعوا اكلوا منه ما يكسر الجوع فقط • وعامة المالطيين يطبخون الدم ويستبقون الى اكله وكنا اذا اردنا ان نذبح دجاجة اخذ الذابح دمها وهو لنا من الشاكرين وهم وجميع الافرنج ياكلون السلاحف البحرية وحيوانات اخرمانة تمرز فحن منه • وقد بلغني ان من المالطيين من اذا لجمع بشئ فجأة اكل فاراً او ضفدعاً لازالة الدهشة وكيف كان فان اخس الفلاحين بمالطة يعرف من انواع الطبخ ما لا يعرفه اكبر تاجر في بلاد الانكليز فانهم يطبخون اللحم مع جميع البقول والغالب ان الافرنج لا نظافة لهم في الطبخ من حيث كانت خداماتهم ابداء مكشوفات الرؤس فيتناسر شعرهن في الطبخ ولانهم قليلاً ما يبيضون آنية الطبخ حتى ان هذه الصنعة في مالطة تكاد ان تعد من المفقود واكثر آنية الطبخ عند الانكليز من الحديد وهو اسم عاقبة واهل مالطة مثل غيرهم من الافرنج في ككونهم ياكلون المخنوق وزادوا عليهم في اكلهم الميتة من الدجاج ونحوها واذا دعوت احدا منهم الى مأدبة لم يكن منه في خلال التهامه ما بين يديه الا النناء على نفسه بانه قليل الأكل وعلى ذلك قولي

* لثام اذا ما زرتهم في بيوتهم * كرام اذا زاروك ما امكن اللبس *

* ولر وسعت افواههم غير ما بها * لكان لكل بين انبائه فاس *

﴿ وقلب ايضاً ﴾

* لجسارى ثغر للهم القرى * وذم الوري مشهى حده *

* فلا شيء أسهل من فتحه * ولا شيء أصعب من سده *

وكلهم يأكلون الثوم والبصل نيئا فلا تزال رائحة أفواههم منتشرة • أما مراقدهم فانهم يرقدون غالبا على سرر من حديد والمنكزلون منهم يتخذون في الصيف سررا منه وفي الشتاء من الخشب وفرشهم متعددة وثيرة وقد سمعت ان غير الاغنياء يتخذون فرشاً عالية ولكن لا يرقدون عليها وانما ينضدونها للمفاخرة والمباهاة والاطباء هنا يقولون ان الرقود على فرش القطن مضعف للجسم وان حبل الليف او التبن اذا نفش كان خيرا منه وفرش الاغنياء من الصوف • وعامة المالطين يجعلون اقدارهم في وعاء تحت السرير فلا طاقة لاحد على ان يدخل مراقدهم في الصباح ولا بد من ان يرقد الرجل مع زوجته وان تقادم عليهما الزواج وهرما فيه واروحا فاما الاوباش والسفلة فتراهم راقدين في الهاجرة على حافات الطرق كبا على وجوههم وقد جاء في الحديث نوم الشياطين على وجوههم واذا زرت موصرا منهم بادر الى ان يريك ما عنده من الفرش والاثاث وقبل كل شيء يريك فراشه ولم تجر العادة عندهم ان يتخذوا فرشاً للزائرين كما في بلادنا • ومما حرم منه اهل مالطة من اسباب الترفه والاستراضة الاستواء على الارائك والزرابي الوثيرة فلا يقعدون الا على الكراسي نعم انهم يتخذون متكآت من خشب ولكن من دون ثمرقة عليها ولا حشية وناهيك بمن يقعد يومه كله على كرسى خارج منزله او يظل واقفا كالتجار ثم يأتي منزله ليقعد على كرسى فكأنما لسان حالهم يقول ما قال ابونواس * وداوني بالتي كانت هي الداء * او ما قال الاعشى

* وكاس شربت على لذة * واخرى تداويت منها بها *

او ما قال ابن دريد في مقصورته

* حينا هي الداء واحيانا بها * من دائها اذا يهيج يشفى *

او ما قاله البحتري

* تداويت من ليلي بليلي في الهوى * كما يتداوى شارب الخمر بالخمر *

فائدة يحسن استطرادها هنا وهي " ان مداواة الشيء بنظيره لا ينقيضه ليس من مخترعات اطباء اوربا كما شاع فقد ذكر العلامة الدميري في كتاب حياة الحيوان عند ذكر النحل ما نصه روى البخاري ومسلم والترمذي عن ابي سعيد الخدري رضي الله

الله عنهم قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان اخي استطلق بعنه فقال اسقه عسلا فسقاه ثم جاءه فقال يا رسول الله انى سقيته عسلا فلم يزد الا استطلاقا فقال عليه السلام اسقه عسلا ثم جاء الثانية والثالثة والرابعة فقال عليه السلام اسقه عسلا فقال قد سقيته فلم يزد الا استطلاقا فقال صلى الله عليه وسلم اسقه عسلا صدق الله وكذب بطن أخيك فسقاه فبرئ » قال الدميرى » اعلم انه قد اجتمعت الاطباء فى مثل هذا العلاج على ان تترك الطبيعة وفعلها فان احتاجت الى معين على الاسهال اعينت ما دامت القوة باقية واما حبسها فضرر عندهم واستجبال مرض اه • اما عاداتهم فى الزواج فهو ان يعاشر الرجل المرأة قبل ان يتزوجها مدة طويلة وربما اقام على ذلك ثلاث سنين فاكثر • وعندى ان الزواج من دون مشاهدة البنت ومعرفة احوالها من اضر ما يكون ولا سيما عند النصارى لعدم اباحة الطلاق عندهم غير ان طول العشرة ايضا لا خير فيه لان البنت لا تزال مع خطيبها على احسن الاخلاق حتى اذا تزوجت وعرفت ان لا فراق تخلقت بالاخلاق التى تعجبنا ولا يخفى ان النساء فى بلاد الافرنج هن اللواتى يمهرن الرجال فالاغنياء من المالكين يعطون الزوج نحو مائتى ليرة والذين هم من الوسط يؤثون له منزله من فرش وكراسى وموائد وآلات الطبخ ويتقدونه شيئا من الدراهم والفلاحون يعطونه دجاجا وبيضسا ونحو ذلك وعلى الزوج ان يهادى حياه باحذية • وعندى ان لكل من الغريين الذين يمهرون الزوج ومن الشرقيين الذين يمهرون المرأة وجهها وذلك ان الشرقيين ينهمون على الزواج وهم غير محنكين ولا مادة لهم فيحتاج ابو البنت الى ان يأخذ من الزوج مهورا ثقة بانه قادر على القيام بما تعرض له ولان الرجال هم قوامون على النساء • اما الافرنج فلا ن رجالهم غالبا يتحاشون الزواج لما يعقبه من التكاليف الشاقة لان مؤنتهم غالية ونساءهم متشبهات بالرجال اخلاقا ولاستغنائهم عنه بكثرة الواجرات فوجب على المرأة فى هذه الحال ان تساعد الرجل • واهل مالطة اشد الخلق تهافتا على الزواج فان الرجل منهم لبتزوج وكسبه فى اليوم قرشان وهما لا يشبعانه خبزا واداما وانما يثق بان زوجته تساعد على الشغل وتكسب مثله • وآفة نساءهم حسن الخلق دون حسن الخلق فان المرأة تجرى وراء من به صباحة دون مبالاة بالعواقب

فلا يهملها كون الرجل فقيرا او جاهلا او شريرا غير ان النساء هنا لا يحترمن ازواجهن فكثيرا ما تعارض المرأة زوجها وتخطئه وتسفه بمحضرة الناس وكلمهن اذا نكمن يرفعن اصواتهن الى حد يبقى الغريب عنده مبهوتا وكانت عادتتهن في القديم ان لا يتبرجن للشبان ولا يخطرن في الطرق ولا يعلن القراءة والكتابة و متى خطبن احتجبن عن الاخطاب وربما كان الرجل يخطب بنتا بواسطة امه و اخته من دون ان يراها اما الآن فقد تخلت عن باخلاق نساء الانكليز في مخالطة الرجال ومماشاتهم والذهاب معهم الى المراقص والملاهي وكثيرا ما تهرب البنت من حجر والديها وتمكث مع من تهوى وكثير من النساء الغنيات الطاعنات في السن يتزوجن الفتيان البطالين فيمكث الرجل مع زوجته طامعا كاسيا والذي عليه حكمة النساء هنا ايثار الاقارب على الزوج فانهن يقلن ان الزوج اذا مات يعوض بماله ولا كذلك الاقارب و هن كنساء الانكليز في انهن لا يتزوجن الا من كان في سنهن الا انهن يخالفنهن في كونهن يتزوجن على صغر و اذا مشى الرجل مع زوجته مسيا متهاذين لا متأسكين بالاذرع كالافرنج اذ لا بد للمرأة ان تمسك ثيابها كما ذكرنا آنفا • وكثيرا ما تخرج الرجال وحدهم و يغادرون نساءهم في البيوت • واكثر اهل الحانات بمالطة متزوج و اللبيب منهم من يتزوج حسناء لتسقى الشرب وتنادمهم فيجتمع عندها من العساكر البحرية و البرية زمر شتى • والفجار من اهل مالطة الذين دابهم كسب المال بأي وجه كان يتظاهرون بانهم طالبون للاحصان حتى اذا حصلوا على المهر فروا به الى البلاد البعيدة ثم ان المتعة او التسرى امر مستفيض عند جميع اهل مالطة وقد تترك المرأة المتروجة بعلمها و تهوى في اثر من تهوى وكذا الرجال واعرف كثيرا من العيال قد فارق منهم الزوج زوجته واقام مع اخرى واقامت هي مع آخر وتسرى ابوه بنساء واقامت بناته مع رجال او صرن بغايا والبغايا في هذه الجزيرة لسن ذوات ثروة ولا جال رائع الا ما ندر فلا تجد لاحداهن دارا على حداثها او خادما لكنهن في الغالب غير وقحات ولا متهافتات على الرجال بل هن لعمرى اصون لسانا من المتزوجات واكثر ماء وجه اذ لا يجهقن في الرجال كالمتزوجات ولا ينتمدن السمحة والزى ولا يتشبن مثلهن بالنخمة و يترددن على الكنائس كثيرا وليس منهن من تريد ان تموت

في الذنوب كما هي عبارتهن وحين يأتين الفاحشة يغطين وجوه صور القديسين التي في حجرهن او يقلبنها تأديبا وتورعا • وفي الجملة فان اهل مالطة جميعا رجالا ونساء يغلب عليهم الشبق والسفاح • اما عاداتهم في آداب الجنائز فكعادة الأفرنج في انهم لا يقيمون المآتم على الميت فلا تعرف ان احدا من الاهلين مات الا من صحف الاخبار وهي عادة حميدة فان العويل والنحيب فضلا عن كونهما لا يحيان مائتا ولا يردان فائتا او كما قال الشاعر * وام يرجع الموتى حين المآتم * يلتصقان الهم والرعب في قلوب السامعين وانما يلبسون الحداد على الميت مدة طويلة ويدفنونه بعد اربع وعشرين ساعة وربما ارسلت الجيران الى اهل الميت وضيفة ككفا في بر الشام اما علية الانكليز هنا فلا يدفنون الميت الا بعد اسبوع في الاقل كما في بلادهم واذا مات لاحد المالطيين طفل صغير اقبلت حايه الاصحاب تهنئه قائلين نفرح لك بالجنة ومتى ولد لهم ولد وضعوا تحتها التبن ليكون سقوطه عليه تشبيها بالمسيح واذا مات احد من ضباط العساكر شيعت جنازته وآلات الموسيقى معزوف بها وراءها والجند مصاحبة لها فاذا فرغوا من دفن الميت اطلقوا البنادق دفعة واحدة اشارة الى انه مات بعز دولته وسلاطانه • اما خلق المالطيين فالغالب عليهم السمرة والربعية في القوام وسواد السمر والعيون وغلظ الجواب وشدة البنية وهم في الغالب اجل من النساء وكثير من النساء هنا لهن شوارب او عوارض او عنافق ومنهن من تحلتهن ومن الافرنج من يستحب ذلك فيهن • وقد اسفلت لك زهوهن وعجبهن بما يتحلين به من الالباس والخلي • اما اخلاقهم فالغالب على اعيانهم لين الجانب والبشاشة فاذا سألت احدا منهم عن شيء اجابك وهو باش بك مستأنس اليك • ومن طبعهم جميعا الكدح والتدبير والاقتصاد فلا يحملون ضنك العيش محافظة على عادات قديمة ضارة • ولا يتجشم احدهم استخدام نفر اظهر لشانه ورفعته ولا النفقات الزائدة في الاعياد والزواج ولا تتعد نساء الاغنياء منهم قلائد من الالماس وغيره وان الماجد منهم يزور صاحبه بدون احتفال والغنى يذهب الى السوق صباحا ويشتري مؤنة يومه وان المايدة تزور صاحبته ولا تلهى احدهما عن السفل وذلك بان تأخذ معها شيئا تشتغل به وهي التي تقوم بتدبير البيت فلا تكل افومره الى الخادمة

واكبرهم من عنده خادم وخادمة وقد شاهدت رئيس اطباء المستشفى غير مرة ينصب الحبال على سطحه وينشر عليها الثياب المغسولة قطعة قطعة ومتى نسفت الثياب حلوا الحبال ووضعوها في محل مصرون ورايت ايضا بعض القناصل ينصب رايتة بيده والفقراء منهم لا يوقدون سراجا في الليالي المقمرة واكثر الرجال يسلون مصروفهم ليد نسائهم حتى انهم يحتاجون بعدها الى ان يطلبوا منهم ثمن التبخ ونحوه وجبعت نسائهم مقتصدات ونشيطات الى العمل وقل منهن من تتعاطى التجارة • ومن طبعهم جملة وتفصيلا الفضول والتلهي بالاسفاف من القول والعمل فاذا اكب احد مثلا لالتقاط شئ من الارض ازدحت عليه زمر ولا يزال احدهم يجري من جهة وآخر من اخرى حتى تفص بهم الطريق ولا يبرحون ذاكرين للشئ يحدث اياما حتى يجد غيره ومتى جرى امر عرفت اصله ومبدأه وغايته من الجائنين والذاهبين ولا بد لكل من طغامهم ان يقص قبل رقوده كل ما جرى له اثناء النهار وربما اخبر به غير مرة وزور ورقش حتى يخال نفسه بعد ذلك صادقا وان يتطلع وهو سائر في الطريق الى كل من يمر به فتراه كأنما يسلم على الناس ذات اليمين وذات الشمال وكثير منهم دابهم الحضور في المحكمة لاستماع الدعاوى فاذا خرجوا بثوها في كل موضع ولا يمكن ان يتقلوا حديثا الا ويزيدون فيه فاذا الم بعين انسان قذى قال انه عمى ويدهون الرجل بان يقولوا له قد رأينا زوجتك تنظر من الشباك او تحدث فلانا او فلانة ويقولون للمرأة في حق زوجها مثل ذلك واذا اشريت من احدهم شيئا يخبر اهلك به ومتى رأوا غريبا نظروا اليه متفرسين وتنصتوا لاستماع كلامه ليمرفوا باى لغة يتكلم ويصفون حاله في وجهه بان يقول احدهم للآخر « هذا الرجل من بلد كذا وقد اطال المكث هنا ولعله لا يمكن بعد فاته كان اولا سليما وكأنه الآن مريض » فيقول الآخر « والى اين يذهب أعساه يجد بلدا خيرا من بلدنا وقد صار متصد الواردين والصادرين » وربما دعت احدى النساء صواحبها لرؤيته وهى تلكرها وتومى اليه ولا تكاد تخاطب احدا في الطريق الا وترى زمرة قد احدثت بك ولا يكاد احد يأتي امرا الا وتشافله الرواة ويسيئون الظن في متزوج عاشر عزبا او في

عزب دخل دار متزوج ولا غرو فان هذا شان من لا يرى في بلده شيئا يشغل
 الخاطر من الامور الخطيرة ويكون محصورا في صخرة قرعاء راسبة في البحر فان
 حصر الفطن يكون من حصر العطن • ومن طبعهم التكشف وبث ما هم
 فيه من الاحوال والاستقصاء عن حال المخاطب فاذا صحبت منهم احدا لا يلبث
 ان يطلعك على كمية دخله وخرجه وكيفية عمله ويقول ليت لي مال فاتنهم به ولو
 كنت من المثريين لاكلت اطياب الماكول ولبست افخر الملبوس فيا سعد من عاش
 عيش المترفهين فاخبرني انت ما دخلك وكيف عيشك ومن اين تشتري ثيابك
 وحاجتك ومن يزورك وهلم جرا • فاما حبهم لكسب المال فهو بحيث لم
 يغادر لشيء سواء قيمة ومنهم من يسافر الى البلاد الشاسعة ويعرض نفسه
 للامتهان والابتذال حتى اذا احرز المال رجع الى وطنه متبذخا متشعبا يرحل في
 الاسواق مرح من ازدهته النعمة وابطره الحظ • ولا شيء يعجبهم في الدنيا مثل
 بلادهم ولا تزال تسمعهم يتجسسون بها وباحوالها واذا سألت احدا منهم عنها
 اجابك بلسان ذلق عما كانت عليه من الغبطة والسعادة وآلت اليه من سوء الحظ
 وهم في محبتها كاليهود في محبة صهيون • ومن الغريب مع هذا التفاخر انك
 اذا ذكرت لاحدهم افراد قومه لم تلقه راسيا عن احد منهم فاول نعت
 ينعت به قوله هو ابله او شحيح فكان قوله نحن المالطين شائنا كذا يريد به
 وحدة نفسه • اما مفاخرتهم بالالقب فاكسى لهم من اللباس فقل ان ترى احدا
 منهم ممن يقرأ ويكتب الا وله لقب داييب او فقيه او بارون او مركيز او دكتور
 على انهم لا يملكون به مسكة من العيش • ومن طبعهم التعقب للزلات
 والتعنت والاعتياب فيتعقبون الناس في مشيتهم ولبستهم ولهجتهم وسحتهم فلا
 يكاد يعجبهم شيء وما من خصلة حيدة الا ويجعلونها قبحة فاذا كان الانسان
 كريما قالوا انه مبذر وان كان مقتصدا قالوا انه شحيح • ولا يرحون مبررين
 على الانكليز ومتظلمين منهم ويدعون بانهم من بعد قدومهم الى جزيرتهم
 ضاقت عليهم مذاهب المعيشة وغلت الاسعار حتى اضطروا الى ان يهاجروا
 من بلادهم التي يصفونها بانها حنينة مع ان لدولة الانكليز في هذه الجزيرة
 عدة سفائن حربية نفقة كل منها في اليوم نحو مائتي ليرة وترى عساكرها لا
 يرحون يخرجون من حانة ويدخلون اخري حتى ينفقوا آخر فلس معهم حتى

صار معلوما عند الجميع ان الاسعار انما تغلو بوجود هذه السفن ثم اذا سافرت اخذ الذين افوا البيع لها في الدمدمة والتسخط من كساد ما عندهم فان الاهلين كلهم لا ينفقون ما تنفق سفينة واحدة منها هذا وان الانكليز قد انشأوا فيها جملة مصالح ومعالم لم تكن للمالطيين في حسابان فقد كان بعض اصحابي بالاسكندرية كلفني بان اسأل ناظر الديوان عن تركة والده وقد توفي بمالطة وهل كان تحت حاية الانكليز او لا فلما سأله اجابني بعد البحث بان ديوان مالطة قبل قدوم الانكليز لم يكن له دفاتر مصححة يرجع اليها وانما كانت عبارة عن اوراق يومية غير منظومة على ان المالطيين انفسهم يقرون بان حكاهم في القديم كانوا ينالون من عرضهم لانهم كانوا قد حرّموا الزواج على انفسهم حتى انه تجمع في دار معدة للنفول نحو الف ولد يزن في كونهم اولادهم فكانوا يقولون فيهم انهم على قسيسين يورون بذلك ان الحكم المتشبهين بالقسيسين يكفلونهم لكونهم آباءهم او ان الاولاد يصيرون قسيسين ولا تكن دأب اهل الجهالة ان يستطيعوا الماضي على الحاضر ويطعموا في ان الآتي يكون خيرا منهما ومن ذلك كراهيتهم للغرباء ولا سيما العرب ولن يقدر احد ان يستخلص منهم عشيرا وما يكون له بين ظهرانيتهم صديق الا اذا كان يربي جرو كلب ولعمري لو ان مالطيا افترى على غريب وخاصمه لتألبوا على الغريب من كل اوب من دون ان يعلموا السبب وهم مائلون بالطبع الى البطش والفتك وان كثيرا منهم لا يمشون الا ومعهم سكاكين يخفونها في ثيابهم ومدخل العتاب بينهم مسدود فاول سبهم قولهم يحرق دين القديس تبعك ومن جهلهم انهم لا يفهمون ما المراد بالدين هنا فان مرادفه عندهم في غير السب منقول من الطلياني والظاهر ان المسلمين حين ولايتهم عليهم كانوا يتلقونهم بهذه التحية فتداولوها هم من بعدهم ومنهم قوم ينتصتون الى ما يجري بين المرء وصاحبه او زوجته من الحديث فاذا صح لهم جر منفعة من ذلك انتهزوا فرصتها فورا واختلقوا عليه اكذوبة وللمالطيين جميعا لهجة واحدة واشارات واحدة فالرجال اذا وقفوا يهزون افخاذهم من الورك الى القدم واذا وصفوا احدا بالتحول رفعوا السبابة وامالوها يمينا وشمالا واذا اشاروا الى امر معتدل سوى رفعوا الكف اليمنى ورجفوها واذا ارادوا الكثرة ضموا الاصابع على الابهام وحركوها عليه واذا

واذا ارادوا النفي امروا الانامل من تحت الذقن واذا اشاروا الى حسن امرأة جمعوا الكف وامروها على الصدغ اشارة الى تجعيد سوالفها واذا ارادوا وصف شئ بالطيبة ارخوا اليد اليمنى ونفضوها مرات واذا سألوا الرجل عن زوجته قالوا له كيف المرة واذا زار احدهم صاحبه فاول ما يحكي به صاحب المنزل ويجعل تحية الست الاخيرة واذا ذكروا اسم ولد صغير ذكروا اسم الله عليه واذا اوقدوا المصباح في المساء قالوا تحية المساء والفلاحون لا يصرحون بعدد سني سنهم فيتولون مثلا اربعون وعشرة ولعل ذلك واصل اليهم من اليهود فان العدد عندهم فيما اعلمه مكروه • ومن العجب هنا ان الناس يحبون التكاثر في كل شئ حتى في القبائح والذائل الا في العمر ولا يتحاشى احدهم اذا زارك ان يحكي معه بواحد او اثنين جريا على عادة العرب ويبادرون الى تهنة النفساء حال وضعها وتزدحم عليها الجيرة حتى العذاري وتأتى اصحاب الاكلات ويعزفون امام البيت وهي آخذة في الطلق ويرأطون عندها كما يرأطون في الاعراس • اما تحمسمهم في الديانة ففوق تحمس اهل ارلاند وقد مر بك عدد الكنائس والقسيسين وثروتهم وملابسهم الكنائسية وكما ان اهل ارلاند يسكرون ويفحشون في عيد صان پالرك كذلك المايطيون يسكرون ويفحشون في عيد صان پاولو بل في سائر الاعياد واذا استأجر مالطي دارا كان قد سكنها يهودي فلا يدخلها الا اذا رشح عليها القسيس الماء المبارك وكذلك لو انتقل مثلا مركب ونحوه من ملك مسلم او انكليزي الى ملك احدهم فلا بد وان يعمده وهم يعمدون ايضا اجراس الكنيسة جميعها وكذا الاجراس الصغيرة التي ينقش بها امام القربان ويقيمون لها كفلاء من الرجال والنساء مما عرف بالاشابين وقد عمدوا مرة جرسا في كنيسة صان پاولو وكان كفيله الحاكم وزوجته لكونه كان كاتوليكيًا ويقولون ان دعوة الجرس مستجابة فاول ما يحدث رعد او برق يبادرون الى الضرب به ويعمدون المولود من اول يوم ولادته ولو كانت في شدة الزمهير ولا بد من ان يكون ذلك في الكنيسة لا في البيوت ومن يقف ينظر الى القربان وهم طائفون به من دون ان يسجد له فقد عرض نفسه للخطر وقيل انهم قتلوا مرة رجلا من بحرية الانكليز وكان قد مر بهم ولم يسجد له فتناولوه ضربا ووخزوا فحمل قتيلًا ومرة اخرى وقف بهم احد

ضباط العسكر وظل واقفا فهجم عليه قسيس ورمى بغطاء رأسه فشكاه للحاكم
فاخبر الحاكم الاسقف بذلك فحبس القسيس في داره مدة ثم اطلته فذهب
القسيس الى رومية فأكرمه البابا واعاده الى الاسقف وامره باعلاء درجته
فلما بلغ الحاكم ذلك نفاه من البلاد ويقولون ان شكل الصليب مخلوق في
جثة كل انسان وذلك بان يسط يديه وهو رافع رأسه وان اسم مريم
العدراء مرسوم ايضا في كل كف فان خطوط الكف الاصلية تشبه حرف الميم
باللاتينية ونحو من هذا ما وجدت في بعض الكتب العربية من ان اسم النبي
صلى الله عليه وسلم مكتوب في كل جثة فان الميم تشبه الرأس والحاء تشبه الصدر
والميم تشبه السرة والذال تشبه الساق • وفي ايام الصيام وفي يومى الاربعاء
والسبت لا تصرح باعة الحليب باسم ما يبيعونه وانما يقولون هون تا الابيض
ولفظه تا محرفة عن متاع بمعنى صاحب كما يستعملها اهل تونس وطرابلس وفي
غير هذه الايام يقولون حليب ومع شدة تحمسهم هذا فانهم يبيعون ويشترون
ايام الاحاد والاعباد كما في غيرها والمتدين منهم من يفتح فيها دكانه الى الظهر فقط
وقد رأيت كثيرا من مدن ايطاليا ولم ار فيها تماثيل عديدة في الطريق كما يرى
في مدينة فالته • وقد كانت هذه التماثيل في الزمن القديم ملاذا يعتصم به اهل
الجنايات فكان القاتل اذا فر ولطئ تحت تمثال منها ينحو من قصاص الشرع
وقد بطلت الآن هذه العادة وينبغي هنا ان نذكر ان المايطيين بأنفون
من ان يطلقوا اسم النصارى على الانكليز واذا تزوج انكليزى مالطية على يد
قسيس انكليزى فان زواجه غير شرعى

﴿ فصل ﴾

﴿ فى الانكليز وحكومتهم بمالطة ﴾

لما كانت هذه الصخرة البحرية عزيزة على الانكليز لموقعها في بحر الروم كما لا يخفى
كان لهم في حكومتهم بها من التساهل والتسامح ما ليس في بلادهم ويمكن
ان يقال ان الحكم هنا مالطى وان يكن الحاكم انكليزيا فان القضاة وفقهاء
الشرع وكتاب الصكوك والمتوظفين في الدواوين وشرطة الدبوان جميعهم
مالطيون وليس على الناس مكس ولا ضريبة ولا يدفع مكس في الكرك

الاعلى الخنطة والمسكرات والبهائم وهو قليل جدا • ومن اقتنى مركبا او
مخيلا او استخدم خدمة فلا يؤدى على ذلك شيئا وكذا الذين يبيعون بقول
الارض وثمرها وليس لخزنة الدولة من ايراد هذه الجزيرة ولا فلس واحد وانما
يصرف جميعه فى لوازمها وجلاته تبلغ تقريبا ١٠٤٢٠٠ و تفصيلها من ديوان
الكمر ك نحو ٦٥٧٠٠ ومن الدكاكين ١٦٠٠ ومن المحاكم ٢٧٠٠ ومن
بوسطة المكاتب ١٨٠ ومن تقييد الصكوك ١٣٠ ومن خراج الارض
٢٣٧٠٠ ومن المزارد ٢٠٠ ومن الكرتينة ٣٣٥٠ ومن المراكب
٣٩٠٠ ومن مصالح اخر ١٧٠ • يصرف منها مرتب وظائف وسنويات
٤٣٠٠٠ منها ٥٠٠٠ ره الحاكم ولحديقته ٤٠٠ ولكتاب سره وهو من الانكليز ١٠٠٠
وللكتاب الثانى ٥٠٠ ولناظر الخزنة ٣٥٠ ولمدير الحسابات ٦٠٠ ولستوفي
الاموال ٥٠٠ ولناظر الكمر ك مثلها والى كبير القضاة ٦٠٠ والى كبير
الشرطة ٤٥٠ ولناظر المرسى ٤٠٠ ولناظر الكرتينة ٣٠٠ ولتأسيس الحاكم
٥٠٠ وللاسقف مالطة ٢٠٠٠ وللصروف على المستشفيات وغيرها من
الافعال الخيرية ٤٤٠٠ وعلى المدرسة الجامعة وقد تقدم ذكرها
٢٧٠٠ وعلى المرتقين والمتقاعدين ١٣٢٥٠ اما مصاريف عسكر الانكليز
وهم ثلاث كتاب من خزنة الدولة وللعسكرى فى اليوم نحو شلين
ويقال ان ايراد مالطة منقسم الى ثلاثة اثلث الثلث الاول للمرى والثانى
للكنائس من الوقف والتسبيل والثالث لاصحاب الاملاك • فقد تبين لك رفيق
دولة الانكليز بحال المالطين جبر ولو ان جزيرتهم كانت اكبر مما هى الآن
بمائة مرة لما كان ايرادها كله مكافئا لمكس صنف واحد فى انكلترة وحسبك
ان مكس الماط وحده هناك ينيف على خمسة ملايين ليرة • ومن تساهلهم
معهم انهم يرخصون لهم فى التطواف بالقربان وتمثيل القديسين سواء كانت
من خشب او جص او غير ذلك مع انه مغاير لعقائد كنيسة الانكليز لا بل
يطوف معهم جوقة من العسكر وهم عازفون باالات الطرب امام التمثال ولا غرو
فان الدولة فرضت لصنم فى بلاد الهند اسمه جوجرنوت ٥٦٠٠٠ روية وهى
عبارة عن ٢٦٠٠٠ ريال ولغيره ايضا من الاصنام مرتب وافر وليكهان الهنود
وظائف يرتزقونها من الديوان فى ككل عام • قيل ويوجد فى الهند نحو

١٤٨٥١ ر محلا مخصوصا لعبادة الهنود يبلغ مصروفها من طرف الدولة المذكورة نحو ٣٥٠٠٠ ليرة وقد صرف مرة على اقامة عيد من اعيادهم ٤٠٠٠٠ روبية. مما لزم لهيكل الصنم وفي هذه الاعياد الكبار تطلق المدافع من السفن والتلاع ويمشي امام الصنم طائفة العازفين من الجيش • وفي عيد القاء جوز الكوكو في نهر الهند ينزل ذووا الامر والحكم من الدولة ويأخذونه من الكهنة بعد ان يصلى عليه ثم يلتقونه في النهر وحينئذ تذر السفن راياتها المتلونة وتطلق المدافع منها ومن الابراج وكذلك يفعلون في الالهة اظهارة لشعائر الاسلام وكل ذلك دليل على ان الدولة لا تبالي بمباينة المذاهب والاديان في ممالكها اذا كانت هذه الاديان غير مانعة من اداء ما يلزم اداؤه للخزنة من المال وللتساج من الطاعة وقد حاول مرة حاكم مالطة وكان على مذهب البروتستانت ان يبطل عادة المسخرة يوم الاحد في المرفع على ما تقدم ذكره فان الانكليز يحترمون هذا اليوم غاية الاحترام كما ستعرفه واذا بالمالطيين جبعهم نالوا عليه وماجوا يطوفون وهم يسبونهم ويقبحون عليه بالقاب سمجة واشارات منكرة حتى ان بعضهم حاكاه في زيه وهيئته وجعل على رأسه قرونا ثم احدثوا بكنييسة الانكليز وهم عاكفون على العبادة وزاد ضجيجهم ولغطهم هناك حتى لم يسمع الحاكم وحشده غير الفرار الى حديقته خارج المدينة وما زالوا منذ ذلك الحين يلحفون في طلب حاكم من مذهبهم حتى صدر امر من الدولة بعزل الحاكم المذكور فجاءهم حاكم من اهل ارلاندا أكثر تحمسا منهم وهو الذي وقف شاهدا على معمودية الجرس ومن سنن الانكليز في بلادهم ان تغلق جميع الحوانيت في يوم الاحد الا دكاكين العقاقيرية والحانات التي تباع فيها الجمعة والشراب الا ان هذه تغلق ايضا عند اقامة الصلاة فاما في مالطة فلا حرج على احد منهم ان يبيع ويشترى فيه اى شيء كان ثم انى لست ممن يتصدون الى تبديل القوانين والاحكام ولا ممن يحرشون بالاحكام مخافة ان يعزلوني عن ولاية قلمي ولا يتأتى لرجل مثلى ان يصلح شريعة دولة قديمة ولا سيما شريعة الانكليز فانها عندهم لا تقبل التبديل ولا التحريف وكل عادة من عاداتهم تقوم مقام سنة الا ان بيداه اصولهم واحكامهم تظهر لبصرى الكليل القاصر في غاية البعد عن الادراك اما اولا فلان قصاص كثير من الاسآت

والجنايات :

والجنايات يفتدى عندهم بغرامة للميرى فاذا افترى مثلاً لثيم على كريم ولطمه
 بحضرة الناس او هتر عرضه غرم شيئاً من الدراهم للخرقة وخرج من بين
 يذى القاضى على اشر خلق مما كان عليه فتكون مصلحة الحكم على هذا ازدياد
 الخضم والشر بين الناس لان خيرهم انما هو من شر الطعام فيا ليت شعري ما
 نفع الكريم بعد ان يسب ويفترى عليه ان يرى غريمه مؤدياً للميرى ثمن عرضه
 وشرفه وكيف تصح التسوية بين العباد والله تعالى لم يسو بينهم بل فضل
 بعضهم على بعض فجعل اللثام يبدلون ماء وجوههم ويمتهنون انفسهم في
 تحصيل معيشتهم وجعل ذوى الادب والعرض ينزهون انفسهم عن الشين والمنكر
 فهل من العدل ان لا يجعل بينهما فرق في الاحكام والمعاملة والا لزم ان نقول
 ان من يساوى بينهما وهو الحاكم ينبغي ان يكون مساوياً لمن فرض عليه الحكم
 فلو تعمد رجل مثلاً للعلم الحاكم على وجهه وعمو جالس على كرسي الحكم أفعساه
 كان يغرم دريهمات لخرقة الدولة وهل من العدل ان ترى لثيماً ينازع كريماً
 على شئ هو ادنى من ان يخطر بهاله نعم تصح التسوية بين غريمين تجهل
 حالهما فاما الحاكم الشرعى الذى يعرف اهل بلاده ويخبر فاضلهم من مفضلهم فلا
 ينبغي له ان يسوى بين كل مدع ومدعى عليه كما انه لا ينبغي ان يوزن الذهب في
 ميزان الخشب وفضلاً عن ذلك فان من ضرب مثلاً مرة لا يصح ان يجرى عليه
 حكم من دابه وديدنه الضرب والا لزم ان نقول ان اهل اللغة اعتل واحكم من
 اهل الشرع حيث فرقوا بين الضارب والضرب والضروب هذا ولما كان
 الظاهر من حكم الانكليز انه مبنى على التسوية كانت الاوباش من اهل مالطة
 مثل اهل الفضل منهم في انه لا يقبل للفاضل كلام على المفضل ولا يفصل
 بين اللثيم والكريم منهم غير الشهود وان كان اللثيم معروفاً بلؤمه وذرائله وربما
 طابت باعة الساكولات في شئ قيمته درهم عشرة دراهم فلا يمكن للمشتري ان
 يعارضهم بشئ واذا ابى ان يشتري لم يخل من تناول البائع عليه وقس على
 ذلك اصحاب القوارب والجمالين وغيرهم من السفلة فإى انصاف هناك
 يرخص لهؤلاء في هذا التعدي والطغيان ثم يقال ان ذلك تسوية ثم اى انصاف
 ان يرخص للباعة في ان يخلطوا الموائع وان يضعوا السمك والمحم الذى نشم في
 الحوم في الثلج حتى يتطرى وفي ان يبيعوا الفج من الاثمار وان يجعلوا سعر

الشيء الواحد متفاوتا على قدر تفاوت الساعات وان تطوف السكاري في الاسواق ضاجين زائطين بالغناء واللغط ثم يقال ان ذلك حرية لعمرى ان فلق المحتسب في بلادنا خير من هذه الحرية لان الحرية انما تكون حيدة مفيدة ما اذا روى فيها مصلحة عمومية على اخرى خصوصية لا بالعكس فتبا لحرية تفضي الى تسويد اللثيم على الكريم وهذا الفساد الحاصل في البيع والشراء في مالطة هو بعينه في لندرة كما سذكره في محله وسببه انه لما كان ذوا الاحكام هنا وهناك لا يأكلون سوى اطيب المأكول ولا يشربون سوى افخر المشروب غفلوا عن مصلحة الجمهور وظنوا ان سمنهم موجب لصحة جميع عباد الله ومن فساد الاحكام هنا ايضا انه اذا كان لاحد حق على آخر واراد سجنه لزمه ان يقوم بمؤنته وان يكن المديون لصا او متعديا وكان المحق عا لا فاضلا ولا يخفى ان في ذلك حظرا للنقمة والاثمان لان حبس الغريم لا ينفع الدائن شيئا وان السجن لكثير من الاشقياء المناحيس خير لهم من خصاصهم ولما كان هؤلاء السفلة مفراطين في التبايح والشرور على ما ذكرنا كان من اهم الاشياء على الحر ان يتجنبهم ما امكن وليس عليه ان يحترز من الاعيان وذوى الامر والنهي فانهم لا يتطاولون على احد لما يعلنون من قضية التسوية بخلاف العادة في البلاد الشرقية فان اصحاب المناصب هم الذين يخشى باسهم وشرهم ومن فساد الاحكام ايضا ان القضاة تقبل شهادة اى شاهد كان سواء كان سكيرا او شريرا وكذا شهادة النساء والاولاد مقبولة فتى قبل الشاهد الصليب مضت شهادته والانكليز يحلفون على الانجيل ومتى اقيمت دعوى حشد الناس لاستماعها وان تكن من الامور التى كتها اولى من اذاعتها وهنا ايضا انكر التسوية لانه اذا حدث مثلا امر مرة بين والد وولده او رجل وامراته وكانوا من ذوى الفضل وافضى ذلك الى التحاكم لا ينبغي ان يجعل بمنزلة دعوى رجل على آخر بانه سرقه او شتمه ثم ان من الاصول المقررة عند الانكليز ان كل من يدخل ارضا تحت حكومتهم بصير حرا وتجرى عليه احكامهم وقد جاء مالطة كثير ممن كان لهم عبيد واماء فاجبروا على تحرير رقيقهم ومن يقم خمس عشرة سنة ويعلم انه كان في خلال ذلك حسن التصرف والسلوك حق له ان يطلب الحماية الجنسية ولكن يلزمه اداء نحو عشرين ليرة وهذه الحماية هى انفع من حابة

حماية الانكليز التي تعطى من بلادهم كما سنبين ذلك وللحاكم عشرة مشيرين من اعيان الاهلين يشاورهم في المصالح العائدة الى بلادهم وفي كل خمس سنين يعزل وربما اقام اكثر اذا طلبت الرعية ذلك وفي قصره ستة عشر الف بندقية وعشرون الف مزارق واربعة آلاف درع والفا طابجة اما اخلاق الانكليز هنا فهي مغايرة لاخلاق جنسهم في بلادهم فلا يصح لمن رآهم ان يحكم بان جميع الانكليز مثلهم فان هؤلاء متكبرون صلفون مع البخل والتشح وبئس الكبر والشح اذا اجتمعا وما احد منهم الا ويظن بانه هو فاتح هذه الجزيرة بآسفه وسيفه ولا سيما ضباط العسكر فانهم على قنة الصلف والتبذخ واذا دخلت على احد من هؤلاء الفاسقين وهو يأكل فلا يتكلف ان يدعوك الى طعامه بل ربما غضب على جميع اهل داره على عدم منعهم اياك من الدخول كما قلت

- * اذا زرت ارحبهم دارة * توهم غولا قد اغتالها *
- * يغلّق ابوابه ان نوى * فطورا ويحكم افعالها *
- * ومن كان فيهم له خادم * يظن المعالي قد طالها *
- * اذا تدبوا ككرسيه * وبنت من زوجه حالها *
- * يرى انه محسن مفضل * وان المائر قد نالها *

واذا زرته واقت عنده الى وقت غداؤه وارتد الذهب فلا يدعوك الى الطعام معه ومن طبعهم حب الانفراد والعزلة فان احدهم ربما اقام شهرا تاما من دون مشاهدة الناس استغناء عنهم برؤية ما عنده من فاخر المتاع وبقراءة صحف الاخبار اما عندنا فلاخبار لا تعرف الا بالثقل والرواية فلم يكن لنا بد من الاجتماع ليلا ومن سوء ادب بعضهم هنا انهم يجعلون في اعناقهم شريطة فيها زجاجة فكلما لمحوا امرأة فزعوا الى الزجاجة ليستثبتوها بها وفي ليالى الرقص عندهم ترقص بنت الرجل منهم مع عدة زيرة وهو ناظر الى ذلك بعين شكري من الابتهاج ولا سيما حين يخاصرونها وكما ان الرجال هنا ليسوا باموز حسن على اهل انكلترة كذلك كانت النساء مخالقات لمن في بلادهن فانهن هنا يعزل عن الحسن والجمال واكثرهن فقير وشوه ومن الغريب انه مع ترفههن وركوبهن الخيل في كل يوم غالبا فلسن يرى فيهن بادنة ولا فضيلة لهن الا في كونهن يحسن القراءة

والكتابة ويؤسسن العلم في اولادهن على صغر فان الولد لا يبلغ هنا خمس سنين الا ويكون قادرا على القراءة اما عندنا فيذهب سن الصبا باطلا حتى اخذ بعد ذلك في التعلم وجده بعيد المأخذ صعب المرتقى واشهد لو ان نساء بلادنا يترشحن في المعارف على صغر لفضلن نساء جميع الافرنج فضلا باهرا فانهن ارق اذهانا واسرع فهما والحاصل ان الانكليز هنا رجالا ونساء ليسوا من خيرة بلادهم وان كبرهم وعتوهم وجسعهم جعلهم مبغضين عند جميع الممالطين فاما من مالطي نسبح له فرصة لاذى انكليزي الا ويستهزها فاما الموظفون منهم في خدمة الحكومة فانما هم راضون عن اصحاب السياسة لا عن افراد الانكليز المجاورين لهم

❖ فصل ❖

❖ في موسيقى اهل مالطة وغيرهم ❖

قبل الدخول في هذا الباب الحرج ينبغي ان استأذن اصحاب اهل الفن في التطفل على هذا النحو وان كنت لا اعد من جللتهم غير اني علمت منه ما يـكـنـى ان اعرف المستقيم منه من غير المستقيم فاقول قال بعض الفلاسفة ان فن الموسيقى فضله من المنطق اخرجها العقل بالصوت لمـا لم يـكـن اخرجها بالقياس فن اول المنطق بالاصطلاحى قال معناه ان اركان هذا الفن ذهنية بناء على ان المتقدمين كانوا يعاطونه بالسمع والذوق فيرسم السامع ما يسمعه من الاصوات في مخيلته وذاكرته دون مشاهدته لدلائله وهكذا يتلقاه التلميذ عن معلمه بالترسم عن ظهر القلب والاتباع مع الملكة التي ترسخ في مخيلته تلك الترجيعات ولهذا كان المعول عليه في تحصيل هذا الفن ملكة الذوق اما الافرنج فقد جعلوا الآن ترجيع الصوت وايقاعه داخل تحت حس المشاهدة فدلوا عليه بنقوش ورسوم معلومة كما دلت الحروف على المعاني فلم يكن تحصيله متوقفا على ذاكرة وعظيم معاناة كما في السابق فن كان منهم عارفا بخارج النغم ورأى تلك العلامات امكن له ان يخرج عليها اى صوت كان من دون ان تتقدم له سابقة فيه واذا اجتمع منهم عشرون رجلا وكانت امامهم تلك النقوش رأيت منهم متابعة واحدة ويرد على هذا التأويل انه لو كانت الموسيقى فضلة من المنطق لكانت واحدة الاستعمال كما ان المنطق واحد الضوابط على ان

ان الناس متغاïرون فيها تغايرا شديدا فان الحسان العرب لا تطرب غيرهم بل هؤلاء ايضا مختلفون فان اهل مصر لا يطربون لالحان اهل الشام والحنان الاخرنج لا تطرب احدا من هؤلاء وعلى تأويل المنطق بالمعنى اللغوى وهو المراء هنا فقد جاء فى شرح رسالة ابن زيدون لسلطان المتأدين ابن نباتة ما نصه «الزغم فضل بقى من المنطق لم يقدر اللسان على اخراجه فاستخرجته الطبيعة بالاحسان على الترجيع لا على التقطيع فلما ظهر عشمته النفس وحن اليه القلب اه والمراد بالترجيع لا التقطيع ان يكون الصوت ممتدا ينحى به لا متقطعا كاصوات الهجاء فاذا كان فن الموسيقى والحالة هذه فضلة من المنطق على هذا التأويل لم ان نقول ان لكل جيل من الناس محاسن فى الغناء مقصورة عليهم فقط فان لكل لغة محاسن وعبرة لا توجد فى غيرها والواقع بخلاف ذلك فان لغتى الصين والهند مثلا تشتملان على محسنات لا توجد فى غيرهما الا ان انغامهم خالية من ذلك اما الحان الافرنج فلا يطرب لها منا الا من الفها وهى عندهم على اربعة انواع الاول وهو احسنها ما يتغنى به فى الملاهى مثل الموشحات عندنا مع مد الصوت وترجييعه وخفضه ورفعته وترقيقه وتفخيمه وترجييعه وفيه تدخل حاسة وتحريض وتدمير والثانى وهو ينسب ما يرتل به فى الكنائس ولا يكاد يكون به ترجيع والثالث ما يغنى به فى المحزنات والبث وفى هذا النوع يستعملون غناء رقيقا شبه بالنجوى فن يسمعه لحن ما المراد به وان يكن جاهلا باللغة كما اذا رايت شخصا مجهشا للبكاء فذلك تعلم اجهسا به بالديهة وان لم تعرف سببه والرابع ما يغنى به فى المضحكات والمحاورات وهذا يقل فيه الترجيع ويكثر فيه النبر وتطريبه انما هو من حيث انهم يصلونه باشياء كثيرة وحركات مضحكة فيضحكون فيه ويقهقهون ويبكون وينشأون ويعطسون ويحاكون به قيق الدجاج وصداح العصافير وغيرها وفى كل من هذه الانواع يستعملون المساجلة وهى مطربة جدا واكثرها فى النوع الاخير ويوقعون عليه الفاظا مولدة غريبة وكما ان لهم غناء مضحكا كذلك لهم رقص يحمل التكللى على التهففة اما العرب فانهم يقولون ان الرصد يشجى والسيكاه يفرح والصبسا والبيات يحزنان والحجازى ينغش وينغش وهلم جرا والفرق بين الفريقين من عدة وجوه ❖ احدها ❖ ان الافرنج ليس لهم صوت مطلق للانثساء من دون تقييد بتلك النقوش فلو

اقترحت على احدهم مثلاً ان يغنى بيتين ارتجالاً كما يفعل عندنا في القصائد والمواليات لما قدر وهو غريب بالنسبة الى براعتهم في هذا الفن لان الانشاد على هذا النوع طبعى وقد كان عندهم من قبل ان تكون النقوش والعلامات فيما ليت شعري كيف كانوا ينشدون قبل ان نبغ غويدو دارينسو في ايطاليا ﴿الثاني﴾ انه اذا اجتمع منهم عشرة مغنين وارادوا اخراج موشح اخذ بعضهم في بعض اركانه من مقام وبعض في البعض الآخر من مقام غيره فان كانت الاغنية مثلاً من الرصد غنى واحد جزءاً من هذا المقام بصوت جهير وآخر جزءاً من النوى بصوت رقيق وآخر جزءاً من الجواب بصوت عال فيسمعه السامع من عدة مقامات ويسمى ذلك عندهم هرمونى اى ان الاصوات تتألف على الغناء وفي هذه الطريقة فوائد ومخاسر اما الفوائد فلان السامع يسمع في وقت واحد موشحاً واحداً من عدة مقامات باصوات مختلفة فهو كمن يسمع قصيدة واحدة من جميع بحور العروض واما المخاسر فلان السمع لا يتمكن كل يتمكن من ادراك جميع مخارج تلك الاصوات المتغايرة وهذه الطريقة عندى على الآلات احسن منها على الاصوات ﴿الثالث﴾ ان غناء الافرنج هو مثل قراءتهم في انه لا يخلو عن حماسة وتهيج فضلاً عن التشويق والتطريب والترقيص فغناء الحماسة والتهيج هو الذى يكون به ذكر القتال واخذ النار والذب عن الحقيقة فاذا سمعه الجبان ولا سيما من الآلات العسكرية هانت عليه روحه اما الغناء العربى فكله تشويق وغرامى واجد به ان يكون جامعاً لمعنى الطرب وهو خفة تصيب الانسان من فرح او حزن فاذا سمع احد منا صوتاً او آلة شغف قلبه الغرام فبدت صبابته وحنن نفسه كما يحن الالف الى الفء حتى يصير عنده آخر الفرع ترحاً ولا غرو ان صعود هذه الزفرات واذرف العبرات فان السرور اذا تفاقم امره وتكامل بده دب فيه محاق الشجن واختلط به الحزن حتى يستغرق صاحبه فى بحر من الوجد ويشغل بنار من الهيام وعلى ذلك ورد قولهم طربه وشجاءه من الاضداد ﴿الرابع﴾ ان الافرنج لا قرار لاصواتهم الا على الرصد نعم ان جميع الانعام يوجد لها مقامات فى آلاتهم بل توجد انصافها وارباعها الا مقامين منها لا انصاف لهما الا انهم لا يقرون الا على المقام الاول وقد سمعت منهم الهاوى والبوسليك والاصفهانى اما غيرها فلم اسمعه قط بل قد سمعت منهم بعض

بعض اغان من اغانينا اوقعوها على آلاتهم فكانت ككلها رسدا وقد والله
 طالما وقفت السمع على ان اسمع منهم انغامنا فخبث حتى اعترتني الحيرة فاني من
 جهة كنت ارى آلاتهم بدیعة الصنعة على كثرتها وافكر في ان العلوم
 انتهت اليهم والفنون قصرت عليهم وان عندهم في هذا الفن بدائع كثيرة
 فالتنا على ما سبق ذكره ومن جهة اخرى ارى ان براعتهم كلها انما هي
 من مقام الرصد نعم ان هذا المقام هو اول المقامات وانه يغنى منه في مصر
 وتونس اكثر مما يغنى من غيره الا ان فضل الصبا والبيات والحجازي لا
 ينكر ايضا ثم اعود فاقول لا غرو ان يكون قد فاتهم ايضا بدائع في هذا
 الفن كما فاتهم في غيره اشياء اخرى وذلك ككثرة بحور العروض عندنا وكم
 محسنات الكلام وكالسمع في الكلام المنزور اذ ليس عندهم سوى المنظوم وهو
 في الانشاء كالصوت المطلق في الغناء فان السجع مقدم على النظم وكجزهم
 ايضا عن لفظ الاحرف الخالية وقد سألت مرة احد اهل الفن منهم فقلت
 ان المقامات موجودة عندكم وعندنا على حد سوى وكذا انصافها فبقى الكلام
 على استعمالها فانا لو استعملنا مثلا نصفنا من الانصاف مع مقامه وانتم تستعملونه
 مع مقام آخر بحيث يظهر لنا انه خروج فن اين تعلم الحقيقة فما كان منه الا
 ان قال ان هذا الفن قد وضع عندهم على اصول هندسية لا يمكن خرمها
 فلا يصح ان يستعمل مقام الا مع مقام آخر على اتي كثيرا ما سمعت منهم
 خروجا فاحشا على شغف بالخائهم وقد شاقني يوما وصف المادحين الى سماع
 قينة بلغ من صيتها انها غنت في مجلس قيصر الروس فلما سمعتها طربت
 لرخامة صوتها وطول نفسها في الغناء الا اتي سمعت منها خروجا بحسب ما
 وصل اليه ادراكي ولو تيقن ان الحان الروم التي يرتلون بها اليوم في كنائسهم
 هي كما كان يتغنى به في ايام الفلاسفة اليونانيين لكان ذلك دليلا آخر على
 قصور الحان الافرنج فان انغام الروم مقاربة لانغامنا ❖ الخامس ❖ ان اكثر
 اصحاب الآلات عندهم لا يحسنون اخراج انصاف النغم وارباعها ما لم تكن
 مرسومة لهم الا صاحب الكعجة فاما الناي ففيه خروج شتى غير السبعة
 لكل اثنين منهما طباقا اذا سد منها منخر جاش منخر غير ان الصنعة في
 احكام سدها واستعمالها تقارب صنعة تغيير نقل الاصابع عندنا وهذه

الانصاف والارباع في النغم مثل الروم والاشعاش في النحو وفي الجملة فان للافرنج حركات في هذا الفن خارجة عن ذوقنا واخرى لا يمكن محاكاتهم بها ومما مر تفصيله تعلم ان انشادهم في الحماسة والفخریات غير معروف عندنا وان مطلق الصوت عندنا غير معروف عندهم ومن الغريب انه مع كثرة ما عندهم من الآلات والادوات فقد فاتهم العود على محاسنه والناى من القصب فان نايهم هو بمنزلة الزمر عندنا على ان اكثر العلماء قرر ان اصل الموسيقى مأخوذ عن صوت الريح في القصب وقال بعض انه عن صداد الطير وغيره انه عن خرير الماء وآخرون انه عن اصوات مطارق طوبال قين واول من ضبط اصول هذا الفن يوبال وذلك في سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد وكان اختراع الناي في سنة ١٥٠٦ ونسب الى هينيس وعلى ذكر مطارق القين فقد ورد في شرح مقامات الحريري في ترجمة الخليل ان اول من استخرج العروض وحصر اشعار العرب به الخليل بن احمد ابو عبد الرحمن الفراهيدى الازدى وكان سببه انه مر بالبصرة في سوق النصارين فسمع الكنديك اى المطرقة باصوات مختلفة سمع من دار « دق » وسمع من اخرى « دق دق » وسمع من اخرى « دقق دقق » فعجبه ذلك فقال والله لاضعن على هذا المعنى علما غامضا فوضع العروض على حدود الشعر الح وانجى آلة من الآلات الافرنجية هي « الكنشرتينة » وهي فرع من فروع الارغن ونحو من المنفخ يفتح ويطبق وهي من مخترعات وينسطون ومن المعلوم انه كلما رقت طباع الناس ولطفت اخلاقهم كانوا الى المحاضرة في مضمار الطرب اسبق ولشذا عبيره انشق فان المولع بغر المعاني ونكات الكلام لا يسمع الالسان الا ويتصور معها من الحسن ما يهيم به وجدا قبل ان يشعر الغبي بمجرد معرفة كونها غناء ولا سيما اذا كان الانشاد معربا والوقت معجبا وقد جاء في شرح لامية العجم للعلامة الصفدى من لم يحركه العود واوتاره والربيع وازهاره فهو فاسد المزاج بعيد العلاج وقال افلاطون من حزن فليسمع الاصوات الطيبة فان النفس اذا حزنت خد نورها فاذا سمعت ما يطربها ويسرها اشتعل منها ما خد وقال اسحق بن ابراهيم الموصلى شر الغناء والشعر الوسط لان الاعلى منها يطرب والدنى يضحك ويحبب والوسط فلا يطرب ولا يضحك اه ومن الغلط البين ان يقول

يقول احد اتي لم اطرب لهذه الالخان لجهلى باللغة فان اصل الطرب انما يكون
 عن الصوت لا عن الكلام المتغنى به • اما اهل مالطة فانهم فى الغناء مذبذبون
 كما فى غيره ايضا فلا هم كالافرنج ولا كالعرب فاهل القرى منهم ليس لهم الا اغاني
 قليلة واذا غنوا مطوا اصواتهم مطا فاحسنا تنفر المسامع منه فضاهاتهم للافرنج
 هى فى اقتصارهم على الرصد وللعرب فى انهم اذا اجتمع منهم طائفة للغناء
 لم يخرجوا اصواتهم الا من مقام واحد ويقوم احدهم يذشد ويرد عليه الباقي
 اما الاعيان منهم فانهم يتعلمون الالخان الطليانية • واكثر العميان بمالطة صنعهم
 العزف بالآلات ففى قدم احد من سفر او ولده ولد او تروج او عمد ولده او
 ترقى الى رتبة او كسب مكسبا جزىلا بادروا الى تهنيئته ولا يخفى عنهم شئ
 مما يحدث فى بلدهم ويقال ان احدى بنات الاعيان فجرت مرة وكتمت حبلها
 عن اهلها ثم غابت اياما حتى وضعت ولدها فلما رجعت الى بيتها اقبلت زمرة
 منهم يعزفون امام الدار فسألهم ابوها ما سبب ذلك فاخبروه بوضع ايذه فقطن
 حيائذ لغيابها • والذى يظهر لى ان الانعام التى كان يتغنى بها فى ايام الخلفاء
 كانت ايذه بغناء المغاربة الآن منها بغناء المشارقة واللازمة التى تستعملها
 المغاربة فى غنائهم هى دى دى كقول اهل مصر والنسام يا ليل وكقول الترك امان
 وفى القاموس ما كان للناس حذاء وضرب اعرابى غلامه وعض اصابعه فشى
 وهو يقول دى دى اراد يا يدى فسارت الابل على صوته فقال له الزمه وخلع
 عليه فهذا اصل الحذاء اه • واسماء الانعام عند المغاربة مخالفة لاسمائها
 عندنا وهم يزعمون انهم نقلوا هذا الفن عن اهل الاندلس واهل تونس اكثر
 ترسلا منهم والظاهر ان الموالى من خصوصيات اهل مصر والنسام وكذلك
 الناي والقانون والغالب فى من غنى صوتا واجاء ان يظن ان لم يبق ذو اذن
 واعية الا وسمعه واذا لم يجد النى لنفسه عذرا وذلك بان يتخنجح او يسعل فيحيل
 القصور على شئ طرا عليه هذا اذا كان المغنى غير متخذ الغناء له صنعة
 فاما من درب فيه فقل ان يعرض له خروج لان الصوت كالآلة كلما زاد استعمالا
 زاد جلاء • وكما ان غناء اهل مصر اطرب واعلى من غناء جميع العرب كذلك كان
 غناء الطليانيين اعلى من غناء سائر الافرنج وذلك لكثرة ما فى لغتهم من الحركات
 فهى مثل لغتنا صالحة للغناء والعروض ولكون اصواتهم صادرة عن صدورهم •

اما لغة الانكليز فلكثره السواكن فيها لا تطاوع على الغناء الذى فيه مد وترجع
 الا بتحويل الالفاظ عن وجهها وخرم قواعد النطق بها وانما يحسن بها الاغاني
 المضحكة واصواتهم كلها من ازوارهم وكن أن المغنى منهم يغنى وقد غص بلقمة
 وجيع الافرنج يقولون ان غناء العرب من خياشيمهم وعلى فرض تسليم ذلك فما
 يكون منافيا للاستحجاء والتطريب فان اللغة الفرنسية لا يتكلم بها الا مع الغنة
 وهى مع ذلك اشجى لغات الافرنج جميعا وربما طرب لها من سمعها اول مرة من
 عمره وقد رأيت من الافرنج من كان يطرب للانغام المصرية ولاكن غب طول
 مكث بمصر وكان فى اول امره بأنف منها ويقول انها محزنة ولا يخفى ان العادة
 نائرا فى جميع الاحوال وخصوصا فى المنطق والالخان وناهيك ان الاطفال عندنا
 وعند الافرنج ترقد على الغناء فتعاد عليهم، مذ الصبي فاذا امتزج بامر جتها كان
 سماع غيره ضد المألوف واهل مالطة يرقدون اطفالهم على ما هو اشد بنواح
 الندابات فى بلادنا ولولا العادة لما عجزت الافرنج مع حكمتها عن النطق باحرف
 الحلق وهى التى وفقت حق نسايتهم جزافا وبخست نساءنا حقهن

﴿ فصل ﴾

﴿ فى لغة اهل مالطة ﴾

اعلم صانك الله عن الزلل * وسددك الى صواب القول والعمل * ان اللغة المالطية
 فرع من دوحه العريضة وشبصة من ترمها وهى يتكلم بها فى جزيرتى مالطة
 وغودش وسواء فى ذلك العامة والخاصة غير ان هؤلاء يتعلمون ايضا الطليانية
 والانكليزية لاحتياجهم الى الاولى فى المعاملات والتجارات وكتب الشرع
 وغيرها ولتنافسهم فى الثانية لكونها لغة ارباب الحكم وذلك لان اللغة المالطية لم
 تدون فيها علوم ولم ينهر فيها كتب فهى عبارة عن الفاظ يتداولونها فيما
 هو من مقتضيات الاحوال الساقطة دون ان تنى بحاجتهم فيما يقصدونه من
 وصف او نسيب او وعظ فاذا ارادوا ذلك فزعوا الى الطليانية وهو دليل
 على سفالة طبيعتهم حيث لم يحافظوا من اللغة الا على البتذل واذا اخذوا من
 الطليانية ما مست الحاجة اليه ملطوه والحقوه بتركيب لغتهم كقولهم مثلا
 « ما يرشيش » اى ما يوافق و « كونسيتيه » اى عرفته فى الاول باء المضارعة
 والشين

والشين التي يزيدونها بعد النفي كما تزداد ايضا في اللغة المتداولة الآن في مصر
والسام وهي مختصرة من لفظة شئ وفي الثانية ضمير المتكلم والغائب وكقولهم
«عندي يباشير» اي سرور فيجعلون الظرف خبرا مقدما والنكرة مبتدأ مؤخرا
فهو جار على قواعد العربية وقد قلت فيها

- * تبا لها لغة بغير قراءة * وكتابة عين بلا انسان *
- * تتبلبل الالباب في تركيبها * ويكل عنها كل حد لسان *
- * اذنايها ورؤوسها عربية * فسدت واوسطها من الطلياني *

فان قيل ان الاذنان والرؤوس هنا كناية عن اوائل الالفاظ واواخرها كاداة
المضارعة وال التعريف ونون الوقاية وهذه باقية على الاصل فلم وصفتها
بالفساد قلت ان اداة المضارعة مكسورة عندهم على كل حال وكذا اداة
التعريف والضمير غير ظاهر فانهم يلفظون به كالواو ويحتمل ايضا ان يكون
«فسدت» دعاء في المعنى ومع كثرة ما بقى عندهم من مفردات العربية
وجملها وتأليفها ولا سيما في الامور المتعارفة كما ذكر فقد ذهب عنهم مرادف
الاب وانما يقولون «مسار» بالامالة وكأنها محرفة عن «موسيو» بالفرنساوية
فان حق التلفظ بها ان يكون «مونسيور» وكذلك ذهبت عنهم كلمة التحية
صباحا ومساء فيقولون «بون جورنوعليك» ولعل سبب ذلك ان المسلمين لما افتتحوا
جزيرتهم كانت التحية بينهم «السلام عليكم» وكان استعمالها مقصورا
عليهم كما هو في بلادنا فلم تعرف بين الاهلين وليس هذا باعجب من ذهاب
تحيات العرب العاربة عن المستعربين وقولهم الآن «صباح الخير» الظاهر
انه مولد ومن الغريب ان بعض اعيان المالطين يحاكون الافرنج في
اطوارهم وهيئاتهم حتى اذا نطقوا بلغة انفسهم زال عنهم ذلك الرواء وانجلى
ذلك الابهام واذا تكلموا خلطوا جلة ايطالية باخرى من لغتهم لكن هذه
هي الغالبة فانها لغتهم في الطفولية وقد اخبرني احد فضلائهم انه اقام مدة
طويلة في ايطالية فكان حينئذ يقدر خواطره وافكاره بلغة اهلها ثم لما رجع الى
مالطة لم يلبث ان عاد الى تقديرها بلغته فصدق عليه قول الشاعر

- * كل امرئ راجع يوما لشيته * وان تخلق اخلاقا الى حين *
- واغرب منه ان المالطين بأنفون من تعلم العربية بسبب المثلية بينهنا وبين لغتهم

وهو عين السبب الذى يوجب عليهم لكونهم والحالة هذه لا يعانون فى تعلمها مشقة وعناء ومع ان الذين يعاملون منهم اهل العربية كثير والقاطنين فى بلادهم هم اكثر فاحد منهم يهمه ان يتعلم العربية قراءة وكتابة على انك تجد فى جميع بلدان اوربا افرادا يدرسونها حق دراستها • ثم ان اراء الناس لما كان من شأنها التفاوت والتباين فى جلاء الحقائق ولا سيما اذا كان محل البحث غير متسق على وتيرة واحدة وكانت اللغة المالطية تشتمل على الفاظ من لغات مختلفة اختلفت فيها الاقوال والاحكام فزعم بعضهم انها فينيقية لوجود كلمتين فيها منها وهما البير والصيد كما مريك فى اول هذا الكتاب وزعم آخرون انها حبشية لوجود لفظة واحدة فيها وهى المنبر فان معناها عندهم الكرسي الذى تلد عليه المرأة كما هو فى الحبشية وهو وهم على ما تحققته من اهل اللغة المذكورة وعلى فرض صحة ذلك فلا ينكر ان كثيرا من الكلام العربى الذى بقى فى اهل مالطة مستعمل بطريقة المجاز اما بذكر اللازم واردة الملزوم واما بتخصيص العام وتعميم الخاص كقولهم مثلا وحلت للوقوع فى الامر الصعب واصله الوقوع فى الوحل خاصة ونحو الطلاب للتكفف وهو اسم فاعل للمبالغة من طالب فى كل امر ونحو معلوب للتحيف وهو اسم مفعول من غلب وهو لازم له غالباً وفتيت اى قليل وهو من فت الشئ اذا كسرتة وصغرت جرمه واشباه ذلك لا يحوج الى برهان فيكون المنبر على هذا مما عدل به عن وجه استعماله تجوزا كما انه عدل به ايضا فى العربية الفصحى من التعميم الى الخاص فان معنى النبر فى اللغة الارتفاع فالمنبر على هذا آلة الرفع او محله ثم خصص عند قوم بمحل الخطابة وعند غيرهم بكرسي الولادة وانما قلت آلة الرفع او محله فقد قال الامام الحفاجى فى شرح درة الغواص ما نصه هذا تحقيق بديع لما فيه من الفرق بين اسم الآلة التى تتناول باليد وغيرها فيتعين كسر الاول الاشدوذا فيفتح بعض من الثانى كرقاة ومنارة لانه من وجه آلة ومن وجه مكان وهو فرق لطيف قل من تذب له او تبه عليه اه والحاصل انه لا شك فى كون اللغة المالطية عربية ولكنى لست ادرى اصل هذا الفرع أشامى هو ام مغربى فان فيها عبارات من كلتا الجهتين والغالب عليها الثانية غير ان الالفاظ الدينية من الاولى فيقولون مثلا القديس والقديس

والتقربن والاسقف وما اشبه ذلك مما لا يفهمه اهل المغرب ومن المالمطين
من يقر بان لغتهم غير فينيقية ولا حبشية و~~ا~~كن لا يكادون يقرون بانها فرع
العربية مكابرة وعنادا ولا يخفى ان كل لغة في العالم لا بد وان يدخلها بعض
الفاظ اجنبية اما للحاجة اليها او لتقارب اهل اللغتين واختلاطهما كالعرب
والفرس مثلا والرومانيين واليونانيين في الزمن السابق وهذه اللغة العربية مع
سعتها وغزارة موادها وكثرة تصاريفها لم تخل عن الفاظ بعضها من الفارسية
وبعضها من اليونانية وبعضها من الحبشية والهندية والسريانية والعبرانية
ولم يقل احد ان العربية فرع عن هذه اللغات فكيف لعقلاء مالطة ان يقولوا
ان لغتهم فينيقية بسبب وجود كلمتين منها فيها واقبح من ذلك انهم يظنون ان
فساد لغتهم وانعكاسها عن اصلها العربي ليس من العيب في شئ قياسا على ان
الطليمانية انفصلت عن اللاتينية واستقلت بصيغ خاصة بهادون الاصل وهو
مدفوع بان العربية لم تنقض دولتها ~~كما~~ انقضت اللاتينية حتى تستقل
المالطية بقليل موادها وبان المالطية لم يؤلف فيها شئ الى الآن من كتب العلم
والادب ولم يتكلم بها اقوام فالفرق واضح والحاصل انهم لا يرون فسادها
ولا يشعرون بفجتها ضرورة انهم لم يطلقوا على محاسن اصلها الذي حلثوا عنه
نعم ان اهل الشام ومصر والحجاز وغيرهم قاصرون عن اللحاق باهل العربية
الفصحى و~~ا~~كن ما منهم الا من يشعر بقصوره عنها ويدري عظم التفاوت
بين الطرفين وكل يود لو يصل الى درجة الكمال في معرفتها و~~ا~~كن ذات يوم
سائرا مع جماعة منهم فاخذ احدهم يصف لغتهم وجعل من محاسنها اجتماع
الالفاظ العجمية فيها كأنه يقول انها انتفت ماشاق وراق فثلها مثل العجوز
التي رأت زوجها يزني • ولشدة تعصب المالمطين على اهل اللغة العربية
وتشنيعهم عليهم اذ كان منتهى السب عندهم ان يقولوا عربي كان الانكليز
وسائر الافرنج اقرب منهم الى تعلمها غالبا ولو كان عند اولئك ركن منها عظيم
وذلك ان المالمطي العنيد اذا سمع في العربية مثلا لفظة خرج وكانت عادته منذ
نطق ان يقول خرج فلا يرى في ذلك كبير فرق ولا يرى ان نقطة صغيرة تقوم
المعنى او تفسده بخلاف من يتعلم من اول الامر ان يقول الكلمة على حقها
وكانوا اذا سمعوني وصاحبي نتكلم قالوا ليس من فرق كبير بين اللغتين الا عجمة

في لغتهم يعنوننا ولا يخطر لهم ببال ان لغة لم تضمن بطون الاوراق ولم تضبطها الاحكام التكوينية لا تكفي النوع الانساني وقد تصدى مرة احد مؤلفيهم الى تأليف كتاب نحو فيها فكتب بعد طالعه الفابتو اللغة المالطية ثم ذكر العين بعد الالف فكان خلفا لان جميع اللغات التي تبتدىء بهذا العنوان تكتب فيها اباء بعد الالف فلما وقفت على ذلك كتبت له

* يا قائلا الفابتو وبعدها الف عين * ان كان ذا البدء مينا فكل ذا التحومين * ويقال ان جميع اللغات القديمة والحديثة تبدأ بالالف الا الحبشية فانه فيها الحرف السابع عشر والظاهر من ترتيب حروف المعجم في العربية والسريانية والعبرانية انها اى العربية لا ارتباط بينهما وبينهما • واهل مالطه يلفظون الغين اينما وقعت عيناً والحاء حاء والفلاحون منهم يلفظون القاف همزة ويشمون الالف في نحو قال وباع الضمة وهو غريب فان الضم ايضا عند الهجج من اهل الشام وينطقون بالضاد دالا وبالطاء تاء ولا يلفظون العين اذا كانت متطرفة اصلا فيقولون تلا اى طلع وسما اى سمع ويقال انهم كانوا في القديم يلفظون التاء على حقها • ومما يضحك منه ان الفلاحين اذا خدموا اهل فائدة غيروا لهجتهم فلفظوا الغين عيناً والحاء حاء توهم ان لغة هؤلاء هي الفصحى • واهل غودش يميلون الالف في نحو فيها ومنها والجميع ينطقون بالجيم نطق اهل الشام الا في قولهم جدى فانهم يلفظونها كاهل مصر والظاهر ان حق النطق به ان يكون قريبا من مخرج الشين كما في لغة اهل الشام • ففي المزهري في الفائدة الخامسة من النوع التاسع وهو معرفة الفصحى ما نصه قال الشيخ بهاء الدين في عروس الافراح قالوا التنافر يكون اما لتباعد الحروف جدا او لتقاربها فانها كالطفرة والمشي في القيد نقله الخفاجي في سر الفصاحة عن الخليل بن احمد وتعبه بان لنا الفاظا حروفها متقاربة ولا تنافر فيها كلفظ الشجر والجيش والقم وقد يوجد البعد ولا تنافر كلفظ العلم والبعد ثم رأى الخفاجي انه لا تنافر في البعد وان افراط بل زاد فجعل تباعد الحروف شرطاً للفصاحة اه وقال الاشموني عند ذكر الابدال الشين ابدلت من ثلاثة احرف الكاف والجيم والسين فالكاف نحو اكرمتك قالوا اكرمتش وهي كشكشة تميم كما تقدم والجيم كما في قوله اذ ذاك حبل الوصل مدمش اى مدمج قال ابن عصفور ولا يحفظ غيره وسهل ذلك كون

كون الجيم والشين متفتحين في المخرج اه الا انه يظهر ايضا ان الجيم ككثيرا
 ما تبدل من القاف والكاف مما يؤيد مذهب اهل مصر فن ابدالها من
 القاف قولهم قف العشب وجف والمقذاف والمجذاف وقله وجماء والقشم
 والجشم وشق وشج والقرقس والجرجس وقص وجز وتلقف الحوض وتلجف
 والشرق والشرح ونظائر ذلك كثيرة ومن ابدالها من الكاف قولهم كد
 وجد وكهد وجهد واكن واجن وكرع وجرع وكابة الزمان وجلبته والمخالطة
 والمجالطة وعكر به وعجر والركس والرجس وما اشبه ذلك • فعلى هذا يكون
 استعمال اهل مصر له صحيحا ويؤيده ما ورد في المزهري في النوع الرابع عشر قال
 المهمل على ضربين ضرب لا يجوز ائتلاف حروفه في كلام العرب البتة وذلك
 بكيم تؤلف مع كاف او تقديم كاف على جيم وكعين مع غين او حاء مع هاء اه
 وايضا فانهم يعربون مرة بالجيم واخرى بالقاف مثال الاول الديزج والنيرنج
 ومثال الثاني الرستاق والفرزدق وربما ابدلت من الحرفين معا كقولهم سهجه
 وسهكه وسحقه والذي يظهر لي ان ذلك لغة لبعض العرب غير ان اهل الصعيد
 والمغاربة واهل الحجاز ينطقون بالجيم كاهل الشام • ثم ان اهل غودش ينطقون
 بالاحرف الحاتية على حقها الا انهم يكسرون ما قبل الواو الساكن فيقولون مكسور
 ومفتوح ويضمون ما قبل الالف نحو قاعد وهم جرا ويقولون منكم وعليكم بكسر
 الكاف وهي لغة ربيعة وقوم من كلب كما في المزهري في النوع الحادي عشر
 وتسمى الوكم ويقولون ايضا منهم وبينهم وهي ايضا لغة كلب ومن سفهاء الممالطين
 من يدعى النظم بلغتهم هذه الفاسدة ويقال له عندهم التقبيل فن ذلك قولهم

* ين حنينا ساير نسافر * ساير نسافر ما نأحدكش معي *

* مور وهيا بالسلامه * الله ينظرك في المحبسه تبعي *

وبقي هنا حل ما اعجم من الالفاظ المنكرة قوله ين بمعنى انا وحنينا بمعنى حبيب منادى
 محذوف منه حرف النداء ومن الغريب هنا ان المنادى اذا كان عظيما خطيرا
 يدخلون عليه اداة النداء من الطليانية فيقولون أو مولاي واذا كان حقيرا ادخلوا
 عليه اداة النداء من العربية فيقولون يا تفاح يا عنب وقوله ساير نسافر هو مثل قول
 عامة مصر والشام رايح اسافر وما اللطف هنا عبارة الامام الزمخشري في شرحه
 لامية العرب اذ قال واما المستقبل وان كان مغدوما في الحال ولكن هو مآثر الى الوقوع

والنون في نسافر علامة للمفرد المتكلم لا الجمع فانه نساferو وهى لغة اهل المغرب
والشين في ناحدكش لازمة عندهم بعد النفي والاستفهام كما في العربية الدارجة
ومن اهل الشام من يراها ايضا لازمة ولو بعد الجملة فيقولون ما هو كثيرش
فكان ابرازها ضربة لازب وميعى اصله معى ومور فعل امر من مار اى
ذهب وهو في اللغة كذا وهيا اسم فعل بمعنى اقبل وذكره صاحب القاموس
مكررا وفسره بانه زجر وهو غريب ولا يبعد ان يكون اصله حى وبطربنى
ما روى عن ذلك الاعرابى الذى سمع رجلا يدعو آخر بالفارسية يقول له زوذ
فقال لاصحابه ما يقول قالوا يقول عجل فقال ألا يقول حى هلاك وعلى حى هلاك
تخرج اجية بدبعة ويظلمك اصله اما يزملك او يضمك وما قبل الضمير المنصوب
مضموم وهذا من بعض آثار محاسن العربية القديمة في هذه البلاد والباء من
الحبة مفتوحة قمتة مشبعة وكذا في كل مكان به علامة التأنيث نحو
طيبة وكبيرة وهى ايضا من تلك الآثار واحسن من الامالة فاما تيعى فقد
خبط فيها بصراؤهم خبط عشواء وذلك لانهم يدخلون بين المضاف والمضاف
اليه لفظة تا فيتولون مثلا الدار تا الطبيب ففهم من زعم انها من الطليانية فان
المضاف فيها يفصل عن المضاف اليه بلفظة دى ومنهم من زعم انها من
السريانية فانها فيها كذلك نم اذا اضافوا تا الى الضمير برزت معه العين فيقولون
تاعنا فلهذا لم يدركوا اصلها والصحيح انها محرفة من متاع فان اهل المغرب
يدخلونها كثيرا فى الاضافة ويتبدئون بالميم ساكنة على عاتقهم من الابتداء
بالساكن وتقصير اللفظ وربما قالوا نتاع بالنون ساكنة ايضا فاما العين فان
المالطيين لا يكادون ينطقون بها اذا وقعت آخر الكلمة فيقولون تلا وقلا
فى طلع وقلع كما ذكرنا آنفا ويحذفونها ايضا اذا اتصل بها ضمير فيقولون
طليت وقلت جريا على حذفها بغير اتصال الضمير وقلب العين الفاء او همزة
من اساليب العرب كما فى تفضى وتفصع واقنى واقنع والشاء واشمع وتكأ كأ
وتكمكع وزقاء الديك وزقاعه وزأزا وزعزع اى حرك وبدأ وبدع وامرأة
خبأة وخبعة اى تختبئ تارة وتبدو اخرى والخباء والخباع والخبء والخبع
ونظائر ذلك كثيرة حتى انهم قلبوها متوسطة كما فى نارض وتعرض
ودام الحائط ودعه فاما تليين الهمزة الفا فاشهر من اليينة عليه ومن حرف

ايضا لفظه متاع اهل مصر فقلوا الميم بآء وهى لغة لبعض العرب كما فى درة الغواص فيقولون با اسمك فى ما اسمك واعلم ان فصل المضاف عن المضاف اليه باداة اسلوب حسن يفيد التنصيص وذلك ما اذا كان المضاف منعوتا بنعت صالح لان يعود على المضاف اليه ايضا كما فى عذاب الله العظيم بخلاف ما لو كان بينهما فاصل والارجح رجوعه الى المضاف كما فى المغنى ومن نظم المايطيين ايضا وهو معنى حسن ولكنه مكسور قبيح اللفظ والسبك

* المحبوب تا قلبى سافر * ليلى ونهارى نبكىج *
* جعلتو بدموعى البحر * وبالتنهيدات تا قلبى الريح *
وهو يشبه قول لسان الدين الخطيب

* والبحر قد خفقت عليك ضلوعه * والريح تبلع الزفير وترسل *
ومثله قول التماضى الفاضل

* كأن ضلوعى والزفير وادمعى * طول وريح عاصف وسيول *
وقول ابراهيم بن سهل الاشبلى

* اذا انت ركبنا تكفل شوقها * بنار قراه والدموع بورده *
ومثله ما ذكره على بن ظافر فى بدائع البدائ * شراعتها من فؤادى وبحرها
من دموعى * وبقى هنا اصلاح فاسد اللفظ فنقول قد مر شرح تا انها
تكون بين المضاف والمضاف اليه ونبكىج الحاء مبدلة من الهاء وهى لغة
للعرب ايضا فيقولون المليه والمليج والهاضوم والحاضوم والمدى والمدح
وتا، وتاح وشقه النخل وشقحها وقوله البحر محركة جار على القياس من ان
الاسم الثلاثى الذى اوسطه حرف حلق يجوز القح فيه نحو شعر وشعر ونهر
ونهر قال الامام الحفاجى فى شرح درة الغواص قال ابن جنى فى المحتسب قرأ
سهيل بن شعيب السهمى جهرة وزهرة فى كل موضع محركا ومذهب اصحابنا فى كل
حرف ساكن بعد قح لا يحرك الا على انه لغة فيه كالتنهر والنهر والشعر والشعر
ومذهب الكوفيين انه يجوز تحريك الثانى لكونه حرفا حلقيا قياسا مطردا كالبحر
والبحر قال وما ارى الحق الا معهم اه وما انشدنيهم احدهم بمحضر جماعة

* بنا اشتقت نجى فوق سدتك * نجسى شبيهه تا عصفور *
* نطنى المصباح بجوانحى * فظطيك بوسه ونرجع نموت *
نطنى المصباح بجوانحى

فقلت له لو قلت تأخذ بوسه لكان اولى لان من ياخذ هنا خير ممن يعطى فلم يفهم واستعادنيها فاعدتها عليه فلم يفطن لها لا هو ولا هم ايضا لان المعاريض والمطارحات عندهم في كساد عظيم والمراد بالسدة عند المالطين نفس الفراش وهو في اللغة باب الدار وعندى ان قدماء المالطين كانوا همجسا يرقدون على الابواب فسموا كل مرقد سدة كما انهم سموا كل مكنسة مسلحة وهى في الاصل آلة للسلح وهكذا كانوا يستعملونها ثم اطلاتوها على كل ما ينظف به المكان ولهذا نظائر كثيرة الا ان اهل طرابلس الغرب يستعملون السدة ايضا بمعنى الفراش وقد ذكرت يوما لاحد من يتوسم فيه الادب من اهل مالطة سعة العربية في البديع وخصوصا التورية فقال وكذا هى المالطية وذكر هذه الجملة وهى عندك تيناتا اللحم فقال تينانا يحتمل ان تكون مضارعا من تيته يريد من آتيته او اعطيته وتا اللحم يحتمل ان يكون معناها ما يخص اللحم اى غذه وعندك هنا اغراء وعلى المعنى الثانى يحتمل ان تكون لفظة تينا مفرد التين وتا اللحم مضاف اليها اى تينة لحم والمعنى عندك تينة لحم كناية عن الاست واغراءهم بعند ليس على القياس فانهم يدخلونها على الافعال خاصة ومن سخف تورياتهم ايضا قولهم علاه من غير ماء يوهمون به غلاء السعر ومما بقى عندهم من فصيح العربية قولهم دار نادية وحقها ندية ولكنها افصح من قول اهل مصر والشام ناطية وقابلة اى داية وخطر ومخاطرة اى رهان وغرفة اى عليّة وقولهم فى الدعاء عمروا وتمروا وبدا لى اى عن لى وتطاول ويشرف وصديد وبلحاء وتجالدوا وهو افصح من تعاركوا وزفن اى رقص وبوقال وهى افصح من قول اهل الشام شربة او نعارة ويمارى اى لا يقنع بالحق ويشرق بالماء ويستقصى وفرصاد للتوت وسفود واهل الشام يقولون سيخ وشيش وقد ورد فى كلام النابغة الذبياني بقوله سفود شرب نسوه عند مفتاد وتقزز اى تباعد من الادناس وعسلوج للقضيب وجلوز وهو البندق الذى يؤكل ولكن هذه الالفاظ كلها مستعملة فى الغرب وبهذا يترجع عندى ان اصل المالطين من المغاربة ومن ذلك ضمهم آخر الفعل المضارع احيانا نحو يحسبك ويبدلك وقولهم وعدة وزنة وهما اسمان من وعد ووزن لا مصدران ولذلك سلم فاؤهما كما قال الحماسى

* واذا اتى من وجهة بطريفة * لم اطلع مما وراء خباثته *

قال الشارح ومن روى من وجهه فعناه من سفره الذى توجه اليه و يروى لم اطلع
 ما إذا وراء خباثته ومعنى البيت لم اعرض نفسى عليه متعرفا ما جاء به من سفره
 ليشركنى فى طرفه ويجعلنى اسوة نفسه • ومما يضحك من كلامهم قولهم هذا رجل
 من الكلاب وامرأة من الحمير يعنون ذكرا وانثى لانه ليس عندهم لفظ مرادف
 لهما فيضطرون الى هذا التعبير التبعي ويقولون عمل اللحية اى حلق وجهه
 وكذلك اذا حلق شعر عاتيه ايضا ويقول احدهم للآخر عند الابانة والافصاح
 ين نكلمك بالمالطى فكأنه يقول ان هذا الكلام قد بلغ من البيان بحيث لا يبقى
 للسامع محل للشك فيه ويكثرون من جملة قال لى يكررونها فى اثناء الكلام
 مرارا واذا قصدوا توكيد خبر كرروا اللفظ خمس مرات فاكثر فيقولون ما
 ريتوش قط قط قط قط وما كان ليش فلوس خلاف دا بز بز بز بز
 اى بس وخاده اى اخذه كله كله كله كله كله وما يسوى شى شى شى شى شى
 ونحو ذلك ومن اوزان كلامهم فاعلة المصدر فيقولون عملته بالواقفة او بالقاعدة
 قال شارح الشافية اعلم ان مجئ المصدر على وزن فاعلة اقل من مجئ على وزن
 مفعول كالعافية نحو عافاه الله عافية والعاقبة نحو عقب فلان مكان اييه عاقبة
 وكالباقية كقوله تعالى فهل ترى لهم من باقية اى بقاء وكالكاذبة كقوله تعالى
 ليس لوقعتها كاذبة اى كذب اه واهل النام يقولون يطلع بالطالع وينزل بالنازل
 ومن ذلك وزن فعل بالضم نحو سدد وصرر وهو نادر والاسماء الثلاثة التى
 اوائلها ضمة يتبعونها ضمة اخرى نحو عمر وشغل وهو ايضا جار على القياس
 وكذلك التى اوائلها كسرة يتبعونها كسرة اخرى نحو عجل ورجل ومن قبح عاداتهم
 فى الكلام هم وسائر الافرنج توجيه ما يسوء من القول للمخاطب بدون محاشاة
 فيقولون مثلا انى احبك ما دمت انت حيا وهذا الحريقتلك وهذا النبات يقطع لك
 مصارتك اى مصارينك وهذا التراب يعميك واذا مت جاء الطبيب وشرح جسمك
 عضوا عضوا او يقول لك العائد لائله عن دائك فانه قتال وغير ذلك مما يقتضى
 فيه الاطلاق ألا ترى ما قاله سيد الفصحاء والبلغاء حبك الشئ يعنى ويصم ولم
 يقل يعميك ويصمك وان يكن المعنى عليه • فاما امالة صوتهم عند الكلام وهى
 التى تسميها الافرنج امفازس فغريبة على من لم يتعود سماعها فان لهم مدا فى

الصوت وخفضا غير مألوف لاهل العربية حتى ان الانكليز المولودين بالخطة
يجرون هذه الامالة في لغة انفسهم انعداء من المالمطين وقد يعد هذا النوع عند
الافرنج من لوازم الفصاحة ولكن ليس كذلك الذي يجريه المالمطين فانهم فيه
مشطون وهو يكاد ان يكون في العربية مفقود الاسم والسمى او لعله هو اللهجة
وقد لاحظت في اثناء قراءة المشايخ انهم كانوا يمدون صوتهم عند التباس
المعنى ترويا فيما يستقبلون فكان هذا المد ضرب منه • ومما يضحك ايضا ان
للمالمطين لازمة في الكلام يكررونها وهي سميتش محرفة عن سمعت فعلا ماضيا
والثين لازمة عندهم بعد الاستفهام كما هي بعد النفي ولما كان الانكليز يسمعونها
منهم مرارا جعلوها علما علي من يجهلون اسمه عند النداء وعلى الولدان الذين
يخدمون على الطعام ثم ان بقاء اللغة العربية في جزيرة مالطة ولو محرفة مع عدم
تقييدها في الكتب دليل على ما لها من القوة والتمكن عند من تصل اليهم من الاجيال
ألا ترى ان مالطة قد تعاقبت عليها دول متعددة ودوا لويحملون اهلها على التكلم
بلغاتهم فلم يتهيا لهم وبقوا محافظين على ما عندهم منهم خلفا بعد خلف وهؤلاء
الانكليز يزعمون ان لغتهم ستكون اعم اللغات جميعا واشهرها وما تهيا لهم ان
يعمموها عند المالمطين نعم ان الخاصة منهم يتعلمونها ولكن ليسوا عليها بمطبوعين
فان محاوراتهم بين اهلهم انما هي بالمالطية لا غير وليس الطبع كالطبع
ولا الكحل كالكحل ويقال ان الذي تحصل عند اهل مالطة من العربية مما
هو مأنوس الاستعمال وغير مأنوسه يبلغ عشرة آلاف كلمة مع ان الذي جمع ذلك
جري على طريقة الافرنج من انهم يقيدون في كتب اللغة جميع اللفاظ المشتقة
كاسم الفاعل والمفعول والآلة والاسم المنسوب ونحو ذلك والا لكان هذا القدر
باعتبار انه مواد كافية في المحاورات للافصاح عما في الخاطر فاما في الكتب فلا
ولا احسب الكلام المستعمل الآن في بر مصر والشام يزيد على هذا القدر غير

* ان اهل الشام فيما اظن اكثر مواد من اهل *

* مصر كما ان هؤلاء احسن منهم *

* نسق عبارة والله اعلم *

* تم الجزء الاول المسمى بالواسطة الى معرفة احوال مالطة *

* ويلووه الجزء الثاني المسمى بكشف الخبا عن تمدن اوربا *

الجزء الثاني

﴿ المسمى بكشف المخبا عن تمدن اوربا ﴾

اقول بعد الحمد لله انه في الساعة العاشرة من صباح السبت الموافق لـ ١٢٩٤ من ايلول سنة ١٨٤٨ سافرنا من مالطة الى انكلترا وبعد نحو ساعتين غابت عنا ارضها ولكن لم اقل كما قال الشريف الرضي

* ونلفت عيني فذ خفيت * عنا الطلول تلفت القلب *

وبعد خمس ساعات ظهرت لنا ارض جزيرة صقلية وفي نحو الساعة الثامنة من صباح الغد ارسينا في مرسى مسينه وكان فيه يومئذ بوارج ملك نابولي لحصار البلد فكانت تطلق المدافع عليه ويأتيها جوابها من القلعة فلذلك لم نقيم بها الا بعض دقائق * ويقال ان سكان صقلية الاقدمين كانوا من اسبانيا وكان يقال لهم سيكاتي ثم قدم اليها الاطروسكان من ايطاليا في سنة ١٢٩٤ قبل الميلاد ثم استوطنتها الفينيقيون واليونانيون ثم جاء القرطاجنيون واستولوا على الجزيرة كلها الى ان اخرجهم منها الرومانيون وفي سنة ٨٢١ للميلاد قبحها المسلمون وجعلوا مقر الحكومة في بالرمو ولبثوا فيها مائتي سنة الى ان اخرجهم منها الامير روجر الروماني وفي تاريخ الرومانيين لغيبون انها قبحت في زمن المأمون في سنة ٨٢٣ وزعم بعض المؤرخين انها كانت متصلة بالارض ففصلتها الزلازل المتتالية وفي نحو الساعة الحادية عشرة من صباح الاثنين بلغنا نابولي وهي مدينة ظريفة مشهورة بكثرة العواجل والملاهي والحظ والمتنزهات الزهية والفاكهة الرخيصة الطيبة * وفيها عدة كنائس حسنة واحسن طرقها حيث الخوانيت العظام الطريق المسمى توليدو * ولولا ان ملكة نابولي عرضة للزلازل لكانت احسن بقاع الارض لخصبها واعتدال هوائها * ثم سافرنا منها في ذلك اليوم فوصلنا الى شيفتا فكيه في صباح الثلاثاء فاقنا فيها ساعات وليس فيها شيء يقر العين * ثم سافرنا منها يوم الثلاثاء وقد تزودنا بعض فاكهة فوصلنا الى ليفورنو في صباح الاربعاء * وظاهر هذه المدينة للناظر دون ظاهر نابولي لكنها من داخل اكبر وطرقها اوسع وبنائها من الاجر

المحكم وديارها شاهقة الا انها ليس لطرقها ممشى على الجوانب للناس وكذا هي مدينة نابولي ومرسى ليفورنو حسن وفيها ملهى وعدة اعلام ومدراس لليهود يقال انه اعظم مدراس لهم في اوربا ومكتبة موقوفة وهي ذات اشغال وتجارة واهلها نحو ٧٦٠٠٠ وفي القرن الثالث عشر لم تكن الا قرية حقيرة • ثم سافرنا منها الى جينوى فبلغناها فجر الخميس وهذه المدينة مشهورة بكثرة الصروح العالية والديار الشاهقة جدا • وفيها قصور كثيرة من المرمر وبساتين ناضرة وفاكهة طيبة وهي في نجوة من الارض متفاوضة الوضع وطرقها اضيق من طرق ليفورنو ولهذا كانت عواجلها اقل من تلك الا ان الشمس لا تستحكم في مسالكها لكثرة شرفات الديار المائلة فكأنها مبنية من اصلها لحجب الشمس • وفيها حوانيت بهيجة ولا سيما حوانيت الصاغة ولها قنطرة قديمة شاهقة جدا اذا نظرت منها الى الحضيض هالك ارتفاعها • وفيها الفاكهة الطيبة والخبز النظيف ومحل قهوة في غيضة انيقة وهي في الحقيقة نزهة للناظرين وما اشبهها الا بدمشق وليس على من يدخلها ان يدفع شيئا كان تأسيسها في سنة ٧٠٧ قبل الميلاد وكانت في زمن دولة الرومانيين حافلة غناء وفي القرن الحادى عشر امتدت تجارتها بحرا وبرا وفي مدة الحرب الصليبية وذلك نحو سنة ١٠٦٥ صارت مضاهئة لفيثيسيه في الننى والثروة حيث كانت موردا للعساكر التى كان يراد تجريدتها الى البلاد المشرقية ثم وقع فيها من الفتن والحزب ما اضعف دولتها فدخلت في حاية دولة فرنسا ثم في عهدة شاراك (اي كارلوس الخامس الشهير) فاستخلصها من الفرنسيين وصارت تحزب مع اسبانيا عليهم وفي سنة ١٧٩٦ استولى عليها الفرنسيين ايضا وفي سنة ١٨٠٠ حاصروهم فيها الانكليز والروس وعساكر اوستريا حصارا شديدا فاضطروا الى تسليمها ثم رجعت الى عهدة فرنسا وفي سنة المهادنة وهي سنة ١٨١٤ سلمت للملك سردينية • ثم سافرنا منها يوم الخميس بعد الظهر فبلغنا مرسيلية في الساعة العاشرة من صباح يوم الجمعة واهذه المدينة مرسى عظيم يسع الفا ومائتى سفينة ولا يزال شحونا بالبواخر ولكثرة ورود المراكب اليها قطعوا خليجا من البحر ووصلوه به وفيها عدة مكاتب وملهى يعد من احسن ملاهى اوربا وبستان للنباتات ومكتبة موقوفة ومصرف فسيح اعنى بورس وفي ضواحيها

ضواحيها اكثر من خمسة آلاف دار ولها تجارة واسعة مع المشرق وافريقية وامريكا وانكلترة والبحر الاسود كان تأسيسها في سنة ٥٩٩ قبل الميلاد وكانت في الزمن القديم ملحقة بولايات الرومانيين ومنها توصلوا الى فتح فرنسا وفي هذه المدينة محال عظيمة للقهوة مغطاة حيطانها وسقوفها بالرايا والنقوش والتماثيل وامامها مصاطب يقعد عليها الناس وان لم يسترأ شيئا منها واهل المدينة يصرفون فيها اكثر اوقاتهم كل طبقة منهم تنتاب منها محلا خاصا وفي بعضها ترى قيانا حسانا يغنين وهن كاشفات الصدور وعند ملهاها عدة ديار تسكنها المومسات يدعون الغادى والرائح وهي وسخة الحارات والاطراف لكنها بهية الحوانيت والديار مبلطة الطرق وليس في ديارها مراحيض وانما يجمعون اقدارهم في وعاء الى ان يأتي رجل معه عجلة وعليها برميل كبير فيناولونه الوعاء فيفرغ في البرميل وما يجمعه فيه فانه يبيعه لنديم الارض ولا اعرف مدينة اخرى بهذه الصفة ومنهم من يقذف بالاقدار امام البيوت ليلا فلهذا يشم الماشى في اكثر طرقها رائحة كريهة وماؤها في بعض الديار اجاج ولعدم الاكتفاء به نهروا اليها نهرا كبيرا من مسافة نحو ستين ميلا فاحوج ذلك الى ان يتقبوا له بعض الجبال ثم بنوا عليه جسرا عظيما يستقل على ثلاثة صفوف من القناطر بعضها فوق بعض وفي كل صف خمسون قنطرة وارتفاع اعلاها من الخضيض نحو مائة وعشر اذرع وعرض الماء الجاري فيه تسع اذرع ونصف في علو مثلها وجميع اجار هذا الجسر ضخمة جزيلة وبعد اجراء هذا النهر كثرت عندهم الحياض والعيون ووفرت الفاكهة والبتول وصارت بساكنيها في غاية الريع والنضارة وفي هذه المدينة عدة عرصات مخوفة بالشجر يتمشى فيها الناس وتضرب فيها آلات الطرب العسكرية وفي احد هذه الماشى حوانيت تقم خمسة عشر يوما في السنة تجمع اليها جميع التحف والطرائف واكثر الباعة فيها بنات حسان فاذا مررت بمحانوت حرت بين ان تنظر الى البائعة او الى البائعة وفيها يوجد ايضا محال للعب والنساء واللهو ومشاهدة غرائب الاشياء مصورة على خارج المحل دليلا على وجود اعيانها في داخله وقد اخبرني من يوثق به انه شاهد فيها امرأة ورجلا قد عصب على عينيها بتدليل لكيلا تبصر الحاضرين ثم جعل يأخذ من بعضهم خاتما ونحوه ويجعله في

كفه مطبقة عليه ثم يسأل المرأة عما بيده فتجيبه ولا تخطئ، وانه اخذ مرة درهما قيمته عشرون فرنكا وسألها فقالت في يدك درهم قيمته عشرون فرنكا فقال ويحك ليس في هذه البلاد درهم على هذا الضرب فقالت بلى ولكنه من ضرب الصين وكان كذلك وسألها مرة اخرى عن درهم فرنساوى فاجابته، بانه يساوى كذا وقد ضرب في عام كذا فلما سمعت ذلك اعطته لما انه كان اول مرة طرق مسمعى ثم لما شاهدته عدة مرار برأى العين في باريس ولندرة ستط اعتباره من بالى اذ تحققت ان مع السؤال الذى ياتي به الرجل على المغمض العينين ينذهه على نوع ذلك الشئ المسئول عنه بلحن من القول لا يدركه الا هو وعلى كل حال ففي التلقين والتلقن حذق ودربة • وفي الجملة فان مرسيلى انما يستحسنها من قدم اليها من البلاد المشرقية لا من باريس ولندرة • ثم سافرنا من هذه المدينة في الساعة الرابعة يوم الاحد في سكة الحديد فكان البحر عن شمالنا والجبال والغياض عن يميننا فلم يكن منظر ابهج منه واظن ان بلاد فرنسا اكثر بلاد الدنيا غياضا وحدائق وكثيرا ما كنا نسير في حافلة المجد نحو ساعة ونصف بين الاجم والسبب في تكثيرها احتياجهم الى الوقود بخلاف بلاد الانكليز فان اكثرها سهول ومروج وحقول لاستغنائهم عن الحطب بفحم الحجر وفي فرنسا الجنوبية تنبت جميع الاشجار المعروفة عندنا وذلك كالتين والبرقان والعنب والزيتون والليون مما هو معدوم في بلاد الانكليز غير ان كروم العنب عندهم لا تبلغ في النمو والكبر كروم الشام وفي مسافة الطريق دخل الرتل في قبوة منخلمة منقورة في الصخور فسار فيها نحو عشر دقائق فكان امرأ عظيم المن لم ير مثله من قبل ثم بلغنا مدينة ليون بعد سفر نحو اربع ساعات لم يغب فيها عن ابصارنا ذلك المنظر الانيق وهذه المدينة وسخة الطرق والازقة غير انها حسنة الموقع وحوادثها واسعة عظيمة وفيها معامل لثياب الحرير والقماش وحريرها مشهور فاما الشريط ونحوه فانه يصنع في صنت اتيان ولها مماش حسنة وملهى عظيم ومكاتب عديدة ومدرسة ملوكية ومحكمة جليلة هي من فاخر البناء، ومكتبة موقوفة ومتحف وبستان للنباتات وعدد اهلها نحو ٣٣٠.٠٠٠ وفيها يجتاز نهران احدهما يقال له رون والثانى صون تسير فيهما بواخر مشحونة بالبضائع والميرة وتمر غلى جملة مدن من بلاد فرنسا ثم يلتقيان و يصيران نهرا واحدا

بمدا الى بحر مرسيلية ولا تكاد تمضى سنة من دون ان تزخر شواطئه على الارضين
وقد طغى في هذه السنة حتى كانت الناس تسير في شوارع المدينة في قوارب
فهدبهم كثيرا من البيوت والجسور واهلاك كثيرا من الماشية والناس واتلف
الخلال فيما جاوره فانتهى سائر سكان فرنسا الى امدادهم واغاثتهم واقتدى بهم
الانكليز ايضا وعلى هذا النهر جسور من حديد وحجر وعدة مغاسل للنساء • ثم
سافرنا منها في الساعة الرابعة من يوم الثلاثاء في حافلة المجدد المعروف بالدليجانس
فبلغنا برجا في الساعة السادسة من اليوم الثاني ومنها سافرنا في سكة الحديد الى
باريس فوصلنا اليها في الساعة الرابعة من صباح الخميس وسياتي وصف هذه
المدينة بعد فراغي من وصف انكلترا ان شاء الله وانما اقول هنا انا لما وصلنا اليها
كانت السياسة جمهورية اذ كانوا قد خلعوا الملك لوى فيليب عن الملك ففر بنفسه
واهله الى بلاد الانكليز ملجأ القارين ومأمن القارين ومعما - حصل فيها وقتئذ
من الشغب وسفك الدماء فلم يكد الانسان يتيمر المفجوع من اهلها من المغبوط
فان مترهاتها بقيت غاصة بالناس ثم بعد ان لبنا يومين في باريس سافرنا في
سكة الحديد الى كالى او كالس وذلك في الساعة الثانية بعد الظهر من يوم الاربعاء
الواقع في السابع والعشرين من ايلول فبلغناها بعد الساعة السابعة مساء
وكالى هذه احدى فرض فرنسا المقابلة لانكلترا وهى دون بولون وكانت سابقا
تحت استيلاء الانكليز ايام حروبهم مع الفرنسيين وبقيت في ايديهم مائتين
وثلاث عشرة سنة ثم استرجعها الفرنسيين في عصر الملكة ماري سنة ١٥٥٨
فلما بلغها الخبر اظهرت من الحزن الشديد ما قيل انه كان سبب موتها وقالت اموت
وفي قلبى اسم كالى مكتوبا فكانت كالى عندها اخت حتى عند الفراء وبقيت نورماندى
وانجو ومين وطورين وبواتو وبرتاني وغيرها بيد الانكليز نحو سنة ٢٩٢ واوفق
لنا ان وجدنا باخرة معدة للسفر الى لندرة فركبنا فيها وسارت باخرة بنا واول ما
دخلت في نهر التامس انحجبت عنا الشمس واكتسى الجو سحبابا وكان يوما مطرا
مظلم يقضى بالاسف على شمس مالطة وهذا النهر يختلط بالبحر الملح وتسير فيه الشمس
نحو خمس ساعات الى لندرة والسفر فيه بهيج من جهة ان السفينة تسير فيه سيرا
خفيفا لا اضطراب فيه وترى فيه من البواخر الصاعدة والمنحدرة ما يشغل الخاطر
وله عند الانكليز شان عظيم • ويحكى عن الملك جامس الاول الذى الحق حكومة

مملكة سكوتلاند بانكلترة انه لما نتم على اهل لندرة اشياء انكرها اراد ان ينتقل ديوانه منها فقال له ضابط البلد ويقال له بلغتهم مير اذا كان لابد من ذلك فلا تنقل نهر التامس معك وهو كلام بليغ يشير الى ان اهل المدينة ربما يستغنون عن الملك بوجود هذا النهر لانه من اعظم الاسباب الميسرة للتجارة ولولاه لما حصلت لندرة على هذه الثروة والسعة • والمأكول والمشروب في هذه السفن التي تنقل الركاب من فرض بلاد فرنسا واكثرها للانكليز غاليلان جدا فان قنينة الشراب في تلك الفرض تساوى فرنكا وفي السفن ستة فرنكات وقس على ذلك ثم لما بلغنا لندرة اخذت اثقالنا الى الكمرك وفتست فلم يجدوا فيها ما يوجب الاداء الا انا ادينا على كل صندوق وكل حاجة مستقلة نحو خرج وغيره نصف شلين ثم تبوأنا محلا في احدى الديار وبعد ان استرحنا سافرنا منها في سكة الحديد الى بلدة وير بقصد المسير منها الى القرية التي يسكن فيها الدكتور لي الذي اعتمدته الجمعية لان يكون معارضنا ترجى بالاصل الذي اترجم منه وكان المذكور شهرة عظيمة عند الانكليز في معرفة اللغات الشرقية وكان في مبدأ امره نجسارا لكنه اكب على العلم وقد فات الثلاثين سنة فحصل معلومات غير يسيرة غير انه لم يتمكن من اللغات التي حاولها وسياتي ذكره بعد هذا وحيث كان اسم القرية المذكورة مكتوبا على اثقالنا فلما بلغ الرتل اليها وضعوها في الموقف ونحن لم نشعر بذلك وبقينا سائرين فيها حتى اذا وقف الرتل مرة ثانية سألنا عنها فاخبرنا بانا تجاوزناها بنحو ثلاثة اميال فرجعنا اليها مشاة فوجدنا حاجاتنا سالمة فمرت في طلب شيء للاكل فلم اجد فيها مطعما فقلت لاحد الوقوف الان نجد طعاما هنا قال هلم معي فاخذني الى الجزار وذلك لان مرادف لفظة الطعام عندهم يستعمل غالبا في اللحم قلت اني اريد شيئا آكله فدلني على حانوت بقربه فتوجهت فلم اجد الا الخبز قلت ما الخبز وحده اريد فدلني على دكان آخر فذهبت فوجدت به الفطير فقط فعدت خائبا ولقيت بعض الشرطة فقلت له ألا تهديني الى محل للاكل فدلني على موضع زعم انه شهير يقصده جميع المسافرين فتوجهت فوجدت صاحبه امرأة ضخمة فظنة تحاول اظهار السيادة والامارة في وجه قاصديها فسألتها هل عندك ما يؤكل قالت ما عندي سوى البيض فتبلغنا بما عندها ورجعنا الى الموقف حتى جاء الرتل الذي يسير الى رويستان وهي قرية جامعة وقد ذكرت هذه الحادثة

هنا دليلا على ما يرى من الفرق بين بلاد الانكليز وفرنسا فان القرى الحافلة في هذه ولاسيما التي يقف فيها المسافرون يوجد فيها كل ما يشتهي الانسان من الأكل والمشروب وحين كنا نساfer فيها وتقف حافلة المجد كنا نرى النساء يتسابقن اليها حاملات لاطباق الفاكهة الطيبة ويعرضنها على السفر وكنا نجد ايضا في المطاعم كل ما تشتهي النفس ثم سرنا الى رويستان ومنها الى قرية پارلى وهى على بعد ثلاثة اميال منها فبلغناها في الساعة الحادية عشرة ليلا فتوجهت الى دار الدكتور لي فوجدته مستعدا لتلقى الاحلام السعيدة فقال لي قد كتبت الى الجمعية تخبرني بقدمك فينبغي ان تذهب الليلة لتبيت في خان القرية فبتنا فيها وفي الغد كتب الى الجمعية يخبرهم بأنه اكرم مثواى وعنى بازالى منزلا مريحا فشكروه على عنايته وكانت مدة سفرى من مالطة الى هذا المنفى ثمانية وعشرين يوما

ثم قبل الشروع في الترجمة وفي ذكر شئ من احوالى ينبغى هنا ان اقدم كلاما في احوال انكلترة على وجه الاختصار فان تفصيل ذلك مرجعه الى كتب التاريخ والجغرافية فاقول ان الرومانيين كانوا يسمونها بريتانيا وفي اللاتينى المتعارف تسمى انكليا وفي لغة اهلها انكلاند ومعنى لاند ارض وحين يذكرون بريتانيا فانما يعنون بذلك انكلترة ووالس وارلند وهى منقسمة الى اثنين وخمسين كونيا اى ولاية منها اثنتا عشرة ولاية هى الاصول واشهر مدنها دوفر ونرويش وهل ونيوكاستل وليفربول وبرستول وفلموث وبلميوث وبورتسموت واكسفورد وبرمنهام ومنشستر وشفيلد ونوتنهام وكبريج ويورك وباث وشلتنهام • وهى كثيرة معادن الحديد والفحم والقصدير والرصاص والنحاس وحيواناتها ضليعة حسنة الصورة وبها مراعى واسعة ومروج نضيرة وفيها نحو خمسين نهرا تصلح للسفر اشهرها التامس وجبالها قليلة لا يبلغ اعلاها اكثر من مائة ذراع وطول الجزيرة كلها لا يزيد على ثمانمائة ميل وعرضها في بعض الجهات ثلاثمائة وفي بعضها اقل • وقبل فتح الرومانيين لها لم يكن عنها خبر يعتمد على صحته وقد غزوها مرتين وذلك في سنة ٢٦ و ٥٥ للميلاد وكان عدد اهلها حينئذ نحو مليون وفي سنة ١٨٥١ بلغ عددهم ١٧٤٥٢٢٦٢ وعن غيبون ان الرومانيين كانوا يحسبون بريتانيا

مغاصا للؤلؤ وهو الذى دعاهم الى فتحها وبعد حرب اربعين سنة استولوا على
 اقصى اطراف الجزيرة • وعدد من ولد فيها وفي والس في سنة ١٨٥٤ بلغ
 ٦٣٤٥٠٦ انفس وعدد من مات ٢٣٨٢٣٩ وفيها ١١٠٧٧ ابرشية •
 ويقال انها كانت في الزمن القديم متصلة بارض فرنسا • ونقلت من جرنال
 التيس انه يوجد في انكلترا وارلاند اربعة وخسون قاضيا في المحاكم العليا تبلغ
 وظيفتهم ٢٤١٨٠٤ ليرة وثلاثمائة وخمسة وتسعون قاضيا في المحاكم الادنى تبلغ
 وظيفتهم ٢٩٢٦٦٣ ليرة فتكون جملة القضاة ٤٤٩ وجملة وظائفهم
 ٥٣٤٤٤٧ ليرة قال ولكبير القضاة عشرة الاف ليرة في كل سنة ولقاضي محكمة
 الاستدعاء ستة آلاف • ويوجد في بريطانيا ١٨٥٨٦ من القسيسين المنتمين الى
 الكنيسة المتصلة و٥٨٥٢١ من قسيسى الكنيسة المتفرعة وسأتى بيان الفرق
 بينهما و١٠٩٣ من قسيسى الكنيسة البابوية و١٤٧٧ من طلبة علم اللاهوت
 والمدرسين فيه فتكون الجملة ٣٠٦٤٧ وعدد فقهاء الشرع ١٨٤٢٢ ما عدا
 ١٦٧٦٣ ما بين وكيل دعوى وكاتب صكوك ونحو ذلك وعدد الاطباء ١٨٧٢٨
 ما عدا التلامذة الذين دخلوا في سلك المتطبيين و١٥١٦٣ ما بين جراح
 ودوائى ويضاف اليهم اكثر من الف ومائة من معالجي الاسنان و ٤٣٠ صانعا
 لآلات الجراحة فاصحاب هذه الحرف الثلاث اعنى القسيسية والفقهية والطبية
 ومن يتعلق بهم وينضم اليهم يبلغون ١١٠٧٣٠ وعدد المؤلفين واهل
 الادب ٢٨٦٦ منهم اربعمائة وستة وثلاثون مؤلفا يكتبون لنا شرى الكتب
 و ١٣٠٢ ما بين كتاب وناشر • وعدد اهل الصنائع الطريفة ٨٦٠٠
 من جملتهم الرسامون وعدد المدرسين في العلوم اربعمائة وستة وستون وعدد
 المهندسين ٣٠٠٩ وجملة المشتغلين بالتعليم والتخريج ١٠٦٣٤٤ منهم ٣٤٣٧٨
 رجالا و٧١٩٦٦ نساء وفي عداد الاول ٢٣٤٨٨ يعلمون في المكاتب و ٤٣٧١
 يعلمون مطلق التعليم و ٣١٤٩ يعلمون الموسيقى و ١٥٣٠ يعلمون اللغات
 و ٥٥٤ يعلمون الهندسة وفي القسم الثانى اعنى النساء ٤١٨٨٨ يعلمن في
 المكاتب و ٢٥٩٥ يعلمن مطلقا و ٢٦٠٦ يعلمن الموسيقى ويوجد اكثر من الفين
 من اللاعبين واللاعبات في الملاهى فن الرجال ١٣٩٨ ومن النساء ٦٤٣
 ومن اهل الموسيقى الرجال ٣٦٦٨ ومن النساء ٤٣٢ وعدد الذين هم في
 الخدمة

الخدمة المدنية ٧١١٩١ من سن عشرين سنة فصاعدا منهم ٣٧٦٩٨ في خدمة الادارة المدنية و ٢٩٧٨٥ في خدمة دواوين الميرى و ٣٧٦٨ في خدمة دولة الهند ومقامهم في برتانيا • ثم اتى اخذت في ان اذهب الى الدكطرى فى كل يوم لاترجم التوراة ثم اعود الى منزلى ملازما له فلم تمض على ايام حتى عيل صبرى لان هذه القرية التى قدر الله ان اسعد الناس بترجى فيها كانت من انحس قري الانكليز على ان جميع قراهم لا تليط بقلب الغريب لما سياتى • ولم يكن فيها للاكل غير اللحم والزبدة المخلوطة بالجزر والخبز المخلوط بالبسطاطس والجبن واللبن المذيق والبيض والكرب وذلك بغنى عن ذكر ما هو معدوم فيها على ان هذه اللوازم انما كانت نفاية ما يوجد فى المدن ومن عادة الانكليز ان يكون لهم بالقرب من القرى بليدة يباع فيها ما يلزم لهم من المأكول والمشروب والملبوس والانايب فيذهب اليها الفلاحون مرة فى الاسبوع ويشترىون ما يلزمهم وقد يمر على البيوت ليلا رجل ينفع فى البوق تنبيهها على ذهابه الى تلك البليدة فمن شاء ان يشتري شيئا كلفه به وجزاه على ذلك وقد يمر ايضا بتجار بمجلات فيها نحو البن والشاى والسكر او يكون معهم راموز هذه الاشياء ليعشوا منها المشتري من حوائثهم وبمثل هذه الاسباب المتنوعة والصعوبة المبرحة يحصل الانسان ما لا بد له لقوام عيشه • اما محار البحر والسرطان والانكليس وهذا الذى يسمونه البسترا وهو طيب ما يؤكل عندهم وهو فى شكل البرغوث واكبر من السرطان فلا وجود لها البتة واما السمك فلا يرد منه الا مرة فى كل ثلاثة اشهر على ان جميع اصناف سمكهم مسيخة الا صنفا منها يقال له سمى وهو طيب لكن لا بالسببة الى سمك بلادنا وقد يضعونه فى الثلج ليلا ويعرضونه للبيع نهارا فربما كان عمر السمكة بعد صيدها اطول منه قبله ولكن ريب الثلج هذا لا وجود له الا فى المدن ومن قدم الى لندرة ورأى فيها تلك الحوانيت العظيمة والاشغال الجملة والغنى والثروة حكم على جميع الانكليز بانهم اغنياء سعداء ولكن هيهات فان اهل القرى هنا كاهل القرى فى الشام بل هم اشد قسفا وكثيرا ما تقرأ حكايات تدل على بؤسهم وقسفى معيشتهم مما لا يقع فى بلاد اخرى • فمن ذلك حكاية عن حائك شكا حاله الى احدى النساء الخدومات فقال يا سيدتى انى حائك وان لى امرأة وثلاثة اولاد بقوا من

عشرة فجعت بهم ودخل من كدى الليل والنهار لا يزيد على سبعة شلينات في الاسبوع ولكن على ان اعطى منها شلينا واحدا لاجل النول واربعة في الشمع الذى اسهر عليه فقالت له وكيف تعيش على هذا الدخل القليل قال على قدر الامكان ألا وقد مضى علينا ستة اشهر لم نشتر فيها رطلا واحدا من اللحم بل لا تقدر على مشترى الحليب الا بالجهد فجل طعامنا انما هو الشعير وحساء الماء وقد يكون لنا في بعض ايام الآحاد ادام من البطاطس اما انا فلا ابالي فاني قد الفت البؤس والضنك ومذ سنين عديدة لم اعرف شيئا من الدنيا سوى الكد والكدح المبرح على قلة الاجرة ولكن همى بالاولاد وباهم الخيفة اه فقله انه لم تقدر على شراء الحليب مع كونه في الريف ارخص الاشياء بالنسبة الى غيره يغنيك عن مزيد البيان فيما يكابده هؤلاء الناس وكثيرا ما تقرأ ايضا في صحف الاخبار عن اناس تركوا اولادهم من الاملاق او ماتوا من الجوع والبرد او النوم على الاماكن الندية القذرة او اعتقدوا خاتوا جوعا نعم انه يوجد مستشفيات وملاجئ يقوم بها الاهلون امدادا للفقراء والعاجزين ونحوهم الا انها ربما كان عدد من فيها لا يقبل الزيادة او كان اللبث فيها ضنكا او الدخول اليها صعبا ونحو ذلك • وقد يبلغ من فقرهم انهم يتركون اطفالهم بغير معمودية لئلا يعطوا القسيس مصروفها • واعرف في القرية المذكورة اولادا كثيرين لم يتعمدوا مع انهم من اتباع الكنيسة المتأصلة التي توجب المعمودية ولا تأذن لمن مات غير معمد ان يدفن في مداقنها فتزله منزلة المنحدر • وسبب فرط فقر الفلاحين هنا هو كون الارض قد دحاها الله تعالى لان تكون ملك الامراء والاشراف فقط فيستأجرها منهم اناس مأمونون ويستخدمون بعض الفلاحين في حرثها واستغلالها فلهمذا لن نجد في القرية احدا ذا رواء ورياش الامتأجر الارض وقسيس القرية على انه لا يلي شيئا من امور اولاده الروحانيين سوى الخطبة فيهم يوم الاحد لانه يستخدم تحت يده قسيسا يعطيه نحو ثمانين ليرة في السنة و يلقى عليه احوال الكنيسة وهذا المبلغ هو دون وظيفة طباخ الاسقف في بلاد الانكليز فعلى هذا القسيس ان يعمد اولاد الرعية وان يدفن الموتى منهم ويزوج احدانهم ويعود مرضاهم وغير ذلك • وعدد ملاك الارض في انكلترا نحو ستين الف عائلة لا غير وقلما يذوق هؤلاء المساكين.

المساكين اللحم فجل اكلهم الخبز والخبز فجزار القرية لا يذبح شاة او بقرة الا مرة في الاسبوع ولا يبيع من اللحم الا نصف رطل او ربعة واذا ذبح شاة فلا يسلمها ويحجز لحمها الا بعد يوم والبقرة بعد يومين او ثلاثة نعم انه قد يربي احدهم خنزيرا في دويرته ويذبحه و يتخذ لحمه كالبورمة التي تتخذ في بر الشام ويطعم منه في ايام الاحاد ومن كان ذا يسر قليل اشترى قطعة لحم في يوم السبت وطبخها وتباغ بها عامة الاسبوع باردة اذ ليس تسخين الطعام مألوفاً عندهم فهم اخرى ان يأكلوه باثنا مديام من ان يسخنوه ولما طلبت من المرأة التي كنت نازلا عندها تسخين طعام بقى لي من الغداء لم نكد تفهم مني الا بعد شرح وتفسير وراح كل منا يتعجب من صاحبه • وليس في القرى مواضع للهو والحظ واذا ارادوا اللهو عدوا الى اجراس الكنيسة يضربونها فتوم عندهم مقام آلات الطرب ومن الحظ عندهم ان يجلس الرجل مع امرأته ينظران الى الخنايص التي يربانها او الى ما يزرعانه من خسيس البتول في عرصته فان لكل منهم في الغالب بضع اذرع من الارض امام بيته يزرع فيها نحو الفجل والكرنب وما اشبه ذلك ولولا ذلك لكانت عيشتهم شرا من عيشة البهائم وقد ترى في القرية دكانا فيه نفاية ما يباع من الشمع والصابون والسكر والبن والشاي وبيتا حتميرا يباع فيه شئ من البصل والبطاطس والحلويات الرديئة والتفاح المسيخ تنظرها من طاقة البيت ولو اشتريت ذلك جميعه لما بلغت قيمته خمسين قرشا وفي اوان الشتاء لا يمكن للانسان ان يخرج من منزله لاستنساخ الهواء وذلك لكثرة الوحل في الطريق فقد يمكث عدة ايام رهين بيته وليس في القرى خيل او حير او بغال او عواجل تكري فليس الامر ككوب النعل وقد يكون لبعض المتشبعين بحجة يحركونها بارجلهم اذا ارادوا ان يذهبوا من قرية الى اخرى فتجري بهم من دون حصان ولا حمار وبعضهم يكون له عاجلة صغيرة مفتوحة يجري بها حصان صغير فثل ذلك لا يدفع عليه شئ للميرى فاما العواجل المعتادة والخيول فلا بد من الاداء عليها كما سيأتى بيانه في محله وكنت كلما اضطررت الى المؤنة ذهبت الى البلدة ماشيا ومرة اضطررت الى ان اذهب في التسابوت الذي ينقل فيه الدمان لكنه كان فارغا وعلى فرض ان يسكن غنى احدي هذه القرى فلا يمكنه ان يتنعم بغناه اذ لا يجد فيها الا ما يجده الفقير الا ان يجلب مؤنته من

لندرة وغيرها ويعلم الله انى مدة اقامتى فى تلك القرية المشؤومة لم يكن لى هم
الا بتحصيل لوازم المعيشة فكنت اجلب بعض القطرانى من كبريج وبعض
النقل من رويستان والمزر من لندرة فى سكة الحديد ولكن لما وجدته غالبا
اقتصرت عن جلبه فاستولى على ضعف المدة ووهن فى ركبى لم احس به فى
عمرى قط فان مزر القرى ردى اذ ليس منه الا ما يذبط بالمنبطة دون المرعى فى
زجاج وهو كالدواء سواء الا انه غير نافع وقد غشى على مرة فى دار الدكتور لى
وانا اترجم فامر خادمته بان تتداركنى بكسرة خبز مشوية • اما الصيف فانه وان
يكن غير مزهق الا انه منغص لعدم وجود البتول المرطبة فيه ولعوز الفاكهة
كما ستعلم ولا سيما ان أكثر شرب اهل الريف انما هو من منافع من ماء المطر وأكثرها
يعلموه الطحلب فاذا نسفت عمدوا الى الآبار وهى قليلة يدخرونها الى الحاجة وهى
ايضا من المطر الا ان الانكليز قلما يشربون الماء فانهم يستغنون عنه بالجمعة وقد
مضى علينا فى الصيف نحو شهرين لا نذوق فيهما شيئا من الفاكهة والخضرة
الا ما ندر وفى شهر نيسان انقطع عنا المذاق الذى كنا نشتره لاجل القهوة
لانهم كانوا يسهونه الخنازير ولا يبيعونه فاضطررنا الى ان نتوسل باحدى النساء
لتشفع فينا عند صاحبة البصرة فى امدادنا كل يوم بما يكفى للقهوة فقط ففعلت
ثم جاءت بمشرة لنا بقبول خالص شفاعتها فى المذاق وان صاحبة البصرة رضيت
بان تبيعنا كل يوم بنصف بنى تفضلا وتكرما فاعطىناها شكرا ونساء ومطأطأة
رأس وانحناء وفى هذا الشهر المبارك لم يكن يوجد شئ من الفاكهة ولا من
البقول وكانت البصلة الصغيرة تباع بينى مع ان الحقول كلها كانت ناضرة زاهية
فاللار فيها هو كراكب البحر وهو ظمئى وأكثر ما يزرع الانكليز فى حقولهم انما
هو القمح والشعير واللفت والبطاطس واصل جلب هذه اليهم من امريكا فى
سنة ١٥٨٦ فاما البقول فيزرعونها فى عرصات الديار لمؤنتهم فقط وهى قليلة
جدا ولما كان جل علف البتر من اللفت كان لجمها ولبنها لا يخلوان من طعمه
واذا زرعوا البتول فلا بد وان يضعوا معها شيئا من الملح والجير ويكثر من
تدميلها فلهذا لا تكون زكية الا انها تنمو نموا فاحشا فان الفول قد يعلمو
مقدار قامة الربة وكذا اللوبياء والقمح والشعير والرشاد يبلغ اطول من
ذراع ونحو ذلك الحس والنعناع والكرفس وقد تبلغ الكرنبة قدر الجرة
الكبيرة

الكبيرة وتكون التفاحة او الاجاصة نحو البطيخة الصغيرة وقس على ذلك
 البصل والكرات حتى ان الحيوانات البرية والبحرية تتكبر عندهم غاية التكبر
 فان السرطان يكون في قدر رأس الآدمي وقد وزن مرة ديك حبشي فبلغ اربعين
 رطلا ورطل الانكليز نحو ١٥٠ درهما وكان ارتفاعه ثلاثة اقدام واصل جلب الجزر
 الى هذه البلاد كان من هولاند ولم ينبت هنا قبل سنة ١٥٤٠ ولكنه لم يكن اولا
 في هذا الكبر واصل جلب القنبيط كان من جزيرة قبرس وكان منذ ستين سنة يرسل
 من هنا الى بلاد البورتوغال على سبيل الهدية والطرفة ويحرقون على الخيل والبقر
 جميعا وحين يزرعون القمح وغيره يمدون خيطا من اول الحقل الى آخره حتى
 تأتي الانلام مستقيمة وفي كثير من البقاع يخافون عليه من آفة تعرض له من
 الدود فيزرعون بينه حشيشا سما ليقتل الدود فاذا حصدوا القمح حصدوا
 معه الحشيش ايضا وباعوه على حدته وربما اخفل فبقي مختلطا بالقمح وطعن
 معه فقد قرأت في كثير من صحف الاخبار ان كثيرا ماتوا من الخبز وهذا هو
 ايضا سبب وضعهم الملح مع البقول فاجب لقوم يطبخون طعامهم بلا ملح
 والخبز مزروعاتهم ويسمونهم ومما لا ينبت عندهم شجر البردقان والليمون الحامض
 والحمض وقصب السكر والموز واللوز والفسق والتين والشمس والحوخ
 والدراق والصنوبر والتمر والمان وهذا الاخير لا يعرفون ماهيته والصبار
 والآس والزيتون والبطيخ والقثاء والبادنجان والبايما والملوخية والحمص والعس
 والماش وقل وجود الخرشف والخيار والسفرجل وشجر التوت لا يرى الا للفرجة
 والطيب من فاكهتهم انما هو الاجاص والتفاح وقد يكبران حتى تملأ الواحدة
 منهما الكف وهذا الاخير يدوم الشتاء كله في المطامر ولكن يباع في القرى
 على قلة واصل جابه اليهم كان من بر الشام وذلك في سنة ١٥٢٢ فاما
 البردقان فيرد الى المدن الكبيرة من اسبانيا والبرتوغال وكذا العنب وقد يربون
 شجرهما في بيوت من زجاج ويسخنونها بالنار لان حرارة هوائهم لا تكفي
 لانباتهما ولكن يكون سعره اغلى من سعر المجلوب اليهم وما ينبت في غير هذه
 البيوت من العنب فانه يبقى حثرا وهو ما لا يوضع ويبقى حامضا صابا وعندهم
 ثلاثة اصناف من الخمار او اربعة كحب الآس عندنا وهي قليلة الجدوى ولا سيما
 كونها لا تقوى على الرياح فقل نسمة تذهب بها وكذلك عندهم ثلاثة اصناف

او اربعة من البقول لا توجد عندنا وهي ايضا تافهة • ويحق لي ان اقول بعد الاختيار والتحرى ان جميع ما ينبت في بلاد الانكليز هو دون ما ينبت في فرنسا في الطيبة والزكاء وجميع ما ينبت في هذه هو دون ما ينبت في بر الشام وما ارى العلة في ذلك سوى كثرة السرقين في الارض وقلة الحرارة في السماء نعم ان جميع ما ينبت عندهم هو اكبر جرما مما ينبت عندنا كما تقدم ولكن شتان ما بين الكبر والطعم الا ان الانكليز يتنافسون في كل شئ ضخم • اما انواع الرياحين والزهور والاشجار غير المثمرة فكثيرة عندهم وعنايتهم بها اشد من عنايتهم بالبقول المأكولة على ان جل ازهارهم لا عرف له غير اني رأيت عندهم جملة انواع من الزهور ذكية الرائحة مما هو في مالطة لا رائحة له اصلا وكثيرا ما يذكرها المؤلفون منهم في كتبهم وتلهج بها النساء في محاوراتهن حتى ان احداهن سجدت مرة فكانت صواحبها يهادينها بباقات من الزهر وفي اعياد ميلادهن يطرفن به فيغني ذلك عن طرف القماش والجواهر فهي في الواقع صلة الرحم وسبب الوداد واذا رقصت امرأة في ملهى واعجبت الحاضرين نقطوها بباقة وعلى ذكر التنقيط يعجبني قول ابن المعتز في ملبح جذر

* يا قرا جذر لما استوى * فزاده حسنا فزدنا هموم *

* كأنما غنى لشمس الضحى * فنقطته طربا بالنجوم *

قلت واهل اللغة اهلوا هذا الحرف بهذا المعنى والضمير في زاده يرجع الى التجدير المفهوم من الفعل وهو رد على الحريري حيث منع ان يقال جذر بالتشديد لكونه ليس للتكثير • اما ارض انكلترا فكها سهل محروث مزروع تشبه ارض البتاع في الشام فل ترى فيها بقعة واحدة بورا فكأنها جميعها لرجل واحد ذي عيال في كونها لا يغادر منها محط قدم من دون منفعة فلا ترى الا غياضا وحقولا ومزارع ومروجا وديارا والظاهر ان بلاد الانكليز اعظم حرثا واعمر من بلاد فرنسا وكل شئ فيها من نام وحيوان تراه في غاية الريع والنمو وكنت قبل حضوري اليها احسبها كلها جبالا لما كنت اسمع من شدة بردها فاذا هي قاع صفصف وقرأت في بعض الاخبار ان قيمة ما تحصل من غلالها في سنة ١٨٤٧ بلغت ٥٤٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ليرة وقس على ذلك سائر السنين واحسن بقعة في الارض يغادرونها مرعى للضان ومسرعا فلهذا كان لحم الضان عندهم فاخرا

فاخرا جدا ومع شدة عنايتهم بتربية الماشية فانهم يحتاجون الى جلب الجلود من
الروسية والغرب الاقصى وثمان ما يجلبونه منها يبلغ في السنة ٥٠٠٠٠٠٠٠ ليرة يذهب
نحو نصفها في عمل الاحذية والباقي في غير ذلك وفي بعض الصحف ان في كل
من انكلترة وفرنسا يربي نحو خمسة وثلاثين مليوناً من الغنم ومن كل من العددين
يحصل قدر من الصوف متساو الا ان غنم فرنسا يحصل من لحمها اقل مما
يحصل من تلك وقد يبلغ الحاصل من اقليم شستر من الجبن مبلغ وافر
وما يحصل من لبن البتر في فرنسا يبلغ مليون لستر ثمن كل لستر نحو عشرة صنتيم
وما يحصل من لبن البتر في انكلترة يبلغ ضعف هذا القدر ويبيع بضعف قيمة ذلك
والانكليز يربون ثمانية ملايين من الماشية في احدى وثلاثين مليون جريب والفرنسيين
يربون عشرة ملايين في ثلاثة وخمسين مليون جريب • وجزاروا فرنسا يذبحون
في السنة غالبا اربعة ملايين من الماشية تبلغ خمسين مليون كيلو غرام والانكليز
يذبحون مليونين ولا يذبحون من العجل قدر ما يذبح عند اولئك • والحاصل في
فرنسا من الحليب مائة مليون فرنك ومن اللحم اربعمائة مليون ومن الحث مائتا
مليون والحاصل في انكلترة من الحليب اربعمائة مليون فرنك ومن اللحم خمسمائة
مليون فيكون الحاصل من كل بقرة في انكلترة من اللبن واللحم فقط اكثر من
الحاصل من البقرة في فرنسا من اللبن واللحم والحرث معا هذا ما نقلته وفيه نظر ومع
خصب ارضهم وكثرة غلالهم كما بيناه آنفا فانهم يجلبون كثيرا من المأكول والمشروب
من البلاد الاجنبية فقد قرأت انه في مدة ستة اشهر جلبوا من البقر ١٢٢٣٧
رأسا ومن الغنم ٢٩٢٦٨ ومن البيض ٧٤٥٤٥٤٠٦ ربيضة وفي سنة ١٨٥٠
جلبوا من الجبن ٢٧٠٠٠ طن وفي سنة ١٨٤٨ جلب من ارلاندا من البقر
اثنان وثمانون الفا وخمسمائة واثان وتسعون رأسا ومن الغنم مائة الف
وثلاثمائة وستة وستون ومن الخنزير ثلاثمائة واحد وثمانون الفا وسبعمائة واربعة
واربعون وقيمة ما جلب من البطاطس في عام واحد بلغت نحو عشرين الف ليرة
وقس على ذلك الزبدة والفاكهة والقطاني وبهذا يتبين لك ما يلزم لاطال هؤلاء
القوم واسافلهم وفي الحقيقة فان انكلترة قد ضاقت باهلها ولهذا يهاجر منها
في كل سنة نحو مائتي الف وخمسين الفا واحسن اقاليمها في التضارة والريع
اقليم كنت وفي كثرة اشجار الفاكهة دوفشير واذا دخلت حتى شيتير فهول •

او اربعة من البقول لا توجد عندنا وهي ايضا تافهة • ويحق لي ان اقول بعد الاختيار والتحرى ان جميع ما ينبت في بلاد الانكليز هو دون ما ينبت في فرنسا في الطيبة والزكاء وجميع ما ينبت في هذه هو دون ما ينبت في بر الشبام وما ارى العلة في ذلك سوى كثرة السرقين في الارض وقلة الحرارة في السماء نعم ان جميع ما ينبت عندهم هو اكبر جرما مما ينبت عندنا كما تقدم ولكن شتان ما بين الكبر والطعم الا ان الانكليز يتنافسون في كل شئ ضخم • اما انواع الرياحين والزهور والاشجار غير المثمرة فكثيرة عندهم وعنايتهم بها اشد من عنايتهم بالبقول المأكولة على ان جل ازهارهم لا عرف له غير اني رأيت عندهم جملة انواع من الزهور ذكية الرائحة مما هو في مالطة لا رائحة له اصلا وكثيرا ما يذكرها المؤلفون منهم في كتبهم وتلهج بها النساء في محاوراتهن حتى ان احداهن سجدت مرة فكانت صواحبها يهادينها بباقات من الزهر وفي اعياد ميلادهن يطرفن به فيغني ذلك عن طرف القماش والجواهر فهي في الواقع صلة الرحم وسبب الوداد واذا رقصت امرأة في دلهي واعجبت الحاضرين نقطوها بباقة وعلى ذكر التقيط يعجبنى قول ابن المعتز في ملبج جذر

* يا قرا جذر لما استوى * فزاده حسنا فزدنا هموم *

* كأنا غني لشمس الضحى * فنقطته طربا بالنجوم *

قلت واهل اللغة اهلوا هذا الحرف بهذا المعنى والضمير في زاده يرجع الى التجدير المفهوم من الفعل وهو رد على الحريري حيث منع ان يقال جذر بالتشديد لكونه ليس للتكثير • اما ارض انكلترة فكها سهل محروث مزروع تشبه ارض البقاع في الشام فلن ترى فيها بقعة واحدة بورا فكأنها جميعها لرجل واحد ذي عيال في ككونها لا يغادر منها محط قدم من دون منفعة فلا ترى الا غياضا وحقولا ومزارع ومروجا وديارا والظاهران بلاد الانكليز اعظم حرثا واعمر من بلاد فرنسا وكل شئ فيها من نام وحيوان تراه في غاية الريع والنمو وكنت قبل حضوري اليها احسبها كلها جبالا لما كنت اسمع من شدة بردها فاذا هي قاع صفصف وقرأت في بعض الاخبار ان قيمة ما تحصل من غلالها في سنة ١٨٤٧ بلغت ٥٤٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٠٠٠ ليرة وقس على ذلك سائر السنين واحسن بقعة في الارض يغادرونها مرعى للضان ومسرعا فلهذا كان لحم الضان عندهم فاخرا

فاخرا جدا ومع شدة عنايتهم بتربية الماشية فانهم يحتاجون الى جلب الجلود من الروسية والغرب الاقصى وثمان ما يجلبونه منها يبلغ في السنة ١٥٠٠٠٠٠٠ ليرة يذهب نحو نصفها في عمل الاحذية والباقي في غير ذلك وفي بعض الصحف ان في كل من انكلترة وفرنسا يربي نحو خمسة وثلاثين مليوناً من الغنم ومن كل من العددين يحصل قدر من الصوف متساو الا ان غنم فرنسا يحصل من لحمها اقل مما يحصل من تلك وقد يبلغ الحاصل من اقليم شستر من الجبن مبلغ وافر وما يحصل من لبن البقر في فرنسا يبلغ مليون ليرت ثمن كل لتر نحو عشرة سنتيم وما يحصل من لبن البقر في انكلترة يبلغ ضعف هذا القدر ويباع بضعف قيمة ذلك والانكليز يربون ثمانية ملايين من الماشية في احدى وثلاثين مليون جريب والفرنسيين يربون عشرة ملايين في ثلاثة وخمسين مليون جريب • وجزاروا فرنسا يذبحون في السنة غالبا اربعة ملايين من الماشية تبلغ خمسين مليون كيلوغرام والانكليز يذبحون مليونين ولا يذبحون من العجل قدر ما يذبح عند اولئك • والحاصل في فرنسا من الحليب مائة مليون فرنك ومن اللحم اربعمائة مليون ومن الحنث مائتا مليون والحاصل في انكلترة من الحليب اربعمائة مليون فرنك ومن اللحم خمسمائة مليون فيكون الحاصل من كل بقرة في انكلترة من اللبن واللحم فقط اكثر من الحاصل من البقرة في فرنسا من اللبن واللحم والحنث معا هذا ما نقلته وفيه نظر ومع خصب ارضهم وكثرة غلالهم كما بيناه آنفا فانهم يجلبون كثيرا من المأكول والمشروب من البلاد الاجنبية فقد قرأت انه في مدة ستة اشهر جلبوا من البقر ١٢٢٣٧ رأسا ومن الغنم ٢٩٢٦٨ ومن البيض ٧٤٥٤٥٤٦٠ بيضة وفي سنة ١٨٥٠ جلبوا من الجبن ٢٧٠٠٠ طن وفي سنة ١٨٤٨ جلب من ارلاندا من البقر اثنان وثمانون الفا وخمسمائة واثمان وتسعون رأسا ومن الغنم مائة الف وثلاثمائة وستة وستون ومن الحنث ثلثمائة واحد وثمانون الفا وسبعمائة واربعة واربعون وقيمة ما جلب من البطاطس في عام واحد بلغت نحو عشرين الف ليرة وقس على ذلك الزبدة والفاكهة والقطاني وبهذا يتبين لك ما يلزم لاعالي هؤلاء القوم واسافلهم وفي الحقيقة فان انكلترة قد ضاقت باعمالها ولهذا يهاجر منها في كل سنة نحو مائتي الف وخمسين الفا واحسن اقاليمها في النضارة والريع اقليم كنت وفي كثرة اشجار الفاكهة دوفشير واذا دخلت حتى ششير فتهول •

اما حيواناتهم فعلى نسق بقولهم من الكبر والضعامة منها الخيل وهى نوعان ضليع ضخيم وهو ما يستعمل فى جر الانتقال فترى الحصان كالبرج المرصوص ويحمل اربعمائة رطل من ارطالهم ونمذ مائة ايرة والسانى خفيف مشوق وهو للركوب والسباق او لجر عواجل العظماء وربما سار فى الساعة ثمانية عشر ميلا ويقولون ان خيلهم اعتق من خيل العرب وان يكن اصل بعضها من تلك ويقال انه فى زمن الملكة اليصابات لم يكن فى جميع مملكة انكلترا اكثر من الفى فرس وبقرهم تعظم فى عظم جواميس مصر ولحمها طيب الا انه كثير الدم وهى حسنة الخلقة والشكل وكذلك ثمنهم تسمن سمنا فاحشا وهى ايضا مليحة ولكن ليس لها الايا كنهم النعام ولعلها هى النوع الذى يقال له القهد والهر عندهم ظريف وهو اخرى بان تخلق الحواجب على فقدته من هر قدماء المصريين اما الحمير فانها قبيحة وغير فارهة على قلة وجودها ولا وجود للبغال عندهم ونادر رؤية المعزى • ومما من الله به على هذه البلاد ان ليس فيها حيات ولا عقارب ولا رتيلا ولا سوام ابرص ولا ابن آوى يعوى فى الليل ولا نمس يأكل الدجاج ولا بعوض يمنع من النوم ولا براغيث فى الربيع الا نادرا ويكثر عندهم الجرذان تسمع شقنقتها وهى تجرى تحت مخشب البيوت وكذا البق لكثرة الالواح فى منازلهم • قال فى ابجدية الاوقات هذا الجرذ الاسمر الذى يسمى جرذ نوردى غلطا هو اعظم رزية فى ديارنا واصل مجيئه اليانا كان من بلاد العجم وبعض البلاد الجنوبية فى اسية كما هو الظاهر من كلام بالاس وغيره حيث قال انه فى سنة ١٧٢٩ زحفت اسراب جرذان لا تحصى من البرارى الغربية الى اسطراخان حتى لم يمكن ردها بوجه ما وفى اوسط القرن السادس عشر زحفت حتى دنت من باريس الا ان كثيرا من جهات فرنسا لم يزل خاليا من هذه البلية

﴿ فائدة فى عمر الحيوان ﴾

قال بعض ان الحصان يعيش من ثمانى سنين الى اثنتين وثلاثين سنة والنور ٢٠ والبقرة ٢٣ والجمار ٣٣ واصل نتاجه فى بلاد العرب والبغل ١٨ والشاة من الغنم ١٠ والـكـبـش ١٥ والكلب من ١٤ الى ٢٥ والخنزير ٢٥ والعنز والجمام ٨ والقط ١٠ والوز ٢٨ والبيغا من ٣٠ الى ١٠٠ واليمام من ٥٠ الى ٢٠٠ • هكذا

هكذا نقلته وهو غريب فان الحمام واليمام من جنس واحد • وقال آخر الدب يعيش ٢٠ سنة ونحوه الكلب والذئب والثعلب من ١٤ الى ١٦ والاسد نحو ٧٠ والتعط في الجملة ١٤ والارنب ٧ سنين والفيل قد يعيش ٤٠٠ سنة والخنزير ٣٠ والكركدن ٢٠ والفرس من ٢٥ الى ٣٠ والجل نحو ١٠٠ والبقرة ١٥ والضأن قلا يجاوز ١٠ سنين والوعل يعمر طويلا والدلفين ٣٠ والنسر قد يعيش ١٠٤ سنين والغراب ١٠٠ والسحفاة ١٠٧ ونوع من الحيتان السوء والس ولعله الدخس يعيش ١٠٠٠ سنة

اما بناؤهم فن الاجر الاحمر والايض وقد يصبغون خارج الديار او يكلسونه ثم يرسمون عليه خطوطا تبديه كأنه حجارة مربعة متساوية لا يدركها الا من دنا منها ورسمها وتبقى على ذلك سنين بخلاف بيوت لندرة فانها لما كانت هدفا للدخان والضباب لم تلبث ان تسود كما سنذكر ذلك ان شاء الله ولهم في تجديد الابنية مهارة غريبة وذلك انهم اذا ارادوا منلا هدم دار هدموا اول اسفل جدرانها واسندوا القائم منها بعضائد ثم بنوا الاسفل فرجا بنجز الهدم والبناء في وقت واحد وبعض البيوت يبنون خارجها كالسفينة من قطع خشب يعارضون بعضها ببعض ثم يطينونها وربما كانت تلك الاخشاب قديمة وفي الجملة فان بيوت الفلاحين حسنة مهندسة غير ان القديم منها ربما يكون اصغر من سلحه فان السطوح عندهم على ثلاثة انواع الاول من الواح المكاتب التي يتعلم عليها الخط وهي للديار الكبيرة والثاني من الخزف وهو للبيوت الوسط والثالث من التبن فهذا يكون قبيح المنظر وهو يرقع كما يرقع الثوب ويقولون انه احسن من غيره شتاء وصيفا فانه في الشتاء يمنع البرد ويرد الثلج وفي الصيف يمنع الحرولا يكون السطح عندهم الامسما والفاصل بين الواح الزجاج في الشبايك اكثره قضبان رصاص بدلا من الخشب وربما كان الزجاج قطعاً صغارا كالكلف مربعة ومخمسة فيكون للعين اتيها وحيث كان في السابق ضريبة للميرى على الطيقان اذا زانت على ثمانية كان الناس يتحاشون من مجاوزة هذا القدر ولكنه الآن ابطل تمتع ابنور الله وهوائه ولكن قام مقامها ضريبة اخرى وكل دار لا بد وان يكون فيها عدة واقد للنار واسرتهم كلها من خشب لا من حديد والغالب ان ارض منازلهم تكون مفروشة بالابيد او البسط من الزرابي وانائم بين بين وقل ان ترى عندهم من الصور الا صورة كبير العائلة وصورة الخيل

في السباق او صورة ارانب وكلاب اما بيوت الاغنياء والمترفهين فلا شيء اجل
منها لاحكام بنائها وحسن ترتيبها وحيطانها من داخل مغشاة بالورق الفاخر
المنقش وطبقاتها محكمة الوضع كبيرة قطع الزجاج وهو يقارب البلور في الصفا
والبريق ودرجها وارضيتها من الخشب المتين ولهم اسراف زائد في الاناث فان
اسرتهن وموائدهن واصوتهن وكراسيهن وخزائن كتبهن كلها من الخشب المسمى
بالمهيكون وقد تبلغ قيمة ذلك في الجملة نحو ٥٠٠ ليرة ومع ذلك فلن ترى لسيده
الدار حليا من الالماس او شالا من الكشميري وهي عكس عادتنا • ومن اسرافهم
ان يغطوا الدرج بالجوخ المتوش او الزرابي الفاخرة وفوقها الكتان النفيس
يدوسون عليه • ومراحيضهم في غاية النظافة والترتيب حتى ان الفرنسيين
اذا ذكروا مرحاضا على هذه الصفة قالوا انه مرحاض انكليزي وكنت
مرة ضيفا لاحد بخلائهم فلما اصبحت طلبت الكنيف فدللت عليه واذا هو
في غاية الزخرفة والاحكام حتى اني اجمت عن فتحه واستعماله وخطر ببالي
حيثما قاله بعض الظرفاء في بخيل انفق على كنيف له سبعمائة درهم قد
استدانها ليت شعري ما الذي يريد ان يخرج فيه • واجارة المسكن للغريب انما
تكون بالاسبوع ولا بد ان يخبر اهل المنزل قبل خروجه بالاسبوع فاذا علموا
ذلك تهاونوا في خدمته واذا استأجر احد مسكنا في دار من مستأجر الدار
وفرشه وكان المستأجر لا يؤدي غلة الدار الى مالكيها حق للمالك ان يستولى
على كل شيء في الدار ثم ان البناء في الاصل كان من الخشب والطين ثم من
الاجرة ثم من التجارة غير المهندمة فلما تمدن الناس وتبحروا في الصنائع صار
من المرمم والبناء من الحجر عرف عند اهل صور من القديم ثم اشتهر عند جميع
الاجيال ولم يعرف في انكلترا قبل سنة ٦٧٠ وكان المحدث له راهبا اسمه
بناديكتوس واول جسر بني منه في هذه البلاد كان في سنة ١٠٨٧ اما البناء من
الاجرة فاما عرف عن الرومانيين وفي سنة ٨٨٦ امر الفريد ملك الانكاسير
باستعماله وفي سنة ١٥٩٨ استحسن تعميمه وكان بناء لندرة اذ ذاك من الخشب
غالبا واما الزجاج فيقال ان اول من تعلم صنعته اهل مصر فانه اخذوها عن
هرمس وقال بليزيوس بل كان اختراعه في سورية وكان له معامل في صور من
القديم وقد ذكره الرومانيون في عهد طييريوس وعلم من انقاض بمباي ان الزجاج
كان

كان في طيقانها سنة ٧٩ قبل الميلاد واول ما اشتهر اتخاذه في اوربا كان في ايطاليا ثم عرف في فرنسا ثم في انكلترا وفي سنة ١١٧٧ استعمل في ديار بعض الاجيمان ولكنه كان مجلوبا ويفهم من كلام فلثير ان اول من شهره في بلاد الانكليز رجل من فرنسا وذلك في سنة ١١٨١ وفي سنة ١٥٥٧ انشى له معمل وفي سنة ١٦٣٥ اكسب رونقا وصفا وفي زمن وليم الثالث اتقن الى الغاية ومن سوء التدبير في بلاد الفلاحين انه لا يقام في القرية من الشرطة الا واحد فلذلك يكثر فيها الحريق والسرقه فان اهل القرية اذا لم يستخدمهم مستأجر الارض يقون معطلين مترعين الى ارتكاب كل شرفيعمدون الى احراق اكاديس القمح والحشيش المكسدة في الحقول في ليلة ذات ريح قسرى النار الى بعض البيوت وليس من يطفئها ثم لا تلبث ان تلبث ان تلبث بالكلية وتسرى الى غيره فرجا احترقت القرية كلها في ليلة واحدة وفي مدة شهرين من اقامتي بتلك القرية وقع خمس عشرة حريقه في اكاداس الغلال وكان سبب ذلك من هؤلاء المعطلين عن السغل تسفيا من غيظهم من مستأجر الارض ورأيت آثار قرية كانت تستمل على خمسين بيتا احترقت باجمعها في ليلة واحدة بل ان كثيرا من هؤلاء الفجار ينهبون الكنائس وقد يدخلون البيار من مداخلن المواقد النافذة الى السطح ويسرقون ما قدروا عليه وفي كل ليلة قبل النوم يوصى المخدم خادمه والمخدومة خادمتها باطفاء النار والنور اما العاجزون والسقط فانهم يكثون في المستشفى ويقوم بنفقتهم القادرون من الرعية فان الحكومة لا تنفق شيئا على المستشفيات ولا على تصليح الطرق ولا على ترتيب الشرطة ايضا الا ان اكثر الناس يستنكفون من المكث في المستشفى كما ذكرنا سابقا وقد تقرر عند الانكليز جميعا ان التصديق على الفقراء يحملهم على الكسل والتواني فما يعطون فقيرا اذا مروا به ولو كان عريانا اعتمادا على وجود هذه المستشفيات ويمكن ان يقال ان اكثر فقرهم هو من انهماكهم في شرب المسكرات فانك ترى منهم فقراء كثيرين باخلاق من الثياب ومهما يكسبوه ينفقوه في الجعة ولا يزالون يكرعون منها حتى ينجحظ عيونهم وتنفقد السننهم عن الكلام ولا يزالون يلهجون بذكرها فهي عندهم في النساء للتسخين وفي الصيف للترطيب ومع ذلك فهم بالنسبة الى اهل المدن الجامعة اصحى واعف كما انهم أسخى منهم

واكرم وهذه خطة عامة في جميع البلاد فان اهل المدن لما كان احتياجهم الى اسباب المعيشة والرفاهية اكثر كان الكرم فيهم اقل وذكر الطبيب بوخان انه عرف في زمانه نساء يعن اولادهن بالجمعة • ثم ان الانكليز طالما اقتفروا بهنآء العيش داخل ديارهم وهو عبارة عن امرين احدهما التمتع بكل ما يلزم للانسان في معيشته والثاني ترتيب وضع الاشياء المتمتع بها وهو ان يكون لكل شيء موضع خاص به ولكل موضع شيء فن غسل يديه مثلا في طست على مائدة ثم تناول المنشفة من جانب المائدة من دون ان يغادر موضعه ويفتش عليها فقد اتصف بأنه منهنى وقس على ذلك والحق يقال ان الانكليز في ذلك اعظم الناس ترتيبا واحكامهم وضعا للاشياء وكأنهم انما ورنوا هذه الخلة كابرأ عن كابر ومن تعود على هذه الحال عندهم فلا يمكنه ان يتها بعدها في معيشته في البلاد الشرقية قالوا وعلى هذا الاصل بذت بيوتنا بحيث اذا تبوأها احد لا يجب ان يخرج منها ولا سيما وضع مواقدهم فانها تسع من الفحم ما شئت وبذلك يحصل لهم الدفء في الشتاء وهو من الزم ما يكون وعندهم نحو ثمانمائة الف دار مفردة يقال لها كوتاج لا يمكن لغيرهم من الناس ان يعيش في مثلها حالة كونها مفردة فاما دعواهم بان مبالغهم مربعة غضة بحيث تكفي لكل ما يلزم لهم وان انائم وادواتهم وافية بالمراد حتى لا يمكن للشهواني ان يقترح شيئا زائدا عليها فليست في محلها فقد مر بك ان كثيرا من البتول والفاكهة لا يثبت عندهم ويمكن ان يقال ان ذلك غير ضائر من لم يعود عليه فاما من جهة الاناث فان جميع سكان اوربا المتمدنين مشتركون فيه على انهم محرومون من كثير من الملاهي والفرج هذا وكما ان ارض انكلترة كلها محروون عامر كذلك كانت شطوطها باجمعها مرصعة بالنائر والاعلام لهداية السفن فان في سواحلهم مائتي منارة لا تزال انوارها متقدة الليل كله وجلة المنائر التي في سواحل فرنسا الشمالية والغربية ٨٩ والتي في هولاند ٢٦ ومصاريف منائرهم تؤخذ من رسم يجعل على السفائن المشحونة التي تمر بها وهو يختلف وقد يبلغ في السنة مائتين وخمسين الف ليرة ينفق نحو ثلثيه في لوازمها ويدخر الباقي لاجل ترميمها واعظم منارة بذت في انكلترة مما يجدر بان يعد من عجائب الدنيا منارة ادسطون وذلك في سنة ١٦٧٠ ولكن طام عليها الماء في احدى السنين فابادها رأسا فلم يبق منها سوى قطعة سلسلة

من حديد واول منارة عرفت في الزمان القديم المنارة التي بنيت على صخر فاروس قبالة الاسكندرية وكانت من الرمر الابيض العجيب الصنعة وذلك في عهد بطليموس فيلادلفوس ملك مصر سنة ٢٨٢ قبل الميلاد فكان النور يوقد في قنتها دائما لهداية السفن الى مرسى المدينة المذكورة حتى قيل انها كانت ترى من مسافة مائة ميل وهو مظنة للانكار ويقال ان مصاريقها بلغت ٣٠٠٠٠٠ ليرة انكليزية بحساب ان الدراهم كانت من ضرب مصر وقد عدت من عجائب الدنيا الذبح وبلغت من الشهرة والعجب بحيث ان اسمها اطلق على كل منارة بنيت بعدها الى يومنا هذا تقريبا وفي تاريخ مصر لعبد اللطيف البغدادي ان بعض ذوى العناية ذكروا ان طولها ٢٥٠ ذراعا وان بعضهم قاسها فوجدوها ٢٣٣ ذراعا وهي ثلاث طبقات الطبقة الاولى مربعة وهي مائة ذراع والطبقة الثانية ممتدة وطولها ٨١ ذراعا ونصف ذراع والطبقة الثالثة مدورة وطولها ٣١ ذراعا ونصف ذراع قال وفوق ذلك مسجد ارتفاعه نحو عشر اذرع • وعجائب الدنيا فيما عده بعضهم ما عدا ما ذكره هي اهرام مصر والموزليوم وهو قبر بناء ارطيميسيا لموزلوس ملك قاريا وهيكل ديانة ابنة جوبيتر في افسوس واسوار مدينة بابل وحدائقها المتدلية وعنم الشمس من نحاس في رونس ويقال له قولوسوس وصنم جوبيتر وقيل ان جوبيتر هو هبل عند جاهلية العرب قلت ومن العجب في هذه العجائب انهم لم يعدوا منها سد الصين فقد قال فلتير ان دورته مسافة الف وخمسمائة ميل مرتفعا على جبال شامخة ومنحدرا في اماكن وعرة المرتقى وعرضه في جميع هذه المواضع عشرون قدما وارتفاعه اكثر من ثلاثين وهو اعظم من اهرام مصر في القدر والمنفعة بناء اهل الصين حاجزا بينهم وبين التتر وذلك في سنة ١٣٧ قبل الميلاد • اما هواء انكلترا فانه كثير القلب يختلف في اليوم الواحد مرات ويثما يكون الجو مصحيا والسماء نقية اذا بالغيم قدما بق الافق وتراكم حتى تحسب انه لم يكن شمس قط وقد يبلغ درجات الهواء في يوم ثلاثين وفي غده خمسين ومع ذلك فلا يصح ان يحكم عليه بانه وخيم ولا سيما على من الفه فان الغالب على بنية الانكليز الضلالة والسدة وان كثيرا منهم يعمرن فوق المائة سنة وفي مدة ثلاث سنين مات في انكلترا ووالس ٢٦٦ شخصا وعمرهم من المائة فصاعدا ومات رجل في كورة هولي وود وقد بلغ من العمر مائة

وثلاث عشرة سنة وبقي ممتعا بجميع حواسه واوصى وصية مبينة ولم يعرف المرض الا قبل موته بساعة واحدة ومتى تم لهم صحو يوم تام رأيت الناس جميعا يلهبون بحاسنه ويذكرون بهجته فهو عندهم عيد وموسم وفي الحقيقة فانه اذا انجلي الغيم وظهرت الشمس لم يكن شئ ابهج من ذلك فان بلادهم كلها مروج وغياض كما ذكرنا سابقا وقد ترى في الاشجار المتصافة الوانا مختلفة وترى الحقول كأنها بسط من سندس اخضر ولا يخفى ان هواء الرستاق والريف اصح واسلم من هواء المدن الكبار التي يكثر فيها الدخان والعفونات والاقذار الا انه لا يمكن الخروج في الريف شتاء حين تكون المسالك وحلة فلهذا يمكن ان يقال ان اهل المدن اكثر حركة ورياضة من اهل الارياف وبذلك تحصل الموازنة ما بين طيب هواء هؤلاء ووخامة عند اولئك وقد سبقت الاشارة اليه فاما من ابتلى بالسسل والربو او ضيق الصدر فلا يصح له مقام في هذه البلاد ايا كان وكما ان لياليهم في الشتاء تكون طويلة جدا فان النهار اذ ذاك عبارة عن ثمانى ساعات كذلك تكون في الصيف قصيرة جدا فان النهار في شهر حزيران يكون ست عشرة ساعة ونصفا فيكون الليل كله كالنسفق الا ان يلبس الجو الغيم والدكنة ولذا ذكر لك جملة من الكلام على الهواء هنا لتتخذها قانونا تقيس عليه فاقول انه في الثاني عشر من شهر تشرين الاول احوج البرد الى ايقاد النار وكمنا نرى اهل القرية كلهم يصطلون فخذونا حذوهم وبقيت الشمس اياما عديدة لا ترى الا للحا وكانت تطلع في الساعة السادسة وتغرب في الخامسة ولا يكاد يكون بعد غروبها شفق وفي الواقع فان النار عندهم تقوم مقام الشمس فانهم يذشفون عليها الثياب ويتلذذون بالنظر اليها ولا سيما اذا كانت ذات لهب وقد بلغت منهم الفتهم بها بحيث اذا جلسوا في الصيف حين يستغنون عنها يطوفون بالموقد ويؤثرونه على الجلوس عند الشبايك الا انه من يجلس عند الموقد فلا بد له من ان يغسل يديه ووجهه في اليوم مرارا حتى ان غلاته تتسخ من اثر الفحم من تحت ثيابه وفي الرابع والعشرين من الشهر المذكور كانت الشمس تطلع في الساعة السابعة وتغيب قبل الساعة الخامسة وفي السادس من تشرين الثاني كانت تطلع عند الثامنة وتغيب بعد الرابعة وفي هذا الشهر يكثر وقوع الضباب فيأخذ بالكظم اذ المشى فيه

لا يخلو من بعض اذى بالبصر ويسمون هذا الشهر نحر الاعناق وقبل عيد الميلاد كان صحو عظيم فكانت الشمس ترى عامة النهار ولم يكن البرد يهوج الى الاصطلاء وانما كنا نوقد النار لمجرد الارتياح لرؤيتها كما هي عادتهم وفي السنة الثانية قبل العيد المذكور اصحت السماء مدة يومين كاملين فظهرت الشمس فيها من ساعة شروقها الى غروبها ولكن وقع برد شديد جدت منه المياه حتى في الآنية فلم يكن كب السلحفاة مانعا له كما قال صاحب القاموس وكانت الاولاد تطفر على المناقع والبرك كما تطفر على الصخرة السماء واذا كسرتها تشقت عن الواح كلوح الباب والترنحلق على الجليد عادة شائعة عند جميعهم حتى ان الپرنس البرت زوج الملكة يضفر مع خواصه في موضع خاص به وحين يترنحلقون يلبسون نعالا كالتباقيب وهو عندهم من الامور الرياضية وكنا نرى الصقيع على وجه الارض كأنه ملح مرشوش وكان الماء يجمد على زجاج الطيقان واذا القيت منه على الارض لم يلبث ان يجمد ايضا اما المطر فلم يقع الى وقت الميلاد الارذاذا وقلما ينزل في غيره ايضا سحبا كما ينزل في بر السام ومالطة واذا انقطع عنهم شهرا فاكثرا يستسقونه بالايدي كما يفعل الماطيون لان ثراهم لا يزال نديا من المطر السابق واكثر وقوعه في الخريف والربيع فاما الرعد فقد مضى الشتاء كله ولم نسمع له قصفة وانما سمعناه في ايار والشمس حارة وكان شهر نيسان ابرد من اذار وفي اواسطه سقط ثلج وبرد شديد وكان آخر اذار ابرد من اوله فقد احتجبت فيه الشمس اياما متوالية وفي اوائل العام الثاني غطى الثلج وجه الارض والسطوح ورؤوس الشجر ولم يكن البرد شديدا كما يكون عند سقوط الصقيع ويقال ان كثيرا يهلكون في الطريق حينئذ اذا لم يكونوا خبيرين بها فيقعون في مهواة على حين غفلة فيعطبون وربما سقط الثلج على الشاء في الحقول فتضل الطريق وقد سمعت ان امرأة سقط عليها الثلج وهي تحت شجرة تستذري بها فلم يمكنها التحول من موضعها فلبثت فيه بضع ايام حتى جاء من اخرجها منه وقد سقطت اصابع يديها ورجليها وبقيت بعد ذلك حية ويقال ان بقاء الثلج في المزارع اياما نافع للزرع ولا شئ اشق على الماشي من المشي عليه حين يذوب بخلاق ما اذا كان متلبدا • وللانكليز لهج

عظيم في محاوراتهم وكتبهم بمحاسن ايار لانكسار حدة البرد فيه الا انه في الواقع من المحس الشهور وذلك لاتقطاع الفاكهة والبتول فيه الا ما ندر وفي اوله تدور الصبيان والبنات يغنون و يجتدون من اهل البيوت والمارين في الطريق وكان قدماء الانكليز يرقصون فيه في الحقول والمزارع ويجعلونه يوم مسرة وطرب حتى ان السفلة في لندرة يعيدونه الى الآن فيتخذون نحو شجرة ويرقصون حولها في السوارع وفي اوائل شباط يطوف الاولاد ايضا يغنون لقالتين وهو يوم تزواج الطيور وفيه تتهادى الشبان والشواب بالرسائل والاشعار على طروس مزخرفة • ومن اول شهر حزيران الى العشرين منه حصل حر يقرب من حر مالطة فكانت الشمس تبدو من اول النهار الى آخره ثم اكفهر الجو ودهم البرد ووقع المطر الغزير وحين يشتد الحر يبلغ ثمانين درجة (انكليزية) وغاية البرد عشرون وابد الرياح عندهم هي الشرقية ثم الشمالية اما الغربية فلا تكاد تأتي من دون مطر والغالب حينئذ ان تنكسر سورة البرد ويعقبه دفء مفر بالكسل والعجز حتى يود الانسان ان تعود الريح الباردة وان اطارت عنه الثياب وبما مر بك من قلب الهوا عندهم تعلم انه لا يحسن ان يترجم الى لغتهم قول بعضهم من قصيدة يمدح بها الملكة وهو

* تلوى الرياح مناني الرمل عاصفة * حتى تصيب اراضيها فتعتدل *
وهو نظير قول المتنبي

* اذا انتها الرياح الهوج من بلد * فأتها بها الا بترتيب *

لكن بيت المتنبي سالم من الضرورات وقلت انا من قصيدة طويلة

* ما ان يحيل حوول في هوائهم * هوى نفوسهم عن مذهب الخير *

اشارة الى ان قلب الهوا عندهم لا يغير طباعهم عن فعل الخير والخير بالكسر

الكرم والشرف والاصل والهيئة • وفي الحقيقة فانه عند شدة البرد

هنا لا يفكر الانسان الا في الاصطلاء ولا تزال تسمع من كل من تلقاه

لفظة البرد واذا تفوه بها فرك يديه وتأفف ليدل على صدق ما يقول ولا سيما

النساء حتى انهم ربما قالوا ذلك في يوم لا برد فيه فكأن السنتهم مرنت على

ذلك وكثيرا ما ترى ايضا وصف البرد والنار في كتبهم ويسمون المرأة رفيقة

الموقد والاضافة بتقدير عند وقد جرت العادة عندهم بله لا يحرك النار الا من كان من اهل البيت او من طالت الفته بهم وفي الجملة فان النار اليقهم مدة ثمانية اشهر في السنة و بهذا تعلم انهم لا يرون في وصف الجنة نعيما لان الانسان اذا كان مقرورا لا يشتهي ان يسمع بذكر المياه والظلال والاشجار بل كانوا يقولون تلك الجنة نيرانها مضطربة ومواقدها محترمة وحضبها معتد وحطبها منضد وفحمها مؤبد ومسعرها مخلد فهنيئا للمصطلين وطوبى للمستدفئين أليس ان عبادة النيران في بلاد الفرس نشأت عن البرد كما قال ابن صاره في المعنى

* احل لنا ترك الصيام بارضكم * وشرب الحميا وهو شئ محرم *
 * فرارا الى نار الجحيم فانها * ارق علينا من شلير وارحم *
 * لئن يك ربي مدخلي في جهنم * ففي مثل هذا اليوم طابت جهنم *

ثم انه لا يخفى ان اهل البلاد الحارة يكونون اذكى ذهنا واسرع فهم من اهل البلاد الباردة الا انهم لا يكون لهم جلد على الاعمال الشاقة لغلبة الترهل عليهم ولا عظم همة لمباشرة المساعي الخطيرة ولا يمكن ان يلحقوا اهل البلاد الباردة في العز والغنى الا ان يكون لبعض البلاد مزية خاصة بوجود المعادن وغيرها كبلاد الهند مثلا اما سكان البلاد الباردة فيتحملون مشاق الاعمال ويستطيعون ادمان السعي ويعمرون أكثر ولهذا كان جل الفاتحين والغازين من الشمال وكان جزيرة العرب مستثناة من هذا الحكم الا ان ايامهم في الشتاء تكون قصيرة جدا فيضطرون الى العمل ليلا وربما كتبت ايديهم من شدة البرد وفي كتاب منسوب الى ارسطو ان اهل البلاد الحارة يعملون أكثر من اهل البلاد الباردة لان الحرارة الطبيعية يأتى حفظها في الاولى أكثر من الثانية ولا ارى قوله مطابقا للواقع الا ان يحمل قوله البلاد الباردة على معنى المفرطة في البرودة والبلاد الحارة على معنى المعتدلة في الحرارة • ولتختم الكلام على ميزان الهواء بما لا يخلو من فائدة فنقول ان اصل اختراعه فيما علم كان في ايطاليا وفي سنة ١٦٢٦ الف صنطوريا الطبيب في يدوى كتابا وادعى فيه انه مخترعه وادعى ايضا هذه الدعوى رجل من هولاند اسمه كرنيليوس دريل وبعد البحث والتدقيق علم ان الاول سبق الى الدلالة على اتخاذه وان الثاني عرف خواصه من قبل ان يسمع شيئا عن ذلك • ونقلت من بعض الكتب

انه حسبت ايام السنة في مدينة وياه على مدة خمس وسبعين سنة فكان في
 خلال السنة من ايام الصحو ١٢٧ يوما ومن ايام الضباب ٧٥ ومن المطر
 ١١٠ ومن الثلج ١٣٥ ومن الرعد والبرق ١٩ واقول ان هذا القدر من ايام
 الضباب هو اكثر مما يقع بلندرة فان جله هنا انما يقع في شهر تشرين الثاني • اما
 معادن انكلتره فاشهرها القصدير والصفير والحديد والفحم وهذان الاخيران
 اقنى وانفع لهم من سائر المعادن النفيسة اذ لولاها لم يتأت لهم انشاء الوف
 من البواخر ومن سكك الحديد ومن الغاز وغير ذلك وليس كل البلاد التي
 فيها معادن الذهب والفضة اغنى من غيرها فان من المعادن ما تقوم نفقة
 استخراجها بفائدته فلا يحصل منه نفع الا مجرد الافتخار بوجوده وانما العمدة على
 سهولة ايشائه وقلة مصروفه • واكثر ما يوجد الذهب في افريقية وياپان
 وجنوب امريكا وهذا الاخير عثر عليه الاسپانيول في سنة ١٤٩٢ ومن ذلك
 التاريخ الى سنة ١٧٣١ جلب منه الى اوربا ستة الآف مليون شذرة قيمة كل
 منها ثمانية ريات اميريكانية ويكثر وجوده ايضا في جبال اورال بالروسية
 ويوجد منه معدن في كورنول وفي وكلو بارلاند واكثر ما يأتي الانكليز من
 الذهب فانما هو من اوستراليا وكاليفورنيا قيل انهم يجلبون منه في كل سنة
 عشرين مليون ليرة واول من اطلع عليه في الاولى ادورد هرغافس وذلك في
 سنة ١٨٥١ فاطلع ارباب الحكم على ذلك طمعا في الجائزة فجازوه وولوه خولية
 ارض الميرى ومن جملة ما وجد فيه قطعة ذهب ابريز بلغت مائة وستة ارباط
 ووجد ايضا في موضعين منها الى غاية تشرين الاول سنة ٥٢ ٢٢٢٤٣٢٢
 اوقية انكليزية او مائة وخمسة اطنان اى طنلاته وبلغت قيمة الذهب الذي بعث
 منها الى الخارج نحو تسعة ملايين ليرة ومن ذلك الوقت تتابع وروده الى بلاد
 الانكليز ويحتمل ان في اوستراليا معادن اخرى كثيرة وكنوزا جزيلة لم تكشف
 الى الآن فتي كشفت تكون داعية لمحب اهل الدنيا وهذه الجزيرة هي اكبر
 جزيرة في المسكونة واصغر ارض قارة فانها دون امريكا بنحو ستة اضعاف
 وكان استعمار الانكليز اياها بعد انفصال امريكا عن بلادهم وفي سنة ١٨٥٤
 بلغ

بلغ عدد اهلها ٢٣٦٧٩٨ نفسا وهي اقل بلاد الدنيا اثنا (١) • فاما اميركا فاول من كشفها رجل من جينوى اسمه كرسنوفر كولبوس وذلك في سنة ١٤٩٢ قيل اذا حارت مملكة الدول المتحدة باميركا مأهولة كهولاند فتكون تسع تسعمائة مليون من الناس وهذا القدر هو نصف قدر سكان المسكونة واهلها الآن سبعة وعشرون مليونا (٢) وحين كان الانكلز يبتون مجلس النورى بلندرة كان الاميريكايون مشغولين بتمدين بلادهم فانشأوا سبعة وعشرين الف ميل وخسمائة ميل لسكة الحديد (٣) بلغت نفقتها نحو ثلاثمائة مليون ليرة وفي غضون ذلك انشأ الانكلز تسعة آلاف ميل كلفتهم نحو المبلغ المذكور والذي ورد الى خزنة الدول المتحدة في سنة ١٨٥٧ من جميع موارده بلغ نحو ثمانية وعشرين مليون ريال ونصف مليون وكان المبلغ الفاضل فيها نحو عشرين مليونا وبلغت مصاريف الدولة سبعين مليونا وكانت محال البوسطة في سنة ١٨٢٧ سبعة آلاف فصارت في سنة ١٨٧٧ وفي سنة ١٨٤٦ ١٥١٤٦ وفي سنة ١٨٥٧ ٢٦٥٨٦ وكان مواضع امتدادها طولا في سنة ٢٧ ١٠٥٣٣٦ ميلا وفي سنة ٣٧ ١٤١٢٤٢ وفي سنة ٤٧ ١٥٣٨١٨ وفي سنة ٥٧ ٢٤٢٦٠١ • وفي المملكة المذكورة تسعة آلاف رتل لسكة الحديد وهو عبارة عن اجراء رتل واحد لكل ثلاثة اميال ووجدت في كتاب آخر ان طول سكك الحديد في اميركا كان في سنة ٥٧ ٢٤٦٦٦ ٢٤٦٦ ميلا وانه في سنة ١٨٢٨ وهي اول سنة ابتدأوا فيها بهذه المصلحة لم يكن عندهم الا ثلاثة اميال فانظر الى هذا الفرق • اما كاليفورنيا

(١) وفي سنة ١٨٨٠ بلغ عدد سكانها نحو ٣٠٠٠٠٠٠ نفس

(٢) في هذه السنين تقدمت اميركا تقدما غريبا حتى بلغ عدد سكانها الآن ٥٢٠٠٠٠٠ نفس

(٣) وفي سنة ١٨٨٠ صار طول سكك الحديد في اميركا ٩٠٠٠٠ ميل و اراد الدولة في السنة المذكورة باع ٣٣٣٠٠٠٠٠٠ ريال والمصاريف بلغت ٢٦٠٠٠٠٠٠٠٠ ريال وعدد دواوين البوسطة بلغ ٤٠٠٨٥٥ فانظر الى هذا الفرق وتجب

فكان كشفها في سنة ١٥٣٥ وكانت في سنة ١٨٤٦ تابعة لآعمال مكسيكو تحت استيلاء دولة اسبانيا ثم استولت عليها الدول المتحدة وكان كشف الذهب فيها سنة ١٨١٧ وقيل انه كان معروفا قبل هذا التاريخ لبعض اشخاص ولكن كانوا يكتفونه وهذه اللفظة محرفة عن لفظتين في اللغة الاسبانية معناهما الفرن الحامى ولا يسعد ان يكون ذلك عريسا فان كالى محرف عن قالى من قليت اللحم ونحوه وفورنيسا من الفرن وقيمة ما يخرج من هذا الصقع في السنة يبلغ خمسة ملايين وبلغت قطعة الذهب من ذلك الى خمسة وعشرين رطلا فكان الرجل يسعد من كده وقيمه لم يتسخ ويحكى ان الدول المتحدة لما بلغها خبر وجود الذهب في هذا الاقليم ارسلت حاكما اليه فاما كان منه بعد وصوله الا ان حل المعزقة واقبل يحفر عن الذهب مع الحافرين • قال بعضهم اما معادن انكلترة فكثيرة وغنية فقد عدت طابخيطوس من جملتها الفضة والذهب وفي عهد الملك جامس الاول كشف معدن رصاص استخرج منه كثير من الفضة ويوجد في كورنول اكثر من خمسين معدنا للنحاس وتقلت من بعض الاحصائيات الصحيحة ان جملة ما خرج من معدن الذهب من بلاد الانكلترة من سنة ١٨١٦ الى سنة ٤٦ بلغ خمسة وتسعين مليونا وقيل ان اول ضرب الدينار عندهم كان في سنة ١٢٥٧ واول ضرب الدينار الرائجة المحكمة كان في سنة ١٣٤٤ وكان ضرب الجيني في سنة ١٦٧٣ وكان مبلغ ما ضرب من النقود في ايام الملكة اليصابات ٨٣٢٠٠٠ ر ٥ ليرة وفي ايام جامس الاول ٢٥٠٠٠٠ ر ٢ وفي ايام جورج الثاني ١١٩٦٦ ر ٥٧٦ وفي ايام جورج الثالث ٧٤٥٠١ ر ٥٨٦ وفي ايام جورج الرابع ١٠٨٢٧ ر ٦٦٣ وفي زمان الملكة فكتوريا وذلك من سنة ١٨٣٧ الى سنة ٤٨ ٤٥٧ ر ٨٨٦ ٣٩ ويقال ان طابع الدراهم والدينار من مخترعات اهل ليديا (من بلاد الاناطول) وذلك في سنة ٨٦٣ قبل الميلاد اما الفلوس فقد ذكرها اوميروس في سنة ١١٨٤ قبل التاريخ المذكور والذهب الانكليزي فيه اثنان وعشرون قيراطا من الذهب وقيراطان من النحاس ويقال ان حبة الذهب يمكن تقسيمها الى ثمانية عشر مليون جزء ظاهرة ويمكن ايضا تطريقها ومدّها حتى تصير نحسا وستين اصبعاً مربعة وان الصفحة تصير الى جزء من ثلاثمائة من اجزاء الاصبع ويذهب بها حتى الى جزء عشرة ملايين واول استعمال خيوط الذهب كان في ايطاليا وذلك سنة ١٣٥٠

ولما كان هذا الجوهر الين جميع الجواهر واصفاها كان لا يستعمل الا مخلوطا
بالصفر او الفضة • ونقلت من جرنال التيمس سنة ١٨٥٢ ان مبلغ نقود
الفضة والذهب في الدنيا باسرها قيمته اربعمائة مليون ليرة منها مائتان
وخمسون مليوناً فضة والباقي ذهب ونقلت من غيره ايضا ان مبلغ الذهب
الذي كان متداولاً في سنة ١٨٤٨ في الدنيا باسرها كان ستمائة مليون
ليرة وان الامداد السنوى كان من ثمانية ملايين الى تسعة وانه لسبب كشف
معادن الذهب في استراليا وكاليفورنيا صار الذهب المتداول الآن يبلغ اكثر
من ثمانمائة مليون فن كاليفورنيا خرج من سنة ١٨٤٩ الى سنة ١٨٥٣ خمسة وستون
مليوناً وتسعمائة الف ومن استراليا خمسة وثلاثون مليوناً وذلك من سنة ١٨٥٤
الى سنة ١٨٥٦ • اما معدن الفضة فقليل ان احسن ما عرف منه ما كان
في لا باز وذلك سنة ١٦٦٠ فكان مر ليه وحسنه يقطع كالبلور وفي سنة ١٧٤٩
ارسلت قطعة منه الى بلاد اسبانيا فبلغت ٣٧٠ رطلا وحفر عن قطعة في معدن
بنورويج وارسلت الى متحف كوبنهاغن فبلغت ٥٦٠ رطلا وقيمتها ١٦٨٠ ليرة
وكانت آية الفضة نحو الاقداح والمغارف تعد في سنة ١٣٠٠ في بلاد الانكلترا
من الاسراف ووجودها في البلاد المذكورة انما يكون مختلطاً بغيرها من الجواهر •
اما معدن النحاس فقد مر ذكره في كوزنول ويقال ان اعظم معادنه في مملكة السويد
ويقال ايضا ان الحبة من هذا الجوهر اذا حلت في ملح النشادر تجزأت الى اكثر من
اثنين وعشرين الف جزء • اما معدن الحديد عندهم فيستخرج منه في كل سنة اكثر
من ثمانمائة طن ويقال انه اول ما عرف وجود الحديد كان على جبل ايداي وذلك في
سنة ١٤٣٢ قبل الميلاد وزعم اليونانيون انهم هم اول من عثروا عليه كما ان اهل فينيقية
اول من عثر على الزجاج الا انا نعلم من التوراة ان اول من قان الحديد طوبال
قاي • وقال آخر ان تجارة الحديد عند الانكلترا كما هي الآن من ابداع هنري
كورت لانا قبل سنة ١٧٨٣ كنا نجلب جل لوازمنا من الحديد المصنوع من
سواحل بحر البلتيك ولم تكن طريقة لصنع هذا الجوهر الذي يصدق عليه ان
يسمى جوهر الجواهر سوى تطريقه بمطارق ضخمة ثقيلة بعد احجائه في فرن
وهو اسلوب قديم يجري مع قدم ايام الخرافات وما عدا ما كان يتبعه من التعب

والكلال فكان يلزم له اجم كثيرة لتنى بالوقود اللازم لاحائه وحيث لم يكن عندنا منها ما يكتفى كان لابد لنا من استجلابه من الروسية والسويد حيث الاجم كثيرة والحديد يسهل صنعه بالنسبة الى هذه الديار والى سعره فيها فكانت معادتنا الجزيلة تبقى معطلة الى ان قام هنرى كورت المذكور واعمل فكره الثاقب في اختراع طريقة تكثر بها منافع هذا المعدن وتقل الصعوبة في صنعه فاداه الاجتهاد والتبحر الى احداث فرن هواء بواسطة لهيب النار المنبعث من فحم الحجر فكان يحمى به الحديد وهو تبر ويصفيه ثم يجعله قضباناً مسبوكة من دون فحم ولا مطرقة ولـكن لم يتهياً له اتقان هذا العمل الا بعد ان انفق عليه عشرين الف ليرة ومنذ ذلك الوقت استغنيا عن حديد السويد والنرويج ثم لم تمض اربع عشرة سنة حتى صار ما يصنع منه في بلادنا قدر ما كنا نجلبه من بحر البلتيك ثم صار ما يصنع منه على هذا المنوال موازياً لما تى الف طن منها نجسون الفا ترسل الى الخارج وهذا القدر هو ما كنا نفتقر الى جلبه سابقاً من البلاد الاجنبية وقد صنع منه في سنة واحدة من هذه السنين المتأخرة في معمل بوالس اكثر مما كان يصنع منه قديماً في جميع المملكة بضعفين فاعظم به من اختراع يعد من اعظم الاسباب الموجبة لثروة هذه البلاد وللاستقلالهم باعمالهم اذ لولا لم يأت انشاء سكك الحديد والبواخر وغيرها ولا يخفى ما في ذلك من المنافع فهو لنا بمنزلة ابرة المغنطيس لكشف الدنيا الجديدة فما اجدر مخترعه بان يحسب ندّاً لواط. وما اخلاق بلادنا بان تظهر كونها ممنونة له على ممر الايام الى ان قال ومع انه انفق في هذا العمل الجليل عشرين الف ليرة ومهد لبلادنا طريقة فاقت بها على جميع الممالك لم تجازيه على ذلك بل عاملته بالكنود على انه تحقق وثبت ان ما اكسبها من فوائد هذا الاختراع يبلغ ستمائة مليون ليرة وافاد ايضاً مؤنة ستمائة الف من الصناع اه وقد كان الرومانيون في الزمن القديم يصحفون قعور سفنهم بالرصاص وكان ثمنه اذ ذاك اغلى مما هو الآن باربعة وعشرين ضعفاً ويقال ان احسن صبغ للشعر هو ما يتخذ من الرصاص لكنه في نفس الامر سم . اما فحم الحجر فان اهل بريتانيا الاقدمين كانوا يستعملونه وان لم يذكر ذلك الرومانيون فيما ذكروا من احوال هذه الجزيرة واول كسفه كان في نيوكاسل سنة ١٢٨٤ وزعم بعض انه قبل هذا التاريخ وكان

وكان قد منع اولاً من استعماله بدعوى انه مضر بالصحة حتى ان الحدادين كانوا لا يوقدون الا الحطب وفي سنة ١٣٨١ اتخذ كأنه صنف من اصناف التجارة فصارت الناس تجلبه من المحل المذكور الى لندرة ثم عم استعماله فيها وذلك في حدود سنة ١٤٠٠ فاما في جميع انكلترة فلم يعم قبل سنة ١٦٢٥ ويوجد منه معدن في نورثبرلاند في سهل فسيح امتداده ٧٢٣ ميلاً مربعاً وقريب منه سائر الاماكن والموجود منه في والس فقط يكفي انكلترة على المعدل الذي يتفق منه الآن الى سنة والمنصرف منه في بريطانيا في كل سنة ٢٥٠٠٠٠٠ طن وفي سنة ٥٧ وصل الى مرسى لندرة نحو ١٥٠٠ سفينة مشحونة بالفحم وبلغت كمية ما ورد اليها منه بحرا وبرا ٤٣٦٨٧٠٨ طن واستخرج منه من درهام ومن نورثبرلاند يبلغ في السنة ١٤٠٠٠٠٠ طن يصرف منها في لوازم لندرة ٦٠٠٠٠٠٠ وفي لوازم البلاد الخارجية ٢٥٠٠٠٠٠ وقدّر ذلك لاجل الغاز والباقي في مهمات اخرى • وقال آخر يوجد في انكلترة وارلاند ٤٠٠٠ ميل مربع تحتوي على معادن الفحم لم تنكشف بعد ومسافة جريب واحد سمكه ثلاث اقدام يوازي ما يخرج من الفحم ١٩٤٠ جريباً من الاجم والغياض ومعادن الفحم المفتوحة الآن في دربي تبلغ ٢٤٠ معدناً يعمل فيها ٢٠٠٠٠ نفس ومعادن يوركشير تبلغ ٣٤٣ معدناً ويوجد ايضاً في سكوتلاند معادن كثيرة منها محفور ومنها غير محفور • وقيل ان اصل استخراج الفحم كان في بلجيكا في سنة ١١٩٨ ثم عرف في انكلترة والذي يخرج منها يبلغ خمسة اضعاف اكثر مما يخرج من غيرها من اى ارض كانت وما يحصل من مسافة ١٢٧٥ كيلومتر مربعاً من بلجيكا يبلغ ٥٠٠٠٠٠ طن وما يحصل من مسافة ٢٥٠٠ من القياس المذكور في فرنسا لا يزيد على ٤٦٠٠٠٠ طن وكان المنصرف من الفحم في فرنسا سنة ١٧٨٠ ٤٠٠٠٠٠ طن وفي سنة ١٨٤٥ ١٨٤٥ ٦٠٠٠٠٠ (١) اما القصدير فوجوده في بلاد الانكليز من قديم الزمان واول من اتجر فيه معهم اهل فينيقية لانهم هم اول

(١) وفي سنة ١٨٧٨ بلغ مقدار الفحم الحجري الذي استخرج في فرنسا

١٧٠٩٦٥٢٠ طن

من عرف خاصية ابرة المغنطيس ومن قبل ان غزا القيصر يوليوس هذه الجزيرة كان الرومانيون واليونانيون يسمعون بوجود جزيرة جهة الشمال توجد فيها معادن هذا الصنف وكانوا يسمونها كستيريديس اى جزيرة القصدير وبقيت هذه التجارة مقصورة على الفياقيين احقابا عديدة وكان اليونانيون كثيرا ما يبعثون اليهم جواسيس ليتعرفوا اى بر ينزلون فلم يقدرُوا والذي يبعث من هذا الصنف الى البلاد الخارجية يبلغ فى السنة الفا وخمسمائة طن غير مصنوع وثمان المصنوع والصفائح منه ٤٠٠٠٠٠ ليرة (٢) اما استعمال ابرة المغنطيس فى هداية السفن فلا يعلم بالتحقيق فى اى عصر ابتدا وانما يعلم ان خاصية ما فى جذب الحديد والفولاذ كانت معروفة لقدماء اليونانيين وان استعماله فى السفر كان معروفا لاهل الصين من عهد بعيد فانهم كانوا يهتدون به فى اسفارهم الى يابان والهند وجزيرة العرب ولا يبعد ان اشتهاره فى اوربا كان كاشتهار صناعة الطب فى كونه اخذ عن العرب اذ لم يعرف شأنه فيها الا بعد ان قح المساون غونا باسبانيا الا ان العلم به لم يكن تاما ويحتمل ان العرب اخذته عن اهل الصين ويقال ان علم هؤلاء به فى ارجح الظن كان سنة ٢٦٣٤ قبل الميلاد وهنا محل للبحث الا ان اليسوعيين الذين جعلوا دابهم التنوير عن علوم اولئك التوم وعن عاداتهم وكذا كلابروت النمساوى العالم البارع ومستردافس كلهم حكوا ما يدل على استعمال اهل الصين هذا الحجر فى ذلك التاريخ ثم لما كانت الافرنج تسافر الى بلاد المسلمين مدة الحرب الصليبية كانوا يذكرون وجود هذا السر الغريب فى تلك البلاد وكان من جملتهم الكردينال فترى وقسنت دوبوفاي قبل وكانت العرب تهتدى به فى البر ولم تشهر معرفة استعماله فى اوربا الا فى سنة ١٢٦٩ فاما الانتفاع به فلم يشهر الا فى القرن الرابع عشر واول من اجرى ذلك رجل من نابولى اسمه فيلافيو جوجا وقال آخر ان حجر المغنطيس لم يشهر ذكره فى كتب الانكليز قبل ايام ادورد الثالث وكان يسمى حجر السفر واول سفينة سارت بهدايته كان فى سنة ١٣٣٨ اما رسم النقطة فلم يعلم مخترعه

(٢) وفى سنة ١٧٨٩ بلغت قيمة القصدير المصنوع الذى ارسل من انكلترا الى الخارج ٣٠٠٠٠٠٠ ليرة

وزعم

وزعم الفرنسيين انه من مخترعاتهم وان رسم النقط الرابع الاصلية انما هو رسم عما يقال له فلور دولي اي زهر السوسن ولكن هنا بحث فان زهر السوسن انما هو زشم عما يسمى بالعربية موسالا (لعلها مسلة) وكانت العرب تتخذها لدلالة الابر • فاما اختراع اداة الابر المسماة عند الافرنج بالكومباس فانه كان من رجل من فينيسيا يقال له مركوس باولوس وذلك في سنة ١٢٦٠ وبعضهم عزاه الى فيلافيو جوجيا المذكور وزعم آخرون انه كان معروفا في الصين في سنة ١١١٥ قبل الميلاد وكان ذلك سهو نعم انه كان عندهم آلة تتحرك بنفسها مصوبة الى الجنوب لهداية المسافرين برا وبحرا فظننها الناس الآلة المعروفة قال وقد ثبت ان المذكور هو الذي استنبط تعليق هذه الابر كما نراها الآن وذلك سنة ١٣٠٢ فاما وضع الصندوق لها وكيفية تركيبها به فن اختراع احد قسيسي الانكليز ويقال له وليم بارلو وذلك سنة ١٦٠٨ • ولتختم كلامنا على المعادن بذكر الالماس فنقول انه وجد في معدن هذا الجوهر ببرازيل حجر زنته ١٦٨٠ قيراطا وارسل الى ديوان البورتوغال فقوم بمائتين واربعة وعشرين مليوناً من الريالات وقومه بعضهم بستين مليوناً لا غير وزنة حجر الالماس الذي عند قيصر الروسية ١٩٣ قيراطا واشترى ملك فرنسا حجرا كانت زنته ١٠٦ قيراط وفي سنة ١٨٥٠ جلب الانكليز حجرا من الهند زنته ٨٠٠ قيراط الا انه لجهل الرجل الذي قطعه نقص حتى جاء ٢٧٩ قيراطا وقدره كالبليضة يتوقه مليوناً ليرة وفي هذه الايام الاخيرة جلب حجر من برازيل زنته ٢٥٤ قيراطا يذهب نصفه في القطع • اما مصلحة سكك الحديد في بلاد الانكليز فهي اعظم المصالح التي شغلت منهم خواطر الاغنياء والمستريحين والمستنبطين فان مجموع رأس المال الذي وضع فيها يبلغ مائة مليون ليرة ومجموع رأس المال الذي وضع في اشغال القطن اربعون مليوناً والذي في اشغال الصوف ثمانية عشر والذي في الحديد احد وعشرون والذي في الحرير ستة عشر مليوناً ومجموع رأس المال الذي وضع في اشغال الحديد في بلاد الدول المتحدة ثلاثون مليوناً • ويحكى عن رجل من الانكليز انه كان في اول امره بزازا خاملا فتعاطى اشغال هذه السكك فحصل له توفيق فيها ونجاح وما زال يزيد نجاحا حتى استغنى غنى لم يذكر مثله في التواريخ قط فيقال انه صار يتولى اشغال خمسين الفا من الصناعات

يعملون تحت يده قلت والذي فاق في شهرة الغنى في التواريخ القديمة رجل من اهل رومية يقال له كاسيليوس ازيدوروس قيل انه ترك عند موته ١١٦ر ٤ عبدا. و ٣٦٠٠ ثور و ٢٠٠٠ر ٢٠٠ رأس من البهائم وثلاثة ملايين ليرة وحيث تسمع بان رجلا بمفرده غنى جدا فاحكم على كثيرين بانهم فقراء جدا • ثم انه لما نشم بعض المحترفين من الانكليز في انشاء سكك الحديد ولهج بها المتكسبون لم يكن احد يصدق انها تصل الى ما وصلت اليه بل كان كثير يستخفون بها ويسخرون ممن وجد همهم اليها فقد كتب في بعض صحف الاخبار منذ عشرين سنة ما نصه اما هؤلاء المصطرفون الذين يخيل لهم ان يذشوا سكك الحديد في جميع جهات المملكة حتى يستغنى بها عن السفن والمجالات والعوادل والحامل وغيرها مما يركب الناس فيه برا وبحرا فلانا نزلهم وتصوراتهم هذه التي هي اضغاث احلام منزلة من هو غير جدير بان يشغل به الخاطر • واول سكة انشئت في البلاد المذكورة كانت في نيوكاسل وذلك في اوائل القرن السابع عشر ولكن كانت قضبانها من خشب وكان المقصود منها انما هو نقل الفحم عليها الى المرفأ ثم انشئت سكة اخرى في ويت هافن وذلك في سنة ١٧٣٨ واعظم سكة انشئت بعدها كانت في كلبروك دال في سنة ١٧٨٦ ثم كان اعظم السكك واطولها سكة ليفربول ومنشستر بدئ بها سنة ١٨٢٦ وقطعت في سنة ١٨٣٠ ومن ذلك الحين شرعت جماعات كثيرة في انشاء سكك متعددة في انكلترة وفرنسا وبلجيكا وغيرها وفي سنة ١٨٢٤ كان الرتل المسمى بالناقل يسير في الساعة ستة اميال وفي سنة ٢٩ كان صنف آخر يسمى الساروخ يسافر خمسة عشر ميلا وفي سنة ٣٤ كان صنف يسمى طيار النار يسير عشرين ميلا وفي سنة ٣٩ سار صنف يسمى نجم الشمال سبعة وثلاثين ميلا والآن فان الناقل يسير سبعين ميلا وكان في مبدأها ينفق عليها من الفحم اكثر مما ينفق الآن بخمسة اضعاف وقس على ذلك سائر المصاريف • وقد علم من خلاصة مجلس الشورى المنوط به اقرار هذه المصلحة ان الحصص الاصلية وما يلحقها من الاستقراض الخاص بجماعات سكك الحديد الكائنة في بريطانيا بلغت ثلاثمائة وستة وثلاثين مليوناً من الليرة وبلغ عدد المسافرين في المملكة المذكورة في بعض السنين ٤٠٤ر ٣٦٧ر ٥ تحصل منهم ومما اخذ ايضا على البهائم والرسائل ٦٠٥ر ٢٤ر ٥ ليرات وعدد مجموع سكك الحديد فيها

فيها بلغ مائتين واثنين وعشرين سكة تجرى اسلاك التلغراف في ثلثيها وفي سنة ١٨٥٠ تحصل من ايراد هذه السكك في جميع اوربا ٢٣ر٣٠٠ر٠٠٠ ليرة وكان نصف ذلك من ايراد سكك بريطانيا وهذا جدول اطوال السكك المعروفة في الدنيا

ميل	ميل		
١١٥ الى غاية سنة ٤٨	٧ر٨٠٣ الى سنة ٥٤	في ايطاليا	في بريطانيا
» ١٠٦	٣ر٨٠٠ الى غاية سنة ٤٨	في الدنمرك	في امريكا
» ٨٠٠	»	في كوبا	في جرمانيا
» ٠٥٢	»	في الروسية	في هولاند
» ٥٠٠	»	في هند الشرق	في بلجيكا
» ١ر٠٠٠	»	في مستعمرات الانكليز	في فرنسا

والميل عبارة عن ١ر٨٦٠ يارد واليارد عبارة عن نحو ذراع ونصف (١) وفي سنة ٥٦ امتدت سكك الحديد في بريطانيا الى ٨ر٠٥٤ ميلا اتفق فيها ٢٨٦ر٠٠٠ر٠٠٠ ليرة ومنها اكثر من خمسين ميلا في صحور منقورة ومساحة تلك الاميال ٥٥٠ ياردا مكعبا ويوجد لهذه السكك خمسة آلاف مزججة وهي الآلة التي يقال لها أنجن وفي كل سنة تسير الارثال ثمانين مليون ميل ومصرف المزججات من الفحم في كل سنة مليونان وفي خدمة الجمعيات القائمة بهذه المصلحة تسعون الفا ما بين رئيس ومروؤوس وفي سنة ٥٤ كان عدد من سافر في هذه السكك احد عشر مليونا واستفيد منهم اكثر من عشرين مليون ليرة وهو نحو

(١) منذ تأليف هذا الكتاب ازدادت السكك الحديد في اوربا ازديادا عظيما ففي انكلتره وحدها بلغ طولها لغاية سنة ١٨٨٠ مسافة ١٨ر٠٠٠ ميل كلفت ٤٦٩ر٠٠٣ر٧١٧ ليرة وحلت من الر ككاب في ظرف سنة واحدة نحو ٦٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ نفس وفي امريكا بلغ طول السكك المذكورة ٨١ر٧٢٥ ميلا وفي ايطاليا ٥ر٠٩٨ وفي جرمانيا ١٩ر٧٧٣ وفي فرنسا ١٣ر٨٧١ بلغ ايرادها في السنة المذكورة ٤٠٨ر٢٣٥ر٣٦ ليرات انكليزية وقس على ذلك ازدياد السكك في بقية ممالك اوربا

ثلث ايراد الدولة والمصروف من الحديد على تبديل القضبان والادوات في كل سنة
عشرون الف طن ويقطع ايضا للوازمها نحو ثلاثمائة الف شجرة وكل رطل
يحمل في مجمل الحساب مائتي شخص وبلغ ما اعطى لاصحاب الارض تعويضا
لهم عما اخذ من املاكهم نحو سبعين مليون ليرة واسلاك التلغراف بمدة ٢٠٠٠ ميل
ويلزم لها من سلاك الحديد ما طوله ٣٦٠٠٠ ميل وعدد المستخدمين في التلغراف
ثلاثة آلاف وكل واحد من خمسين من اهل انكلترا يتوقف معاشه وقوام امره
على هذه السكك • وقال آخر بلغ الحاصل من ايراد سكك الحديد في بريطانيا
في سنة ٥٧ ثلاثة عشر مليوناً وذلك بحسب فائدة ٤ في المائة • وقال آخر
كان في اواسط سنة ٦٠ ١٢٧٤٥٠ رجلا مستخدما في سكك الحديد في جميع
المملكة والمشروع فيها الآن يستخدم فيه ٥٣٩٢٣ فتكون الجملة ١٨١٣٧٣
وعدة المواقف ٣٦٠١ • ثم رأيت بعد ذلك في بعض صحف الاخبار ان طول
سكك الحديد في مملكة بروسية بلغ في سنة ٥٩ ٣١٦٢ ميلا وان رأس المال
الذي عين لذلك ٤٤٠٨٠٠٠٠ ليرة فيكون ١٣٩٤٠ ليرة على كل ميل وبلغ
عدد المسافرين في السنة المذكورة ما عدا العسكر ١٦٨٢٧٩٢٦٨ ومقدار
البضائع التي نقلت فيها ١٢٠١٢٦١٠٤٩٠٤ طنا ومقدار ما تحصل منها
٥٣٩٩٤٤٠ ليرة اعني ١٧٠٧ ليرات من كل ميل • هذا ما تيسر لي نقله من
الكتب ومن صحف الاخبار واقول اني سمعت من غير واحد ان اعظم سكة
في انكلترا هي التي يسافر بها من لندرة الى برستول انفق في انساؤها نحو ستة
ملايين ليرة وايرادها في كل شهر مائة وخمسون الف ليرة ثم ان الرتل الذي
يقف في عدة مواضع يسير في الساعة نحو عشرين ميلا فاما الرتل المخصوص
فانه يسير أكثر من خمسين وهو يمر كالبرق الخاطف فاذا نظرت اليه هالك مره
وربما وقفت له الارتال البطيئة خشية المصادمة والمحسوب ان يجعل على كل
ميل في المحل الاول قرش ونصف وفي الثاني قرش وفي الثالث نصف قرش ومما
مرت تعلم ان منشئ هذه السكك جماعات يخرجون مالا من ملكهم ويشترون فيها
دخلا وخرجا فاذا اراد احد منهم ان يبيع حصته فيها اشتراها آخروا لباس
المستخدمين فيها كالباس الشرطة بل احسن وفي طول السكة يقيمون رجلا
يتعهدون القضبان ويحافظون على تنظيف الطرق فقد يتفق ان بعض الاعداء

يكسر قضيبا منها فيكون في ذلك هلاك نفوس شتى • ومما ينبغي ان يلاحظ
هنا ان الارتال الفرنسية اقل عرضة للمصادمة والخطر من الارتال الانكليزية
فكل يوم تسمع في بلاد الانكليز عن عطب عرض ل احد الارتال ولهذا كانت
الشيخوخة والعجائز عندهم بأنفون من السفر فيها ويؤثرون السفر في بعض مراكب
البر على قديم عادتهم وسبب كثرة هذه الاخطار عندي هو ان مديري
المزجيات كغيرهم من ابناء جنسهم في الانهمالك في شرب المسكرات فيشربون وهم
مباشروا الآلة حتى يعزب عنهم الرشد والصواب ففي سنة ٥٦ هلك في هذه
السكك في بريتانيا مائتان واحد ومائتان نفسا واصيب نحو اربعمائة وذلك
ما بين مجروح وارب وقس على ذلك خطر السفن فقد نلف لهم في السنة المذكورة
على سواحل المملكة فقط الف وتسعمائة وتسع وخمسون سفينة والمعلوم من مجمل
الحساب انه يفقد لهم في كل شهر مائتا سفينة ومع ذلك فهم اغنى الناس جميعا
فتعجب والاحظ ايضا ان الانكليز اذا عملوا شيئا فانما يراعون فيه وجه
الكسب والمصلحة فقط والفرنساوية يضيفون الى ذلك راحة المسافرين
ورونق المحل والتفاخر فان المحل الثاني في ارتال الانكليز لا يستمل الا على
مقاعد من خشب اذا قعد عليها الانسان بضع ساعات الم غاية الالم فاما عند
الفرنساوية فانها تكون شبه الارصفة يقعد عليها المسافر ما قعد ولا يمل
وقس على ذلك البواخر وموافف الارتال في فرنسا احسن منها في انكلترا
غالبا وابهج وفي بعضها مطاعم عظيمة يجد الانسان فيها كل ما يستهى بخلاف
مواقف الانكليز فان ما في مطاعمها كره ولا سيما القهوة فانها عبارة عن حسا
القطاني ولهذا كان اكثر المسافرين من الانكليز يتزودون من بيوتهم ما يلزم لهم
مدة السفر ويأكلون وهم قاعدون في العواجل وقل منهم من يتغدى في المطاعم
وما ارى الحق الا معهم فان تلك المطاعم فضلا عن غلائها ربما اورثت الاكل
هيضة تمنعه عن السفر • وفي كل من هذه المواقف يكون محل للحاجات التي
ربما ينساها المسافرون هناك لسبب العجلة او الذهول فتبقى هناك محفوظة حتى
اذا علم صاحبها ردت عليه في الحال والا ابقيت فيه سنتين ثم تباع ويوزع
ثمنها على خدمة الموقف ولا سيما الذين اصابوا منهم في ابدانهم واتفق مرة
لرجل ان نسي كواغذ مالية بجائة ونخبين ليرة فلما عرف اسمه ودت عليه

واتفق لي ايضا اني كنت نسيت خرجا في كالى ولما استقر بي المقام في القرية تفقدته وعلت بانه بقى هناك فكتبت الى مدير الموقف فيها فلم يلبث ان ارسله الى • ويحسن هنا ان نذكر ما يناسب المقام مما اورده البخارى في باب اللقطة من صحيحه قال حدثني محمد بن بشار حدثنا غندر حدثنا شعبة عن سلمة قال سمعت سويد بن غفلة قال لقيت ابي بن كعب رضى الله عنه فقال اخذت صرة فيها مائة دينار فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقال عرفها حولا فعرفتها فلم اجد من يعرفها ثم أتته فقال عرفها حولا فعرفتها فلم اجد من يعرفها ثم أتته ثلاثا فقال احفظ وعاءها وعددها ووكأها فان جاء صاحبها والا فاستمع بها وروى استمع بها بحذف الفاء قال ابن مالك في التوضيح فيه حذف جواب ان الاولى وحذف شرط ان الثانية وحذف الفاء من جوابها فان الاصل فان جاء صاحبها اخذها وان لم يجئ فاستمع بها والتعريف ذكر اللقطة والضالة وطلب من يعرفها انتهى ملخصا من شرح شواهد التحفة الوردية للعلامة عبد القادر بن عمر البغدادي • فيكون مديروا الواقف على هذا آخذين بهذا الحكم الا ان في الامر بتعريف الضالة من الفضل ما فاتهم

اما خلق الانكليز فالغالب على الرجال السقرة وتوسط القامة مع الضلعة والقوة ونسبة العصب وزرقة العيون وصغر الانوف والظاهر ان الشقرة لا تتوقف على البرد وحده وانما اخص اسبابها الدم فان اهل جبل لبنان ليس لهم صفاء هذا اللون الذي يرى في هذا الجيل والغالب في عليهم امتداد القامة والرشاقة ثم ان الحسن هنا في الرجال منقسم الى ثلاثة اقسام • الاول في العسكر فانهم يتخبطون ممن حسن وجهها واعتدل قدا ويلحق بهم الشرطة • الثاني في خدام الكبراء والامراء فان السيدات يتنافسن في الغساني ولا يتناولن شيئا الا من يد مليم وان يكن الشيء المتناول قبيحا • الثالث في الكتّاب الذين تستخدمهم التجار المثرون واصحاب المحترقات والمسابات الحافلة حيث يكثر تردد الخواتين لاشراء وغيره فان ذلك ادعى الى حملهن على الاسراف وما عدا هذه الانواع الثلاثة فقل ان تبصر مليحا فاما في باريس فلم الحظ ذلك الا في دكاكين اللحامين حيث تنساب الخوادم الشابات لاشراء اللحم والذي يظهر لي في الجملة ان رجال الفرنسيين اجل من نسائهم ومن رجال الانكليز وان نساء هؤلاء اجل

من رجالهم ومن نساء أولئك • ومن العجب ان الانكليز قد يبلغ احدهم السبعين ولا يخطئه الشيب لا في راسه ولا في عارضه وانما يغلب عليهم في هذه السن الدم والبرد اعنى سقوط الاسنان وعندى ان اعظم اسباب الشيب في الاصل هو الهم والخوف من ظلم الولاة وذى الامرة فان احد الانكليز اذا كان يملك مثلاً مليون ليرة لم يخش ان اميره بل ملكه بنفس عليه بذلك لابل يتباهى به ما شاء لا اعتقاده ان غناء وغنى امثاله موجب لغنى الدولة وشرفها ولا يخشى ايضاً ان يتناول عليه في حقوقه احد ممن هو اعلى منه فان الجميع في الحقوق متساوون وان القاضى والجرنال عتيدان لكل من الغنى والصعلوك والنبه والخامل وحسبك ان بعض باعة الشراب اقام دعوى على دوك كبريج ابن عم الملكة فافسعه الا الحضور بين يدي القاضى • ثم الغالب عليهم ايضاً الكلوح والهوس ولا سيما اهل القرى وان يكن جوهم اصفى من جو اهل المدن وذلك لان في المدن كثيراً من الملاهي والملاعب ومن العازفين بالآت الطرب فتى سمعت الام الموسيقى اخذت طفلها ورقصته عليها او غنت له فيدرب بذلك فيغرس فيه حب الطرب والخفة والبشاشة فاما البلاد الخالية من ذلك فلا بد وان ترى وجوه اهلها عابسة باسرة وطباعهم بليدة • اما نساء الانكليز فلونهن البياض المشرب بحمرة وعيونهن شهل او زرق في الغالب وشعرهن اسود غالباً وان اشتهر خلافه الا في حواجهن فقل ان تكون حالكة واسنانهن احسن مما يظن في امثالهن ممن ربي في البلاد الباردة وقد زين بسطاطا القوام والذلف اى صغر الانف والبلج وامتلاء الساعدين ولطف اليدين ومشق الاصابع وبالعنق ورقة الشفتين واسالة الخد وشعر اهدابهن وحواجهن لا كثير ولا قليل ولا مزينة لهن في الصلوة على غيرهن وهن احسن نساء الافرنج قاطبة صفاء لون ونعومة بشرة واعضادا وترائب واعناقاً وقد ذكرت كثيراً ممن رآهن ورأى غيرهن فكلهم فضلهن الا انهن جد وطويلات الاقدام في الغالب وغير سود الاجفان واحداقهن غير مـكـبة فوق زبق كما قال ابو الطيب وسبب الاول عندى تعرضهن للبرد في الصغر فان ترائبهن لا تزال مكشوفة وفي الجملة فلم ار شيئاً يصدق على نساء هذه البلاد اكثر من قول صاحب القاموس الشوهاء الجميلة والعابسة ضد ولكن في جعل ذلك من الاضداد نظرو جميع الانكليز يحبون

بحسن الاسنان وهو اول ما يذكرون من الصفات المستحبة ويشبهونها بالدركا
نشبهها نحن ويحجيني قول ابن النبيه فيها

* وما كنت ادري قبل لؤلؤ نغرها * بان نغيسات اللآلى صغارها *
وقد كرر هذا المعنى بقوله

* ولم ار قبل مبعده * صغير الجوهر المثنى *
الا انهم لا يخصصون الفلج بالاستحسان ولا يشبهون العيون بالسيوف بل بالاماس ولا الجيد
بجيد الفزال وانما يصفونه بالبياض وربما شبهوه بالمرمر ولا يشبهون الندى
بشيء وانما يصفونه بالامتلاء والاستدارة ولا يتغزلون بالخال على ان النساء
يضعن امثاله احيانا ولا بالهزيمة في الخد وانما يستحسنون التونة في الذقن
ولا يشبهون المرأة بالشمس ولا بالقمر بل بالنجم وعندى ان اشوق شئ في الوجه
الفم والعينان لكونهما يتحركان فيحركان الوجد ولا ارى الحق مع من
قال احب منها الانف والعينان بل الحق ما قاله الآخر ياليت عينها لنا وفاها
ولعل الرواة حرفوا المصراع الاول او لعل الراجز حكى واقعة الخان ثم ان النساء
في بلاد الانكليز هن اللواتي يباشرن خدمة الديار غالبا اما الرجال فلا يكونون في
خدمة الا عند الكبراء وكنيرا ما ترى جارية حسناء زاهرة تامة الاوصاف
تخدم سيدة من السعالى واذا طرفت الباب وخرجت الجارية لفتحها حسبتها هي
المخدومة وادهنك جمال وجهها عن وجه سؤالها ونساء القرى خصلة ذهية
وهى انهن يشرقن بنحامتهن وهذه تغابل خصلة نساء فرنسا في لحسن
اصابعهن بعد اكل الحلواء ونحوها ويقابلها من خصال اهل المشرق
التجشؤ وهو حباقي المدة غير ان خصلة الفرنسيات اقل اذى لانها لا تكون
الا عقب الاكل ومدتها لا تطول وجع النساء اللآلى استخدمناهن كن يلمسن
شعورهن ووجوههن وايديهن وسنخه ويغسلن وجوههن واعناقهن ويمسحنها
بالخرق التى يسمن بها آنية المطبخ والخصلة الاولى رأيتها في لندرة ايضا وقد
سمعت ان نساء فرنسا المتطرفات لا يغسلن وجوههن بالصابون مخافة ان تجل
بشرتهن وانما يغسلن بماء النخالة مع ان صابون فرنسا احسن من صابون
الانكليز ويقال ان اهل فرنسا الاقدمين وكان يقال لهم الغال هم اول من عملوا
الصابون في اوربا وكان الناس من قبل ذلك يغسلون ثيابهم بالماء فقط اما بان
دعكوها بايديهم او بارجلهم ولم يعمل في لندرة قبل سنة ١٥٢٤ والمحسوب
ان

ان كل واحد من اهل بريتانيا يلزم له سبعة ارطال من الصابون في كل سنة
فعلى هذا يكون اللازم منه لاهل لندرة وحدهم تسعمائة طن وجبج الافرنج
لا يغسلون ايديهم بعد الطعام غير ان الكبراء منهم يغمسون اصابعهم في
صحاف يؤتى بها امامهم على المائدة ثم ينسفونها من دون صابون وربما
تمضمضوا والقوا فيها الماء من افواههم بحضرة الضيوف وكذلك تفعل
النساء وهو عندي اقبح من عدم العسل • ومما يكره في نساء الافرنج تربية
اطفارهن حتى تأخذ حدها في الطول وترك شعورهن في التفتا منفسة مشعنة
حتى نزعت احداهن غطاء رأسها رأيت شعرها كسعر المقشعر وان احداهن
للمعب يجروكلب بحضرة الناس وربما نزا عليها ولحس تراثها ووجهها ونساء
الاكابر يستحبن كلابهن في العواجل وعندهن صنف من الكلاب يقعدنه في
احضانهن ويسمى كلب الحضن واني احدم نساء الافرنج عوما ومن نساء
الانكلير خصوصاً انهن لا يستعملن الصبغ ولا التزجيج فكما خلعتهن الله
يبدون ولا يتباهين بكثرة الحلي والجواهر فعناية تصنعهن انما هو في تصفيف
شعورهن وتغيير ملابسهن بحسب الزى المستعمل فاما نساء الفرنسيس فانهن أكثر
زهوا وعجبا من جميع نساء الافرنج وقد كانت النساء هنا يرسلن على طلائهن
سوائف مجمدة تفعل ذلك منهن الطويلة الشعر عجبا به فصرن الآن يسويهن
منسرحا على افواههن افتدأ بالملكة الاماندر ومنل هذه العادة في القلة عادة
المرافد والنساء على الرجال مزيتان علوية صينية وسفلية شتائية فالاولى
اتخاذهن الظلل وقاية لهن من الشمس او لبرائيتهن خشية ان تنصل الوانها
وهي في الواقع عبارة عن ظلل والثانية اتخاذهن التباقيب ذات الشسوع في
الشتاء فتراهن يخنضن بها الوحول والثلوج وهي مصلصلة تحت احذيتهن
وغطاء رؤوسهن البرنيطة وذلك مطرد في جميع البلاد بخلاف نساء فرنسا
فان لكل نساء افليم فيها غطاء مخصوصا واكثر ما يرمهن من اللباس الجوارب
والاحذية فاما الثياب فالغالب انها من السيت ومع ذلك فاذا كان للمرأة اربعة
قفطاطين منه فهي الخطيئة والحق يقال ان نساء الانكلير على غاية ما يكون من
التعشف والقناعة فان اقل شئ من الملبوس يرضيهن ومن المضاعف يكفين ولا
يستعملن الدخان ولا الشوق كبعض نساء الفرنسيس ولا هن مثلهن ايضا في

كونهن ينكرن منزلة الرجال على النساء فهما تكن المرأة شريفة من الانكسار تعترف بان الله تعالى خلق الرجال قوامين عليهن واذا اهديت احداهن منديلا او حذاء او نحو ذلك استعظمت الهدية وبالغت في وصف محاسنها وكررت الثناء عليك حتى تتوهم انك صرت رابعا لحاتم طي وهم بن سنان وكعب بن مامة فاما اذا نظرن شيئا من الجواهر النفيسة سواء انحفن به او لافيا للمحب ويا لمتهى الارب واستعظام الهدية ولو قلت عفة عامة لعليتهم وسفلتهم فقد كانت سيدة ما تكرمت علينا بست ثمرات من الخرشف فلما قابلتها في اليوم الثاني شكرتها على ذلك فقالت انى وزوجى اهديناها فكأنها قالت ان عليك ان تشكره ايضا كما شكرتني والحق يقال ان ذلك فى اكثر الاحوال اولى من سكوت العرب عن نطق كلمة واحدة تفصح عن الشكر • وقد كنت ارى من النساء العبل الحسان ذوات البشر الناعم والفضاضة الرائعة من تنصب حر وجهها لحر الشمس فى الصيف بان تعزق الحقول وتحمل الاحمال الثقيلة وتحصد وتبذر وتجمع المحصول وتخطب وما اشبه ذلك وفى شهر حزيران حين يقطع الحنيس ترى نساء كثيرة يجمعنه وحين يحصدن الزرع لا يعملن بنص التوراة فى سفر الاحبار فانهن يحصدن الارض من تحته ومع هذا النسقاء فلا تزيد اجرة المرأة فى اليوم على نصف شلين وهو بالنسبة الى غلاء بلادهم بقيمة قرش عندنا فكنت اقول فى نفسى ما ارخص الجمال فى هذه البلاد وما افسى قلوب الرجال الذين يحوجونهن الى هذا الابتذال او لعلهم يريدون صبغ هذا البياض النقي بورس الشمس او سحمة الضباب

- * فلو برزت سواعدهن يوما * لساعرنا لانسد من ذهول *
- * يربات الخمول يحق لى ان * اسبب لارباب الخمول *
- * ولو برزت ترائبهن لاسلا * لصدر الدولة القرم الجليل *
- * لقال خذوا حظايا الكرج عني * فدى الصلقات عند ذوى الخمول *

وفى الجملة فلا شئ ارخص من الجمال فى هذه الديار • وهذا ولما كان لون البياض عاما فى الرجال والنساء فى هذه البلاد كانت المرأة السمراء محببة الى الرجال جدا والرجل الاسمر محببا ايضا الى النساء جدا وهذه الطائفة المعروفة عندهم باسم جبسس وهم صنف من نور بلادنا وغجر مصر لولا دناءتهم لكنت عليه

عليه الانكليز تصاهرهم وذلك لسمة لونهم وكل عيونهم وقد كان الدكتور لي
متزوجا احدي هؤلاء الجبسيات رآها مرة فاحبها اسمرتها واحبته هي لبياضه
فوجدوها بان يتزوجها بشرط ان تنهذب في مذهب النصرانية فاجابته الى ذلك
فتأهل بها • ومن الغريب ان هذا الجليل يعيش في هذه البلاد عيشة النور في
بر الشام سواء اذ ليس لهم مقر معلوم الاقامة فرة يسكنون الغياض ومرة الخصاص
وبعضهم يأوي الى نحو هودج يحرقه حصان فيجعل فيه رحله وانا به وهكذا
يطوف في البلاد واليه تنسب سرقة الدجاج والخيول او في الاقل اذئابها والانباء
عن البخت ولهم لسان خاص بهم ويقال لشيخهم ملك الا انهم يخالفون نورنا
بكونهم غير مولعين بالطرب والرقص وما ذلك الا لكونهم مولودين تحت رقيق
الانكليز الكالح ولما كان هؤلاء يعتدوهم في السكنى تنصر منهم كـ كثير فان قلت
كيف يصرون البخت والانكليز لا يعتقدون بهذه الامور قلت ان عامة الانكليز
على غاية من الجهل فعندهم من التفاؤل والتشاؤم ما عند عامة بلادنا كما سنبين
ذلك بعد • وعن بعضهم ان هؤلاء الجبسي هم احدي عشائر مصر الذين
خاموا عنهم نير الطاعة للترك حين غزوا بلادهم حتى اذا فسلوا تفرقوا في
الارض فكان اول ما ظهروا في جرمانيا وذلك نحو سنة ١٥١٧ وحين كان
الناس اذ ذاك على جانب عظيم من الوسوس والاضاليل وذنوا بهم علم بصر
البخت رحبوا بهم في كل مكان وفي سنة ١٥٦٠ نفوا من فرنسا ومن غيرها
ايضا الا انهم لم يزالوا موجودين في كل مملكة وفي ايام شارلس الاول قتل ثلاثة
عشر شخصا من الانكليز لاختلاطهم بهم واخرب مأواهم في نوروود وذلك
سنة ١٧٩٧ وعودوا معاملة البطالين التائمين وقبل سنة ١٨٠٠ كان منهم في
اسبانيا اكثر من مائة وعشرين الفا ولم يزل منهم في هذه البلاد جماعات كثيرة
ومع اختلاطهم بغيرهم من الاجيال فانهم لم يحولوا عن عاداتهم واطوارهم
وسميتهم فهم اشبه باليهود اه وقال آخر ان اصلهم من الهند وانهم يتكلمون
بلغة من لغاتها وان حقيقة اسمهم زنكان او جنكان انتهى • ثم ان تحقق
الحسن في السمر او السود في عين الرائي لا يمكن من قريب فاما البيض فاذا رأيت
صفا منهم عن بعد توهمتهم كلهم ملاحا لان البياض كما قيل شطر الحسن ويمكن
ان يقال ان ذلك بالنسبة الى لغة النظر وروى ابن عسـاكر عن خالد بن

نسفيان انه قال عمود الجمال الطول وبرنسه سواد الشعر ورداؤه البياض قلت
فعلى هذا فقد اجتمع في مؤنث جيل الانكليس العمود والبرنس والرداء وقد
تحل بعضهم لان فضل السود بقوله

* رب سوداء وهى بيضاء عندى * فهى مسك ان شئت او كافور *
* مثل حب العيون يحسبها لنا * س سوانا وانما هى نور *
❖ وقال غيره ❖

* يكون الخال في وجه قبيح * فيكسوه المهابة والجمالا *
* فكيف يلام عاشقها على من * يراها كلها في العين خلا *
وهذه كلها من مغالطات الشعرآء والحق ما قاله البها زهير
* اسمع مقالة صب * وكن بحقك عوفى *
* ان اللبح ملبح * يحب في كل لون *
❖ وقال آخر ❖

* قالوا تحب السواد قلت لهم * احبه في الشعور والحدق *
* قالوا وتهوى البياض قلت لهم * في الوجه والمعصين والعنق *
ثم لا يخفى انه لما كانت اسباب الفساد في القرى الصغيرة صغيرة لم تكن النساء
هنا مائلات الى الفحش والفسق كما هو شان المدن الحافلة ولهذا كان عيش
المتزوج في بلاد الفلاحين من هذا القبيل اهنأ من عيش التمدنين والذي
اتحققه ان عيش المتزوجين من الانكليز في كل الموضعين وان لم يكونوا
يحتفون بازواجههم ويكرمونهن امام الناس كما تفعل الفرنسيين الا انهم اكثر
احصانا منهم لفروجهم واوفر مودة ووفاء لهن في الحضرة والغيبة هذا في حق
الازواج فاما في شان الرجال والنساء مطلعا فان رجال الفرنسيين ارفق واحق
فان احدهم ليؤثر راحة المرأة ايا كانت على راحة نفسه فاذا تبوأ مثلا مقعدا
في سفينة او رتل ودخلت امرأة ولم تجد لها محلا فاضطرت الى القيام قام من
موضع واجلسها فيه وكذا لو وقع منها منديل ونحوه بادر حالا الى مناوتها
ايه وعندهم كلمة مخصوصة لمثل هذه الافعال اما الانكليز فلا مبالاة لهم بذلك وكنت
كثيرا ما ارى رجالا منهم يضطربون النساء والاولاد حتى يسبقوهن الى موضع
يتبأونه فاذا دخلت النساء ظالمان قائمات وحين يسافرون في الارتال او الحوافل
يتخبرون

يتخيرون احسن المقاعد وربما اداروا ظهورهم للنساء غلاظة وسوء ادب نعم ان نساء الفرنسيين اكثر تكيسا وتظرفا في الظاهر من نساء الانكليز الا ان هؤلاء جديرات بالاكرام من عدة وجوه وفضلا عن ذلك فقد يقال ان زيادة تكيس اولئك اصلها من زيادة الاكرام لهن وانما هو جفاء غريزي في طبع الرجال حتى ان النساء اعتدن عليه ولا يرين فيه نكرا الا اذا عاشرن الاجانب وهذا هو ما تعنيه الانكليز بقولهم نحن خير من غيرنا بعولة وغيرنا خير منا عشاقا والفرنساوية يصفون نساء الانكليز بانهن عسراى يعملن بالشمال تعريضا بكونهن لسن صنعا كنسائهم وهذا القول باعتبار صنعتي التلم والابرة حق فان عامة النساء هنا لا يحسن الحياطة ولا التطريز ولا الكتابة واذا كتبت احدها رسالة شحنتها بالغلط والخطأ مع ان لغة الانكليز هينة المأثى بالنسبة الى غيرها ولكن هن معذورات في ذلك اذ ليس في القرى مكاتب جيدة ومعلون ماهرون وربما اجرئ عن المكتب بان يتعلم في الكنيسة يوم الاحد شيئا من اصول الدين او شيئا من القراءة مما لا يعبأ به وفضلا عن ذلك فان الولد متى ادرك وهو تحت حجر والديه لم يستغنيا عنه لانكهما اما ان يستحياه معهما الى المزرعة ليعينهما على عملهما واما ان يبقى في البيت ليهيئ لهما طعامهما ويحفظ رحلهما وغير ذلك فان يكن والحالة هذه لوم على النساء فانما هو على قارئات المدن والقرى الجامعة بل الرجال في هذه الاماكن لا يريدون اقبال نسائهن على القراءة والكتابة مخافة ان يشحن عليهم كدأب نساء الفرنسيين وما احسن هنا ما قيل ان المرأة الفاضلة هي التي اذا قرأت خلتها لا تحسن العمل واذا علمت خلتها لا تحسن القراءة • وعلم من الاحصائيات الرسمية انه في سنة ١٨٥٥ كان عدد المتزوجين ٤٧٠ر١٥٠ر٣ فوجد من كل مائة امرأة اربعون قد وضعن على الطروس علامة الصليب بدل اسمائهن ومن كل مائة رجل تسعة وعشرون رجلا على تلك الصفة اه قلت والذين يعرفون ان يكتبوا اسماءهم ينبغي اسقاط ثلثيهم من عداد ذوى الدراية فان اكثرهم لا يحسنون كتب رسالة • وهنا ينبغي ان يلاحظ ان عامة الانكليز يقرأون التوراة والانجيل بلفتهم ولكن قل منهم من يفهمها وقد جرى مرة ذكر ذلك بحضرة جماعة ادعوا بانهم لا يفوتهم شيء من فهم الكتاب الاول وان سعادة بلادهم وغبطة احوالها

انما تسببت عن ذلك فقلت لهم اما السعادة والغبطة فلمست ابا حشكم فيهما ولا اسلم لكم بانكم اسعد من غيركم واما الفهم فما اخالكم تفهمون ما تقرأون في التوراة قالوا سلنا عن شيء منها فقلت على شرط ان لا يسوءكم قالوا لا نخش من الاساءة فان هذه البلاد بلاد الحرية قلت ما معنى الغرلة حين طلب شاول من داود ان يمهز ابنه مائة غلقة من اهل فلسطين فضى داود وقتل منهم مائتين وجاء بفلفهم الى شاول فقالوا لاندري فقلت بل لا تدرون ايضا كيف ان الرجل يمهز المرأة فان عادتكم بخلاف ذلك قالوا بين لنا هذا قلت ههنا نساء واخشى ان افسر لكم معنى اللفظة فتتبعض النساء قالوا اذا كان ذلك كلام الله فلا حرج ففسرت لهم حينئذ معناها فما كان من احدى النساء الا ان اخذت الكتاب ورمت به الارض وقالت معاذ الله ان يكون هذا الكلام كلام الله • اما الخياطة والوشى فقد تقدم ان نساء الفلاحين لا يلبسن سوى السيت فلا حاجة الى تطريزه وكل واحدة منهن خياطة لنفسها واذا خطن تمت يد تاجر فقلما توفي اجرتهن وما عدا ذلك فان كثيرا من الآلات التي اخترعها الانكليز صارت تغني عن اليدين • فاما الطبخ فانهم لا يتفتنون فيه طبعاً لان احب شيء اليهم منه انما هو السواء فطباخهم فيه انما هو النار ولما كان وقتهم كله مصروفاً في العمل وتحصيل الكسب لم يكونوا يرون ضرورة لصرفه في تعدد الوان الطعام وفي الجملة فان الانكليز يحق لهم ان يقولوا ان بلادهم منبت النساء ومعدن الأزواج بمعنى ان من تزوج احداهن فقد هنأه العيش وقرت عينه بما يراه من نظافة منزله مع الاقتصاد في النفقة وراحة البال من الاسباب الباعثة على الغيرة • اما اخلاق الانكليز وعاداتهم فالواجب ان امهد للقول فيها مقدمة وجيزة لازالة الالتباس فيما يرد من بيان ذلك فاقول ان هذا الجيل ينقسم الى خمس دابتمات ❖ العابطة الاولى ❖ الامراء والوزراء والنبلاء وذوو المناصب السامية ويلحق بهم الاساقفة ❖ الثانية ❖ الاعيان او العلية وهم الذين يعيشون من ارزاقهم واملاكهم لا من معاطاة شغل او حرفة وليس لهم جلاء اى لقب تعظيم ❖ الثالثة ❖ العلماء والقضاة والفقهاء ويلحق بهم التسييسون والتجار اهل المراسلات ❖ الطبقة الرابعة ❖ التجار اصحاب الدكاكين والكتاب وهم الذين يحتاجون الى تحصيل معاشهم بالاحتراف

بالاحتراف والاصطراف ولكن من دون ابتذال ماء الوجه ❖ الخامسة ❖ اهل الحرف والصنائع والعملة ويلحق بهم الفلاحون وهم الجمهور الاكبر فعادات اهل الطبقة الاولى مباينة بعض المباينة للثانية ولكن ليس بينها وبين الاخيرة من مناسبة اصلا كما سيأتى وعادات اهل الطبقتين الثالثة والرابعة متساوية لا اختلاف فيها الا ما ندر اما اهل الطبقة الثانية فان لهم من وجه نزوعا الى الاولى بالنظر الى العز والاستبداد ومن وجه آخر ينزعون الى الباقى بالنظر الى الجنسية والالفة والغالب على جميع هذه الطبقات حب الوطن والمباهاة بما عندهم من الصنائع والاحكام والاذعان للتقوانين التى بذبت عليها معاملات دولتهم ودواوينهم ولما كان اصحاب الطبقة الاخيرة هم الجمهور الاكبر كما ذكرنا وهم الحريون بان يقال لهم بريتانىون او انكليز لكونهم بقوا على قديم احوالهم واطوارهم ولم يعرفوا غيرهم من الاجيال لا بالاعاشرة ولا بالمطالعة وجب ان تقدم ذكرهم اولا فنتول ان اول خلة يراها الغرب فيهم هى عدم اكترائهم له ونفورهم منه فلا يفرحون لفرحه ولا يحزنون لحزنه بل لا يعنى احد منهم بشان جاره ولا يهجمه امر غير امر نفسه فكل ذى حرفة يقتصر على الاشتغال بحرفته مدة حياته ولا يتطال الى معرفة شئ غيرها فالفلاح مثلا لا يعرف شيئا الا ما آل الى الحرب والزرع والقين لا يدري مما يحدث فى بلاده سوى ما يختص برواج سعر الحديد والطلب على الادوات المصنوعة منه وهم جرا الى المهندس والطبيب واذا استراح الرجل منهم ساعة قضاهما بذكر ما عمل وما سوف يعمل ويمكن ان يقال ان بهذه الخصلة استتب عز دولة الانكليز وعظمت شوكتها لان الرعية لا تعترض ذوى الامر والنهى فى تدبيرهم ولا تتطاول الى معرفة ما تقتضيه سادتهم واهل شورا هم فلذلك قلما يحدث عنهم شغب او فتنة بخلاف اهل فرنسا فان كلا منهم يتخطف على اولياء الامر فيهم وهذا هو السبب فى كثرة العساكر هناك وقتلتها هنا فان جميع ما فى بلاد الانكليز من العساكر لا يزيد على خمسة وعشرين الفا فاذا قسمتها على عدد الاهلين وهو سبعة عشر مليونا ونيف كان كأنه قطرة من بحر ولقائل ان يقول ايضا ان لذلك اى اعدم الفتنة سببا آخر وهو فقرهم المانع لهم من الاشتغال بغير ما يكسبهم القوت الضرورى فان هؤلاء النحل العسالة فى خلية الاجتماع الانسانى انما يعملون كما قال بعضهم لتسمين

الزناير البطالة وهم اطوع خلق الله لاولياء امورهم فلو نهوهم عن ان يناموا مع نساءهم لانتهوا ويمكن ان يقال ايضا انهم لعدم اختلاطهم بغيرهم من الناس يحسبون انفسهم وهم في هذه الحالة اسعد خلق الله وان جميع رسومهم واحوالهم مستغنية عن التبديل والتغير وكيف كان فان شتاءهم موجب لسعادة الدولة وفقدهم زائد في غناها واقتصادها واستغنائها عن كثير من العساكر فان مصاريف العسكرى الواحد هنا تبلغ في السنة مائة وسبعين ريالاً وفي بروسيا اثنين وستين وفي الروسية ثمانية وستين وفي اوستريا تسعة وسبعين وفي فرنسا مئة وثلاثة عشر اما في امريكا فمئة واربعة وثمانون ريالاً ويقال انه يلزم لكل نفر من عساكر فرنسا وانكلترا رطلان وربع رطل من الطعام في كل يوم منها نحو ثلاثة ارباع خضرة والباقي لحم وخبز فيبلغ ذلك في السنة ثمانمائة رطل فاذا اضيفت الى ذلك مشروبه من الماء والقهوة والنساي والسكرات يبلغ الفا وخمسمائة رطل ويقال ايضا ان اكثر ما تجهز عند الدول من الجيوش في العصر الحالية ما كان فيه لدولة اسبانيا مئة وخمسون الفا ولبريتانيا ثلاثمائة الف وعشرة آلاف ولبروسية ثلاثمائة وخمسون الفا وللدولة العلية العثمانية اربعمائة وخمسون الفا ولاوستريا خمسمائة الف وللروسية خمسمائة وستون الفا ولفرنسا ستمائة وثمانون الفا وهم في هذا العصر اكثر واول من كان عنده جيوش قائمة كما يرى الآن شارلس النامن ملك فرنسا وذلك سنة ١٤٤٥ وبه اقتدى شارلس الاول ملك الانكلترا سنة ١٦٣٨ وحسب ذلك اولا عند الانكلترا غير شرعى • وبلغ مجموع العساكر الانكليزية في سنة ١٨٥١ ١٧٨٦٤٥ وبلغت مصاريفهم ١٥٨١٧٢١ رليرة (١) وكانت العادة قبل حرب القرم اعنى الحرب التي وقعت بين الدولة العثمانية ودولة الروسية في سنة ١٨٥١ ان يستخدم النفر من عسكر الانكلترا طول عمره فكان كثير منهم يفقدون انفسهم و بعد خمس عشرة سنة يدعون بان لهم حقا في ان يسرحوا والآن فرض على

(١) وفي سنة ١٨٨١ بلغ عدد عساكر انكلترا المستوطنين فيها ٦٠٠٠٠ نفر وجملة عساكرها النظامية الذين فيها وفي الخارج ايضا ما عدا عساكرها بالاقطار الهندية ٣٠٧٠٠٠ نفر وهذا العدد قليل بالنسبة الى قوة عساكر بقية الدول

المشاة خدمة اثنتي عشرة سنة وعلى الفرسان خدمة عشرين سنة ويوجد في
عساكر الانكليز نحو سبعة آلاف ومئة ضابط بشهرية وافرة وللنفر من حرس الملكة
نحو شلنين في كل يوم ولكل من الفرسان شلن ونمن وللمشاة شلن وثمان رتبة
امير الالاي في الحرس تسعة آلاف ليرة وذلك ان هذه المراتب في العساكر البرية
معرضة للبيع عندهم وهو من جملة الاحوال المختلفة التي يجب اصلاحها
ومصاريف العساكر البرية تبلغ في السنة سبعة ملايين ليرة ونحوها مصاريف
البحرية ومصاريف ديوان المهمات الحربية ثلاثة ملايين (١) ومن طبع الانكليز
الرت وهو البلادة وقلة الفطنة فلا تكاد احداثهم تفهم شيئا من كلام الغريب
بينهم بل الكهول ايضا لا يعون ما يلقي عليهم الا بعد الروية والتأمل وشتان
ما بينهم وبين الفرنسيين فان الحدب من هؤلاء يتندر الى الجواب كأنما قد درسه
ودراه من قبل سؤالك اياه ولو قلت ان البريتاني القمح ليس له من نوعي العقل
سوى نصف المكتسب ونصف الغريزي لما اخطأت وتلك صفتهم من القديم
فقد روى عن شيشرون انه قال ان ابله الاسرى الذين جئ بهم الى رومية هم
الذين اخذوا من بريتانيا والتمس من صديقه اطيتوس الا يشتري فيما بعد منهم
احدا وذلك لبلادتهم وعدم اهلهم لتعلم الموسيقى وغيرها من الفنون وروى ايضا
عن قيصر انه قال ان اهل بريتانيا جيل جاف متوحش اكثر ما يكون وان
معظمهم امير الحنطة في عمره قط وان قوتهم انما هو اللحم واللبن لا غير ولباسهم
جلود الحيوانات اه قلت ليس معنى قوله قوتهم اللحم انهم كانوا يطبخونه بل انما
كانوا يأكلونه نيئا مماوحا كما يظهر من رواية اهل التاريخ فانهم قالوا انه علم من
دفتر حاكم نرمبر سنة ١٥١٣ ان اهل الحاكم المذكور كانوا يقتاتون باللحم المملوح
فكان جل طعامهم وكذلك حشمه لم يكونوا يأكلون طول السنة سوى اللحم
المملوح ونذر معه البقول او الحبوب فن زعم ان البيف سترك اعنى شواء البقر
المشرح كان مستعملا بانكلترة من القديم فقد وهم فان هذا الغذاء المرى لم يعهد
قبل شارلس الثاني لانه كان يحب الشواء من ذاهر البقر • قلت والى الآن هم

(١) وفي سنة ١٨٨٠ بلغت مصاريف العساكر البرية ١٥٠٥٤١٣٠٠

ليرة انكليزية ومصاريف العساكر البحرية ٩٣٥٠٩٣٢ ر ١٠ ليرة

يحبون هذا السوء غير ناضج وربما قطر دمه في الصحفة ويستطيبنه على سائر
الوان الطعام ولـكن من رأى اهل جبل لبنان يقطعون الهبر من الضان
ويأكلونه نيثا كف عن لوم الانكليز • هذا ومع تكرر ذكر مدن الشام على
مسامعهم من النابر في كل يوم احد ومع كثرة قراءتهم للتوراة والانجيل فلا
يكادون يعرفون اين موقع دمشق مثلا من الاسكندرية ولا يتذكرون شيئا عن
صور وصيدا وبيروت وجبل لبنان مع انها مكررة في الكتابين المذكورين
بما لا مزيد عليه والظاهر ان مصر اشهر عندهم وعند الفرنسيين ايضا من
الشام وقد سألتني مرة في اكسفورد رجل له سميت وروآ فقال من اى البلاد
فقلت هو ولفظة هو استفهام بلغتهم فقال آه من هو معتقدا ان هو اسم علم على
مدينة ثم قال أتعرف في هو فلانا وسمى رجلا قلت انا لست من مدينة هو وانما
انت سألت سؤالا مبهما يصلح لان يخاطب به اى انسان كان فاذا اردت الآن
ان تعرف اسم بلادي فهى سورية فقال احد الجلوس بعد طول تأمل هل سورية
مدينة كبيرة الا ان بلادتهم هذه مقرونة بشئ من سلامة الصدر وخلص النية
كما ان فطنة الفرنسيين مقرونة بالكر والمحال وكما ان عامة الفرنسيين يحسبون
كل غريب فيهم من اسبانيا ولا سيما اذا كان اسمر اللون كذلك عامة الانكليز
يحسبون كل غريب فيهم فرنساويا سوءا كان اسمر او اسود وسوءا كان على رأسه
طربوش او طرطور هذا ولما كانت خلة الجهل ابدا ملازمة للفظاظاة والחסونة
كان لهؤلاء القوم منها الحظ الاوفر فانهم يحدقون في وجه الغريب ثم يتبعونه
بقهقهة ويسخرون منه ولا سيما اذا لم يكن يحسن النطق بلغتهم على انهم هم انفسهم
لا يحسنون النطق بها فكلاهم كاهلن وخطأ • اما غناؤهم فلا يمكن لذى ذون
سليم ان يطرب به وقد سمعت اغاني الفرنسيين وسائر الافرنج فوجدت بعضها يطرب
ويشجي لان فيها مدا وترجيما فاما اغاني الانكليز غير التى يتلقونها من الطليانيين
والفرنساويين فى الملاحى فكلها نبر ودرج • ومن طبعهم انهم لا يترأفون
ولا يسهر بعضهم عند بعض وكيف يسهرون وهم انما يرقدون فى الساعة التاسعة
ويقومون صباحا فى الساعة الرابعة كل ذلك حتى يأكلوا الفقع اعنى البطاطس
ويشربوا الفقاع وربما بقى الرجل سنين ولا يعرف جاره وكذا اهل المدن وغاية
محاورتهم اذا تلاقوا فى الطريق ان يقول احدهم بطرس فيقول الآخر طير
يوحنا

يوحنا وكنت اذا مررت باحدهم يقول لى صباح حسن فاقول له كالصدي صباح حسن وكنت احسب ذلك تحية لان تحية الصباح عندهم صباح طيب فظننت انهم يقيمون لفظة مقام لفظة حتى سألت الدكطر لى فقال لى ليس ذلك من التحية فى شىء وانما هو مجرد اخبار عن حسن الصباح واذا اجتمع المتعارفان منهم وتساءلا فلا بد وان يتدئ احدهما اولا بوصف الهواء وصحوه او برده ثم يخبره بما عرض له من وجع فى كتفه او نالول فى رجله او اختلاج فى عينه فيقول السامع يحزننى ذلك جدا ومتى اجتمعوا للمنادمة وذلك لا يكون الا فى القرى الجامعة ملاوا كوبا كبيرا من البجة وجعل كل منهم يكرع منه كرة ويدخن فى قصبة من الطين ثم يبصق فيملأون المكان بصاقا وقذرا وفى خلال كل محاورة يجددون وصف الهواء وذكر البرد ولا يكاد احدهم يضحك ضحكا طبعيا وانما هو عبارة عن قهقهة ثم يعقبها الكتم والعبوس فاكان الضحك منهم الاقوة من القوى فهم يكتونه ما امكن مخافة ان تخرج معه تلك التوة • ومن طبعهم ايضا ان لا يحترموا الشيخوخة من حيث هى شيخوخة ولا تهاب الاولاد والديهم كما تهاب الاولاد عندنا ولا يحن الوالدون ايضا على اولادهم كما عندنا ولذلك يقع كثيرا ان الاب يقتل ولده والولد يقتل اباه وامه كما يأتى بيان ذلك وقد يحدث عندهم مضاجعة الاب ابنته وهو عند الفرنسيس اكثر ولكن لم يبلغنى ان ولدا ضاجع امه وفى المدن الجامعة قد تتواد الام وبنتها على الفحش والفساد او الاخت واختها • ومن منكر عاداتهم التى لا يمكن ان يحاولوا عنهما مع علمهم بان جميع الافرنج خالفوهم فيها حلتهم لحاهم وشواربهم حتى ان عساكرهم لم تتحل بالشوارب الا فى الحرب الاخيرة فليت شعرى كيف يرى وجه الجندى محفوقا منتوقا كوجه المرأة ثم ليت شعرى اى حسن للشباب اكثر من الشوارب واى حلية وكال للشيخ اكثر من الحية واذا حسن للنسب حلق شواربه فلم لا يحسن حلق حاجبيه واغرب من ذلك ان القضاة واولى الامر فيهم اذا جلسوا لفصل الامور وضعوا على رؤوسهم شعرا ابيض عارية وارخوا منه نحو ذنب معقود على قذلهم فاخبرونا ايها الناس كيف يكون الحسن والهيبة فى ذنب ولا يكونان فى حلية لعمرى ان الشيخ بلا حلية وشوارب اشبه بالقرد منه بالانسان والنسب بلا شوارب اشبه بالانثى والخنثى منه بالرجل فانها من علامات الرجولية ومما خلقه الله فى

الوجه من المحاسن الطبيعية وان يكن من عذر للعامة في حلق لحاهم فلايس للتسييسين وغيرهم من اهل الكنيسة من عذر ابدأ فان رسل المسيح كانوا كلهم ماتحين وكانوا يشربون عين الناس التي يشربها هؤلاء فكيف كانوا يفلمون غير اني لا اقول بترك اللحية على حالها فالاحسن ان نتخوف حتى تكون مستديرة قال العلامة الشريشي وكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يأخذ من لحية من طولها وعرضها بالسواء وكان عبد الله بن عمر يقبض على لحية و يأخذ ما زاد منها على قبضته قال الحسن بن المنى اذا رأيت رجلا له لحية طويلة ولم يتخذ لحية بين لحيين كان في عقله شيء قال الشاعر

* اذا عظمت للفم لحية * فعالت وصارت الى سرته *

* فتمصان عقل الفم عندها * بمقدار ما زاد من لحيته *

ونظر يزيد بن مزيد الشيباني الى رجل ذي لحية عظيمة وقد تلاففت الى صدره واذا هو خاضب فقال له انك من لحيك في مؤنة فقال اجل ولذلك اقول

* لعمر كـ لو يعطى الامير على اللحي * لاصبحت قد ايسرت منذ زمان *

* اذن لشفتي لحية من عصا به * لهم عنده الف ولى مائتان *

* لهما درهم للدهن في كل جمعة * وآخر للحناء يتسدران *

* ولولا نوال من يزيد بن مزيد * لصوت في حاجاتها الجلمان *

وقال يعقوب الكندي بلارية كان يهواها انى ارى فرص الاعتياضات من المتوقعات على طالبى المودات مؤذات بعدم المعقولات فنظرت اليه وكان ذا لحية طويلة فقالت ان اللحي المسترخيات على صدور اهل الركالكات محتاجات الى المواسى الخالقات • وكان المأمون جالساً مع ندمائه ينفداه مشرفاً على دجلة وهم يتذكرون اخبار الناس فقال المأمون ما طالت لحية انسان قط الا ونقص من عقله بمقدار ما طال من لحيته وما رأيت عاقلاً قط طويل اللحية فقال له بعض جلسائه ولا يرد على امير المؤمنين قد يكون في طول اللحي ايضا عقل فبينما هم يتذكرون هذا اذ اقبل رجل كبير اللحية حسن الهيئة فاخر الثياب فقال المأمون ما تقولون في هذا الرجل فقال بعضهم رجل عاقل وقال آخريجب ان يكون هذا قاضيا فقال المأمون لبعض الخدم على بالرجل فلم يلبث ان اصعد اليه ووقف بين يديه فسلم واجاد السلام فاجلسه المأمون واستنطقه فاجاد النطق فقال المأمون

المأمون ما اسمك فقال جدويه قان، والكنية قال ابو علويه ثم قال ما صنعتك
قال انا فقيه اجيد مسائل الشرع فقال له نسألك مسألة فقال الرجل سل عما
بدالك فقال له المأمون ما تقول في رجل اشترى شاة من رجل فلما تسلمها المشتري
ضربات فخرج من استها بعة فقأت عين رجل فعلى من تجب دية العين قال
فبكت باصبعه في الارض طويلا ثم قال تجب على البائع دون المشتري فقال
المأمون وما العلة التي اوجبت الدية عليه دون المشتري قال انه لما باعها لم
يسترط ان في استها منحنيما فضحك المأمون حتى استلمى على قفاه وضحك كل
من حضر من الندماء وانشد المأمون

* ما احد طالت له لحية * فزادت اللحية في حليته *
* الا وما ينقص في عقله * اكثر مما زل في لحية *

وكانت عائشة رضي الله عنها تقسم وتقول لا والذي زين الرجال باللحى وجاء
انه قسم الملائكة قلت وانا اقسم واقول لا والذي زين النساء بعدم اللحى انتهى
الكلام على اللحية غير انه علق بي منها شيء وهو انه ذكر في الصحاح
ما نصه وفي الحديث انه امر ان تحفى السوارب وتعفى اللحى فكيف التوفيق بين
هذا القول وبين قول الشريشي ان النبي كان يأخذ من سميته من طولها وعرضها
بالسوء • ومن الانكليز من يرد فوق اذنيه خصلا من شعر رأسه فتزى عينيه
بارزتين بين قرني شعر وقذاله يشبه جبهة الثور الناطح • فاما اتخاذ العارية من
الشعر الابيض فاصله فيما قيل ان لويس الرابع عشر كان ردى الشعر فأتخذ له
عارية يستر بها عوار رأسه وكان اذ ذاك شيخا فاقدت به امائل البلاد وسرت
هذه العادة السخيفة الى الانكليز وهم في اكثر الاشياء مقلدون للفرنسيس وقد
وهى استعمالها الآن بالنسبة الى الاول الا في دواع معلومة واحوال مخصوصة
منها يوم مبايعة الملك او تهنئة في ذلك اليوم تحلى كبار دولته بهذه العارية
ويقابلونه بها ومنها وقت جلوس القاضى على كرسى القضاء لتنفيذ الاحكام
الشرعية كما مر وفي محال اللعب والملاهى حين يحاكي اللاعبون واللاعبات من
سلف من الملوك والملكات ترى هذه العارية على رؤوس الاحداث من الرجال
والسواء وكأنها تزيد الحسن حسنا فكأنها مصداق على قول الشاعر * كل شيء
من الملبح ملبح * ثم لما اخذت هذه العادة في العقم نتج عنها ذرور الرماد الابيض

على رؤوس خدمة الامراء والعظماء واصل هذه ايضا فيما قيل ان بعض المغنين كانوا يغنون في موسم صان جرمان بخارج باريس وبهم قرع فنكوا ويبيضون رؤوسهم ليضعوا الناس ثم انتقلت هذه العادة كغيرها من العادات من العامة الى الخاصة وشاع استعمالها عندهم في سنة ١٦١٤ وفي سنة ١٧٩٥ جعل عليها ضريبة وكانت حينئذ قد بلغت النهاية فجعل على كل رأس جيني ولم تزل الى الآن والحاصل ان اعظم الاسباب التي تبقى استعمال هذه العادات السخيفة انما هو حصول النفع منها لخزنة الدولة فانه حينما وجد الربح وجد السداد والرشاد ولو ان الديوان ضرب طستما على الحى والنوارب لما وسع الناس الا ان يقولوا ان يد الرب على قلب الملك • ومن عادة العامة الملائكة ويقال لها البوكس وفي محفوظي ان رفاعة بك رحمه الله ذكرها في قلائد الفاخر بلفظة البوكسه وذلك اذا تخاصم اثنان او تكاذبا فيزنع كل منهما رداءه ويشمر عن ذراعه ويصوب الى وجه قرنه جمع كفه ثم يأخذان في اللكام حتى يغلب احدهما وحينئذ ينهض الغالب المغلوب ويأخذ بيده ويشربان الشراب كالمتوادين والملائكة للعامة بمنزلة المسابقة للعلية غير ان هذه محظورة يجب فيها الحدة وتلك مسكوت عنها وقد كانت سابقا بمنزلة الملهى في اجتماع الناس للتفرج عليها وفي اواخر القرن الماضى كانوا يتعلمونها في المكاتب • ومن طمع الانكليز عموما التهافت على الشهرة والنباهة بين اقرانهم باى سبب كان ولا سيما في اسباب المعارف والعلوم فان من يعرف منهم مثلا بعض كلمات من اللغة العربية ومثلها من الفارسية او التركية فاذا الف كتابا بلغته ادرج فيه كل شئ يعرفه من غيرها ليوهم الناس انه لغوى وما عليه ان يكتب تلك الالفاظ على حتمها او يخطئ فيها وفي عنوان كتابه تعلق عليه جلاجل من الالقاب الطنانة فيكتب له من اعضاء جمعية كذا ومخلص كتاب كذا ومحرر نبذة كذا وخطيب مشابة كذا وهلم جرا ولو عصرت كتابه كله لما بلات منه صدى مسألة وذلك لانهم لا يأخذون اللغات عن اهلها فهمها يخطر ببالهم في تأويلها يقذفوا به جزافا من دون تخرج ان ينسبوا اليها ما ليس منها انظر الى ريشردصون الذى الف كتاب لغة يستمل على لغته وعلى لغتى العرب والفرس فاقسم بالله انه لم يكن يدري من لغتنا نصف ما ادريه انا من لغته لا بل سولت له نفسه ايضا ان ترجم العربى

العربي فخلط فيه ولفق ما شاء فثقل للاضافة بقوله قدح فضة وملاك كسرى ورأس امان والغالب عجم وغالب عجم وكتاب سليمان ونصرا عقبه وفسرها بافهامثني مضاف الى العقبة ونصروا عقبه والنصرا عقبه والنصروا عقبه واورد حكاية من كتاب الف ليلة وليلة عن ذلك الاحق الذي قدر في باله ان يتزوج بنت الوزير فلما بلغ الى قوله ولا اخلى روجي الا في موضعها ترجمها بقوله لا اعطى الحرية لنفسى اى لزوجتى الا في حجرتها وقوله ايضا ولا ازال كذلك حتى يتم جلوتها صحف جلوتها بجلادتها فقال ولا اكف حتى يتم ذلها وعند قوله حتى يقول جميع من حضر كتب في الحاشية حطر وحضرة بمنزلة السمو في الانكليزية وقس على ذلك واذا ترجم احدهم كتابا رقه بما عن له وسبكه في قالب لغته فقد قرأت كثيرا مما ترجم من كلامنا الى كلامهم فاذا هو مسبوك في قوالب افكارهم مما لم يخطر ببال المؤلف قط وقرأت ترجمة منشور صدر من الملك في الحضر على الجهاد من جلته ليس لعباد النبي من خلاص في هذه الدنيا ولا في الآخرة الا بجهاد الكفار فنظر ان ككان المسلمون يقولون ان النبي معبود وما رأيت احدا تخرج من هذا التلفيق والافتراء والترقيع غير مستر صال الذي ترجم القرآن ومستر لان الذي ترجم حكايات الف ليلة وليلة ومستر يرستون الذي ترجم خمسا وعشرين مقامة من مقامات الحريري اما الاول فقد ذكر فلتير انه مكث بين العرب سنين عديدة واخذ عنهم علم العربية حتى تهيا له ترجمة القرآن ولست من ذلك على ثقة اذ الظاهر من مقدمته للترجمة انه لم يخالط العرب وكيفما كان فهو من المحققين واما الثاني فانه لبث في مصر وعاشر علماءها وادباءها واما الثالث فانه كان قد سار الى الديار الشامية واستحب بعض اهلها وما عدا هؤلاء الثلاثة فكما قال عقيل بن علقمة لعمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه

* خذا بطن هرشى او قفاها فانه * كلا جانبي هرشى لهن طريق *
فان احدهم لا يبالي ان يؤدى معنى الترجمة باى اسلوب خطر له فلو قرأ سبا في كلامنا مثلا بان قال بعض السبائيين لاخر يحرق دينه ترجمه بان دينه ساطع متلهب من حرارة العبادة والغيرة بحيث انه يحرق جميع ما عداه من الاديان اى يغلب عليها فهو الدين الحقيقى القاهر. كما ورد ان الله نار آكلة وهكذا فليس

رى علم لغتنا عندهم سوى باب يتوصل به الى النتم من غيرها كالعبرانية والسريانية
 بان هانين عندهم اهم وانفع وناهيك ان دخل مدرس العبرانية في كبريج الف.
 يرة في السنة ودخل مدرس العربية سبعون ليرة فقط ومتى عرف احدهم شيئا
 من لغتنا طابقه على غيره من تلك اللثة واستخرج منه فائدة تختص بالمطابق
 عليه. • وقد جرى مرة بحضرة الدكتور لى ذكر احد المتساويين فقلت انه
 ذو دعوى لكونه نظم ابياتا في لغتنا وشعرها في كتاب مطبوع مع انها كلها
 لمن وزحاف فلز كان ذا ادب لما تكلف النظم من دون معرفة قواعده وهو
 بعيد عليه بل على جميع الافرنج الدين لم يأخذوا عن العرب قال سكنت ونحن
 نظم النسم باليونانية واللاتينية ولم نخالط اهلها فلت ههنا فرق وهو ان
 هامين اللغتين كالاصل لاغتكمت فتعلمونهما على صغر اما العربية فهي اجنبية
 تنكم قال ان الانسار ليكنه ان يتعلم اى لغة شاء كما يعلمها الطفل قلت ما
 هذا مذهبي واني اعطى سكنتى كلها لاي افرنجى كان اذا نظم بالعربية بيتين
 صحيحين بليغين قال انا انظم لك الاية ثلاثة ابيات فلما ذابنته في الغد اذا به قد
 نزلنى رقعة كتب فيها

* ألم تر باصاح بهذا دلامة * بان صار الاجنبى يجرى كرامة *
 * وان لم يكن هذا عروضا صحيحا * فلا تعطه اسفارك عامة *
 * فان كان ذا اذا صحيحا وسالما * ستسلمه اجرا اسفارك رامة *
 فلما قرأتها فلت له فيها زحاف وخطأ فسكت ساعة ثم قال أتدرى ما الالف التى
 فى قول امرئ القيس * قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل * فلت هى الف التنية
 عند بعض فان الساعر خاداب صاحبين له وذلك مستفيض فى كلامهم وعند
 بعض انها متلوكة عن نون التوكيد قال هذا كله تحل وتعسف وانما هى
 متلوكة عن الهاء من العبرانية فان اليهود يلحقون الهاء بفعلى الامر والنهى
 دلالة على الطلب والتوسل ثم بينت له بعد ذلك خطأ اياته فاما كان منه الا
 ان قال ان لغة العرب ليست مطبوعة كسائر اللغات بل هى لغة مصنعة متكلف
 فيها ككثرة القواعد والضوابط بخلاف لغات اوربا وفاق بين انه يجوز فى
 اللغة اللاتينية ان تقام حركة طويلة مقام حركة قصيرة نحو ان تجرى
 لفظة ماد مجرى مد وغير ذلك ثم سألتنى كيف تفعلون بال فى قولك الدين فانه
 اجتمع

اجتمع فيها ثلاث سواكن وانتم تتواون انه لا يصح اجتماع ساكنين قلت
 اين السواكن الثلاث هنا قال الالف واللام والدا لى يوما أتدرى من
 اين اشتقاق الزنا قلت لا قال من العبراني فان زنى فيها بمعنى باع فكأن
 الزانية تباع نفسها للرجل وسألنى مرة اخرى أتدرى ما اصل المدة فى نحو
 آمن قلت لا فقال هى الف من السرائى وقرأ يرمما قوما بطالين فقال البطلان
 عند الصوفية فى ثلثى مرتبة العابد قلت الاولى البطل و قال ايضا ان
 يرمما فى قول العرب الى يرمما هذا من السرائى وهو يرممان وقد جرى
 لى معد وقت الترجمة عدة منافسات ومحاولات لابس بايراهما هنا وان طال بنا
 الكلام فانها عنوان على معرفة التوم لغة النمرة بن وخصوصا العربية •
 منها انه كان يحارل استعمال كلمة هوذا فى كل موضع يعدها فى الاصل
 اعنى العبراني فانه لا يمتنع فيها ان يقال مثلا لان هوذا او وهو هوذا
 وكان هوذا رجل وكان يظن ان اذا فى قولنا خرجت واذا زيد بالباب
 لا تغنى مغناة هوذا • ومن ذلك انه كان يذكر قولنا مثلا احد الرؤساء بدل رئيس
 ومن ذلك انه كان يريد المحادثة على الاصل باللاتيان بقاءلا بعد قال فانه يقال
 فيه قال فائلا مع ان هذا التركيب فى لغة الانكليز منكر وانك كنا نجد فى
 توراتهم وتكلم قائلا لا قال دائلا وفى مثل قولنا ضرب لهم مثلا كان يبدل
 ضرب يقال لانه كان يترجم فى عقله لفظه ضرب الى لغته فلا يبدله معنى سوى
 اتصال الالم وكان يبدل علم اعتقادهم برأى اعتقادهم ويرغم انها ابلغ فى المعنى
 وان الاعتقاد لابس براى ف للايمان فنه انما ينظر الى اصل اشتقاقه وهو العقد
 وهو غير مفيد معنى الايمان وكان يبدل ما البحر بيا البحر وهذا لا محذور منه
 الا ان تبدله هوس وجرم بان فواك فى السرائى ما يكون لنا ابلغ من ما عسى
 ان يكون لنا وان من نم الى تؤتى بها السببية غير كثيرة الاستعمال ولا تسد
 مسد ولهذا وكان يزعم ان لفظة العجرات ليست من كلام النصارى حتى
 وجدنا ما فى نسخة رومية ومن اسد وساوسه تجنبه للسمع والتركيب الفصح غاية
 ما امكن حتى انه زعم ان ما فى الترجمة من قوله خرجتم الى بعضى كلص سمع
 وحاول تغبيرها فلم يقدر فركها وهو آسف وكذا وهمه فى نلت خيرائك فى حياتك
 وفى وكان هناك فطيع من الخنازير كبير فكان يقول هو من السجع الذى ينبغى

مجانته في كلام الله تعالى وكان كلما رأى جملة تنتهي بالواو والنون او بالياء والنون يقول انها مضاهنة لكلام القرآن فيدلها حتى انه رأى هذه الجملة وهي وانتم على ذلك شهود فقال ان هذا الوقف يشبه وقف القرآن فمن ثم بدلها بقوله وانتم شهود على هذا ووجد عبارة اخرى وهي وما اولك بعابرين من هناك البنا فقال هذا التركيب فصيح فبدل عابرين بعبرون ولم اتعجب من تغييره وانما تعجبت من انه شعر بحسن هذا التركيب وزعم ان قولك مثلاً وكان رجل اسمه فلان اخصر من قولك يسمى وكلما رأى في الاصل عبارة كثيرة الالفاظ مما لا داعي له قال ان ذلك للتقوية واذا رأى فيه اجحافاً ولو مع اخلال المعنى قال ان فيه حذفاً للبلاغة وكان يحاول ان يقال واتفق انه قال واتفق انه افكر فقلت له هذه لا يصح استعمالها مع الافعال التي لا تقتضي الندرة في الاستعمال فلا يقال مثلاً جاني فلان واتفق انه جلس فانه لا ندرة في الجلوس بعد المجيء فقال واين انت من المحافظة على الاصل والذي ظهر لي من احواله انه فضلاً عن كونه شديد التعصب للنوراة فانه كان يتقى لوم خصمائه فانه كان ذا خصوم كثيرة الا انه لا حرج اكثر من ان يترجم من لغة الى اخرى بعين الالفاظ والتراكيب اذ لا يتصور بالبال ان لغة تطابق اخرى في التعبير فكيف يمكن ان يقال بالعربية خرج الدخان من مناخر الله كما يقال بالعبرانية او احشاء الله كما يقال باليونانية وقد ذكرت ذلك لعدة من اهل المعارف منهم وانه من التعبير الغير اللائق بجلاله تعالى فكلهم قائم على وجه الله وعين الله ويد الله من دون فرق بين نسبة الاعضاء الحقيرة اليه وبين غيرها • ومما اضحكتني من الدكتور لي مرة انه دعا لي للغداء يوماً وكان ذلك في نحو الساعة الخامسة قبيل المغرب فقلت له قد تغديت في الساعة الحادية على ما اعتدته فقال هذا لا نسميه نحن غداءً وانما نسميه عجالة فقلت هذا عندك لانك تتغدى وقت العشاء فاما عندى فهو الغداء بنفسه وعينه والدكتور لي هذا كان يدرس العربية في كبريج ولم يكن يحسن التكلم بها ولو بجملة واحدة وكان ذا اجتهاد لا ملل معه فكان يقعد على الكرسي المطالعة اربع ساعات ولا يتحمل عنه وما اخال احدا غيره اشتهر بما اشتهر هو به في علم اللغات المشرقية وتوظيفه في كبريج هو السبب الذي حداثني الى الحضور الى هذه البلاد لان الجمعية لما استأذنت حاكم مالطة بواسطة وزير الامور

الامور الخارجية في احضاري لاجاور الموما اليه ظننت ان مكثي يكون في تلك المدينة وهي وان تكن لا تشوق احدا للسكنى فيها غير من يقصدها للتفقه في الفنون الا انها على كل حال احسن من القرى وذلك كنت ادريه من قبل الا ان البواعث الحالية والدواعى الكونية اوجبت على الدكتور لى ان يعدى عن وظيفته فيها ويلزم قريته وان يكون قطع انف عرجة يوم الكلاب سببا في سجن مستملى جان بن بشر قاضى بغداد ولم يكن شئ يسلينى في تلك القرية سوى رقب الشهر الذى يسافر فيه الدكتور المذكور الى برسطول لاسافر معه حيث قدر على ان اكون معه في كل مكان وزمان غير ان المذكور توفي وانا بباريس واعفانى الله تعالى من السفر معه الى تلك الدار فعفا الله عنه بمنه وكرمه ثم لما حان الذهاب الى برستول مررت باكسفورد وقصدت ان ارى خزانة الكتب فيها فسألت بواب المدرسة عن شيخ العربية ليهدىنى لها فاخذ يطالع فى فهرسة المعلمين فلم يهتد الى اسمه فقلت لم كيف وانت ملازم لهم لا تعرفهم فقال ان شيخ العربية لا يدرس بنفسه ولا يقرأ ولكن له قارئ فاذا قرأ القارئ شيئا يأخذ الشيخ فى شرحه اى فى توجيهه الى وقائع تاريخية تتعلق بذلك الموضوع وفى تطبيقه على بعض الامات كما سابىن لك عن قريب ثم بعد طول بحث ومعالجة اهتديت الى دار الشيخ فقابلته وسألته ان يربنى المكتبة تفضلا وتكرما فاجاب الى ذلك وسرنا معا واول كتاب فتحه كان بالخط الكوفى واذا فى اول الصفحة لفظة ألقراها الا وفسرها انهما الله فتعجبت كيف انه انخدع فهمه لسمعه لانهم جميعا يلفظون اسم الجلالة مرققا هكذا • وسألنى مرة استاذ آخر أتعرف لم دلت فى على الظرفية فقلت لا قال لانها مستقاة من الفهم الذى اصله فو، وهكذا يخمنون ويخرصون على معانى الافردات والمركبات فى لغتنا وهالك مثالا على علم هؤلاء الاساتيد وعلى شرحهم لكتبنا تطفلا فتصور مثلا ان قارئاً يقرأ على الشيخ قول ابى تمام

* همة تنطح النجوم وجد * آلف للخصيض فهو خصيض *

فيقول الشيخ بلغته النطاح مختص بالحيوانات التى لها قرون كالنور والتيس والوعل ونحوها وقد ذكر فى التوراة مرات كثيرة ويمكن ايضا ان ينسب الى ما ليس له قرن فقد روى ليناوس الذى قسّم جنس الحيوان الى سبعة اقسام ان

الحيوانات الجماء تنطاح بجباهها وقد اطلقت العرب اسم الكباش على آلة من آلات الحرب لما انها تنطح الجدار والنجوم معروفة وقد كانت العرب تهتدى بها في اسفارهم قبل ان عرفت خاصية ابرة المغنطيس ولما كانوا مشغولين بالعلوم الفلكية والطبية لم يكن في اوربا من يشم لها رائحة ثم لما فتحوا اسبانيا او جزيرة الاندلس وذلك سنة ٠٠٠٠ اخذ عنهم العلم بعض من الافرنج ومنهم سرى في سائر بلاد ان اوربا وكان انقراض الملك من قرداية سنة ١٠٣١ بعد ان دامت العرب فيها اصحاب امر ونهى وسيادة نحو مائتين وخمسة وسبعين سنة اما الالف واللام التي في النجوم فهي اداة التعريف وهي في الطليانية والاسبانية ال للمذكر ولا للمؤنث واللغة اللاتينية ليس فيها اداة تعريف فاما اليونانية ففيها عدة ادوات و يوجد في لغتنا الفاظ كثيرة مبدوءة بهذا الحرف منها ما هو عربي وذلك نحو الكنا (الحنساء) والكحل والتأند والجبره (الجبر) والقرآن والتلى والقرثيم او الكرزييم ومنها ما هو من لغة اخرى فاما اللغة الاسبانية ففيها من هذا النوع الفاظ لا تعد فاما عدم النطق باللام من النجوم فلذلك كون النون من الحروف الشمسية ثم ان اول من قرر طريقة سير النجوم حول الشمس وسر التمر حول الارض ونسبة بعضها الى بعض وعلة المد والجزر والنور والجمادية والاعتمادية الفيلسوف اسحاق نيوتاون ولد في سنة ١٦٤٢ ومات سنة ١٧٢٧ وكان ذا جود ومنازة على العلم لا تنظر اما قواه جدآ آلف للحضيض فالحضيض هنا معناه الارض من تسمية الكل بالجزء ووروده في التوراة كثير وفحوى البيت انه اى الممدوح ذو عناية بالارض اى بحريتها واحياؤها وانساء المدن فيها وتسوية الاحكام بين اهلها لان الارض كثيرا ما تذكر ويراد بها سكانها وذلك ايضا مستفيض في التوراة حتى ان هذا الممدوح صار ارضا وخصبا لقاصده فاما ان كان هذا السبخ قد تبلذ لسيحنا الاكسفوردي المشار اليه فانه يقرأ الحديد بدل الحضيض وحينئذ فيكون تأويله عنده وجدآ اى حظ او اب فان الجدي ذكر وبرا به الاب وبالعكس كما ورد في التوراة آلف لاستعمال السلاح وقهر العدو فان الحديد يراد به السلاح كله وهذا الاستعمال ايضا وارد في التوراة وهكذا يمشى على انعكاس البيت بهذا العصد هو وتلامذته وبعد انتقضاء ساعة ونصف على تأويل هذا البيت يقومون وهم ساندوا الرؤوس عجبا وفخرا ويظنون ان شيوخ الجامع الازهر والاموى والزيتونة

هم دون هذا الحرير الذي عرف مولد نيوطون ووفاته واستيلاء المسلمين على
الاندلس وقد استبد هؤلاء الاساتيد بهذه الدعوى بحيث انهم لا يوظفون الغريب
في هذه المدارس وانما يسمحون له بان يعلم اختصاصا على حدتهم فلا هم يتعلمون
حق التعلم ولا يأذنون لغيرهم في ان يعالوا حق التعليم وهذا الداء فاش ايضا في
مدارس فرنسا مع استتباب المصالح فيها ولا بد لشيخ العربية عندهم ان يكون
مطلعا على اللاتينية حتى اذا جهل شيئا من تلك عمد الى هذه فتور منها رقعة •
واعلم ان كبريج واكسفورد هما مدينتان في بلاد الانكليز كل منهما يحتوي على نحو
عشرين مدرسة والى طالب في الاولى تعلم الهندسة والرياضيات والالهيات
وفي الثانية علوم الادب والفقه والمنطق والفلسفة الا ان منطقتهم ليس كمنطق
المتقدمين في علماء وتعاليمه ولا يمكن التعلم فيهما الا بنفقة زائدة وما احد يقصدهما
الا اولاد الكبراء والاغنياء ولا سيما اكسفورد فهناك ترى طالب العلم شامخا
بانفه مصعرا خده كائنا هو طالب ملك الصين والهند واكثرهم يصرف همه
في ركوب الخيل واللذات وينبذ العلم ظهريا فني حان يوم الامتحان عرف ما يريد
الشيخ ان يتحمله به من المسائل اذ هي محصورة معدونة فيجتهد في حفظها
وترسمها فاذا سردها علمه واحسن سردها اجازه بصك يذكر فيه انه نال مرتبة
العلمين وهي عندهم متنوعة ولكل من هذه المدارس اوقاف يعيش منها
التسعينون الملازمون لها ويقال لكل منهم فلو وربما كان ايضا من غير
التسعين فان كل من نبغ في علم من العلوم اجرى عليه الرزق من الوقف فنتهم
من له مائتة ليرة في السنة ومنهم من له اكثر ولكن بشرط ان لا يتزوج فتى
تزوج انقطع عنه رزقه الا انهم لا يتزوجون غالبا الا بعد ان يحصلوا على
معاش من خدمة احدى الكنائس وفي يوم معلوم من كل سنة يحصل
نزاع ولكام بين طلبة العلم وبين الاهلين وربما غلبت فيه الطلبة على قلنتهم
ويسمونه يوم الكون والتون وذلك لان الطلبة يلبسون ثوبا اسود كالتفطان
ويقال له كون والبلاد بلقنتهم تون وفي كل من المدينتين مكتبة عربية غير
ان كتب اكسفورد اكثر وعدة ما فيها من الكتب العربية وغيرها نحو
ثلاثمائة الف كتاب واعظم ما سرنى فيها نزول في محل كان يسكنه
شكسبير كذا قيل لي والله اعلم • وفي مدة اقامتي كلها في كبريج وهي

أكثر من سنة لم اسمع ولم ار من اللهو الا قردا وقرانا يلاعبه وكان القرد يضرب بالدف والنساء والاولاد بل الرجال يجرون وراءه ولم ار احدا منهم اعطاء شيئا و مرة اخرى رأيت امرأتين تعزفان بألة طرب فرميت لهما من الشباك بنصف شاين فاستكثرتاه ثم ان اكثر القسائم بخدمة هؤلاء المدارس نساء وأكثرهن حسان فتأتى المرأة فى الصبح الى محل احدهم وهو فى فراشه لتوقد له النار وفى الليل تحضر له النساءى وكنت ذات ليلة عند احدهم فاقبلت امرأة كأنها البدر الطالع وقالت له هل دعوتنى يا سيدى قال لا ثم دعاها لتحضر له النساءى فتأملت بها على النور واذا هى نور آخر وقد ذكرت ذلك لبعض المتورعين منهم فاقربانه غير لائق وانما جرت به العادة ولا سيما ان هؤلاء النساء متزوجات ولا يذهبن الى ازواجهن الا عند نصف الليل وفى هاتين المدينتين عادة قبيحة فى المبيع والشراء بخلاف عادة الانكليز وهى ان الباعة يبيعون الطلبة نسئة ويتقاضونهم ما هو فوق القيمة فاذا اراد غريب ان يشتري شيئا تقاضوه قيمة النسئ الا ان يكون الشارى عارفا باحوالهم فيقول انما شرايتى بالتقد وقل من يذكر له ذلك وحيث كان هؤلاء الطلبة من ذوى الايسار والاسراف كانت هاتان المدينتان اغلى من سائر بلاد الانكليز • اما ما عندهم من الطيرة والتفاؤل فقد ذكر صاحب الجرنال المسمى باخبار العالم عدد ٦٧٤ ان الانكليز يتطيرون من لقاء المرأة الحولاء ما لم تبادر بالكلام فحينئذ تزول الطيرة ومن السفر يوم الجمعة وان يكون المدعو فى عيد الميلاد رابع عشر شخصا وان يعارض سكينان وقت الغداء وان يمشى احد تحت السلام وان تبقى اغصان الميلاد فى البيت بعد عيد كندماس والا فان ابليس نفسه يأتى ويأخذها قلت اغصان الميلاد هى اغصان يقطعونها ويزينون بها الغرف والبيوت ليلة عيد الميلاد ويقال لها ميرلتو وهى عادة قديمة من عادات اعياد الدرويدس وهم حكماء اهل بريتانىا فى القديم وسيأتى ذكرهم قال واذا رمى بنعلين باليتين خلف من خرج من المنزل لمصلحة يرومها كان ذلك فالأ بنجاحه وتوفيقه وهذا تستعمله خصوصا على الناس فى بعض البلاد ولا سيما عند الاعراس واذا قص الانسان شعر رأسه مدة نمو القمر نما وجئل ويتطيرون ايضا من رؤية الهلال من شباك او زجاج ونحوه فاذا رأته فى القضاء فاقلب ما فى جيبك من الدراهم

الدراهم او الفلوس وتمن خيرا في الشهر القابل تنله وان يضع احد ملحا في صحفة غيره وـكذا لو قلب احد وعاء الملح على المائدة واصل ذلك ان بعض المصورين الطليانيين صور العشاء الاخير ويهودا مبددا للملح قلت عادة اهل بلادنا اذا ابصروا الهلال ان يبرزوا له درهما ويقولوا جعلك الله شهرا مباركا فاما قلب الملح فهو عند العرب كناية عن الغدر والخيانة وحفظه كناية عن حفظ حقوق المودة والعشرة وقسمهم بذلك لتعظيمه قال العلامة الخفاجي وعليه، قولي في خائن الاخوان

* لا يعرف الخبر ولا الملح اذ * يأكل في غيبته لحم اخيه *

كذا نقلته ولعله قال يأكل لحم الاخ في غيبته ليتزن البيت واذا انقلبت الكرسي برجل عزب كان دليلا على انه لا يتزوج في تلك السنة وهو غريب فانهم شبهوا المرأة بالكرسي وهو عين ما عنده العرب بقولهم قعيدة الرجل امرأته واذا نأجج لهيب النار وسمع له حس استدل بذلك على نراع ونقار يقع بين اهل البيت واذا طارت جرة من النار ووضعنها عند اذنك وسمعت لها صوتا دل ذلك على قبضك دراهم ورؤية نحو عسكر متقسم الى اجزاء في قدح دليل على سفر طويل ومشاق ووقوع سكين على الارض دليل على قدوم غريب واذا عزم الانسان على سفر واكل نصف بصله وترك الباقي كان دليلا على عدم توفيقه وحك العين اليمنى دليل على البكاء واليسرى على سرور غير متوقع ومعه ضحك واذا اختلجت الشفة العليا واحكت كان ذلك علامة على قبلة او الذقن فعلى لحم طرى او النحر فعلى اتخاذ منديل او الاذن اليسرى فعلى مدح يثنى عليك به احد وبالعكس ذلك الاذن اليمنى او الانف فعلى شئ يغيظك وكأنه ملحوظ به معنى الانفة من الشئ وهو غريب او الكف اليمنى فعلى قبض دراهم او اخمص الرجل فعلى مخاطبتك رجلا اجنبيا او الكوع فعلى رقودك في غير فراشك ووضع مفتاح البيت على مائدة ونحوها مؤذن بالشؤم فالاولى ان يعلق في مسمار او وتد واذا مات احد وتبيست اعضاؤه حتى لم يمكن ليها كان الموت مفردا والا فلا بد من ان يأتي على آخر ونباح الكلب بما يشبه العواء تحت الشباك دليل على الموت وـكذا اذا حاولت هرة ان تدخل من الشباك او دبت الخنافس على الموقد او وقفت الساعة بحيث تكرون نظيفة الآلات واذا عزم

احد على ادارة مصلحة وهبت الريح في غد يومه من الشمال فانه يفوز وينجح
 واذا كسب دينارا كسبا هينا بصق عليه ووضعه في كيسه وكذا يبصق
 عليه اذا كان اول دينار مكسوب صبحة يومه واذا اهدى محب الى محبوبه
 سكينا او مقصا فلا يلبان ان يفتقا فلا يقبل ذلك منه الا ان يضعه على مائدة
 ونحوها او ان يعطيه في مقابلة الهدية فلما وضع المنفخ على كرسي او مائدة
 مورث للنزاع وازدهار النار مساء دليل على قدوم صاحب المنزل مسرورا
 وعثار انسان وهو مرتق في الدرج يدل على الزواج والاكثار من الضحك
 يعقبه البكى وصرف دينار بدراهم من دون قبض قطعة من الذهب دليل على
 اتفاق الدراهم عبثا وسقوط مشاطة شعر النساء في الماء يورث تساقط الشعر
 بخلاف ما لو وقعت في النار والنظر في المرأة ليلا مكروه الا عند الاضطرار وهو
 مشهور عندنا ايضا وابتلال ثياب المرأة وهي تغسل تطير بان زوجها يصير
 سكيما والشامة في العضدين وبركة واذا اجر وجد الانسان كان علامة
 على ان احد محبيه يذكره واذا شرق احد بشئ قالوا له في معرض الكلام قد
 ارتكبت سرقة او خيانة ونحوهما وهذا مستعمل ايضا عند اهل النام وهو
 دايعي وناويلهم للاحلام قريب من ناويلنا فالحم بكلب دليل على صديق وبحية
 اماره على عدو وبامرأة سيئة دليل على شر ومصيبة وقس على ذلك • وفي اول
 ليلة من تشرين الثاني تشتري البنات جلوزا ويشوينه ثم يكسرنه فاذا
 خرجت اول جلوزة من زوجة استشرت صاحبها بالزواج في تلك السنة يفعلن
 ذلك ثلاث مرات والا فلا ونحو منه انهن يشترين رصاصا ويذبنه في ملعقة من
 حديد ثم يفرغنه منها ضمن حلقة مفتاح الى اناء فيه ماء وكيفما تشكلت قطعة
 الرصاص في الاناء استخرجن منها فالأعلى حرفة من يخطبهن وفي تلك الليلة
 يملأن افواههن ماء ومعه شئ من حب شبيه بالحمص ويمتنعن من الضحك
 ثلثا يخرج المساء ثم يخرجن الى الطرق واول اسم يطرق مسامعهن فهو اسم
 الشخص الذي يقدم على الزواج وحيث يمججن المساء واذا شاء احد ان
 يعرف اخلاص قلب انسان عليه يضع مفتاحا في الانجيل ثم يربط الانجيل
 بخيط على شكل الصليب ويجعل حلقة المفتاح بارزة منه ثم يتلو الآيتين
 السادسة عشرة والسابعة عشرة من الفصل الاول من سفر راعوث فاذا

دار المفتاح كان ذلك دليلا على اخلاص قلب الشخص المضر والا فلا والزواج في شهر ايار شؤم واذا اراد احد ان يفتح دكانا او يتعاطى مصلحة مهمة فلا يبدأ به يوم الجمعة بل يوم الخميس او السبت وهذا التطير فاش عند جميع رؤساء المراكب وفي السنة الكبيسة لبس النساء ثوبا احمر تحت القفلطان وكلما اكثروا من اصناف الحلوى في رأس السنة زاد استبشارهم بخيرها وبركتها وفي عيد الميلاد يصنعون نوعا مخصوصا من الحلوى يسمونه كرسمس يودن ويتقون منه شواية في الصوان تبركا بها واذا مضى عليهم هذا العيد من دون اكل هذه الحلوى اوجسوا النقص والقلة سنتهم كلها واذا كانوا غائبين عن بلادهم ولم يقدرُوا على اتخاذها بعثوا الى اهلهم يستهدون منها لماظة فيبعثون لهم في كتاب بمثل قلامة الظفر وفي ليلة ذلك العيد يوقدون شموعا كثيرة ونارا متأججة ويزينون الغرف بتلك الاغصان التي تقدم ذكرها ويظهرون الفرح والابتهاج واذا مشت امرأة من تحتها حق للرجال ان يقبلوها وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر ايلول ويسمونه ميكلمس اي عيد ميكال يأكلون الوز وفي السادس من كانون الثاني يصنعون كعكا مخصوصا يسمونه كعك اليوم الثاني عشر • ومن اوهامهم ايضا الاعتقاد بظهور روح الميت عند قبره وهذا الوهم فاش حتى عند عامة سكان المدن فقد كنت ارى في كل ليلة بلندرة جمعا عظيما واقفين عند احدى المقابر لما شاع عندهم من ان روحا تراهي فيها لبعض المارين في هيئة بشر بلباس ابيض فاجب انحناسهم هذا احراق وجه المقبرة بالجير لنفي تردد الروح او لعله كان حيلة في منع اجتماع الطغام لانهم حينما اجتمعوا اجتمع الشر ويوجد في لندرة موضع اسمه هاتن كاردن فيه عين ماء يزعمون انه يجري منها دم في كل يوم عند نصف الليل ولها قصة طويلة لا يمكن ايرادها هنا • ومن ذلك اعتقادهم بانه متى احتضر شخص حضر في منزله روح يسمونه رصد الميت فيسمع له قرع على الباب او الحائط او صوت نحو صوت جرس السلاسل او طنين الجلاجل فاذا سمع ذلك منه ثلاث مرات كان الموت بعدها لا محالة • ومن النوادر هنا ان رجلا كان يماشى زوجته في بستان وهما يتحدثان وفيما كان يكلمها احست بكرب وانقباض فقالت له تتع عن هذا لك مكان فاني اظنه محضورا فتعفى عنه ثم سأله عنه بعد ذلك فعلم انه عند اتخاذهما

كان بالقرب منهما رجل يقتل نفسه • وقرأت في بعض صحف الاخبار ان رجلا قتل ولدا صغيرا ففضى عليه بالموت ولما سئل عن سبب قتله اياه قال كنت اريد ان اتخذ من جمجمته مصباحا ساترا حتى ادخل البيوت ولا يراى احد • واتفق في بعض السنين ان ظهر في السماء نور ابيض امتد من المشرق الى المغرب خفيف المر وكان كأنه هباء ثم انتشر في عنان السماء كله وظهرت عقب ذلك حرة في الافق ثم كثرت وعظم فطفق اهل الدار التي كنت فيها يبكون ويضجون ويستغيثون فسألته عن سبب ضجيجهم فقالوا انها آية على المعامع والحروب قتلت كلا بل هي آية على فساد البطاطس فانقلب بكاؤهم ضحكا وكانت تلك السنة رابع سنة مشئومة على غلة هذا النبات في ارلاندا فكان الناس في هاجس عظيم لذلك لان جل طعامهم بل طعام الانكليز ايضا انما هو منه ثم اعقب تلك الآفة حيات ووباءات اناس كثيرون ورثي لهم كثير من الدول فجاءهم امداد منها وامدهم مجلس مشورة الانكليز بعشرة ملايين ليرة • واعلم انه قد يتشاءم الانسان من مكان او زمان ويتفأل بغيرهما ويكون ذلك مجرد وهم مثاله ان يكون في محل لم ينتفع فيه الا بوعود واماني فيمل منه وينقل الى آخر فيحقق فيه امانيه فيرى ان ذلك من بين الانتقال مع انه لو بقي في المحل الاول لصحت له • وفي بلاد الفلاحين بل وفي المدن الجامعة ايضا نساء يدعين علم المغيبات بطرق مختلفة منها الأليف بين اوراق اللعب المزوقة وذلك بان تصف احداهن منها ثلاثة صفوف كل صف يشتمل على سبع ورقات ثم صفا رابعا من خمس ورقات او خمسة صفوف كل منها يشتمل على خمس ورقات ثم صفا آخر من اثنتين وتضم ان احدى المزوقات الحمر كناية عن امرأة واحدى السود كناية عن رجل اسم وتنسب لكل من الورقات المنتطة خاصية من البخت وضده وتقابلها بتلك المزوقات التي عليها الاضمار ثم تستخرج من تلك المقابلة دلائل على ما يحدث بعبارة لا تخلو من الابهام والتوجيه وقد اتفق وانما مقيم في بيت قسيس من فضلا الانكليز ان حضرت عنده امرأة من هؤلاء فقال لي ها هي الشيطان وذكر الاسم بالعربية فقالت كلا ما انا شيطان بل مبصرة البخت فسألته ان تبصر لي بختي فالفت بين تلك الاوراق ثم قالت ستكون سيبا في تسفير رجل اسم الى بلاد بعيدة وان امرأتك تأخذ في سفر طويل ويكون حديث في شأنك

شأنك بعد مدة وتحصل على هدية من اللباس وتذهب الى جاعة عظيمة ويدعوك رجل من سادة الناس فتسافر اليه ويحصل توفيق لولئك وينال هدية وان امرأة سمراء تساعدك على نوال اربك وان رجلا اسمر يستدعيك اليه وتعديل امرأتك عن السفر ويحدث لك سفر غير متوقع مع رجل ابيض وامرأتك تأخذ هدية وان رجلين اسمر وابيض يشتركان في تسفير امرأة وان سيدة زهرآء يكون لها مداخلة في امرك ولك صديقة من النساء سمراء • وقد وقع ذلك كله الا هذه الثلاث الاخيرة فاني لم اتحققها وكثيرا ما تذهب النساء المتهنئات بالخدمة والمحنات بالعشق الى هؤلاء العرافات ويسألنهن عن احوالهن ويعطينهن نصف ما تملك ايديهن واتفق ان امرأة سافر عنها زوجها وانقطع خبره عنها مدة طويلة ثم بلغها خبر وفاته فتزوجت آخر فلان عرافة فقالت لها العرافة تعالى اخبرك بما لا تعلمين ثم ذكرت لها من جملة كلام ان زوجها الاول حي وانه عازم على الرجوع فدخل الرعب في قلب المرأة فالتفت نفسها في النهر وقدر لها ان بصربها رجل كان على الشاطئ فبار اليها وانجأها من الفرق واخرى جنت من تهويل عرافة عليها فكانت تقول في حال جنونها مبصرة البخت الورق مبصرة البخت الورق • ومنهن ايضا من تبصر البخت برؤية الكف وقد رأيت كتابا مطبوعة في علم الكف والهيئة فيها من الاحكام نحو ما في كتابنا • ومنهن من تدعى احضار الغائب وتشخيصه لعين السائل في مرآة ونحوها كما في مندل مصر • وفي اخبار العالم عدد ٦٩٤ من شاء ان يعلم ما يجري عليه في المستقبل من الشغل او السفر او الزواج او تعاطى مصلحة فعليه ان يسأل النجم داود ستلا المقيم في ادورد ستريت ماذنلان بحيث يوقفه على يوم ميلاده وعلى جنسه ويرسل اليه اثنين وعشرين طابعا فانه يذنبه بالتفصيل عن كل شيء سواه كان بالكتابة او مشافهة وكذلك النجم ملفيل وجوابه عن المسائل يكون ناعما وعلى السائل ان يرسل اليه اثني عشر طابعا وفيها من كان دابة الشغل ومعه بعض شلينات ورام ان يتعلم حرفة مكسبة في اسبوع واحد فقط فعليه بالنجم كورتني فانه يهيئ له وجها للعمل بما عنده من التليل حتى يمكنه ان يكسب من بعد ذلك من ثلاث ايرات الى عشر وهو على هيئته وهذه الحرفة هي من اكرم الحرف وقد باشرها النجم منذ سنين وخطب بها فلذلك يعرضها على الطالبين بحيث يحرز منهم ثلاثين طابعا • وفي بعض

الخبير ما نصه قد صار اهل لندرة الآن جديرين بان يكونوا ضحكة لاهل
الريف لاعتقادهم بالسحر والشعوذة ولم يبق من داع الى الذهاب الى بلاد
الفلاحين لتسمع ان النساء اللواتي لا عيب فيهن سوى الفقر والهزم يستعلن
على ان ينعن البقرة عن الحلب ويعطلن المزارعين عن اعمالهم ويجرون الراقد
من فراشه من غير ان يحس به فان هؤلاء المدجلات المدلسات يوجدن الآن في
لندرة مع كونها معدن المعارف والنور وليس المترددون عليهن من سفلة الناس
بل من اهل النباهة والايثار وحسبك دليلا على ذلك ما جرى منذ ايام في ديوان
كدهال حيث احضر بعض الشرطة امرأة من هؤلاء لكونها كتبت رقاع
وعبد وتهديد الى بعض التجار من ذوى الشان قال ولما دخلت حجرتها وجدت عندها
اربع نساء مترديات بالاباس الفاخر احبهن من بنات التجار فلما سألتها عنهن قال
انما قصدنني لعلهن باني ابصر البخت * وقال آخر شكيا بعض الناس الى قاضي
سرى بان احد معارفه يسمع في الليل ضجيجا وعجيجا وضرب مطارق فلا يقدر
ان ينام قال فلما سرت اليه سأله عما يقاسى فقال ان الناس يفيضون في حديث
فلانة امرأة فلان قلت وما بينك وبين زوجها قال لا شئ الا كلمات دارت بيننا
منذ سنة قلت وما يصنع بك الآن قال يبعث الى اناسا يضربون بالمطارق
ويضجون ويضاطون الليل كله فما يدعني اجمع ولا احدا من الجيران ينام قلت
أتعرف اسماءهم قال نعم واسكن زوج المرأة هو الذي يغريهم بهذه الاذية قال
فاحضرت الزوج واخبرته بشكوى الرجل فقال جزاء واقل جزاء قلت كيف قال
لانه يأتي كل ليلة الى بيتي ويخطف امرأتى من الفراش ويخرج بها من الشباك
ويضبطها عنده الى الساعة الرابعة بعد نصف الليل ثم يأتي بها منهوكة مدهوكة
قلت ألا تحجل من ان تقول هذا الكلام وانت شيخ وانى لما لقيتك آخر مرة قلت لى
انها عليلة فهل افاقت الآن قال لا ما دام الرجل يخطفها قل تفيق ابدا قلت
قل لى ما يفعل وعلى عقوبة قال واى عقاب لمن له تسعة اعمار كاهل قلت هل
رأيت عيانا يأخذ امرأتك قال لا لاني اكون راقدا قلت هلا ربطت يديها الى عنقك
حتى تستيقظ عند ذهابها قال لن ينفع في هؤلاء الناس حذر قلت ما السبب
الذى جعلك على سوء الظن بهذا الرجل قال ذلك الرجل المبارك الذى ارانى
وجهه قلت من هو قال هو الذى شفاها بعد ان عجزت عنها الاطباء قلت كيف اراك

وجهه قال اخذ نعل فرس واحاها حتى صارت كالجرثم اغلق الشباك ووضع النعل في ماء قدر وقال لي اى وجه ترى في الدخان واشهد انه كان زوج المرأة الخ •

فاما ما يحدث في بلاد الانكليز من تسميم الازواج بعولتهن والوالدين اولادهم وقتلهم وبالعكس ومن الانتحار اعنى قتل الانسان نفسه فامر يهول وشرحه يطول نعم ان الانتحار يحدث ايضا في غيرها واعظم اسبابه العشق والحرمان الا انه بالنسبة الى هذه البلاد لا يذكر ولنورد لك نبذة من ذلك لتقيس عليها • حكى صاحب اخبار العالم ان رجلا ذبح ثلاثة اطفال له بالموسى في وقت واحد وكان اصغرهم رضيعا ثم ذبح نفسه فلما سئلت زوجته عن ذلك قالت انى غادرته مع الاولاد سليما معافى فلما رجعت وجدتهم ثلاثتهن جثا مطرحة وزوجى الى جانبهم ولا اعلم سبب ذلك وزعم بعض معارفه انه قتلهم خوف الاملاق • ومنها ان امرأة شكيت بانها قتل اصغر اولادها فعند الامتحان علم انها قتلت من قبله سبعة وانه كان النائم مع انها كانت تتظاهر بالصلاح والتقوى وتذهب الى الكنيسة في كل يوم احد وتلازم دراسة التوراة ولما سئلت عن ذلك قالت قد قتلهم خوف الاملاق • ومنها ان رجلا كان له امرأة واربعة اولاد منها وكان الرجل والاولاد منتظمين في سلك جمعية من اصولها انه متى ميت احد من اعضائها يدفع لوارثه خمس ايرات فطمعت المرأة في نيل الدراهم حتى سمت زوجها وكان ابن خمس وخمسين سنة واظهرت انه مات حتف انفس فتقبضت المبلغ المذكور ثم سمت ابنها الاكبر وله من العمر ست وعشرون سنة فمات وقبضت المبلغ ثم سمت الثالث وسنه احدى وعشرون سنة فمات وقبضت المال ثم سمت الرابع فرض واستدعى بطبيب فلما اتى الطبيب علم انه مسموم فعند ذلك حصل البحث والفتيش ونبشت جثث اخوته وشرحت قحةق انهم كلهم ماتوا مسمومين • ومنها ان بنتا سمت امها لتستولى على امتعتها ثم احرقتها ولما كانت باركة على صدرها جعلت امها تناشدها وتتضرع اليها ان تبقى عليها فقالت لها البنت لقد عشت اكثر مما يحق لك ان تعيش • ومنها ان قسيسا من اهل الكنيسة المتفرعة اسمه فوزستر في مدينة دكنهام كان يقضى الفرائض الدينية لاحدى النساء المخدمات فلما رآته غير اهل لوظيفته صرفته فرض فاخذ الى المستشفى ثم شفى ورجع الى بيته وكان له امرأة وولدت له ستة بنحو ست سنين فقامت المرأة

صباحا لتهيئ له الفطور وتركت الولد مع ابيه في الفراش ثم بعد قليل رأت زوجها خارجا الى الطريق فلما ابطأ عليها ذهبت لتنظر ولدها فاذا به مذبوح بموسى • ومن ذلك ان رجلا ذبح ابنته وواراها في حفرة ثم ذبح اخاها وواراه معها ايضا وظل يأكل بذلك السكين الذي ذبحهما به مدة ثم علم امره ولما قضى عليه بالقتل فرح جدا • ومن ذلك ان امرأة من اثب قتل طفلا لها وله ثلاث سنين ونصف واخته وهى بنت سنة ونصف • ومنها ان امرأة ذبحت ابنها فلما سألتها القضاة قالت انما قتلتها صغيرا لينال سعادة السماء وهذا كاف • ومن العجيب ان مجلس المشورة بلندرة قد اصدر امرا مبرما بعدم اذى الحيوان غير الناطق وبتأديب من يرتكب ذلك او تغريمه وقد بلغ عدد الذين اذوا الحيوانات في العام الماضى ٤٦٤ شخصا وبلغت غرامتهم نحو ٥٧٤ ليرة وارسل منهم عشرة نفر الى دار التأديب اذ لم تقبل منهم غرامة ورؤى مرة رجل من نبلاء الفرنسيين يغرى كلبه بمطاردة هرة فغرمه الحاكم عشرين شلينا ومع ذلك فلم يهتم حنظري بيع السم منعاً لهذا الشر المتفاقم على الحيوان الناطق وان الولد اذا اخذ حاجة ليرهنها وهو دون البلوغ او دون خمس عشرة سنة لا يقبلها منه المرتهن ولكن اذا ذهب الى دوائى لينسرى سما او مسبتا باءه على ان بيع السم في فرنسا ومالطة محظور على اى كان الا باذن من الطبيب فكأن الجماعات انفع للدولة من بنى آدم وما ارى لذلك سببا سوى هذا الاصل الفاسد الذى يعبرون عنه بقولهم حرية التجار اولزوم السم للفلاحين في قتل الهوام كما سبق ذكره الا ان مراعاة الجانب الاقوى في الامر الذى يكون منه مفسدة ومصلحة الزم واهم وهذه الحرية في التجار هى التى سهلت للناس ان يغشوا كل شئ من المأكول والمشروب وكل ما يصح فيه البيع والشراء كما سيأتى بيانه حتى ان صاحب الذوق السليم يؤثر المقام في بلاد التهاج بحيث يذوق شيئا مما تنبته الارض على حاله على ان يمكث بين قوم يعاون عدد نجوم السماء ورمل البحار وهم مع ذلك يأكلون ما يضر البهائم فضلا عن البشر وكل شئ جاوز القدر اضر واقبح من ذلك انه كثيرا ما يحكم القضاة او الجورى على مرتكب القتل بالجنون اعفاء له من القصاص فتذهب الحكمة سدى في وليكم في القصاص حياة او في القتل انفى للقتل والجورى هم اثنا عشر رجلا يقع عليهم الاختيار فيجتمعون

مع القاضى لفصل الدعاوى وهم على قسمين خاص وعام فالخاص مؤلف من
 الفقهاء وذوى الوجاهة لفصل الامور الخطيرة ولكل منهم ليرة على كل دعوى
 والعام مؤلف من اصحاب الدكاكين والحرف لفصل الامور الحقة ولا ايراد
 لهم وقيل ان كلا منهم ياخذ ثلثي شلين بحسب ما تقرر فى السابق اعنى عند
 رسم هذا الامر ومن امتنع منهم عن الحضور لزمه غرامة واصل الجورى عرف
 فى ايام الصكصونيين وذلك انه كان حدث نزاع بين واحد من الانكليز وآخر من
 اهل والس فعين ستة نفر من هؤلاء وستة من اولئك للنظر فى امرهما ثم اثبتت
 اقامة الجورى فى المجلة التى يسمونها مكننا كارتا كأنها من اعظم اسباب العدل
 والحرية وللقاضى ان يثبت الجورى عن الاكل والشرب وان يمنعهم النور الى ان
 يتواطأوا على فصل ما وقد غرم بعضهم لوجود فاكهة فى جيبه من دون ان
 يثبت عليه اكلها واتفق مرة ان بعض المسافرين فى سكة الحديد طلب ارشا
 فحكم الجورى بان يعطى ربع بنى وهو عبارة عن خمسة افلس فانكر عليهم
 القاضى هذا الحكم واعادهم الى النظر فيه فعادوا ولم تتفق كلمتهم حتى مضى
 عليهم اربع وعشرون ساعة لم يطعموا فيها شيئا ثم خرجوا وهم يتظلمون من
 الجوع • قال صاحب التيس ليس من العدل ان يترك الانسان اشغاله ويأتى
 لسماع ما يحدث بين الرجل وامرأته من التناقر والتهاتر اه فقد عرفت ان
 هؤلاء الذين يأتون لاجراء العدل هم انفسهم مظلومون وقد يكون حكمهم
 ايضا على غيرهم زائغا فقد قرأت فى جرنال التيس ان امرأة اسمها اليصابات
 جان وود عليها طلمعة الخشمة والاعتبار وعلى ذراعها طفل رضيع ادعى عليها
 بانها سرقت شلينين ونصفا فى احدى العواجل فثبت عليها الذنب وحكم
 عليها بحبس ستة اشهر وفيه ان امرأة طاعنة فى السن ثبت عليها انها سرقت
 ساعة وسلسلة قيمتهما خمس ليرات فحكم عليها بحبس ثلاثة اشهر مع الاعمال
 الشاقة واذا كان للمدعى عليه خصم من افراد الجورى فله ان يستبدله
 فاذا تواطأوا جميعا على الحكم بقتل واحد ودونوا ذلك فى صك قال القاضى
 للمحكوم عليه قد حكم عليك الجورى الذين هم من اهل بلادك بانك مستوجب
 للقتل فموجب شرع هذه المملكة تؤخذ من هنا ويجعل فى عنقك حبل وتشنق الى
 ان تخرج روحك ثم تدفن مع امثالك اه ويوم شنق المقضى عليه يكون فرجة للنساء

فيه عن صباحا من بيوتهن لمشاهدته حتى تغص بهن الطرق وهو دليل على شدة قلوبهن وجرائتهن وقتل القتائل عندهم لا يكون الا بهذه الصورة وفي احوال كثيرة يقوم التغريب مقامه واذا اذنب احد في بلاد الفلاحين حبسه الشرطى الى ان يمر القاضى بذلك فيقيم هناك مدة وترفع اليه الدعاوى وفي انكلترا ووالس ستون قاضيا ونحو ستمائة دار للتمضاء وثلاث وثلاثون خزنة مال وقد مر في اول الكتاب عدد القضاة ومرتبهم ومنع القصاص بالقتل في بعض الجرائر كان مما احدثه سر روبرت بيل في سنة ١٨٢٤ ثم منع على اى جريمة كانت ثم عمل به في بعض الاحوال قال الفاضل غولد سميث انه يوجد في بلادنا من المقضى عليهم في سنة واحدة اكثر مما يوجد في نصف اوربا فلا ادرى هل سبب ذلك كثرة قوانيننا او تعدى اهل بلادنا ولعل ذلك مسبب عنهما معا فان احدهما ينتج الآخر • وفي بعض صحف الاخبار انا نرى الجرائر الآن قد تكررت وسبب ذلك الداء بالسبغات فان الذين يثبت عليهم القتل ونقب الديار يعاقبون بالنفى لا غير فاذا انقضت مدتهم رجعوا سرا مما كانوا من قبل على ان المصروف على تغريب هؤلاء المنفيين في كل سنة يبلغ نحو اربعة وخمسين الف ليرة قال وعدد اصحاب الجرائر التى دربوا فيها من قتل وسرقة مما يوجب سجنهم عليها نحو ثمانين الفا وهو اكثر من عدد العساكر ومصروفهم ضعفا مصروف هؤلاء قلت وفيه نظر • واعلم ان شرع الانكليز هو اطول الشرائع احكاما واكثرها قيلا وقالا واوسع من علم العربية قلبا واعلا لا فان بعض الدعاوى التى تستدعى دهاء الفقهاء ومحالهم ربما يدوم خمسين سنة فاكثروا وقد انفق مرة في دعوى اقيمت على رجل اسمه بالر ٧٥٣٢ ليرة وقد وقع بعد تحرير هذا الكتاب ان اقيمت دعوى على شاب من الاغنياء بعدم رشده حذرا له عن التصرف في املاكه فلزم لاثبات ذلك احضار شهود من الروسية وغيرها فكان المصروف على كل ساعة مائة وستين ليرة وبعد ان بلغ ستين الف ليرة خرج الحكم برشده ويمكن تقسيم شرعهم الى اربعة اقسام ❖ الاول ❖ ما تناقلوه من احكام الرومانيين والنرمانديين والصاكسونيين الذين فتحوا بلادهم ويدخل في ذلك امور من قبيل العادة وفي الحقيقة فان جل عاداتهم سنة لهم فا جدرهم بان يكون لهم من لغتنا لفظة الدين فانها بمعنى الديانة والعبادة فارى ان اخلعها عليهم سواء قبلوها

قبلوها او لا ﴿ الثاني ﴾ ما بنى على العدل والانصاف ومراعاة المصالح على وجه الاستحسان والترجيح اذ لم يرد فيه نص ولم يجز فيه حكم فاذا امر من ذلك احيل على محكمة العدل فيحكم فيه القاضي والجورى بالرأى بحسبما يترجح عندهم انه الاصلح ﴿ الثالث ﴾ احكام مجلس المسورة وهى غير متناهية ﴿ الرابع ﴾ احكام ديوان الكنيسة وليس فى شئ من هذه الاقسام احكام على الظاهر والنجس وما يؤكل وما لا يؤكل وعلى حيض المرأة ونفاسها وحدادها وعدتها وما اشبه ذلك ومع ذلك فيمكن ان يقال انه ليس امر من الامور المتعارفة الا وهو متيد بحكم من هذه الموارد الاربعة حتى انهم يكتبون فى المناصع اصلح ثيابك قبل الخروج اشارة الى انه لا يزرر بظلمته وهو فى السارح او انهم يكتبون لا يلصق هنا اوراق تعريفات بل اصحاب المطاعم ايضا ينهون الى وضع شئ من الاحكام قبيح احيانا لوحا منصوبا قد كتب فيه التسليم عند التسلم اى نقد الثمن عند وضع الاكل بين يدي الاكل او لا يؤذن فى استعمال الدخان هنا ونحو ذلك ومتى كانت جريرة الجاني صغيرة اجرى الحكم عليها فى الحال وان كانت بين بين حبس الى ان ينظر فيها وحينئذ يرخص للمذنب فى ان يطلب كفلاء يكفلونه فيخرج من السجن ويتعاطى اشغاله الى ان يعاد عند بيت الحكم فان لم يجد كفلاء بقي فى السجن • وبما يرى منكرا من احكامهم اجازة شهادة الاولاد دون البلوغ غير ان القاضى يستخلفهم اولا ويذهبهم على خطر اليمين والشهادة هذا اذا كان فى الدعاوى الصغيرة اى التى لا توجب التقصاس بالقتل والويل ثم الويل لمن وقع فى يد احد من فقهاء الشرع فانهم انهى خلق الله ولا يحجزهم ان يصيروا الظلام نورا والنور ظلاما ودونك مثالا واحدا مصداقا لذلك وهوان بعض المتكيسين الذين يدلون بحمالهم دون مالهم عشق بنت احد الاغنياء واذا كان يعلم ان الغنيين لاغنيات والمقلين للمقلات خشى ان يخطبها من ابها فيسفه ويحبه فتوسل الى ذلك بواحد من هؤلاء الدهاة ووعدته بصدقة حسنة فقال له ساترونى فى امرك فأتنى غدا فلما كان الغد اتاه الساب فقال له الفتيه أرايتك لو شاء احد ان يقطع انفك ويعطيك عشرين الف ليرة أفكنت ترضى قال كلا ولو اعطيت ضعفيها فانطلق الفقيه لساعته الى ابى البنت وخاطبه فى ان يزوج ابنته من الرجل فقال له كيف اصاهره وهو فقير وليس له غير جلاله

قال وعنده ايضا جوهرة اعطى فيها بحضرتي عشرين الف ليرة فابي ان يبيعها
فتغير الرجل عن اصراره وما زال به حتى اغراه بتزويج ابنته والبارع من هؤلاء
الفقهاء لا يباشر دعوى من الدعاوى الخاطئة الا اذا قبضت كفه على ثلاثمائة
ليرة فاما كتاب الصكوك فلما كان جعلهم بحسب السطور كانت عبارتهم مملّة
لما فيها من التكرار غاية الاملال مثال ذلك باع زيد بن بكر داره الفلانية
لخالد بن عمرو بكذا وكذا يباعا خاصا مطلقا واقر زيد بن بكر بان داره الفلانية
التي باعها لخالد بن عمرو بكذا وكذا قد انتقلت من ملكه انتقالا مطلقا
وصارت في حوز خالد بن عمرو فصارت دار زيد بن بكر والحالة هذه في تصرف
وملك خالد بن عمرو ملكا مطلقا خاصا • ويقع كثيرا ايضا في احكامهم الديوانية
مثل هذا التعبير الآتي اذا اخذ شخص او اشخاص شيئا او اشياء من موضع
كذا او مواضع كذا وجب القصاص على ذلك الشخص او اولئك الاشخاص
الذين اخذوا ذلك الشيء او تلك الاشياء من ذلك الموضع او تلك المواضع وهذا
ضد عبارة كتاب الفقه الاسلامي فانها اخصر ما يكون حتى يحتاج الى
شرح وحاشية وفتوى يفسرها وقد يقع التكرار في عبارة كتاب الصكوك في
البلاد الاسلامية وهم الذين يتعيشون من كتابتهم ولقد تعجبت كثيرا مرة
من قراءة صك كتبه بعض كتاب المحاكم بتونس مطالعه الاجل الوجيه الفاضل
الموقر محمد بن الحاج احمد قال بترو المايطي النصراني انه اعطاه كذا وكذا يعني
ان المايطي ادعى على الاجل محمد بكذا وانما فصل هذا الكلام وجاء بهذا
التركيب السخيف كراهة ان يذكر اسم المايطي قبل محمد وهو من الهوس الذي
يفضي الى خرم قواعد العربية واكل احكام تونس على هذا المثال من
اللحن والخطأ واقول في الجملة ان عبارة كل الفقهاء فيها خروج عن
قواعد النحو واللغة • اما كلام الانكليز فانه لما كان مورده اصطلاح
اللغة وعرف الخطاب رأيت من الواجب ان اذكره بالتفصيل في فصل على
حدة اجعله خاتمة لهذا الكتاب ان شاء الله تعالى وانما اقتصر منه على نبذة
فاقول ان تحيتهم في الصباح هي ان يقولوا صباح طيب وفي المساء مساء
طيب ثم يردفوها بقولهم هو دو يودو وترجتها كيف تعملون انتم تعملون
وهو سمة تنبئ عن مزيد ميلهم وتوقانهم الى العمل حتى انه يوجد في لغتهم نحو
عشرة

عشرة الفاظ مرادف العمل وهو أكثر ما عندهم من المترادف ولا يخاطبون
 بضمير المفرد الا البسارى تعالى اوفى الشعر وهو ضربة لازب عند طائفة من
 جنسهم يقال لهم كويكرس وسيأتى ذكرهم فاما عند الفرنسيين فاستعمله انما
 هو في مخاطبة الادلال كأن يكلم المحب محبوبته او الوالد ولده وتحية هؤلاء بعد
 صباح الخير كيف انتم تحملون انفسكم وكلتا التحيتين لا معنى لهما كما قال فلانير
 ومتى خاطبت احدا من فلاحي الانكليز وهو مصغ اليك ابدى همهمة عند كل
 جملة اعنى قوله هم فكأنها عندهم حرف بمعنى نعم وعند كل فقرة تقضى بالاعتبار
 يقول اه واذا هم خاطبك نفضوا رؤوسهم ولا يكادون يشيرون بالايدي كما هو داب
 اهل مالطة وايطاليا وغيرهم وليس للهجتهم مطلقا نغمة مطربة سواء تكلم
 بها جاهل او عالم او ولد او امرأة اذ ليس في كلامهم مد ولا حركات طويلة
 واصوات الرجال من حناجرهم بخلاف اللغة الفرنسية فان فيها غنة تستحب
 من الاولاد والجواري جدا وربما طرب لها من ليس يعرفها ومع ان لغة الانكليز
 من اللغات المستحدثة ولم تشهر الا واعقبها التمدن وطبع الكتب فلكل اهل
 صقع عندهم كلام ولهجة خاصان بهم فلا يكاد احدهم يفهم من صاحبه شيئا
 بمنزلة ما عند اهل الشام والغاربة من الفرق ومن عادة النساء اذا كمن احدا
 من الخاصة ان يمتحنين له عند كل سؤال وجواب وعادة الغلمان ان يضعوا ايديهم
 على رؤوسهم وكذا هي عادة الخادم مع مخدومه عند كل سؤال وجواب حتى
 القسيسون ايضا يرتاحون لهذه الدغدغة واذا خاطبوا احدا بكلام توبيخ
 وغيط قالوا له سر وهي بمعنى سيد حتى انهم يقولونها عند طردهم كلبا ونحوه
 فيقولون مثلا اخسأ يا سيد وقد يستعملونها ايضا لانعظيم المخاطب واجلاله ومن
 الغريب في هذه اللفظة انها بالفارسية بمعنى رئيس ووافتها ايضا في العربية لفظة
 السرى فلا ادرى اى اللغات هي الاصل لها والرجل يقول عن زوجته معلمتى
 والمرأة تقول عنه معلمى واذا خاطب زوجته احد من الخاصة بلفظة مدام كان
 ذلك اشارة الى تنافرهما فخاطب الرضى انما هو ان يقول لها يا محبتى او يا عزيزتى
 وربما قالوا يا قلبى ولا يكادون يفهمون يا روى ويا عينى ويكثرون من ذكر
 الشيطان في حالتى التعجب والاستههام فيقولون اين الشيطان كنت وبضيفون
 لفظة مان بمعنى الرجل الى كل شئ فيقولون لاسقاء واطرمان اى رجل الماء

على اخلاق الفرنسيين واقول ايضا في الجملة انه معما يظن ان دول الافرنج تبغى
تعميم المعارف لدى جميع رعاياها فليس الامر كما يظن اذ ليس من نفع الدولة
والكنيسة ان تكون العامة متكيسة ومتفتحة ولا سيما عامة فرنسا فان معارفهم
سبب لتخطئة الدولة ولهذا يقع فيها من التغير ما لا يقع في غيرها •
ويجبني من الانكليز خلال منها انه ليس عندهم فضول وتكليف على الدخيل
فيهم بل ولا على من هو منهم فلا يزورونه في غير وقت الزيارة ولا يستعيرون منه
ولا يتعرضون لما يأتيه فلو رأوه مثلا مضطجعا على قارعة الطريق لم يسألوه لاي
سبب تفعل ذلك بل ربما حسبوا ان اهل بلاده جميعا يضطجعون مثله وان في
ذلك مصلحة لهم واذا زارك احدهم ورأى عندك مثلا امرأة او نساء لم يهمه ان
يسألك عن سبب زيارتهن مما لا بد منه في بلادنا وكذا لو رأوك تمشي امرأة
في الطريق او تخاصرها فكل منهم مشغول بغيره ومهموم بشغله واذا راوا
دابقا مغطى لم يسألوا ما في هذا الطبق كما في الحكاية المشهورة ويمكن ان يقال
ان هذه الخلعة هي صنو لاول خلعة ذكرتها من معانيهم في كون كل واحد
منهم لا يهتم الا بشأته ولا غرو ان يكون بعض الخلال ممدوحا من وجه ومذموما
من وجه آخر • ومن ذلك الجد في المساعي وعدم الشماتة وكراهية العيب
الموجب للتنافر والعداوة او لنكاية الخصم في الكتابة ولو كان عندنا بريد على
الصفة التي هي عندهم لكنت ترى في كل يوم اهاجي واحاجي تلقى في البوسطة
ويبعث بها كما يبعث بالرسائل نعم ان عندهم يوما مخصوصا في السنة يتراسل فيه
المعارف برسائل مزحية ولكن من دون اذى وايحباب تبعة • ومن ذلك عدم
التهافت على الحسد فاذا رأوا عندك مثلا متاعا نفيسا لم يكن عندهم مثله لم ينفسوا
عليك في احرازه ولا يقولون يا ليت كان لنا مثله وخصلة النفاسة والحسد
قلما يخلو منها في بلادنا جسد • ومنها انهم يضربون على ما بهم فلا يتظلمون
ولا يجدفون اى يستقلون عطاء الله ولا يقولون ليس لنا وليس عندنا فكل واحد
منهم يريك انه مستغن عنك ولا تكاد تسمع خادما يطعن في مخدومه او خادمة
تعيب مخدومتها وان كانا يكابدان عندهما اما في بلادنا فقلما تجد خادما راضيا
عن سيده بل يعتقد انه هو اولى بالسيادة او ان شرف مخدومه متوقف على بقاءه

عنده • ومن هذا القليل عدم بنس الناس حقهم فاذا نبغ احد فيهم في فن
وصناعة لم يجد من يتصدى لجهيله وتخطئته حتى يوقفه عن تقدمه ويطفى
جذوة قريحته ورب دوحة نشأت عن فرع لا بل يجد من ينشطه ويسر له اسباب
العلم اما في بلادنا فاذا نبغ احد في شئ بادره حساده بقولهم هو مدع هو حار
هو متطفل • ومن ذلك انهم لا يقسبون باعتماد الاقويل ولا يأتون النعمة
والغنية الا قليلا فاذا سكن ما بينهم غريب وسمعوا عنه ما يكرهونه منه فلا
ينقلون اليه ما سمعوا عنه بل لا يهمهم ما قيل فيه وانما يعاملونه بما يظهر لهم
من حسن سيرته خلافا للفرنسيس فانهم مثلنا في التعلق بقال وقيل وفي
الاستفصاح عن احوال الجيران بل اهل البلد ولما كنت في باريس كنت اتردد
على البكونت دكرانج ترجمان الدولة لما كان عنده من البساطة بالغريب ولين
الجانب وكان هو ايضا يتردد علىّ اذا زمه ترجمة او انشاء رسالة بلغتنا واذا
كنت اكله ذات يوم في مصلحة لي قال لي اني ليعجبني حسن تصرفك فينا ونزاهة
نفسك وذلك مما يدعوني الى اجابة سؤالك غير اني انكر عليك شيئا شاع عنك
قلت اذكره لي حتى اتجنبه قال ان الناس يقولون انك قدمت الينا جاسوسا من
طرف الانكليز واذا كان ذلك حقا فلا يسعني اسعافك بمحاجتك قلت بودي
لو كنت جاسوسا اذن ما كنت لا كلف احدا بشئ فان جاسوس الانكليز يستغنى
بوظيفته عن ان يتوصل باحد الى نوال اربه ولا شك في ان الموما اليه سمع عنى
ذلك فان من دابع الفرنسيس ولا سيما شرطة الديوان ان يتجسسوا عن احوال
الغريب بينهم فاذا علموا انه يعيش بلا حرفة يتعاطاها حكموا بانه اما بان يعيش
من رزقه او من حيلته وحيث كانوا يعلمون انى لم اكن اتعاطى حرفة ولست
غنيا ذا عواجل وولائم استنجوا من هاتين المقدمتين انى جاسوس ودل ذلك
لا يشغل به احد من الانكليز باله فغاية ما يرومونه من الغريب ان يحسن تصرفه
ويقضى دينه الا ان من يسكن عندهم في القرى يلزمه من باب المجاملة والمخالقة ان
يذهب الى الكنيسة في يوم الاحد وان نام فيها فاما في المدن الجامعة فلا يلزمه
ذلك وقد شهر مرة في صحف الاخبار ان الملكة اهدت الى بعض الجند منديلا
قد كف بكف ابنتها فلم يعبا بهذا الخبر احد ولا ظن بها احد سوءا ولو شهر
امر مثل هذا في بلادنا عن اميرة لبقى شغل الخواطر والالسن احقابا • ومن ذلك

كلامهم بصوت منخفض وهى صفة تكاد ان تكون من خصوصيات نساءهم
وفى بعض البلاد قد تسمع للنساء زعيفا وزعيفا كاصوات الجن • ومن ذلك
حسن الترتيب والتدبير فى الاشغال والمصالح والتوقيت للعمل فكل شئ عندهم
وقت ولكل وقت شغل فاذا اتفق ان زارهم احد فى ساعة الشغل لم يتحاشوا
ان يقولوا له مثلا قد انسا بك و لكن علينا قضاء ما لا بد من المصالح
فلا تؤاخذنا وزرنا فى يوم كذا فيصرف عنهم عاذرا لا عذلا لانه هو ايضا
يعاملهم بمثل ذلك اما عندنا فرجما تعطلت مصالح الانسان بكثرة زواره حتى يضطر
اخيرا الى ان يحمل و سادته ويقول شفى الله مريضكم وهذه الصفة اى حسن
الترتيب يظهر اثرها بزيادة من اهل الرئاسة والسيادة والادارة منهم فان رجال
الدولة اذا ارادوا ان يباشروا امرا من الامور الجسيمة فانما يباشرونه بغاية
الاحكام والضبط بحيث لا يوجب تغييرا ما فى الاحكام ولا ازعاجا بشئ على
الرعية فاذا اضطروا مثلا فى وقت الحرب الى تجنيد جيوش وتجهيز بوارج
وذخائر فلا يكون ذلك موجبا لاضطراب الناس وتغيير احوالهم او لغلاء
الاسعار واذا شاؤا ان يجعلوا على الناس ضريبة لسد مصاريف الحرب احيل
ذلك على مجلس المشورة النائب عن الجمهور ومعلوم ان الانسان ليهون عليه
ان يؤدى شيئا على يد نائبه اكثر من ان يؤديه على يد غالبية قاهرة وفى بعض
البلاد اذا شرعت الدولة فى تجهيز العساكر للحرب رأيت جميع الناس يهجون
فى الاراجيف ويخوضون فى التهساويل فيظلم اذ ذاك القوى الضعيف ويأخذ
المرء بثاره من خصمه وتختل اسباب التجارة ويعدم الامن بين المتعاملين فتكون
غائلة الحرب مشعورا بها فى داخل المملكة اكثر من خارجها وقد كانت مدة
اقامتى فى هذه البلاد قبل حرب الروس مع الدولة العلية العثمانية وفى خلالها
وبعدها فلم يتبين لاحد فرق فى شئ ما اصلا • ويلحق بذلك ان تحصيل لوازم
المعاش فى الصيف والشتاء يكون شرعا فلا يتعذر وجود شئ منها باحد الموانع
وفى غير البلاد متى دخل الشتاء وهطلت الامطار تعطلت الطرق وانقطع المجلوب
من المأكول والمشروب فترى كل واحد متججرا فى بيته الى ان تتيح له فرصة الخروج
فاذا لم يكن الانسان قد حاكى النملة بان اتخذ مؤنته فى داره بسيفا هلك جوعا •
ومن اعظم ما يؤول الى تنظيم الامور ترتيب البوسطة وضبطها فى سنة ١٨٥٥

وضع في بوسطات لندرة وحدها ٤٦٠٠٠٠٠٠٠ مكتوب وارسل اليها من
بوسطات الممالك في سنة واحدة ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠ ولم يسمع الى الآن ان مكتوبا
واحدا منها فقد اذا كان صاحبه موجودا وسيأتي ذكر ذلك بالتفصيل عند
ذكر لندرة وما فيها وجعل كل مكتوب اذا ارسلته داخل المملكة نصف قرش
ولا فرق في قرب المسافة وبعدها وهذا المبلغ التليل تشتري به طابعا مصمفا
وتلصقه على عنوان الكتاب وقد يبعث به هذه الطوايع من بلاد الى آخر في
ضمن الرسائل بدلا من الفلوس فاذا سمع احد مثلا بذكر كتاب طبع حديثا ارسل
الى بائع الكتاب ثمنه من هذه الطوايع فانها خفية خفيفة بخلاف ما اذا ارسل
اليه ثلاثة شلينات مثلا فانها تنقل حجم الرسالة ولا يخفى امرها واذا بعث
احد بمكتوب ولم يجد البريد صاحبها بحث عن المرسل والمرسل اليه فان تعذرت
معرفة هذا رده الى المرسل والا ابقى في البوسطة مدة معلومة ثم يحرق واذا شئت
ان تبعث بكو اغذ مالية اخبرت صاحب البوسطة بذلك فيجعل على ظرف الكتاب
طابعا آخر انذارا للبريد من ان يطمع فيه فيفتحه وهناك طريقة اخرى وهو ان
ترسل هذه الكواغذ انصافا اعني ان تقطعها انصافا وترسل في اول مرة نصفها
فاذا جالك علم وصوله ارسلت النصف الآخر فيلصقهما البعوت اليه بالآخرى
و ينتفع بهما واذا اشتريت من تاجر ما قيمته نصف شلين فقط وناولته كاغذا
بخمس ليرات صرفه لك فورا وربما تزيد قيمتها في باريس وغيرها على قيمة الذهب
وذلك يدل على ما لبنك الانكليز من المتانة والمكانة وتقليل انواع النقود اى
كون النقود تقصر على ثلاثة انواع او اربعة من الاسباب الميسرة للمعاملة بيان
ذلك ان للانكليز قطعة من الفضة تعرف بالشلين ثم اخرى قيمتها شلينا واخرى
قيمتها شلينا ونصف ثم نصف الشلين ثم ثلثه ثم ربعه ثم الليرة من الذهب ثم
نصفها فلما كان عندهم قطعة تساوى مثلا شلينا الاقرشا او قرشين ونصف قرش
او سدس الليرة او سبعة او ثمنها حصل الغابن او التوقف في الاخذ والعطاء
فيا ليت ذلك كان جاريا في البلاد الشرقية وكذلك من ميسرات المعاملة كون نقود
البلاد الاجنبية لا يتعامل بها في البيع والشراء في لندرة وانما يمكن صرفها عند
بعض الصيارفة ولا تغير لاسعار نقودهم قطعا كما يقع في بعض البلاد كما لا تغير
لاسعار البياعات فانك اذا اردت ان تشتري شيئا من عند تاجر لم تجر العادة

بأستحطاطه من الثمن ولا سيما اذا كان المبلغ زهيدا وبذلك يحصل راحة للبائع والشارى ونعت العامة • ومن ذلك عدم التعنت على الساء فيما لا يكون به مثابة للعرض فاذا كان الرجل مثلاً غائباً وجاء منزله فوجد رجلاً يصادف زوجته لا يتناولها بالهراوة او القذع و يقول لها يا فاجرة يا عاهرة لا يجمعنى واياك مكان من قبل ان يعلم سبب زيارة الرجل فاما اذا عرف منها الخيانة فلا رجة بعدها ولا اعدار وانما هما خطتان اما سكين واما سم وكثيرا ما سمعت زوجة الرجل تقول للضيف بحضرة زوجها خذ يا عزيزى وهات يا عزيزى • ومن ذلك الامن فى الخروج ليلا من دون فانوس ولا باب يقفل على السارى والامن للمسافر ايضا فى البلاد فان الانسان ليسافر فيها ليلا وهو فى آمن حال واصفى بال مما لو سافر فى بلادنا نهارا وترى الولد يمشى فى المدن الكبار وحده ليلا ولا يخشى شيئا ولا هيبة لذوى المراتب والمناصب منهم او للعسكر والشرطة عند المارين بهم وان البنت التى لم تبلغ عشرين سنين تسعى بعد نصف الليل وتر بالشرطة فكأنها مرت على بعض اقاربها فتسألهم ويجاوبونها وتستترشدهم بغير حشمة ولا انتباه فىرشدونها ويذهبون معها وليس للشرطى حق ان يدخل بيت احد الا باذن الديوان لسبب خطير ولا ياخذ غريبا محتوقا الا من الطريق وفى البلاد الشرقية اذا كلمت المرأة بعض الشرطة او العسس ليلا لم يلبث ان يمد اليها يده ويهتك حجابها وهيهمات ان ينتقم منه منتقم وعندى ان عدم الهيبة والخوف على صغره الذى يورب جيل الافرنج جميعا الاقدام والجرأة على الامور والكلام ويزيدهم بسطة فى الجسم والعقل ويطلق بهم عن الشيب والهرم فان لقاء الرعب فى قلب الصغير كلوا فح الرياح العاصفة على الغرس فتى تمكن منه جعله بعد ذلك غير صالح للمساعى الجليلة وما عدا خوف الحكام والظلام ورؤساء الديانة فى بعض البلاد الشرقية فان الامهات يزرعن فى قلوب اطفالهن الخوف من العفريت والروح الشرير والخيال والظلام وغير ذلك فثبت العادتان ولولا ان اهل الشرق من طابعهم التسليم للمقدور لما رأيت منهم احدا تصدق عليه صفة الرجولية وقد صار الآن كتاب الاخبار فى هذه الديار يلومون ارباب السياسة على قلة الامن للمشاة ليلا فى طرق لندرة وسبب ذلك رجوع اولئك المنفيين كما ذكرنا الا ان هذا عارض يرجى زواله وكذلك فشا اللوم على خيانة البريد لعدم

لعدم تسليم الرسائل الا انه ايضا من الامور الطارئة • ومن ذلك اختصارهم الكلام مع المخاطب اذا اعتمدتهم بشئ فاذا احتاج الصغير الى الكبير في شئ قال له اني ارجو ان تكون من المحسنين الى بتحويل طلبتي فاكون لك من الشاكرين فهذا يغنى عن قولنا يا بدر الكمال ويا بحر النوال يا من يلتجئ اليه العافون ويحجج الى كعبة فضله العائدون ويا من صيته طار في الآفاق وملاء الاسن والاوراق ويا من ويا من فيكون جواب الكبير له بغير ملت سابل جهمى فى مصلحتك واخبرك فهذا يغنى عن قولنا على الرأس والعين حبا وكرامة لا بد من ذلك فان الخير مشترك ونفعك من نفعي والحال واحد حالة كون النية غير منعقدة على العمل فاما اذا رأى المسئول نفسه غير قادر على احساب سائله ونفعه قال له مصرحا ان سؤالك فوق طاقتى فاقصد غيرى ولكن متى وعد فلا بد من انجاز وعده فلا محال ولا مطال الا انه لا ينبغي ان تفهم من هذا ان الامور الخطيرة عندهم ثبت فى الحال فان لها من التوقيف والتعيين ما يعي به صبر المنتظر اذ لا يبرم عندهم امر من اول وهلة الا ان يستفرغ فيه البحث والتروى فعلى قدر ما يهون عليهم ارتجال المقال يصعب عليهم ارتجال الفعـال حتى ان ديوان المشورة لا يت شئنا الا بعد استفراغ الكلام فيه وانما المراد انهم لا يعدون بما لانية لهم على وفاء كما يحدث فى بلادنا فيبقى الموعد رهين الامانى يطعم الملت ويسقى الوعود ثم لا يحصل من بعد ذلك على شئ فيتيج منه التكذيب من قبل الموعد والتكيد من قبل الواعد وفى الجملة فليس بين الانكليز عرقوب ولا اشعب وعندى ان هذا الاختصار هو فى اغلب الاحوال اساس للمصالح ووسيلة للنجاح فانه اذا كان احد مثلا معطلا عن الشغل ودلب وظيفة من احد الانكليز فانه يكتب اليه كتابا ويذكر له الشروط فاذا اعجبه ذلك اجابه حالا الى سؤاله والا قال له لا يمكننى فيسعى الرجل فى تحصيل وسيلة اخرى اما عندنا فاذا طلب احد من مخدوم وظيفة قال له يا حبذا ليس غيرك اجدر بها ولقد طالما بحثت عن رجل مثلك متصف بهذه الصفات ولا سيما انك انصفت فى الطلب ولكن امهلنى ريثما اقضى وطرا لى فيربطه بهذا الوعد ثم تمضى مدة والرجل راكن الى وعده فاذا سألـه مرة اخرى مطلـه بحيلة اخرى الى ان يقول له اخيرا قد استخدمت غيرك او قد استغيت عنك ~~الا~~ ان الانكليز غالبـا قد فرعوا من هذا الاصل

فروعا لا تناسبه منها انهم يعاشرون من يكون له عنده مصلحة شهورا
وسنين فاذا انقطعت اسباب المصلحة انقطعت العشرة واذا اشترت من احدهم
بما قيمته الف ليرة مثلا دفعة واحدة فاذا رآك في غير حانوته لم يلتفت اليك
فلا يعرفك الا في الدكان • ومن ذلك اى من الخصال المحمودة
الحرص على ما يؤتمنون عليه فاذا سلمت لاحدهم مثلا طرسا فانه يصونه عنده
بمثلة طرس نفسه حتى اذا استرجعته بعد سنين اعاده عليك كما تسلمه بل ربما
ازال عنه الوسخ ورده اليك نظيفا وقال لك وهو معتذر قد تجاسرت
على ان ازلت الطبع عن الطرس وارجو انى ام اسئ فيما فعلت وقس على هذا
سائر ما تأتمنهم عليه وينضم الى ذلك احترامهم للرسائل فلا يفتح احدهم كتابا
جاء باسم غيره بل يبذل جهده في ايصاله اليه واذا زارك منهم زائر فلا يمد يده
ولا طرفه الى ما بين يديك من الصحف فاذا اراد ان ينظر فى كتاب لم يلمسه
الا بعد ان يستأذنك وفي بلادنا اذا اعرت احدا كتابا اعاره هو الى آخر والاخر
الى آخر وهلم جرا فرجا لم يعد اليك منه عين ولا اثر بل يرى نفسه اولى به وان لم
يستقدمه اما لعدم قدرته على فهمه او لكثرة اشغاله بل التيسيسون ايضا لا يتورعون
من هذا واذا شرفك بزيارته فاول ما يطمح نظره فانما هو الى اوراقك وحالا
يمد يده ويخطف منها ما شاء فكأنما هو جاسوس جاءك ليطلع على اسرارك
لا ليأنس بحديثك • ومن ذلك ان اصحاب المراتب عندهم لا يقبلون المصانعة
والرشوة من احد لتحويل اربه وان علم انه ارتكب ذلك اقتص منه كما يقتص
من السارق ولم ينفعه ان يؤدى الرشوة التي اخذها مضاعفة نعم ان المراتب
هنا انما تعطى غالبا بالحبابة والاستحباب لا بالاستحقاق والاستحباب فان الامير اذا نوه
بشخص من اقاربه او معارفه عند ذى مرتبة وسيادة نفذت كلمته عنده ولو ان
شخصا متصفا باحسن الاخلاق ومتمليا بالعلم والفضل حاول بنفسه ان ينال
تلك الرتبة لم يلتفت اليه الا ان هذا الداء عام فى جميع الممالك • ويلحق بما تقدم
من تفضيل الاستحباب على الاستحباب ان نفر من العسكر لا يمكن ان يرتقى
الى مرتبة ضابط وان ارتقى الف حصن للعدو وابدى من الشجاعة والبراعة
ما يقصر عنه قائد الجيش فهو نفر من يوم اكتبته الى يوم خروجه من الخدمة
والحياة وبعد ان يقضى خمسا وعشرين سنة فى الخدمة يعفى منها ويعين له
نحو

نحو اربعة قروش في اليوم والامير امير من يوم ينزل من ظهر ابيه الى يوم يركب ظهر النعش ثم يدوم ذكره كذلك الى ابد الابدن فكان ترتيب اصناف الناس عندهم بمنزلة ترتيب اعضاء الجسد بمعنى ان لكل عضو خاصية ووظيفة لا يتعداها ولا تتعداه فالرأس لا يزال رأسا وان سرى فيه الحرف والفند والعور والصمم والدرد والقدم لا تزال قدما وان هي انجته وانجت الجسم كله • وهذا التخصيص من وجه آخر سديد رشيد فان ناظر الامور الخارجية عندهم مثلا ليس له حق في ان يدمق على ناظر الامور الداخلية في شئ وناظر مجلس المشورة ليس له جدارة بان يحكم على احد الباعة بشئ من محراب صرحه وقس على ذلك فاما في بلادنا حرسها الله فان ناظر المدايع جدير بان ينظر في جلود بني آدم ويصبغها بلون الدرة والسوط او يسبر ما هي عليه من الطراوة والنعومة والمحتسب خليف بان يزن اعمال عباد الله وادوالهم في بيوتهم ويروز ما في عياب صدورهم من الخواطر والافكار وللحاكم او للمطران ان يسقط حق الحق لحرف اسقطه في الكلام وللضابط ان يبيت الناس في مضاجعهم وللشرطي ان يقبض على اى شخص كان ولطابط العسكر ان يخترط سيفه على اى عنق سنحت له وللبطرك ان يحرم اى شخص كان من رعيته حتى لا يعود لاحد من اقاربه واهل بلدته استطاعة على مخاطبته ومبايعته والى من المشتكى واين النصير واين المجير فيا ليت شعري متى نصير نحن ولد آدم بشرا كك هؤلاء البشر ومتى نعرف الحقوق الواجبة لنا وعلينا أن نخال ان معنى التمدن هو ان يكون الناس في مدينة وفيها ذئب وسباع كلا ثم كلا جبر ان اجتماع الذئب والخروف في مرعى واحد ليوجب على اليهود ان يؤمنوا بان المسيح قد جاء • ومن ذلك تنشيط اولادهم الى الاشغال وترينهم على ما يكسبهم واياهم الرزق الكافي والمواظبة على الاعمال والصبر على ما يتعاطونه جل او حقر فانهم لا يملون من السعي ولا يرون في الكسل راحة ولا يقول احدهم انى كبرت عن تعلم شئ فلا يزالون داجين كالنمل ما دامت فيهم نسمة تتحرك ومع كل هذا التجلد والتحمل فتى ضيم احدهم او سعة شرفه او مال نجمه فاهون شئ عليه نحر عنقه وذلك عندى من جملة الافعال المتناقضة في الطبع البشرى وجل سعيهم في شبابهم انما هو لتحصيل ما يهنئهم في شيخوختهم حتى يـمـكن لهم تربية اولادهم فلا

يحتاجون الى التكفف او الى ملازمة المستشفيات والملاجئ المعدة للعاجزين وكل منهم يعمل بقول الشاعر

* قليل المال تصلحه فينمي * ولا يبق الكثير على الفساد
فاما قول عروة بن اذينة

* لقد علمت وما الاسراف من خلق * ان الذي هو رزقي سوف يأتيني
* اسعي له فيعني تطلبه * وان اقت اتاني لا يعنني

فانه يعد عندهم من الاماني الفارغة الباعنة على التواني غير ان حب التناهي غلب فان تعليق العبد توقيقه ونجاحه بالكلية على سعيه وكده لا يخلو من ازدراء بعناية المولى وفيه من وجه آخر تقسية للقلب فان الانسان والحالة هذه يهون عليه ان يفارق وطنه وسكنه لاجل المال وهذا الداء فاش ايضا عند المثريين والموسرين هنا اذ الغنى منهم قد يكون له ابن وحيد فيبعثه الى الهند او غيرها طلبا لوظيفة سامية وربما فجع به بعد قليل وهذا يعد من وجه انه ناشئ عن كبر همة وسمو مطمح ومن وجه لك ان تعدد من الحرص والطمع فوفق بينهما ان استطعت * ويلحق بذلك ان الشيخ الفاني منهم اذا اراد مثلا ان يبني بيتا او يأتي امرا فانما يجعل همه في تحصيل المنفعة منه في المستقبل اكثر من الحاضر وفي غير البلاد لا يبالى الا بالمنفعة الحال ولا يكاد يتجه امر يرجى منه نفع وصلاح الا وتجردت له جعاعة فتجربه على وجه مرغوب ونحو مطلوب وكلما اخترع احد شيئا قصد به غالبا احدى هؤلاء الجماعات ايشارا لهم على اهل بلاده لعلمه بانهم يعرفون اجرة العامل فيعينونه على اجراء امرام بما فيه نفع له ولهم * ثم انه وان يكن قد غرس في طبع كل انسان ان يحب وطنه ويفضله على غيره ولا سيما اذا سافر الى بلد هو دون بلده في طيب الهواء ورغد العيش وحسن الاحكام الا ان هذه الخلقة تكاد ان تكون من خصوصيات الانكليز فانهم ايان يتغربوا يظلموا لهجين بذكر بلادهم وما فيها من المحاسن واللذات وقد رأيت كثيرا ممن سافروا منهم الى بلادنا والى مصر والقرب وباريس وغيرها فاثنوا على تلك البلاد بشئ وافق طباعهم منها الا انهم عند ختم الكلام يقولون لا شئ مثل انكلترا القديمة وانما يصفونها بالقدم لعدم تحول احوالها وتغير عاداتها كما ان اهل باريس يقولون ليس الا باريس ومع ذلك فالك لا تزال ترى الانكليز

الانكليز طوافين في جميع البلاد وراكبين متني البحر والبر معا ولكن لا تكاد ترى احدا منهم يسافر الى البلاد الاجنبية لاجل ان يعلم التصوير او الرقص والغناء كعادة غيرهم من الافرنج وانما هو للتجارة اما الامراء والاغنياء فانهم يسافرون للترفيه واحيانا لاجل تخفيف المصاريف فانهم مهمما بصرفوا في غير بلادهم فلان يبلغ ذلك نصف ما يصرفونه وهم في اوطانهم ورب وليمة عندهم ينفق فيها نحو مائتي ليرة فتزى منهم في كل قصبة من بلاد اوربا الوفا ومتى رجع الانكليزي الى بلاده انشد مع الشاعر

* فبشرت آمالي بملك هو الوري * ودار هي الدنيا ويوم هو الدهر *
ولا شيء يعجبهم مثل ان تمدح بلادهم وعما اتهم • هذا وان من طبع الناس عموما اذا احتاجوا اليك ان يعزوك ويحتفوا بك ويروك اهلا لكل مكرمة واذا انت احتجت اليهم استخفوك ورأوا فيك العجز والذل الا ان هذه الخصلة غالبية على الانكليز جلة وتفصيلا فن رام ان يكرم نفسه عندهم فليظهر لهم انه مستغن عنهم ولا يعرض لهم في طلب شيء ولا في استعارته وبناء على ذلك يصاحبون من يصاحبون اياما وشهورا وسنين ولا يسألونه عن مقدار دخله وخرجه ولا يريدون ان يسمعوا ذلك منه اذا ذكره ومتى حلت هذه العقدة انقطع الحبل فذلك عندهم من السر الذي لا ينبغي افشاؤه الا عند الضرورة المتقضية له وكذلك لا يسألونه عن معتقده ومذهبه وعندنا متى تعرف احد بذى مقام فاول ما يشنف سمعه به من المسائل قوله له من اي ملة انت فاذا لم يكن المسئول على ملة السائل سقط من عينه الشريفة او بقي فيها كالتقذى ان بقي محتاجا الى عشرته فاما مسائل الاخوان والعشراء فاولها كم دخلك وثانيها كم خرجك وثالثها كم مرة تعترف في السنة ورابعها هل تأكل البيض يومي الاربعاء والجمعة الى آخره • ومن طبع الانكليز انه متى وثق احدهم بانسان وعرف منه الجد والاستقامة والامانة يأتمنه على زوجته وبناته فيذهب معه ليلا ونهارا بلا مانع ومن يحضر الى بلادهم بوصاية من عند معارفهم احتفلوا به وعدوه منهم وسموا آذانهم بعد ذلك عن سماع ما يقال فيه من الذم ولكن بشرط المحافظة على ذلك الاصل وهو اظهار التشيع والاستغناء فاما اذا كان ذا بسطة في الجسم ومسحة جبال في الوجه فلا يعود يشينه شائن ولا يزخره قاذح

وطاعن ومتى دخل تحت حاية امير منهم فقد دخل في ذمة السموءل وفي حى
 كليب فهو يحامى عنه بكل ما اطاق فهذا الداب من جهة يعد من المناقب ومن
 جهة اخرى لا يخلو من الذأم فان المعتقد يصدق الموصى به ثقة بالموصى وعدم
 تغير اعتقاده فيه وان سمع عنه ما يشينه يترجم بفعله هذا واصراره عن عصيته
 ومحالية طروء الغش عليه فيما قرر عليه رأيه ووطن نفسه حتى لا يحتاج بعدها
 الى ناصح ينصحه ومنبذ يرشده فاسترسل في هواه الى ما يعرضه لطعن العائين
 ونقد المنكرين والليب من لا يركن الى هواه ولا ينق بثقتيه بل يسك في نفسه
 ويستريبها حتى يوديه الشك الى اليقين وبعد فهب ان ذلك الشخص الموصى به
 كان جديرا بالرعاة والاجارة وهو في بلاده او اول دخوله بلاد الانكليز فقد
 يحتمل انه عند مشاهدته هؤلاء القوم على هذه الاحوال التي لم تكن تخطر له
 ببال قط تغير اخلاقه ويتلبس بصفات لا تشاكله فقد عرفت كثيرا ممن قدم
 اليهم من البلاد الشرقية وعليهم سميت الاستقامة وسمة الزاهة فلما رأوهم على
 هذه الحال من التشوف الى معرفة بلادهم ومن اثمانهم الغرباء على بناتهم
 وكرامهم لهم لاجل الوصية التي قدموا بها اتخذوا لهم ريشا غير الذي
 جاؤا به واتحلوا لانفسهم صفات وما كرم يكونوا يحاون بها من قبل قط
 فبعضهم قام في الناس خطيبا يحكى ما علمه من احوال بلاده وبعضهم طمع الى
 ان يتزوج فيهم من يكون عندها من المال ما يشرى به املاك اهل بلده او
 قرية وبعضهم اخذ في التأليف وحشر نفسه في زمرة علمائهم وكلهم ظن ان
 الانكليز طعمة لبلاتهم ولقمة للملتم واول ما يخطر ببال الدخيل فيهم اذا كان عزبا
 انما هو ان يتزوج احدى بنات الاعيان او الاغنياء ليستغنى برزقها عن الهم
 والنصب والتفكر في المقلب وفي الحقيقة فقد صدق فيهم مؤلف حاجى بابا وهو
 ان الانكليز اذا تعرفوا بغريب فلا بد من ان يرفعوا من قدره لئلا يلحقهم من
 تعارفهم به وصمة تشينهم فرجا اتحلوا له لقب امير او سيد حتى يتوهم الرجل انه
 في الواقع كذلك • ومن طابع الانكليز ولا سيما كبرائهم ان ينفروا من
 الرخيص وان يكن نفيسا وان يتهافتوا على الغالى وان يكن خسيسا وعلى ذلك
 يحكى ان رجلين كانا يتحدثان في هذا المعنى فقال احدهما لصاحبه ألا انى
 فاعل بهؤلاء القوم امرا يسخر منه كل من يسمع به ثم عمد الى كيس وجعل فيه
 دنائير

دنانير من ذهبهم وقعد على قارعة الطريق وجعل ينادى من اعطاني شلينا اعطيته ديناراً من هذه الدنانير بدلاً منه فجعل المارون يتضاحكون منه ويقولون لعمر الله ما قصد بذلك الا غبن الناس فطفق يصرخ باعلى صوته ويقول يا ايها الناس هاؤم الذهب بدل الفضة وعليكم بالتقاد فلم يكثر له احد • واعرف بعض الجهلة كان يقرأ النحو على رجل من ذوى التناعة والزاهة ثم يعلم جماعة من اعيانهم ويتقاضى كلا منهم على تعليم ساعة واحدة نصف ليرة فكان الناس يهرعون اليه ويعرضون عن معلمه لانه كان يتقاضاهم ربع هذا المبلغ تديماً وتورعاً واذا كان احد مثلاً متوظفاً في وظيفة سنية وقصدوه ان يقضى لهم امراً اعطوه استعاف ما يعطونه لمن ليس له شغل الا قضاء تلك الحاجة بعينها ومن كان معاشه من حرفة له وان تكن تلك الحرفة عقلية لا يدوية لم يكن له مقام من لا حرفة له سوى الحرق والبطالة وعلى هذا قال الفاضل كواد سميث ان الناس من شأنهم ان يستخفوا بالمعارف التي يتعاش منها وقد يتفق مثلاً ان يكون طبيب نطاسي وآخر متطبب فاذا كان لهذا عاجلة ودار رحبية وخدم اقبلت عليه جميع الامراء والعظماء وادبروا عن ذلك لكونه ممن يمشى على رجله ما لم يؤلف كتاباً ويظهر فيه براعته فكم من ملكات جليلة تبقى في زوايا الخمول بسبب هذا الترجيح الزائف نعم ان زيادة شلين واحد في ثمن المتاع عندهم يوجب فرقا عظيماً الا انه ليس من العدل ان تقاس الناس بالبياعات فكم من عالم عاقل وليس عنده كتاب وجاهل غبي ولديه اصابير كتب نفيسة • ومن طبع الخاصة منهم ان يتجنبوا معاشرة العامة ما امكن ولذلك سبب ان احدهما وهو المشهور عند الناس عظم الفرق الحاصل بين الفريقين في الادوار والاخلاق فان العامة في هذه البلاد ليس لهم حظ من الكياسة كما عرفت مما مربك ولا تكاد خلائقهم وعاداتهم ترضى احداً من البشر من كان ذا ذوق سليم وطابع مستقيم فالأوباشية ظاهرة عليهم في كلامهم وحركاتهم وتخبرهم للالوان وفي تصرفهم وغنائمهم وضحكهم ومعلوم انه من يكون قد قرأ ودرى يستنكف من مخالطة امثال هؤلاء والسبب الثاني وهو ما خطر لي ان اصل عليه الناس هنا من اجيال مختلفة فان الذين قحموا هذه الجزيرة كانوا من فرنسا وشمالي اوربا ومعلوم ان هؤلاء الفاتحين هم الذين استولوا على أرض الجزيرة

وعلى المراتب والالقباب الشريفة وان الانكليز التمح بقوا بينهم مسودين
 مرؤوسين فبقى هذا الفرق في اعقابهم قال فلتير انه بعد وفاة الفريد ملك انكلترة
 وذلك في سنة ٩٠٠ اختلت امور المملكة وتضعضعت اركانها فكان القتال مستمرا
 بين الصكصونيين وهم اول من غزوا الجزيرة وبين الدانيزيين ولما كان هؤلاء
 اعز واقوى من الانكليز لم يكن لهم يد من ان يؤدوا اليهم ٤٨٠٠٠ ليرة
 لينصرفوا عنهم وذلك في حدود الالف قال ثم ان كانت ملك الدانيرك جار في
 حكمه على الانكليز وبغى وداغى وفي سنة ١٠١٧ اعنأهم تحت حكمه وعاملهم
 معاملة الاسرى فكان الدانيزي اذا مر بالانكليز يلبئ الى الوقوف الى
 ان يمر فلما انقرضت ذرية المذكور عادت الى الانكليز حريتهم فلكوا عليهم
 ادورد الصكصوني وكان يلقب بالقدس المعترف وانما قيل له ذلك لانه
 اعتزل زوجته عن كراهة لها ومات ولم يعقب وعند وفاته قام الامير وليم دوك
 نورماندى يدعى بان له حق الولاية عليهم مع انه لم يكن له حق بولاية
 النورماندى الا ان حقوق الولاية والملك حينئذ لم تكن في اوربا كما هي الآن
 وكان من جملة دعواه انه قال انى لما سافرت الى جزيرة انكلترة اجتمعت بالملك
 ادورد فجعلنى ولى عهده وانى انقذت الملك هرلد من سجنه فوعدنى ايضا بنقل
 الملك الى ولما عرض ما نواه على اهل النورماندى وقع بينهم الخلاف فى شأنه
 فتم من ابى ان يساعد، ومنهم من رأى فى ذلك مصلحة ومن جملة هؤلاء
 الدوك فتراسبورن فانه جهز معه اربعين سفينة وامد، ايضا حوه الكونت
 فلاندر بمال وكذلك البابا اعانه وحرّم كل من يمانعه فسافر حتى بلغ ساحل
 صاسكس فلقية هرلد ملك الانكليز بالجيش ونشبت الحرب بين الفريقين فقتل
 هرلد واخواه وانهزمت الانكليز امام وليم فزحف بالجيش نحو لندرة وهو ناشر
 علما كان قد باركه له البابا فدخلت الاساقفة فى طاعته واقبلت اليه القضاة
 بالتاج فلما استوى على سرير الملك اذل الدانيزيين واهل الجزيرة وقهرهم اى
 قهر واحسن الى اهل النورماندى الذين اعانوه واجرى عليهم ارضا واقطعهم
 اقطاعات جمة فن ثم كثرت هناك عيال النورمانديين الذين لم تزل اسماء
 ذراريتهم معروفة بين الانكليز قال وكان دخل هذا الملك اربعمائة الف ليرة
 وهى تبلغ بحسب قيمة الدراهم فى زماننا هذا خمسة ملايين من ليرات الانكليز
 قال

قال ثم ان الملك المشار اليه ابطال ما كان عند الانكليز من الاحكام والشرائع واقام
 شريعة النورماندين مقامها واجبر اهل الدعاوى على ان يتداعوا بلغة قومه
 وكذا كتب الصكوك والاحكام فبقيت لغتهم مستعملة الى عهد ادورد الثالث
 وكانت تلك اللغة فرنساوية مختلطة بالدانيرية بعيدة عن الفصاحة بأثرة عن
 البيان وكان مما سنه الملك على الانكليز اطفاء مصابيحهم في الساعة الثامنة من
 الليل وذلك عند سماعهم صوت الجرس الا ان هذه العادة كانت جارية ايضا
 عند غيرهم من سكان البلاد الشمالية وكان البادئ بها اهل الكنيسة انتهى فقد
 علمت مما تقدم ان علية الانكليز هم من الغرباء الذين قبحوا هذه البلاد فان قلت
 اذا كان الامر كذلك فما بالهم يخالفون علية فرنسا والدانيرك في الطباع وفي كونهم
 كما سبمت الاشارة اليه كالزيت لا يختلطون بغيرهم انفة وتكبيرا قلت وما بال جو
 الانكليز لا يشبه جو فرنسا أفينكران للهواء تأثيرا في الخلق والخلق عا سوءا كان
 في الحيوان الناطق وغير الناطق فلو جئت ايها الهرش البش الخلق المحيا باسم
 الضاحك المقهقه الى هذه البلاد وبقيت فيها شهرين او ثلاثة لا تبصر الشمس
 الا من وراء حجاب لاغذاء الخبز عن الخبز وحيث قد ترفعت الكبراء من الانكليز
 عن هو دونهم من اهل بلادهم وصار ذلك دأبا لهم وادبا يرثه الولد عن والده
 والخلف عن سلفه جروا على ذلك ايضا مع الغرباء ما لم يتبين لهم انهم نظراؤهم
 في الهمة والمعالي فتي اعتقدوا ذلك منهم لم يأنفوا من معاشرتهم والحق
 يقال انه لا مناسبة بين علية الانكليز وسفلةتهم بخلاف غيرهم فان الامير عندنا مثلا
 لا يفضل الناس الا بامارته لا باخلاقه وآباه ومعارفه اذ جميع الناس في ذلك
 متساوون وايضا فحيث كانت القاب الشرف عند الانكليز قديمة وعريزة كان لها
 عندهم اجلال وتعظيم يفوق الحد حتى ان اعظام اللقب عندهم اعظم من اعظام
 الملقب به فان الشريف اذا مشى مثلا في الشوارع مع عامة الناس لم يكثر له احد
 ولم يقم له قاعد وقد يسوغ الطعن فيه والتنديد بجماعه ولكن لا يسوغ الازدراء
 بمنصبه وجلاله لا بالنطق ولا بالكتابة وما احد من الانكليز ينكر انه بمجرد اتصاف
 الانسان بجلاء يجب له التعظيم والتكريم ومن اعظم شاهد على ذلك نصب ضابط
 البلد فانه قد يكون من اهل الحرف والصنائع فتي حصل على هذا الجلاء صار مساويا
 للاشراف والسادات حتى ان سائر الوزراء والامراء يأكلون عنده ويجالسونه وما

ذلك الا لمراعاة جلالة ومتى عزل رجع الى حاله ولم يأكل معه احد منهم ولو جاء بالنسب والسلوى والكلام على كيفية نصبه وعزله سذكركه في وصف لندرة ان شاء الله تعالى وما احد يرتقى هنا الى درجة سامية عن ضعة الا هذا الضابط فاما الوزراء ورجال الدولة فكلامهم متأصلون في المجد فلا يصح عندهم ان يتنزل المراتب العالية فيتلدها صبي حلاق او خادم جزار والشاهد الثاني ان بعض اهل بلادنا وغيرها يقدم عليهم وعليه رذعة لقب فيكرمونه غاية الاكرام ويوثونه مبروا اسنى ومتمما اعلى وهو مع ذلك لا يدري ان يفوه بمدحهم ولا بهجوهم . اما الفرنسيس فانهم انما يكرمون اللقب اذا كان جديرا باللقب ومن كان ذا معارف واخلاق جيدة عندهم اغناء ذلك عن حملس الجلاء ولا شك ان الفضل بغير جلاء خير من الجلاء بغير فضل وقد كنت ترجعت نبذة من لغتنا وبعض محاورة لاجل ان يطبعها بعض الوراقين بلندرة فلما انتهى طبعها كتب في صفحة العنوان انها من تأليف فلان مدرس اللغة العربية بمالطة سابقا و مترجم جميع اسفار التوراة والانجيل ومؤلف كتاب الفاريق الى آخرة فقلت له ما الموجب الى ذلك كله فقال ان الانسان هنا انما يعتبر باللقب لا باتعابه وخلصوا من تمديد الالقاب لا يباع كتاب * وكل عيلة شريفة من هؤلاء الرؤوس لباس مخصوص لخدمتهم وخدمتهم ولهم ايضا لهجة مخصوصة فيها الجملة في الكلام او كما يقال رخاوة حنك حتى ان اللاعبين في الملاهى بما كونهم بها ويسخرون منهم ولهم ايضا تنطس زائد في مراعاة جانب العرض فانهم لا يقبلون في مجالسهم من علم انه عائش مع امرأة على وجه المتعة او السفاح وعند الفرنسيس لا حرج فيه وكذلك لهم تشدد في الصدق فانهم اذا عرفوا من احد الكذب ولو مرة واحدة سقط اعتباره من اعينهم ومع ذلك فهم اكثر الناس عرضة للتدجيل والخداع ومنها ان معاشرتهم لازوا وجههم اشبه بمعاشرة الاجانب فلا يأنس احد بشئ من الدالة بينهما فبينهما من التحشم والكلف ما بين الغريب واحدهما ولا يقول السائد عن امرأته زوجتى قالت او قرينتى بل يقول قالت الست ولا يفتح رسائلها التي ترد باسمها ولا يتطالل الى معرفة احوالها و اذا اتاها زائر رجلا كان او امرأة جلس معها من دون حضور زوجها واذا كانت في حجرتهما لم يدخل عليها الا بعد ان يقرع الباب ومتى ارادت الخروج فلا

فلا تستأذنه وإنما تشعره به اشعارا ولها ان تستخدم من شئت وان تذهب الى الملاهي مع معارفها سواء كان زوجها صحيحا او دليلا في الفراش واذا زارهم احد من معارفهم او اصحابهم يأتمنونه على بناتهم ونسائهم فيخرج معهن ليلا ونهارا والغالب ان يكون خروجهما او لا الى الكنيسة ليقم لها كتاب الصلوات والانجيل والتوراة وهو من اعظم التأنيب عندهم ثم يعقبه الخروج الى الملاهي ليقم لها باب المخدع الذي تجلس فيه ثم الى المنزلة ليقم لها باب الطريق او باب العاجلة وهكذا تتوالى الفتوح وليست هذه العادة عند الفرنسيين فانهم لا يأتمنون على اناتهم ذكرا وقما تخرج البنت هناك وحدها او تركب الخيل وتسابق الرجال كما تفعل مخدرات الانكليز ولعل ذلك هو بعض الاسباب الذي من اجله تراهن ممشوقات مهفهفات فقل ان ترى فيهن بانية هذا ما عدا كشف صدورهن في الولاثم ورقودهن في النهار دون الليل الذي جعله الله سكنا وراحة للبدن واذا تزوج رجل امرأة وكان عليها دين قبل الزواج وجب على الرجل ادأؤه وانما يكون ولي مالها ومملكتها واعلم ان الرجل في عرف الشرع هنا هو ولي امر المرأة فلا يسوغ لها ان تبرم امرا خطيرا من دون اجازته الا ان عرف العادة والاستعمال يوجب للمرأة كثيرا من الحقوق والامرة على الرجال فان اخضاع النساء في كل مكان وزمان امر صعب ولا سيما في المدن الكبيرة التي يباح لهن فيها الخروج والزيارات فلا يسع الزوج الا المياسرة والملاينة لامراته وعانة نساء الكبراء هنا عند السلام اول مرة ان لا يسلمن باليد بل باشارة من الرأس وفي المرة الثانية بمس الانامل فقط وفي الثالثة بنصف الاصابع وهلم جرا وينبغي لمن اكرمته الله عز وجل بزيارة احد هؤلاء الامجاد والماجدات الا يذهب الا في وقت الزيارة المعلوم وهو بعد الضحى وان يكون مجملا باللباس الفاخر نظيف الثياب حالقا شاربيه مرجلا شعر رأسه باردا اظافيره ماسحا فعليه ساترا كفيه بجلد ابيض فان قولنا المرء باصغريه ولا تكلمك العباءة وانما يكلمك صاحبها ورب حرثوبه خلق لا محل له من الاعراب عندهم وينبغي ايضا ان لا يحدق فيما يراه من المتاع والاناث ولا يمسه باصبعه فان كل ما يكون بالمجلس حرم ولا يتدر الرجل بالخطاب ولا يكن سائلا فاذا كلمه مولى الدار ثلاث كلمات اجاب بثلاث وان زاد فليزد ولا يلزه في الجلوس وان مس كوعه فصلاة الاستغفار ويندب المثنى على البساط قورا ومن العيب

ان يذكر الانسان بحضرتهم اسم رجله او ساقه او ظهره واقبح من كل قبيح
 ان يقول بطنى حتى ان لفظة البطن بلغتهم مستهجنة ومثله الفخذ حتى من الحيوان
 وفي بعض البلاد قد تقول المرأة اذا دعوتها للاكل بطنى ملاّن ولا تستحي
 ولا يحك بحضرتهم موضعاً من جسمه ويفرض ان لا يبصق ولا يسعل ولا يخط
 ولا يفتخر ولا يتجشأ والعياذ بالله ويندب ان لا يتنخخ ويجب ان لا يشم منه رائحة
 الدخان واعرف سيدة كانت اذا شمّت رائحته في ثياب زوجها سوءاً كان منه او
 من غيره اجبرته على نزعها وقد كان دعائى بعضهم الى ان ازوره وامكث عنده
 اياماً لئسمع منى لفظ العربية وقال لى قد جئتك من مكان سحيق قصد ان تنزل
 عندى ولك على كل ما يرضيك فقلت له لكن يندبني ان تعلم انى اعطى الدخان
 وان نساء الانكليز لا يسمعن به فقال ان حول الدار بستاناً فتى اردت ان تدخن
 تمضى اليه فقلت في نفسى هذا اول المباحث على العنت ثم قلت له اذا طلمته في الليل
 فهل اقوم من الفراش واحل المحاف الى البستان قال بل تدخن في حجرتك فاجبت
 الى ذلك وسافرنا معاً فلما بلغنا منزله سلمت على زوجته فكان اول ما خاطبتني به
 ان قالت طاب نفسا من جهة تعاطى الدخان فانا ننظف الحجرة منه كل يوم
 فاستدلت من ذلك انه كتب لها قبل سفرنا في هذا الامر الجلل • واذا زارهم
 احد اول مرة ولم يكن من معارفهم فلا بد من ان يعطى الحاجب تذكرة
 مكتوبة باسمه فيناولها الخادم سيده في صحيفة من الفضة او البلور ولا يكاد
 يدخل عليهم زائران في وقت واحد وقد يكون عند البواب دفتر يكتب فيه
 أسماء الزائرين في كل يوم وفي الجملة فان معاشرة هؤلاء الرؤوس تتعب الرأس
 والرجل معاً وتضيع كثيراً من الوقت والمال وربما دعاك احدهم الى غداء
 فقام عليك ذلك الغداء ثمن عشرة اغدية • ومما يحمد من هؤلاء النبلاء انهم
 لا يضعون في اريدتهم سمات الشرف ويطوفون به في الطرق تهويلاً على العامة
 كما تفعل نبلاء فرنسا وانما يتحاون بها في اوقات معلومة وكذلك الخواتين لا يتحلمين
 بالخلي والجواهر الا في الولائم والسهرات ونحو ذلك • ومن ذلك خطابهم
 خدمتهم بالرفق واللين وان اظهروا عليهم العجرفة والعنجهية فالخدمة تقول
 لخدمتها اذا امرتها بان تناولها شيئاً هاتى هذا الشئ ان اعجبك وبعد ان تأخذه
 منها تشكرها وربما تباخت عليها في الاكل والشرب وارضتها بمثل هذا الكلام
 الطيب

الطيب فيطيب خاطرهما ومع هذا الرفق والملاطفة فلا تزال المخدمة متباعدة عن الخادمة ومظهرة لها فرق المقامين وتباين الشانين فلا تدل عليها بشيء وإذا غضبت عليها فلا تكلمها بكلام يشف عن سفاهة وخروج عن حد الادب كأن تقول لها منلا يا فاجرة يا بنت الكلب كما تقول نساء بلادنا عند اننى باعث او ان تحرق عليها اسنانها والعادة عندنا بخلاف ذلك فان المخدمة تلعن الخادمة وتشتمنها بحضرة الناس ثم تلقمها وتعلقفها وتبسط معها في الكلام وتستعين بها على تنفيذ هواها وتطلعها على اسرارها • ويحمد ايضا من عاداتهم انهم اذا استخدموا شخصا لسنة وارادوا صرفه لغير ذنب نيهوه من قبل صرفه بثلاثة اشهر وعند الفرنسيين ينبهونه من قبل بنمانية ايام كذا في غالياني فاما اذا كان مشاهرة فينبهونه قبل صرفه باسبوع او ادوا اليه اجرة الشهر وصرفوه ومن يستخدم في الميرى او عند جمعية وابلى في خدمته كان على ثلج من ان يزاحه آخر على محله ولو باجرة اقل وكل هذه المحامد معدومة في بلادنا فان الخدوم يطرد خادمه بلا ذنب ولا مكافاة • ولبعض كبراء الانكليز طبع غريب لا ادرى الى اى شئ انسبه وهو انه اذا باشر لهم احد عملا لم يخطر بباله ان خدمته له انما هى عن حاجة الجأته الى اخلاق ديباجتيه فيأتى عليه حين من الدهر من غير ان يسأله هل انت محتاج الى الدراهم او لا ولكن اسمح لى ايها الخدوم الاعز الاغر ان اترجم لك عن هذا الطلياني الذى يعلمك الالحان وعن ذاك الفرنسي الذى يعلمك الرقص والتصوير وعن ذلك النمساوى الذى يعلمك فلسفة اللغات فاني اخشى ان الاول يضيف الى كل كلمة من لغتك حرف علة والثاني ينقص منها الحرف الصحيح والثالث يبدل ويقلب فانه يرى ان لغتك فرع من لغته فلا يبالي كيف يؤدى اليك المعنى فيشكل عليك فهمه بل دعنى اكلك بلسان عربى مبين حتى يكون كتابى كله من نفس واحد وما على صماحك اللطيف الشريف من حروفه الحلقية من باس فاقول اى لذة ترى لمعلمك منهم في محبة اليك تحت المطر والثلج من مسافة ساعة فاكثر فيحوج الى اداء شلين جعل الحافلة والى ان يضغط بين القاعدتين فيه ثم بعد ان يخرج منه سالما يمشى ربع ساعة فيوسخ الوحل نعليه وتكسر الريح ظلمته ثم يأتى فيقرع الباب فيخرج خادمك اليه وينظر اليه كما يستخف به اذ يرى نعله قد ابتلت وظلمته مفتوحة فانه قد نقل عنك

بالاسناد ان كل من يعيش بيديه ويمشى على رجليه لا يكون جنثا مان اي
 متخصصا متصفا بصفات الخاصة ثم يعرض عليك ما اقدم الآتي اليك من
 دون ان يذكر اسمه وانما يذكر صفاته بان يقول بالباب رجل مبتل النعلين مفتوح
 الظلة مشعث الرأس وحينئذ تأمره بان يأذن له في الدخول فامعن النظر هداك
 الله يتبين لك ان من كانت هذه حاله كان جديرا بان يأخذ في غاية الشهر اجرتة
 وحق عرق جبينه او قرقرة امعائه من البرد لعمرى ليس هذا داب جيرتك الفرنسيس
 فانهم وان لم يؤدوا اجرة العامل لهم كما تؤديها انت الا انهم لا يغفلون عنه
 فيعرضون عليه ما يلزمه قبل اللزوم او عند وقته واقبح من ذلك انه اذا سأل
 العامل المعمول له من هؤلاء السادة اجرتة انقبض منه واقسعر ولا سيما اذا كان
 المبلغ قليلا • وهنا ينبغي ان اذكر ان الناس ما زالوا يروون عن الانكليز انهم
 اذا استخدموا مثلا معلما او غيره لا يسألونه عن اجرتة اولا وانما يسألونه اخيرا
 ويؤدونها اليه كما يطلب وانهم يوفونها اكثر من سائر من عداهم من الافرنج
 وان العامل اذا اشتغل لهم بشئ ساعة ما من النهار اغناء ذلك عن التعب
 يوما او يومين فينبغي ان تعلم ان الانكليز كانوا من قبل اختراع البواخر انحنى
 واسحنى منهم الآن فان مجئ الغرباء الى بلادهم كان اذ ذاك نادرا فكانوا
 يحتاجون الى ان يأخذوا عنهم ما ليس عندهم منه وكثير ممن قدم اليهم في
 ذلك الوقت مخرق عليهم ولبس ورجع غائما فاما الآن لما برحت الغرباء تتوارد
 اليهم من كل فج وصاروا هم ايضا يجولون في جميع البلاد ويطلعون على احوالها
 ويشهرون معلوماتهم فيها في الكتب وفي صحف الاخبار فصاروا لا يخفى عنهم
 ما يناله الغريب في بلاده واصبحوا يشارطون ويستحطون من الطلب وصار
 عندهم كثيرون من الغرباء فرجا رضى احدهم بان يأخذ على شغل ساعة شلينا
 واحدا وما بين ذهابه وايابه يضيع ساعة فاكثر وهذا الطمع في الاستغناء
 من الانكليز قد غر كثيرا من الناس فاستفزه من ديارهم حتى قاسوا في هذه
 البلاد من الجهد والعناء ما رضوا به من الغنية بالاياب حتى ان اهل ارلاندر
 قريهم من الانكليز ومخالطتهم لهم يتركون بلادهم ويقصدون احدى مدن
 الانكليز وعمدتهم تلك الاماني الفارغة ويحكى عن احدهم انه قدم الى لندرة
 على نية ان يصيب فيها الخطوة والسعادة وكان فقيرا جدا فاتفق يوم دخوله
 ان

ان عثر بدينار مرمى في الطريق فالتقطه ووضع في جيبه ثم لم يلبث ان اعترضه فقير فاعطاه الذهب وقال خذ مباركاً عليك فاني لارجو ان اجد من ضربه كثيراً • ولاهل ارلاندر حكايات كثيرة مضحكة واقوال متناقضة يرويها عنهم الانكليز تهكم بهم منها ان امرأة قالت لرجل هم بان يقعد على كرسى لا اقدر ان استغنى عن احدى هذه الكراسي الفارغة لانها جميعها مشغولة وسأل رجل منهم رجلاً آخر هل رأيت انحل من هذه المرأة فقال لعمرى لقد رأيت مرة امرأة لو انها جعلت مع هذه ومع اخرى اليها لكانت انحل منهن معا واشترى رجل ساعة بنمن غال فسأله بعض اصحابه عن سبب ذلك فقال ان لهذه الساعة فوائد عظيمة منها انى متى اردت ان اقوم في الليل جذبت حبلاً بها فتطن فاسمع صوتها وقيل مرة لرجل قد اخترع كانون يخف به نصف مصروف الفهم فقال اذا اشترى كانونين ليخف المصروف كله • وكتب بعضهم كتاباً من اميركا الى صديق له في بلاده يقول فيه اخبرك بانى قد انتقلت من المحل الذى انا فيه الآن ولولا ذلك لكنت كتبت اليك من قبل وما كنت ادرى قبل الآن اين ياتك كتابى هذا انى امسكت القلم اليوم لابلغك خبر موت خالك الحى الذى مات بغتة بعد مرض طويل لازمه نحو ستة اشهر وكان فيه يتلوى ويتشج وهو في غاية السكون ولا يتكلم بل كان يهذى ويلغو ولست ادرى سبب موته غير ان الطبيب ينظن انه مات من المرض الذى اعتراه لانه بقى عشرة ايام نفساء اما عمره فتعلمه انت كما اعلمه انا وهو خمس وعشرون سنة الا خمسة عشر شهرا ولو انه عاش الى هذا الوقت لكان مات منذ ستة اشهر (تنبيه) والآن ارسل لك عشر ليرات ارسلها لك والدك من دون معرفتى وكانت امك تريد ان ترسل اليك بقرة فلولا قرونها لغمناها في هذا الكتاب والمرجو منك ان لا تفض ختم هذا الكتاب الا بعد قراءتك له يومين او ثلاثة ذاك تكون عند ذلك اكثر استعدادا للسمع هذا الخبر المحزن • (عود الى ما كنا فيه) وقد يكون احد هؤلاء العلية مديونا لشخص فيسافر الى بلاد بعيدة من غير ان يؤدى اليه حقه وقد يكون له وكيل او صديق ولا يوكله عنه في ذلك فاذا سأل الرجل وكيله عن سبب سفره قال له قد كان يريد ان يراك قبل ذهابه لكن العجلة اضطرته الى السفر بغتة وقد صعب عليه ما جرى وهذه الخصلة اعرفها منهم في مألطة ايضا

وليست ناشئة عن طمع في اكل الدين اصالة وانما هي عن عدم المبالاة والاكتران وعن الاعتماد على صدقهم ووفائهم وعلى مقتضيات الجنتمانية ولكن ما معنى صعب عليه، هنا او حزن او اكتئاب او كد او ترح او كل مرادفها وهو لا يدري متى يعود من غيبته والرجل محتاج الى اجرة او ثمن حاجته • ومن طبعهم ايضا ان لا يسمعوها تظلم الغريب من احدهم ولا سيما اذا كان المتظلم دون المتظلم منه وان كانوا يعلمون لهذا سابقة في السطط على بعضهم واذا استلمعوا من الشكوى نورا يريهم ان كل بشر مظنة للخطأ والتقصير فانما يكون ذلك في جهة الساكى لا المشكوى منه وهذه الخلقة من جهة هي صنو تلبثهم في اللوم على ما تقدم ومن جهة اخرى هي من قبيل التعصب والزيغ • ولهؤلاء الكبراء حب للسمعة يفضي الى قسوة القلب فان احدهم قد يهون عليه مثلا ان يعطى الجمعيات الدينية ثلاثمائة ليرة في السنة وان كان لا يعلم باى وجه من وجوه البر تصرف او لاي مقصد تستعمل واذا مرت به امرأة فقيرة حافية تحمل رضيعين وعلى وجوههم سمة الانكسار والجوع لم يختلج قلبه لان يجود عليها بدرهم واحد حيث يعلم ان المرأة لا دفتر لها تكتب فيه اسماء وتنشره على الملائكا تفعل الجمعيات • ومن طبعهم وطبع العامة ايضا انهم يشتمرون من ان يسمعوها من الغريب تعيب عا. انهم ومنكر احوال بلادهم وانما ينبغي ان تنظرهم حتى يخوضوا هم في ذلك ولا شئ اسوأ عندهم من ان يفصل الغريب عن بلادهم وفي قلبه شئ عليهم • واعلم ان للسيدات هنا نفوذ كلمة بالغا جدا ولا سيما في الامور التي يشم منها رائحة الديانة والزريعة الى امالتهن وارضائن لمن حاول ذلك كما فعل بعض الطمعين هي ان يقول لهن ما اعجب ما ارى من احوال نساء هذه البلاد المباركة وما هن عليه من حسن الاخلاق والفضائل الباهرة فان نساءنا يجهلن القراءة والكتابة ولا يعرفن ما يجب عليهن لله وللعباد فمن اجل ذلك لا يحظين عند بعولتهن فعيضة الرجل مع زوجته عندنا عيشة خصام ونقار ومقت ونقص ونكد وكذا لا يمكن تعطفن عليهن وتنسئن لهن مدارس لتربيتهن وتهذيبهن فتكسبن بذلك النواب من الله والثناء من الناس وما اشبه ذلك من الكلام الحامل لهن على الاعتقاد بافضلية انفسهن فيظرن الى ذلك القائل نظر الرفيق الشفيق وينزلنه منزلة رسول من الله لانقاذ نساء بلاده من ورطة

ورطة العبه والجهل ويعتقدن انه متى رجع الى وطنه اذاع بين الناس محامدهن وهو اى ذلك الاصيل الذى فعل هذا والمقتدى به قائل فى نفسه ألا ما اهون خدعتكن على مع وجود اضابير كتب متنوعة فى خزائنكن ايم الله ان جميع ما عندكن من التحف والاسفار لا ينفعكن من دهائى شيئا فان الدهاء ملكة غريزية فى الانسان لا تؤخذ عن الكتب وهكذا ينوهن باسمه ويصبح عندهن معرزا مكرما فتدعوه واحدة للصباح واخرى للغبوق وكذلك اذا التى مثل هذا الحديث على احد من اهل الكنيسة فان بين القسيس والمرأة لا يعدم الانسان هنا ان ينفذ مخاريقه واذا اجتمعا له كان ذلك من سعده واذا كان فى خلال اطرائه هذا يتنهى ويذفر وتغرغر عيناه بالدموع كان انجع وابلاغ ثم ما عليه بعد ذلك ان يقهقه او يحبش فان للضحك وقتا والبكاء وقتا وهذا التدجيل لا يغنى عند الفرنسيس تقيرا • هذا وانى سمعت من كل من عاشرته وقد عاشر الانكليز ان يصفهم بالكبر والعجرفة ولكن قبل اثبات هذه الدعوى ينبغي ان تعلم ان الكبر على انواع الاول ان يكون ظاهر سمحة الانسان منفرا عنه ناظره لعدم طلاقة وجهه فيظن الناظر اليه انه لا يتكلف لمخاطبته والثانى عدم قبول النصيح والافقتات برأيه وقوله وان علم انه غير مصيب والثالث ان يكون طلق المحيا لين الجانب يرغب فى مجالسة الناس ولكن اول ما يبسط بساط الحديث بينك وبينه يطفق يعدد عليك محاسنه وفضائله وفواضله ومآثره ومنساقبه فاذا كان مثريا قال انى انفق فى الشهر كذا واتصدق على الفقراء بكذا وكنت بالامس مارا فى طريق كذا فسألنى فقير شيئا وحيث لم يكن معى فلوس بذلت له دينارا وانى لا يبلى عندى شئ مما البسه فأتى اخلاء على هذا وذلك وان عندى من المتاع كذا وكل يوم آكل كذا واضيف اناسا واقربهم الطرف التى يعز وجودها فى هذه البلاد فان لى عمالا فى البلاد الخارجية يعيشونها الى فى كل عام اما الكتب فلم اعز بها اذ لست املك فرصة للمطالعة لكثرة السواغل والموانع • وان كان جيلا قال ان فلانة هامت فى هواى وتركت اهلها حبا بى وآت لتحببنى او تموت وان زوجة فلان اهدت الى من التحف كذا وارسلت الى من الرسل والرسائل كذا وان ابنة فلان دعتنى الى ان اخاطبها وهى تمك كذا ولم اجبها ولا ادري كيف ينتهى بها الحال وانى مشفق من ان يلم بها

عارض من الجنون فاكون انا سبب ذلك وهو مع كل هذا الافجاس والجزاف
 بكذا مقبل عليك وباش بك ويزيدك ادناء من جنبه لكيلا يفوتك شئ من هذه
 الفوائد التي يلمتها عليك • ومن كان قد قرأ بعض اشعار وسمع من اهل العلم
 مثلا ان الشعر منقبة سنية تصدى الى اى نظم كان فاذا رأى طائرا في الجو نظم
 فيه قصيدة واذا تزوج احد في بلده نظم فيه تواريح واذا توفي احد قال قد
 غاض بحر الكرم ودكت اركان المعالي وذوت رياض الفضائل وافل نجم
 الهدى وخسف بدر المجد وكسفت شمس الفضل ثم لا يزال يطلع في عاجلة النبي
 الياس حتى يصل الى الفلك الاثير ويعدد جميع ما هنالك من النجوم وينترع منها
 كفنا لمرثيه وما ذلك الا حتى يقال عنه انه شاعر • ومنهم من اذا حفظ نادرة
 او حكاية او مسألة رأيت يتشوق بها في كل مقام ويضعها بين كل مورد
 ومصدر حتى يقال عنه ما شاء الله • ومنهم من اذا اطعمته على غلظه او ما اليك
 برأسه وقال قد فهمت قد فهمت فتقول له كيف تكتب الامة فيقول لا
 اكتب غلظا فتقول ولكن بين لي كيف تجتبه فيقول اكتب ما يكون صحيحا
 فتقول اطمني عليه فيقول حين اكتب اعرف ما ينبغي ان يكتب ولا يزال
 يكابر تصلفا وعنادا حتى تل منه • ومنهم من يزورك واول ما يستقر به
 المكان يأخذ في ان يشكو من كثرة معارفه ويتأفف من كثرة ما يدعى الى
 ولائهم ومراقصهم ويتسخط على الولاثم والمولين مع انه لم يحصل على معرفة
 هؤلاء المعارف الا بعد استعمال وسائل لا تحصى وهو يقول في قلبه ارام الله
 دولة هذه المآذب واعلى شان الآدبين فانهم انفع من الادب والمتأدبين
 واني اذهب اليهم وانال من اطيب طعامهم وشرابهم وامخرق عليهم فتارة
 يضحكون من خزعبيلاتي وتارة يحبذونني فارجع الى وكري خالي البال ممتلىء
 الامعاء • ومنهم من يكون له قفص خادم فيدعوه ان يجوربه ويلبسه نعله بحضرة
 الناس ويكلفه ان يحمل دورقه ودواته وجبته وعصاه وقصبة دخانه ويمشي وراءه
 كأنه حمار موقور وذلك حتى يقول الناس ان السيد ذو خدم وحشم • ومنهم من
 يتواضع لجليسه وسامعه ويعتذر اليهما فيقول لا تؤاخذني يا سيدي بما تسمع مني
 من اللحن فاني لم آخذ النحو عن احد ولم يطاوعني الوقت على ان اتعلم اللغة كما
 يجب وانما عرفت ما عرفت بالدربة والممارسة وهو عند ذلك ينتظر من سامعه
 ان

ان يقول حاشاك ان تلحن في شئ وانت العلم المشار اليه بالعلم والبيان واقسم
اني لم يطرق مسمى شئ ابلاغ من كلامك فانت قس الفصاحة وسحبان البلاغة
وانت الذي تروى عنه، ذوابغ الكلام وتؤخذ عنه جوامع الحكم فيا ليت لنا في
بلادنا من يأخذ عنك هذه البدائع كيلا يضيع العلم من بيننا فادام الله وجودك
ومتعنا ببقائك السعيد امين • ومنهم من يقول ان شأني يا جماعة الخير ان لا ارى
على لاحد دينا او لوما او منة ولو بت وعلى لاحد درهم واحد لم تأخذني سنة
ولا نوم وقد طالما حاولت ان اغير طبعي هذا بطبع من طبايع الناس فلم اقدر
وهو مع ذلك يترقب جماعة الخير ان تقول له نعم هذا الطبع لله سبحانه ما اكرمها
وخلائقك ما اعظمها فيا ليت الناس جميعا يقتدون بك • ومنهم من اذا كتبت
اليه كتابا تسأله عن شئ ضمن عليك بجوابه اذ يراك غير اهل له • ومنهم
من اذا راك قد قمت فاك للحديث معه او مع جليس آخر ابدد الى قطع حديثك
المفيد بان يحكي حكاية سخيفة عن نفسه او عن اهله وخانمه • ومنهم من يماريك
في الحق الصريح ولا يذعن لبرهانك وان كان يعلم انه دونك في الجدل وآخر
الكلام بينك وبينه هو ان يقول لك كذا كان رأيي وهذا هو قصدي فيوهمك بذلك
انك كنت من الزائغين وانه من الراشدين وذلك حتى يكون آخر الكلام اليه •
ومنهم من يجادلك ويعارضك فيما لا يورنه فخرا ولا يكسبه ذكرا ولكن لمجرد
اظهاره اياك غالطا فاذا سألك مثلا كيف انت وقلت له بخير وعافية قال لك ما اراك
تدرى ما العافية فاني لا ارى انرها عليك فتقول له كيف واني والحمد لله متمل
بصحتي ويمرئني ما آكل واشرب ويهشني منامي وجلوسي فيقول ما هذا معنى
العافية عند المحققين وانما هي ان تمشي منتصبا غير لاوعلى احد او شئ تراه عن
يمينك ولا شمالك موازنا لحظواتك شامخا بانفك مصعرا خدك الى آخره ولو جثته
بجاليوس والفيروز اباي ليطلعه على حد العافية وتعريفها لم يقنع منك •
ومنهم من اذا غاب يوما عن وطنه قال لمن يجهل حاله ان ابي كان رئيس المنسئين
في الديوان وعي كان وزير الامير وخالي سميره واني انما قدمت بداركم للتنزه
والفرج وما شبه ذلك ومن هؤلاء المفجسين من اذا لم يجد مجالا في نفسه للمدح
افتخر بابيه او جده او عمه او بداره او ببلدته واعتقد ان كل شئ يضاف الى
ضميره يجب الناس وقد سمعت مرة واحدا من هؤلاء المفخرين يقول قد جرح

اصبى بالامس فخرج منها دم احرقان اعجب وعجب جميع الحاضرين • ومنهم من يستفزه العسر والضنك الى ان يغادر وذهبه فيتصد امير بلدة او شيخ قرية ويلثم يديه ورجليه ويتضرع اليه ان يؤويه اياما ريثما يجد مقاما فاذا رأته والحالة هذه وسأله عن مقره اجابك بان الامير فلانا دعاه الى النزول بداره وامسكه عنده ولا يريد ان يطلقه كلفا به • ومنهم من يروعك بخطه الشديدة فتظن ان المكان ترزل منها او بتجشئه الذي يسمع له صد • ومنهم من اذا حيطه في الضحى شجر وزمجر وفتل شاريه وزفر واوهمك ان الوقت سحر لا ينبغي فيه اللقاء والسمر وقس على ذلك من يزكى حرفته ويقنح بصنعتة الى ما لا نهاية له فاذا تقرر ذلك فاعلم ان كبر الانكسار هو من النوع الاول وهو انك تنظر فيهم الانفة وكلوح الوجه ولكن متى خاضت منهم احدا تبين لك انه لا فخور ولا فياش فن كان دخله في العام ١٠٠٠ ر ١٠٠٠ ليرة او همك انه مثلك اذا كنت مثلي ذا هم في المعيشة ونصب ومن يكن عنده الفا كتاب مثلا فاذا قلت له ما اكثر كتبك قال لك لعل اسرفت في شرائها وما كان ينبغي لي هذا مع انه لو قال لك اني قادر على شراء ضعفيها لكان من الصائقين ومن كان منهم يحكى البدر جالا كقول شعرائنا ان يغس بكلمة تدل على انه فتن امرأة بحسنه ومن يكن مضطلعا بالعلوم والفنون فاذا سأله عن شئ لم يجبك الا بعد التروي ولا ينسب اليه حل المشاكل واستخراج المجهول واذا سأله عن شخص يدعى العلم ويؤلف ما لا يرضى به العلماء قال لعله استعجل فيما الف وام تمكنه مراجعته وقد يكون مع المستعجل الزلل فلا يعي عن ان يجد له عذرا يستر به عيبه ومن يكن في اعلى المراتب لم يستنكف ان يجيب من يسأله ايا كان فقد تبين لك ان كبرياء عليه الانكسار انما هي في وجوههم اكثر منها في السننهم وقلوبهم وان وسم الناس اياهم بالجرفة مطلما لبس في محله الا اني لا اني عنهم الاتصاف بعزة النفس وترفيعها عن ان تدل لغيرهم وهو من الخلائق المحموده لدى جميع الخلائق • فاما كبر السفلة منهم فهو ابداء العبوس ايضا مضافا اليه عدم التادب في الكلام والحركات ونبرهم في الخطاب وسوء الضحك واللقاء والمتقلب وهم جرا • هذا وكما اشتهر عن الانكسار الكبير كذلك اشتهر عنهم الصدق ولكن ينبغي ان تعلم ايضا ان الكذب على انواع احدها نى مائع وهو الذى اتصف

انصف به اهل البلاد الشرقية وذلك كأن يعدك الانسان بالحضور في الساعة
 الفلانية ثم يخلف او يعدك بقضاء حاجة وفي قلبه ان لا يقضيها او ان يسافر الى
 استانبول ويقول ان مؤلف كتاب الساق على الساق قد ضغط بين عاجلتين
 فانكسرت ساقاه جزاء له بما عنون كتابه به او ان تكون قد ارسلت له كتابا
 فينكر وصوله تملصا من لومك له او ان يقول لك قد اطريت عليك البارحة عند
 فلان فهو يبلغك السلام ويدعوك الى منزله فاذا سرت اليه وجدت الامر
 بالعكس او ان يقول قد نويت ان اسافر غدا الى المشرق ثم يسافر الى المغرب
 وغير ذلك مما لا يجدى نفعا • والثاني ككذب مطبوع ناصح جامد وهو ما
 تستعمله تجار الافرنج فيكتبون مثلا على بضائعهم انها من انفس الاشياء وانها
 صنعت باختراع آلات جديدة احدثت عن طول تجر في علم الهندسة والكيمياء
 وان لحة هذا الثوب من الهند وسداه من الصين او انه سلطاني او ملكي
 او اميري او وزيري او مولوي ونحو ذلك فهذا الشعار لا تأنف الانكليز من ان
 تتردى به لجر منفعة به اليهم بل هو المراد عندهم من التمدن واذا علموا ان جيلا
 امهر منهم في شيء نسبوا اليه ذلك الشيء الذي يصنعونه هم ترويجا له • والثالث
 ككذب متبل حريف محرق وهو التغرير والنميمة والافساد بين محبين او خدامين لؤما
 وحسدا وهذا ايضا يكاد ان يكون من خصوصيات بعض المشرقيين • ثم ان الغنى
 وان يكن شأنه ان يجتذب اليه قلوب الناس في جميع الامصار والاعصار وان
 التجميل بالالباس يورث المرء هبة وجلالا حيثما كان وعلى ذلك قول بعضهم لقد
 اجتهدت في ان اذطر الى الغنى بالعين التي انظر بها الى الفقير فلم اقدر او كما قال
 الفاضل كولد سميث ان الغنى مرادف الحرية في كل مكان الا ان الغنى عند الانكليز
 شعار على الجدارة والاستحقاق لكل شيء فالغنى عندهم يمكن له ان يرفع دعواه
 الى مجلس المشورة ويطلق امرأته لعله الزناء حقيقة او ادعاء والفقير لا يمكنه وله
 ايضا جدارة بان يكون ضابط البلد ومن اعضاء مجلس المشورة المؤلف من
 نواب الاقاليم وان يشتري وظيفة من الديوان في العساكر البرية فيكون قائد
 مائة او الف او عشرة آلاف وان يدخل في المنتديات اى الكلوب وهناك يجتمع
 بالعظماء وذوى الشرف فاذا رأوه على تلك الحالة لم يلبثوا ان يدعوه الى منازلهم
 فان كان عزبا خطب اليهم احدي بناتهم او اخواتهم او كان متزوجا زوج

ولده من احداهن فاستقطر بانبيق ديناره دمهم الشريف في دن نسيه ويا لها من غبطة وله ان يتوسل الى نجى صاحب الملك بالهدايا والطرف فيستنزل له وعل جلاء شريف من شرفه ولو كان يهوديا وله استطاعة على ان يستعمل امهر فقهاء الشريعة في تبرئته ان كان معيبا ومدعى عليه او استخلاص حقه ان كان مدعيا فيصيرون له النور ظلما والظلام نورا وان يستخدم ككتاب الحوادث فيشيدون بذكره وينوهون بمناقبه وان يستخدم احذق الادباء لحفظ صحته العزيزة وان يحضر طعامه وشرابه من جميع البلدان القاصية انما في بدنه وتصفية لذهنه وان يضع اولاده في احسن المكاتب الى غير ذلك من المنافع التي لا يحوزها الغنى في بلادنا ومن ليس له غنى في هذه البلاد فلا يحسن نفسه من الناس هذا وقد جرت العادة في كل مكان بان السعيد الغنى لا يزال يبدو للناس فتى فاذا مات وهو ابن خمسين سنة مثلا اسفوا عليه وقالوا واحسرتاه فقد مات عبلة ولعل بعض حساده قد سمع وكذا لو تزوج في ذلك السن او سافر استحسنوا فعله ولو انه لخمى كان يصيف في مشى ويشتو في مصيف مدة طويلة ثم جعل المصيف مشى والمشتى مصيفا لقال الناس ان رأى هذا السعيد ما زال رشيدا فان الزمان قد انقلب والحال حال فكل شئ يليق به بخلاف الفقير الشقى فانه اذا مات وهو كهل قالوا لا بد لثله ان يموت واذا سافر او تزوج عرض نفسه لاستهزاء الناظر والسامع به وما قلناه في منافع الغنى هنا لا ينفي منافع العلم على الاطلاق فان من برع عندهم في علم وان كان وضع النسب فلا يعدم ان يرى من يرفعه من خوله ويستفيد بعلمه غير ان العلم عندهم لا يكون بمعرفة قواعد النحو والصرف او بنظم قصائد وانما هو مطالعة اللغتين اليونانية واللاتينية ومعرفة ادبهما ومعرفة التاريخ والفلسفة والهندسة والرياضيات فمن حصل ذلك فقد قبض على مفتاح الرزق ومن اخترع شيئا مفيدا فقد استغنى به وذلك اما ان يبيعه لاحد من الاغنياء يجعل وافر واما ان يستبد بصنعه فلذلك كان العلم في اوربا دأما مورد الاستنباط والابتكار بل كثير منهم يحرزون به لقب الشرف • ومن عادة الكبراء والنبل ان لا يورثوا جلاآهم واملاكهم الا لابن البكر فان شاء اعطى اخوته وان شاء حرمهم ففي هذه الحالة يلتزم الاهل ان يقوموا بكفالتهم واذا كان البكر مسرفا فبذر اموال ابيه اشترى

اشترى له أصحابه أو اهل البلاد ولاخوته وظائف من الدولة أو تبعثهم الى البلاد الخارجية والحكمة في توريث البكر دون غيره هو ابقاء الجلاء في العيلة وصون ناموس البيت واذا تقدم الابن بنت بقي له حق اللقب والوراثة هذا اذا كان التراث عقارا فاما اذا كان حصص مضاربة مثلا أو اشياء متقلة قسم بين الاخوة ومما يحمد من الكبرياء ومن ذوى المراتب السامية هنا انهم لا يتدخلون في التجارة ومن منكر عا. انهم انه اذا دخل احد على جماعة من هؤلاء العلية ولم يكن يعرف منهم غير واحد فقط لم يسلم الا عليه ما لم يعرفه بهم صاحبه ويقول له في شأن كل منهم هذا فلان الا ان هذا التعريف لا يلبث ان يصير تنكيرا فان من تعرفه في المجلس لا يلتفت اليك اذا رأيته في الغد في محل آخر فاما اذا دخل على قوم ولم يكن يعرف منهم احدا فلا يحى مطلقا بخلاف عادة الفرنسي فان من يدخل على جماعة ايا كانت يضع يده على رأسه أو ينزع برنيطته احتراماً لهم وكذلك اذا خرج وان لم يكن يعرفهم ومن تعرف عند الانكليز باحد افراد العائلة مثلا وتردد عليه فان لم يعرفه بابيه وامه واخوته فلا يسلم عليهم اذا رآهم داخلا فلا يلام على تركه ولا يحمد على فعله واذا استخدم احد جارية ولنى اباهما وامها لم يسلم عليه هذا وقد تقدم ان الغنى يمكن له ان يطلق امرأته برفع دعواه الى مجلس المشورة فان الطلاق من الامور الصعبة هنا ولا يمكن رفع دعوى مثل هذه الا بمصاريف وافرة لا تنقص عن اربعمائة ليرة الا انه بعد تحرير هذا الكتاب ابيح الطلاق للعامة من دون مصاريف فان مجلس المشورة رأى ذلك اصلحة للرعية وهو الرأى الاسد • وبقي هنا ان نقول ان رؤية الزوج زوجته مع رجل اجنبى في حجرتها تكفى في اكثر الاحوال لاثبات الزنا من دون رؤية الميل في المكحلة واربعة شهود عدول كما يقتضيه الشرع الاسلامى وهذا من دون هذا الوجه شديد فان الطلاق لما كان في الشرع مباحا ضيق على الرجل في اثبات الزنا على زوجته وحيث كان محظورا في شرع النصارى الا لاجل الزنا فسمح للرجل في اثبات الزنا عليها بمجرد خلواتها مع الرجل • ومن الغريب هنا انه قد جرت العادة عند العامة بان يبيعوا نساءهم بغير لعلم امكان طلاقهن وصورته انه اذا شعر الرجل بان زوجته تحب آخر عرض عليها الانتقال الى محبوبها فاذا تراضيا اخذها وباعها له بمحضر شهود وقبض منه ما يؤذن بصحة

البيع وتخلص بعد ذلك من تبعاتها وفي اخبار العالم ما نصه رجل باع زوجته في حانة لرجل بخمسة سليلات ونصف وقبض الثمن بحضوره شهود وذهب بها المشتري ولما كان الغد ندم زوجها على ما فعل واستقال في البيع فلم يقل • وذكر ايضا فيه ان ثوماس داي تزوج امرأة في سنة ١٨٤٩ فاساء عشرتها فتركته وعلقت برجل من سكوتلاند اسمه روبرتصن ففاوض زوجها على ان يشتريها منه فاجتمعا ذات يوم في حانة وباعها له الزوج بحضوره شهود بنصف بنت من البن تقاسموه جميعا • وفيه ايضا ان ثوماس ميدلطون باع زوجته ماري ميدلطون لفيلب روستنسن بشيلين وربيع من الجمعة وتراضيا على الافتراق الدائم ما داموا حيين • وهذه العادة وان تكن غير مباحة في احكام الدولة الا انه مسكوت عنها كما سكت عن اباحة الزنا للومسات فان الزنا هنا معلوم لارباب الاحكام لكنه غير مباح وكثيرا ما يقوم السم مقام هذا البيع فان التخلص من الازواج به اكثر منه بالطلاق او البيع • ومن عاداتهم في الزواج ان البنت لا تتزوج الا من كان مساويا لها في السن او كان اكبر منها بسنتين او ثلاث وفي ذلك شطط اذ لا يخفى ان المرأة متى بلغت الاربعين سنة لم يبق فيها من القوة والنشاط ما يبقى في الرجل ولا سيما اذا كانت متناقا نعم ان النساء هنا لا يعجل فيهن الهرم فان من يكون سنها ثلاثين سنة تبدو كن سنها عشرون في بلادنا غير ان هذه الصفة تراعى ايضا في جهة الرجال ايضا وفي بلادنا لا تثريب على من بلغ الخمسين ان يتزوج بذت عشرين وهذا ينسدر هنا جدا الا لسبب عظيم وذلك كأن يكون الرجل اشرف من المرأة واغنى فترغب فيه لتشاركه في شرفه وغناه اذ كانت هاتان الصفتان عند الانكليز افضل من جميع المناقب ولا سيما اذا روى في ذلك مصلحة تربية الاولاد وفي هذه الحالة فلا مانع ايضا من ان يكون الزوج شيخا قعلا لملها ان حرارتها لا تلبث ان تذهب ببرودته فتستولى على الميراث واذا خطب احد امرأة ثم بداله ان يعدل عن الزواج لغير موجب شرعى غرم لها مبلغا عظيما ولا حرج على اليهود ان يتزوجوا من النصارى ولللاب ان يجبر ابنته على الزواج بمن شاء اذا لم تبلغ حد الرشد وهو عندهم ٢١ سنة وبعده ليس له عايتها من امرة الا بالمعروف والنصيحة ولكن كثيرا ما تهرب البنت من تحت حجر ابيها وتتزوج من شاءت وان حرماها من الميراث واذا خرجت من حجره بعد بلوغ رشدها لم يبق لوالديها استطاعة

استطاعة على ردها ووصية الموصى قبل بلوغ ذلك السن لا يعمل بها وللذكر ان يعقد الزواج عند بلوغه اربع عشرة سنة وللنبت عند اثنتى عشرة وما دام الولد دون سن الرشد فعلى الوالد ان يقوم بنفقته وبعد ذلك لا يلتزم بها واذا تزوج الولد قبل هذا السن فلا ييه ان يحرمه من ميراثه ومتى تزوجت المرأة انتقل جميع ملكها الى حوز بعلمها ولا يمكن لها ان تستدين على اسمها ويجبر هو على وفاء دينها ولا يحل للرجل ان يتزوج اخت زوجته وقد كان لرجل زوجة وله منها عدة اولاد فلما حضرها الموت اقسمت على زوجها ان يتزوج اختها بعد موتها لتربي اولادها فتزوجها فلما علم ذلك فى ديو ان الحكم فرق بينهما فسألت من اخبرنى بذلك عن سبب هذا الحظر لانه غير مبنى على مصلحة وقلت ان كان تحريره ورد فى التوراة فقد ورد فيها تحريم امور كثيرة استحلها النصارى فلاى سبب اضربتم عن تلك وتمسكتم بهذه فقط فقال المصلحة فى ذلك هو ان لا يتوصل رجل واحد الى احرار جهازين من بيت واحد فقلت ولكن الفقراء يتزوجون من غير جهاز ولا ميراث فقال ان الشرع هنا ملحوظ فيه مصلحة الكبراء • ولا بد ان تسهر الخطبة فى الكنيسة ثلاث مرات متوالية فى الآحاد واذا مست الحاجة الى الزواج بدون اعلانها غرم الرجل ضعفى النفقة وهى فى الغالب خمس ليرات اما فى سكوتلاند فان الزواج يتوقف على شاهدين فقط فلذلك كان كثير من الانكليز يذهبون الى هناك ليتزوجوا ثم يرجعوا ويقال ان مجلس المشورة بهم بان يعين اقامة احد وعشرين يوما هناك قبل الزواج تقايلا من استعمالها ومن تزوج امرأة زوجها حتى غرم ونكل وللرأة المتزوجة عند الانكليز احترام اكثر من غيرها وان تكن اصغر سنا من غير المتزوجة فاذا خرجن من مجلس الى موضع الاكل مشيت المتزوجة قبل تلك واجلست فى احسن موضع ولا بد للمتزوجة ان تلبس خاتم الزواج فى بنصر يدها اليسرى ومن لم يكن لها خاتم لم تحسب متزوجة وان كان لها خمسة بعول ومن الغريب انه عند عقد الزواج يلتن القسيس الرجل ان يقول للمرأة حين يضع الخاتم فى اصبعها بهذا الخاتم اتزوجك وبحسمى اخدمك ولا معنى للباء فى قوله بهذا لان الخاتم ليس آلة للزواج ولقطة اخدمك لا يفهمها احد من العامة بهذا المعنى وعند تناول طعام العرس تلبس العروس نيايا بيضا وتقعّد النساء على المائدة وعليهن برانيطهن وعادة الاغنياء منهم ان يعتزل

الرجل بعروسه بعد عقد الزواج فيقيم معها شهرًا في خلوة عن الشغل والاهل
والاصحاب وتسمى هذه المدة عندهم قر العسل ولا يكاد المثرى يتزوج الا
مثرية مثله واذا تزوج الرجل امرأة ووضعت عنده بعد شهر الزم بتبني الولد
وتربيته وان يكن من غيره وكذا لو علم انه عائش منلا مع مومسة وولدت ولدا ومن
ثبت عليه انه افتض بكرة فولدت منه اجبر على ان يؤدى اليها في كل اسبوع
شلينين ونصفا في الاقل الى ان يبلغ الولد تسع سنين اما الافتضاض قسرا
فيعاقب عليه بالتغريب والنفي وكان يعاقب عليه في عهد وليم الاول بسمل العينين
وفي عهد الصكسونيين بالوت • ومن العجيب ان الوالدين من الانكليز اذا كانا
قبيحين نأى اولادهم ملاحا فاذا دام هذا الاسناع حتبة فلا يرى فيهم بعد
من قبيح والظاهر انهم احسن تربية للاولاد من غيرهم فانهم يغسلونهم بالماء
البارد في كل يوم اذا كانوا اقوياء او بالفاتر اذا كانوا ضعفاء ولا يقيمونهم
حتى يمتنعوا من الحركة كما يفعل في بلادنا وانما يشدونهم بحزام فقط وبعد
نصف سنة يعودونهم على الاكل الخفيف مع اللبن فلا نأى سنة على الطفل
الا وهو يلتقم كل شئ ولا يكاد طفل يحدث في ثيابه او يفهم من البكاء كما يكون
عندنا غير انى كثيرا ما رأيت الامهات هنا يسقين اطفالهن المزر او شرابا
غيره لينتقمهم ويعلمهم ايضا الفاكهة والدسم ويدخلن بهم في الزحام واما كن
الخصام واللكام ومما يحمد من تربيتهم انهن يكلمنهم بالكلام المتعارف من دون
لغة ولا كسر كما تفعل نساء بلادنا بل ربما حكين لهم حكايات وهم لا يعقلون
ويخاطبنهم بما يخاطبن به من يفهم ويلتقمهم اشياء كثيرة تعودهم على الفهم
من صغر والذي ظهر لى ان اطفال الانكليز اذكى وازكن من اطفالنا وبعكس
ذلك المراهقين وفي الحقيقة فان الام في بلاد الفلاحين لا تربي الا ولدها البكر
والباقون تربيتهم اخوتهم الاكبر فالأكبر وفي الجملة فان نساء الانكليز مناتيقي
جدا واتفق ان امرأة ولدت اثني عشر توأما وثمانية فذوذ قال في ابجدية
الاولقات قد حدث غير مرة ان امرأة تلد اربعة اولاد في بطن واحد فاما ولادة
خمس فلم يحدث الا مرتين احدهما في اوستراليا سنة ١٧٧٣ والثانية في
لندرة سنة ١٨٠٠ قال وفي سنة ١٧٨٣ جعل شبه ضريبة على ولادة الاولاد
فكان على الدول اداء ثلاثين ليرة وعلى احد العامة اداء شلنين اه وبجني
لطف

لطف الاولاد هنا ولا سيما حين تكون ثيابهم قصيرة وسيقانهم ظاهرة في اوان
البرد • وعادتهم في الجنائز ان يلقوا الميت اسبوعا في البيت قبل دفنه وعند اخراج
جنازته يشبهها رجال يلبسون على رؤوسهم مناديل سوداء معقودة فوق برانيطهم
ولكل ميت حداد معلوم ولكل دفنة سعر ولاكن لا يخمشون عليه وجهها
ولا يشعثون شعرا واذا اقيمت الجنائز في محل عند المقبرة ليلة واحدة ادى عليها
خمس شلينات زيادة على الرسم المعتاد فقلت لمن طلب مني ذلك ان الحى يرقد
على فراش وثير ليلة ويوسخه ولا يؤدى اكثر من شلين واحد فكيف
تطلب على طفل في تابوته خمسة فقال ان بين الحى والميت فرقا اما الكبراء
فانهم يقولون جنازتهم اكثر من اسبوعين اشارة الى انه غير جدير بان
يفارق هذه الدنيا ومن الغريب انه اذا مات احد منهم غريبا فلا بد من ان
يعيدوه الى وادنه ليدفن فيه فيا ليت شعري ما نفع الميت لبلاده او ما نفع بلاده له
ولا يدفن ميت الا بشهادة الطبيب الذى عاجله او اجهز عليه وذلك لكثرة
ما يقع عندهم من القتل بالسهم والواقع ان الفرنسيين اكثر احتراما للجنائزات
من الانكليز فانهم يمسحون ورأها ايا كانت وهم خاشعون حاسروا الرؤوس وحين
تكون في البيت يوقدون حولها الشموع ليلا ويجعلون لها حارسا • ومن عادتهم
في العيادة ان يستعضلوا داء المريض لاهله ايا كان ويلتوا في قلوبهم الرعب
بقولهم مثلا ان فلانا منى بهذا الداء منذ ايام فأت فانه داء معضل ولا سيما في
هذه الايام فكنت كثيرا ما اذكر ما حكى عن ذلك الرجل وقد مرض فعاده
بعض اصحابه وقال له ما تشكى قال وجع الركبة قال انها والله كانت علة ابي فأت
منها واذا اصاب احد بما يخاف منه العدوى فلا يعودونه اصلا وقد كان لى
طفل اصاب بالسعال فلما كنت اذهب الى منزل الدكتور لى على عادتي كانت
زوجته تجنب مواجعتي فساءنى ذلك اولا حيث لم يكن يخطر ببالى ان السعال
يحمل من المبتلى به وينقل الى صدور الجيران فلما علمت عموم ذلك هان على مع
ان الدكتورية المذكورة كانت على غاية من الورع والظاهر ان جميع
الافرنج يجزعون عند المصيبة ولا يفوضون امرهم الى الله وان تلبسوا بالعبادة
وانصفوا بالجرأة على انهم لا يكونون يفجعون بموت احد الا ويناسونه فالاستسلام
لقضاء الله انما هو من خصوصيات المسلمين وكفى بلفظ الاسلام دليلا عليه وفي

هذه القرى لا يوجد اطباء، ولا دوائية وانما يكون ذلك في بعض البلدان المجاورة لها حتى ان ما يوجد هناك منهم ان هو الانفاية فلو سكن احدهم في احدى المدن الجامعة لما نال بعلمه رغيفا • وعاداتهم في المآدب ان يجلس الضيوف على المائدة ويجلس صاحبة الدار في الصدر وتأخذ في ان تقطع لهم شرائح اللحم رقيقة وتناول الصفحة للخادمة فتضعها الخادمة امام الاكل ولو حصل نجس حصص من تلك الشرائح لما شبعنا والاكثر من اكل الخبر عندهم مظنة الهمجية وقد ادبت مرة عند احد اعيانهم فلما جلسنا على المائدة اخذت الفوطاة ووضعتها على حجرى وكانت كسرة الخبر مخبأة فيها فوقعت وانا لا ادري واستحييت ان اطلب غيرها وهم ظنوا انى تنكزت في بلادهم فلما تحركنا للقيام اذا بالكسرة لاصقة بنعلى فتذكرت حينئذ قصة ذلك السائل الذى طرق باب بخيل فرمى له بكسرة خبر اخت كسرتى هذه التى انتعلتها فاخذها وتأملها ثم طرق الباب مرة اخرى فقال له صاحب الدار قد اعطيناك فلم لا تصرف قال قد اعطيتونى هذا الدواء ولم تقولوا لى كيف استعماله واذا كان على المائدة لوان من الطعام او ثلاثة كأن يكون مثلا شواء من البقر ودجاج خيرتك الست ايها تريد فاذا تناولت من لون ستمطت شفعتك من الثانى ونذر ان تعطيك منهما كليهما ولا يمكن ان تعطيك شيئا او بالخرى من شئ الا اذا استطلعت رأيك فيه اولا ولا يمكن للمدعو ان يعيده الى زجاجة الخمر ويصب منها فى قدح بل لا بد من ان ينتظر السائد او الست ان يعرضا عليه وكذلك سائر المأكول والمشروب ويحزننى ان اقول انى كثيرا ما رأيت صاحب المنزل يقطع للضيوف اللحم ثم يستكثره عليهم فيضع فى صحفته ما استكثره فربما امتلأت من تلك القطع وكنت ارى المدعوين معى يتكلفون الاكل نكلفا و يتبلغون بما لا يكاد يكفى الصبى فيبقى ثلاثة ارباع الطعام كما هو واذا برد عندهم اللحم المطبوخ فلا يأنفون من اكله كذلك اسبوعا فلماذا ترى المحضر على المائدة كثيرا بالنسبة الى مقدار الاكلين وكية اكلهم وقد سألت المرأة التى كنت نازلا عندها ذات يوم قتلت لها نشدتك الله الا ما صدقتنى هل انا من الاكلين المفرطين قالت لا بل من المقصدين قلت قد دعيت غير مرة ورأيت الجماعة المدعوين معى لم يأكلوا جميعهم قدر ما اكلت انا مرتين فقال لى ان الدعوة هنا انما هى صورة فقط فان

فان المدعوين يأكلون في بيوتهم قبل ان يحضروا الوليمة فاخذنى العجب من ذلك واطفقت افكر في مخالفتهم في ذلك لعادتنا فان المدعوين عندنا كلما اكثروا من الاكل زاد سرور الداعى بهم لاعتقاده انهم احبوا طعامه واذا قلت لواحد من الانكليز ان فلانا دعانى الى الشاى قال لك انه هو كثير الفضل وما اشبه ذلك هذا عند الوسط من الناس فاما عند العظماء والزعماء فان الخادم يطوف على الحاضرين بآية الشراب ويخيرهم اى نوع يشربون وربما شربوا المزر اولاً ثم قليلاً من الخمر حتى اذا فرغوا من الاكل قامت النساء وانفردن في مقصورة وبقيت الرجال على المائدة وحينئذ تتداول كؤوس الشراب والمناقلة على التل بغير محاشاة وربما قضت الرجال ساعة او ساعتين على الشرب والنقل وساعة من قبلها على الطعام وانما تقوم النساء خوف ان ينهك احد الجلوس في الشرب فينطق بما لا يليق ولا بد في الموائد الخافلة من وضع السمك المسلوق اولاً فاما الشورية فهى عبارة عن حسا الفلفل وقد رأيت على هذه الموائد البطاطس يأتون بها في صحاف مفضضة وتحتها فوط من الكتان الرفيع فلم ادر ما المراد بهذا الاحتفال والتنطس فان الحسيس خسيس حتماً كان والكاب كلب وان طوقته ذهباً واذا فرغ الآكل مما لديه ولم يرد الزيادة وضع السكين والشوكة متوازيين واذا شرب الشاى وضع الملعقة في الفججان وعند صف ادوات الشاى تقوم الست ايضا وتجلس في الصدر وتسال من حضر هل تريد ان تشرب شاىا فيقول نعم ان شئت فتقول أنشربه مع السكر فيقول نعم ان شئت فتقول ومع الحليب فيقول نعم ان شئت فتقول ونأكل نصف هذه الكعكة فيقول ان شئت فتقول وربيع هذه الفالوذة فيقول ان شئت وكلما اكرمه باحدى هذه المركبات قال انى اشكر وبالجمله فان الدعوة عندهم ضرب من الاسر وقد ادبني او ادب طربوشى احد الوجوه في كبريج الى ان اشرب الشاى معه فقال هل لك في ان تشرب الشاى معنا في احدى الليالى ولكن بعد ثلاثة اسابيع قلت نعم حتى اذا سرت اليه لم اجد على المائدة غير الصنف المعتاد منه مع انى كنت اظن ان توقيت تلك المدة انما كانت جليبه من بعض البلاد • واذا كانوا مجتمعين في مجلس وارادوا الخروج الى محل المائدة اخذ الرجل بذراع زوجته غيره واجلسها على الكرسي واخذ غيره بذراع زوجته واذا بقيت واحدة بغير زبون كان ذلك داعياً

لحجلها • ومن عادة النساء على الموائد ان يكشفن عن صدورهن واكتافهن وانصاف اعضاءهن وهذه المواضع احسن ما يرى فيهن ومن عادة المجائز ان يترنن بما لهن من الحلى والجواهر والشعر العارية وليس ذلك من عادة البنات قبل زواجهن فترى البنت الباهرة يجنب امها السعلة عطلا وتلك متبجعة بالقلائد والحواتم والاسورة والسلاسل الا انهن في غير الولاثم والسهريات لا يتحلين بشئ ومن الادب عندهن ان يأكلن واكفهن مستترات بالجلد الابيض ويمضغن ما يأكلنه مضغا خفيا فان فتح الفم للالتقام وشدة لوك الملتقم من اكبر العيوب والذي يظهر لي ان نساء الريف بالنسبة الى برودة قطرهن وصحة ابدانهم قليلات الاكل جدا ومع ذلك تراهن عبلا سمانا بخلاف نساء لندرة وقلما تأكل احداهن شيئا من دون شراب معه او تشرب من دون اكل وربما تغدى احداهم بغير شراب فاذا فرغ شرب الشراب وحده، وعامة الانكليز يطبخون طعامهم بلا ملح وانما يخلونه عند الاكل ويكثر من الابازير منتهى الاكثار ولا سيما الفلفل والخريل فان احداهم ليضع في صحفته ملعقة من كل منهما والفلاحون يأكلون الحلواء قبل الخليخ فهم في هذه كالترك ويشربون الحليب بالملح والفلفل وبعضهم يخلط الدقيق بقليل من السكر ويأكله وقد دعاني بعضهم الى ان اشرب معه القهوة وكان يأكل معها فجلا ورشادا فعرض على ذابت فتعجب من ذلك ومع افتقار هؤلاء الفلاحين وشدة احتياجهم الى اشياء كثيرة لادفء مما نستغنى نحن عنه في بلادنا وكذلك كايقاد النار للاصطلاء مدة ثمانية اشهر في السنة وكابس الجوارب والشعار من الصوف فقد القوا شرب النساى الفة شديدة حتى لم يعد ممكنا لهم ان يستغنوا عنه فيقال ان مصروفهم منه في العام يبلغ نحو ثلاثين مليون رطل ومصروف جميع الممالك يبلغ نحو اثنين وعشرين مليونا وقد جلب منه في العام الماضى سبعة وثمانون مليون رطل واول ما عرف هذا النبات في اوربا كان من اهل هولاند فانهم جلبوه من الهند وذلك في سنة ١٦١٠ وكان استعماله اولا في غاية الندرة فكان يباع الرطل منه من ست ليرات الى عشر ثم لما استقرت جمعية الهند في تلك البلاد صاروا يجلبونه منها فرخص سعره وكثر استعماله وضرب المكس عليه في امريكا حين كانت ملحقة ببلاد الانكليز كان من بعض الاسباب التي هيئت الاهلين الى النزاع والحرب وقد حاول

حاول الافرنج تنبيته في بلادهم فلم يتهبأ لهم وجميع الاطباء يقولون ان شرب الشاي غير نافع بل مضر ضررا بليغا بمن في عصبهم استرخاء ولا شيء اقر لعين صاحبة العيلة من الانكليز من ان تشرب الشاي مع اولادها بقرب الموقد ولا سيما اذا كانت مغلاة الماء تغلى ويسمع لها نسيش والبخار صاعد من بلبنتها وهذا هو اوفر الهناء الذي يعبرون عنه بلفظة كفويرة ثم ان الانكليز عموما يفتخرون بالهسپتاليتى وهى قرى الضيف وبر الغريب والحق يقال انهم في ذلك اكرم من الفرنسيين وخصوصا اهل الرستاق دون اهل المدن الجامعة فان همهم بتحصيل الكسب شاغل لهم عن الكرم الا ان ما دهم منغصة بكثرة التحشم والتكلف الذى لا معنى له وقد جرت العادة في المآدب الحافلة ان يشربوا الشراب على ذكر مشاهيرهم وزعمائهم او كما يقولون على صحتهم او بالخرى يشربون صحتهم قال فلتير الظاهر انا انما نشرب الشراب لاجل صحتنا لا لاجل صحة غيرنا وكانت عادة اليونانيين والرومانيين ان يشربوا ويقولوا كلاما يكون داعيا لان يشرب غيرهم معهم لا ان يقولوا انا نشرب على صحة فلان وكانوا يشربون في الاعياد تذكارا لاحدى الخطايا ومن هنا جرت العادة عند الانكليز الذين يحبون تجديد كثير من عادات الرومانيين ان يشربوا على ذكر احدى الخواتين ويقال لها طوست وقد يقع الجدل بينهم والمناقشة هل تلك الست جديرة بذلك او لا ومن الامور المهمة عندهم ان يشربوا على ذكر ولى العهد الذى له حق في الملك فان ذلك دليل على ككون الساربيين من حزبه قال برون استنف كورك وكان ممن يكرهون الملك وليم بودى لو كنت اسد جميع تلك الزجاجات التى شربت لمجد هذا الملك وفي سنة ١٧٠٢ كتب منشورا الى اهل ارلاندا يعلم فيه بان الشرب على ذكر الملوك معصية كبيرة ولا سيما بعد موتهم لان ذلك مناقض لامر المسيح بقوله اشربوا هذا لذكرى وكذلك پرين الپرسبيتاريان الف كتابا كبيرا نهى فيه عن الشرب على ذكر احد من المسيحيين وحذا على حذوه كثيرون من اهل انكلترة وفرنسا غير ان مؤلف يوحنا غزى في هذا الباب لا يعلو عليه مؤلف قال وذلك كله من العبت اه قلت وكانت العادة انهم اذا شربوا على اسم امرأة طارح الشارب شيئا من ثيابه فيلتزم جميع الحاضرين ان يفعلوا فعله فلما كان ذات يوم شرب احد الامراء على اسم

محبوبته وطلب من الخلاق ان يقطع له ضرسا نخرًا فاضطرت اصحابه ان يقتدوا به وفي بعض صحف الاخبار حكاية عن رجل فرنساوى انه قال قد حضرت انا ورفيقي الى الغداء ان صح ان يقال لتلك الصحاف غدا اما اولا فلانه لم يكن معه شوربة ثم ترادفت علينا قطع من لحم البقر وفرد من لحم الضأن ثم وضعت البطاطس امامنا على طبعها وعلى حالها وعوضا عن التوابل كان لكل من الجلوس صحنه فيها سمن مسلي فسق على هذه الحال التي رأيتها اول دخول بلاد الانكليز وقلت في نفسي ألا ان هؤلاء القوم لميون ما يعرفون الا اللحم ثم جالت الافكار والخواطر في رأسي وقلت ليت شعري ما سبب تفردهم بمخالص لم يشاركهم فيها غيرهم من النفخة التي تظهر فيهم ومن عدم دربتهم في الرقص وغلاظة اصواتهم في الغناء والتخاطب وكلوح سحنهم الناعسة وعن ذلك كله كنت اقول في الجواب انما هو لحم بقر انما هو لحم ضأن ثم دعيت الى لون من الطعام نوهوا به باسم بت لك وهو اسم طالمس طارق مسامع اهل بلادنا وكنت متشوقا الى ان اعرف فلما كشف الغطاء عنه ونظرت اليه اذا هو لحم مشرح شرائح رقيقة ومتبل بالبصل فصرخت متعجبا لعمرى ان هو الذي نسميه بيفتك فلما قلت هذا تضاحكت الجلوس ولا سيما واحدة من الخواتين كانت تتكلم بلغتنا ثم قالت ان اسم هذا اللون معناه بخت اكلة تفتنا في التسمية لا في المأكول اه • وقال آخر ما شئ باعجب من رؤية ولائم الانكليز التي تذكر الناظر بالولائم التي ذكرها اوميروس اذ ترى قطعما جزيلة جدا من لحم البقر المشوى وشاة بأسرها على طبق وحيثانا ضحاما على مائدة طويلة ملائمة من التناهي والاقداح والظروف فتجلس الضيوف وعليهم الثياب السود وهم رزان ساكتون متحلمون كأنهم حول جنازة ووراء الزعيم رجل يقال له طوست ماستر وهو الذي عليه ان يفتح الكلام حتى اذا ناجاه الزعيم قال بصوت جهير ايها الكرام اني عمدت الى طوست ولا اشك انكم تنعمون بقبوله فتتحرك الجلوس من همدهم ويقومون باجمعهم كما تحرك شيئا بأكلة ويجيبون دعوته فاذا شربوا برز ثلاث جوارى كاشفات عن ترائهن من وراء حجاب وأخذن في العزف بالبيانو ولا يزال الطوست يدور ويعاد الى ان يحل محله • ومن العجيب ان جيلا متقدما في المعارف والصنائع كالانكليز لا يعرفون ان يطبخوا اللحم بالبقول

بالبقول وانما يطبخون كلا منها على حدته اما البقول فانما يسلطونها سلقا وهي عبارة عن اللفت والكرب والجزر وشيئا آخر من هذه النباتات اذ يحمية وسلطان المائدة انما هو البطاطس اذ لا تتم آدابها الا بها وربما اجترأ الفلاحون بها عن كل ما عداها حتى عن الخبز وقد يحشون بهار قاق الخبز ويطبخونها في الفرن فتسد مسد كل شئ واهل ارلانديتخذون منها خبزا اما اللحم فاحب شئ اليهم منه الشواء وهذا من وجه يصلح لمن الف الاسفار لان المسافر حيثما كان في الارض يجد الحما ونارا بخلاف من سافر منا وقد الف الواناشي من الطابخ فلا يزال لهجا بهذا وذلك فيتنخص عيشه وعلى ذلك قولي

* كَأَنِّي أَنَا وَالْفِيلُ صَنَوَانُ فَرَقَا * سَوَىٰ أَنِّي ضَرَبْتُ وَذَلِكَ بَانٌ *

* فَانْ لَهُ نَابَا يَحْمِينَ لِأَجَلِهِ * وَأَنِّي لَسَنِي كُلَّ حِينٍ لِحَائِنِ *

الا ان اللوم موجه على المستوطنين واصحاب المطاعم و الفنادق الذين يجهلون من انواع الطبخ ما يعرفه افقر الناس في البلاد الشرقية حتى انهم لا يعرفون ان يقلوا البيض بالسمن ولا يطبخون العدس ولا الحمص ولا الفول ولا غير ذلك من القطاني الا الرز فانهم يسلطونه سلتا ثم يصبون عليه الحليب واكثرهم يتقزز من الزيت ولا يدري ما طعمه على انهم يأكلون الدم مخلوطا بالشحم ويتخذون منه ايضا نوعا من الفصيد * ومن العجيب انهم لا يعافون من اكل اللحم المنتن وغيره فان الارنب والغزال لا يأكلونهما الا بعد خنقهما بنحو ثلاثين يوما وقد دعيت غير مرة الى موائد الوسرين وشملت فيها جحر الارنب وعلى ذلك قولي

* وَيَأْتُونَ بِالْأَرْنَبِ الْمُسْبَطِ صَحِيحًا كَمَا كَانَ يَطْمُرُ طَمْرًا *

* بِأَذْنَابِهِ وَبِاسْسِنَانِهِ وَبِأُظْفَارِهِ وَهُوَ يَفْغَرُ ذَمْرًا *

* وَفِي وَجْهِ كُلِّ الضِّيَوفِ لَهُ ذَنْبٌ شَائِلٌ وَدَبْرٌ تَعْرِى *

* وَوَاللَّهِ بِاللَّهِ تَالَعَةً أَنِّي * شَمَمْتُ لَهُ جُحْرًا لَيْسَ حَزْرًا *

وكذلك الفراخ والطيور لا يطبخونها الا بعد خنقها بايام ويقولون انها اذا بقيت اياما كثيرة بعد خنقها يزيد لحمها مرآة وطيبا والليل على ذلك ان الآكل منها يكفيه قليل بخلاف ما لو اكلت وهي طرية والحق يقال ان لحم البقر عندهم لا يؤكل الا بعد ذبحه بيوم او يومين وذلك لكثرة دمه ولا حرج على بيع المنتن من اللحم والسمك والقعج من الانماز والفاسد من كل شئ وعندهم صنف

من الجبن يستطيعونه على غيره لكونه مدودا وكنت ذكرت يوما لاحد فضلائهم قضية الكلهم الارنب منتنا فقال لا تعد تذكر لفظة منتن فانها قبيحة تشمئز منها المسامع فقلت ما دتم انتم نأكلون المنتن ولا تشمئزون منه فلمت بمنفك عن ان اذكره وهذا كتحسبكم من ان تذكروا في كتبكم ضخم ارداف المرأة مع ان نسائككم التحيفات يعظمن عجائزهن بما لا مزيد عليه من الحسايا والمرافد مما لو فعلته الفواجر عندنا لجلجلن فاتم حييون من الاسم ووقعون على الفعل ان هذا الغريب فضحك هو وزوجته * وقالت لي مرة احدى النساء المخدمات ما اطيب العيش في بلاد النساء اولا اني اكره شيئا من دابجهم فقلت ما هو وقد توقعت ان تقول الكلهم الارنب منتنا واذا بهما قالت انهم يطبخون الفراخ بعيد ذبحها وشكوت ذات يوم لمخدومة طاول استمراري على صنف واحد من الطعام فارسلت الى خادمها في اليوم القابل يقول ان سيدتي تدعوك الى العداء فلما توجهت قالت لي اني سمعتك بالامس تشكون من الطعام فصنعت لك اليوم ما يعجبك فلما هيئت المائدة قدم عليا ارنب باذانه وذنبه واذا به منتن ذفر يملأ ذفره الحياشيم فتعوذت بالله وقلت ما قال ذلك الظريف ان عمر هذا الحيوان بعد موته اطول منه في حياته والظاهر ان الانكليز يحبون الارنب وصورته فقد دخلت مرة دار الصور في كبريج مع الدكتور لي فكان اول ما وقع نظري عليه صورة ملكة من ملكات اسبانيا على هيئة الاضطجاع عريانة وغناها اربعة آلاف ليرة والى جانبها صورة ارانب وصياد فجعلت انظر الى صورة الملكة وجعل هو ينظر الى صورة الارانب ويستدعيني الى ذلك ثم انه ما عدا جهل الانكليز بالخبيث واقتصارهم على لونين او ثلاثة من الطعام فان الانسان لا يجد عندهم شيئا من الطعام والشراب خالصا اما الخبز فانهم يخمرونه بنوع يستخرجونه من المزر ويخلطونه بالبطاطس والرز والبقول والهرطمان والذرة والشب وفي كل رغيف يوجد نحو عشرين حبة من الشب ويملح الصفر والطين وجبس باريس وسحق العظام وبجزئين آخرين وفي بعض صحف الاخبار ان رجلا اكل جبنا فرنس فاستدعى بالطبيب فلما حضر عرف ان الرجل مسموم وان الجبن كان ملونا بالاناتو وهذا الاناتو خلط بشئ من القرمز وهذا ايضا خلط بالسيلتون واما القهوة فيخلطونها بالهندباء والقمح والهرطمان ودقيق البطاطس والبقول ويعرق السكر وعكر القهوة واللفت

واللفت وجذر الفوة وبجزئين آخرين واما السكر فخلوط بالرمل والطين ودقيق القمح والبطاطس والبشا وباجزاء اخرى من جلته هامة يقال لها اكارى واما الحليب فنصفه او ثلثاه ماء كذا وجده الدكتور هلياك وملون بصنف يقال له انا تو وهذا الصنف مركب من القلى وملح الصفر والملح والسرنج وبسته اجزاء اخرى تدقيق وعند النظر ترى فيه مخ الشاة والجبس والدقيق والنشا وعصير اللوز والصمغ وجزئين آخرين واما البيض فانهم يتقعون في الصيف حين يكون ثمة رخيصا في برميل ملي جيرا وماء ثم يخرجونه في الشتاء ويبيعونه بسعر الغريض فيأتى مسيحا ويتولد فيه طعم جبرى مضر بالعدة وعلامة المتوع منه ان يكون ابيض ناصعا لكنه خشن الملمس واما اللحم فينقعه في الدم واما المزر فخلوط بخمسة وعشرين جزءا من جلته الافيون والملح والرب والسكر والفول وملح الطرطير ومحرق البردقان والزنجبيل والافستين والعسل وملح الحديد وملح الكبريت ومحرق قشر السمرة ان واما الخمر فخلوطة باكثر من خمسة عشر جزءا من جلته الماء والعرق وعصير القمح وشراب التفاح وعود برازيل ومحرق السكر والرصاص واما التبغ فخلوط بالزيت والملح والرب والسكر والماء والراوند والبطاطس والكرنب والنطرون والرمل وبسته وشرين جزءا اخرى لطعمه ولونه وقس على ذلك النشوق والخردل والزيت والصابون والخل مع ان هذا الاخير يستقطر من نوع من الشجر وقيل من المزر فهو لاء الناس الذين حكمهم كحكم سائر الناس في كونهم ترابا والى التراب يعودون قد خالفوهم في انهم يأكلون التراب ويشربونه غيا لاله عصا المحتسب وهذا الطمع لقتهم ان يتخذوا نبذا من جميع الفواكه من اشهره نبذ التفاح وقد كان عندهم في السابق بمنزلة الخمر في التنافس فيه فكانوا يستقونه الضيوف كما تسقى الصهباء ثم اعود فاقول انه لا غرو ان يستطيب هؤلاء القوم ما القوه فان العادة كما يقال خامس طبيعة او ليس ان هنود لوزانيا يأكلون نوعا من التراب الابيض بالملح بدل الخبز وهنود ارنوكوكو يأكلون ايضا نوعا من الطين اللزج الابيض والزنج يستطيبون نوعا من الثمر على الخبز • اما الامراء والاغنياء من الانكليز فانهم يستخدمون دباخين فرنساويين ويتلذذون بانواع من الالوان ويهجنى من مآكلهم طبخ الفاخرة الطرية واليابسة في الهجن وذلك غير معروف لاهل مصر والشام

وهو من بعض ما تعلمه الانكليز من الفرنسيين حتى صار عاما لغنيهم وفقيرهم واكثر اسماء الطبخ عندهم منقول من اللغة الفرنسية وعندى ان اشتها الاطعمة الفاخرة في الشام انما عرف في زمن معاوية فانه كان يتألف في الطعام ثم نقلت اليهم الوان كثيرة من اللحم كما يظهر ذلك من بقاء اسمائها عندهم • ثم انه من رسوم الكنيسة المتصلة ان تقام الصلاة فيها يوم الاحد ساعتين في الصباح وساعة ونصفا في المساء وان لم يحضر فيها غير ثلاثة نفر فتسمع في خلال ذلك من تكرير الادعية والابتهالات ما يذهب بالصبر وبعد ذلك يقوم القسيس ويخطب فيهم واكثر الفلاحين يذهبون الى الكنيسة حياء من جيرةهم او خوفا من القسيس لان قسايس هذه الكنيسة لهم سيطرة نافذة على الرعية ومتى قامت الصلاة نعتوا وتناحسوا وقد باننى ان احدهم هؤلاء الخطباء لما شرع مرة في الوعظ التفت فرأى الناس نائمين فغضب لذلك وقال بأس السامعون انتم لكلمة الله انكم ان لم تسمعوها فستحسون بها ثم رفع التوراة من امامه وضرب بها بعض النائمين حتى انتبهوا وفي يوم الاحد لا يعملون ادنى عمل حتى ان اكثرهم لا يطبخ ومنهم من يخرج من حلق شعره فيه او من كتب رسالة وقد اردت مرة ان انزل في بيت عجوز فاول ما اشترطت على به كان عدم الطبخ يوم الاحد وعندى ان اصل ذلك البخل منعاً للزيارة والاجتماع ويحكى عن رجل انه سرق بقرة فتقف يوم الاحد فقال للشرطى لولا حرمة هذا اليوم لما اعيانى التلصص من يدك ويوم الاحد في جميع البلاد الكاثوليكية الرومانية هو يوم الحظ والتراور اما في هذه البلاد فهو يوم الانقباض والكآبة وهو في سكوتلاند اكثر قبضا وكآبة ولا بد من ان يكون في كل بيت توراة وانجيل وكتاب صلوات فيقع عند رب البيت ويحمل بعض اولاده على القراءة منها ويقضون النهار كله في القراءة والترتيل من الزبور وغيره وفي سماع الصلاة في الكنيسة ولا يكاد صاحب عيلة يجلس على المائدة للطعام من دون ان يصلى اولا او يجعل بعض اولاده يتلو دعاء ما وكذلك عقب الطعام ومن امكنه ان يستعمل في هذا اليوم آية وظروفا غير التي يستعملها في سائر الايام عد ذلك من الاحترام والتوقير لليوم والغالب على الانكليز عموما مراعاة الفروض الدينية اما عندنا لمصلحة فان الطبيب مثلا اذا علم منه انه لا يحضر الصلاة او ليس

عنده كتب دينية في بيته او كان قليل الاحترام لاهل الكنيسة فضلا عن كونه يجادلهم قل اعتباره عند ذوى الوجاهة وقل نفعة من حرفته وجل المؤلفين من الانكليز يستشهدون بكلام من التوراة والانجيل ترويحاً لبيع الكتاب حتى ان بلر بنى معظم اساليب البلاغة والبيان في كتاب المعاني على عبارات من التوراة وهذا الرأى والتدليس قل ان يوجد في الفرنسيين فان من كان منهم قليل الدين انقطع عن الكنيسة اصلاً والمؤلف منهم اذا كان غير ذى اعتقاد بالتوراة لا يستشهد بها في شيء ولا يكون ذلك باعثاً لكساد حرفتهما اما اهل الكنيسة المتفرعة فهم اشدّ تحمسا وتصلبا من اولئك فقد يعطون الناس في الطرق والحقول ويوزعون في البيوت كتباً ورسائل دينية وكذلك يفعلون في المدن الغناء وربما منعهم الشرطة من الوعظ علانية لئلا تجتمع عليهم الاوباش فيكون من اجتماعهم ما يوجب النزاع ويذهبون الى كنائسهم ثلاث مرات في يوم الاحد ولا يعوقهم عن ذلك برد ولا ثلج ولا مطر والقاطنون منهم في اماكن منفردة يقصدون الكنائس القريبة وجميع القسيسين في بلاد الانكليز يكافون خدمتهم وضيوفهم حضور الصلاة في ديارهم صباحاً ومساءً وقبل تناول الطعام وبعده لا بد من تلاوة صلاة او دعاء وان غاب القسيس قامت امرأته في ذلك مقامه • واعلم ان الكنيسة المتأصلة مؤلفة من مطرانين احدهما مطران كنتربرى ودخله في العام خمسة وعشرون الف ليرة وهو ثانى صاحب الملك في الرتبة والمنزلة والثانى مطران يورك ودخله خمسة عشر الفا ومن خمسة وعشرين اسقفا وظيفه كل منهم من اربعة آلاف ليرة فصاعدا ومتى عجز احدهم عن القيام بخدمته رتب له الف ليرة وقد كان لاسقف برهام ستة عشر الف ليرة ولما انزوى في قصره عين له نصف المبلغ وتمت ذلك مراتب متعددة الاولى جيانسيلر ثم الدين ثم الارشيدكن اى رئيس الشماسة ثم الپريندرى ثم القانونى الاكبر والقانونى الاصغر ثم الفيكار ثم الركطر وعدتهم بموجب آخر تعريف بلغت ١٢٣٢٧ وعدة كنائس الپروتستانط بلغت في سنة ١٨١٨ ١١٧٤٢ وفى القرن السابع كان للاكليروس كلمة نافذة حتى على الملك وفى سنة ١٨٥٤ بلغ ما جمع لنفقة كنائس انكلترة وحدها في سنة واحدة ٣٠١٥٤٠ ليرة ولمساعدتها ١٦٤٧٧١ فتكون الجملة ٤٦٦٣١١

وفي سنة ١٦٠٤ استعفى منهم الفسان من وظائفهم كراهية ان يعضوا اسمائهم على كتاب الصلوات المستل على تسع وثلاثين عتية ولهذه الكنيسة حق في ان تأخذ العشر من سائر الكنائس بل ومن اليهود ايضا وطالما تظلم اهل الكنيسة المتفرعة من اداء العشر لهما فلم يجد ذلك نفعا ولا تسمح للكنيسة المتفرعة او لغيرها بوضع اجراس واذا اضطر احد من المتفرعين الى زواج مثلا او معمودية او غير ذلك من الفرائض الدينية وطلب من قسيس المتأصلة ان يقضى له ذلك حالة كون قسيسه غائبا لم يجبه الى مطلوبه وقد بلغني ان رجلا مات وكان حال حياته مذبذبا في عقيدته فتنازع قسيسا الكنيستين على ايها يدفنه وطال ذلك بينهما حتى اروح الميت ويمكن ان يقال ان الكنيسة المتأصلة هي ديوان من بعض دواوين الدولة فان كلمة ركطر القرية ابلغ نفوذا وفاعلية من كلمة ضابط البلد وليس شرطى الديوان في قرية الامن بعض اتباعه واذا زاره احد الفلاحين فلا يأذن له في الجلموس فهو على هذا جدير بان يقال له دهقان القرية او شيخ البلد وربما بلغ دخله الف ليرة فترى له احسن الديار وعنده خدمة وعاجلة فاخرة وخادم يسوقها وعلى برنيطة شريطة من ذهب كخدمة الامراء ثم اذا صعد المنبر وعظ المساكين المحتاجين الى القوت الضروري بالزهد في الدنيا وتجنب شهواتها ولا يمكن اقامة دعوى في ديوان احد الاساقفة الابعصروف وافر فلماذا يتأتى ان يعيش الرجل مع امرأة عيشة المتعة والسفاح الا اذا صدر له حكم من ديوان الاستغف من دون نفقة وذلك نادر وهذه الكنيسة هي مثل الدولة في انها لا تروم تغيير شئ من رسومها وتراثيها واحكامها فان قسيسها يتلون فيها كتاب الزبور وبعض فصول من التوراة والانجيل وهي مخالفة لما في ايديهم الآن منها وذلك لان كتاب الصلوات جرى استعماله عندهم قبل ترجمة التوراة فلما شرعوا في ترجمتها وجدوا ان ما ادرج فيه كان مخالفا للاصل فابقوه على خلاله ومن يوم شرعوا في التأليف تجد اسم يسوع على نسق واحد في جميع كتبهم وكلامهم وهو جيسس الا في موضع واحد من كتاب الصلوات المذكور فانه فيه جيسوفكأته في اللاتينية مجرور وكلما طبعوا نسخة من هذا الكتاب حذفوا السين في ذلك الموضع ولا بد من ان يكون في كل قرية في بلاد الفلاحين كنيسة للمتأصلة وان لم يكن فيها دكان لبيع اهم ما يكون من المأكول

المأكول والملبوس ولا بد ايضا من ان يكون لها برج بلزقها لوضع الاجراس
فنتها ما يكون له اربعة اجراس ومنها ما يكون له ستة او اثنا عشر وضربهم بها
مطرب ولا سيما على بعد وهم يدعون بانه ليس من يجاريهم في هذه الصنعة
فانهم اتقنوها غاية الاتقان حتى انها تسكك ان تعد من فنون صنعة الايقاع
واكبر جرس في الدنيا جرس كرملين او كرميلان وهي قلعة مدينة المسكوب زنته
٤٤٣٧٧٣ رطل وقيمة جواهره ٦٦٥٦٥ ليرة ولما شرع في سبكه تبرع كثير من
الناس بالفضة والذهب فخلطوا معه ثم يليه جرس كنيسة صانت ايفان في المدينة
المذكورة زنته ١٢٧٨٣٦ رطل ووزنه جرس كنيسة رومية ١٨٦٠٧ رطل وجرس
قصر فلورانس ١٧٠٠٠ رطل ونحوه جرس اكسفورد وزنه جرس كنيسة صان بول
بلندرة ١١٤٧٤ رطل وفي هذه السنة وضع جرس في برج مجلس المنورة بالمدينة المذكورة
زنته ٣٦٠٠٠ رطل • قال فلان بلاد الانكليز هي بلاد المذاهب والنحل
فالانكليزي يذهب الى السماء من اي طريق شاء ولكن وان يكن ممكنا لكل
واحد منهم ان يعبد الله ويخدمه على الوجه الذي استحسنه الا ان دين الدولة
هو الوسيلة للثول ونوال الوظائف والمرتبات السامية فلا يمكن لاحد ان ينال
وظيفة في انكلترة وارلاندا ما لم يكن على مذهب الكنيسة الاسقفية وهذا الخطر
جعل جل ذوى الوجاهة والنباهة من حزبها ثم ان الكيوس هذه الكنيسة قد
اقتدوا بالكنيسة الكاثوليكية في سنن كثيرة وخصوصا في اخذ العشر من الرعية
وفي النهم الى التأمير عليهم لان ركط القرية ان هو الابا لو استطاع الا
انهم اكثر حشمة وعفة من قسيسى فرنسا واخص اسباب ذلك هو كونهم
يتربون في اكسفورد وكبيريج بعيدين عن فساد المدن الكبيرة قلت لعلمه
حين كتب ذلك كان الكيوس فرنسا على غير ما نراهم في هذا العصر فانهم
الآن قدوة في الفضائل والمحامد وكذا يوجه قوله بعيدين عن الفساد فان هاتين
المدينتين الآن فيهما من البغايا ما يكفي اهلها وغيرهم معهم ولو قال ان اخص
اسباب ذلك هو كون قسيسى الانكليز يباح لهم الزواج لكان اولى قال ولا
ينتدبون الى رتب الكنيسة الا اذا بلغ احدهم من العمر ما لا يكون له فيه نهم
قلت حد القسيس ان يكون بالغاً من العمر اربعاً وعشرين سنة ومتى عرف فضله
وعلمه بعد ذلك يرقى الى درجة الاسقفية من دون تعيين سن • وهنطرفليفرح

الوادون وليكمد الشامتون فان الدكتورلى عزم على التوجه الى برستول ليقضى فيها وظائفه الكنائسية مدة شهرين ولكن ليس بعد ان نعيته الى انقارئين والسامعين ومن ثم وجب على ان الحق به ففصلت من تلك القرية المشؤومة الى لندرة ومنها الى المدينة المذكورة فبلغتها فى نحو خمس ساعات فى خلالها وقف الرتل فى عدة مواقف وكان قد اخبر صاحبة المحل بقدمى وحالى واوصاها بان تطبخ لى طبخا فرنساويا اى ان يكون كثير البقول قليل اللحم فلما كان المساء احضرت لى طعاما مطبوخا من دون ملح على عادتهم لكنها احتفلت بى غاية الاحتفال حتى استحييت من ان اذكر لها الملح وفضلا عن ذلك فان فرحى برؤية الاسواق والديار والعواجل انسانيه ثم لما قابلت الدكتورلى فى الغد سألتنى عن الطعام فقلت له انه كان بغير ملح قال كيف ألم تحضر لك ملحا على المائدة فلم تلحى انت فاذها خسيت ان تضع فيه ما تعافه فقلت لو احضرت لى اللحم نيئا لكنت اطبخه بانفاسى واملحه بدموعى وكان خيرا من عانتكم هذه المنغصة قال لا بأس بين اهما المرة الثانية قدر ما تريده من الملح تفعل ثم لمت صاحبة المنزل على طبخها الطعام غير مملوح فقالت هذا دابنا رأيت ذلك المحلل الذى اكلته البارحة لو انك اعطيت زوجى خمسين ليرة لما اكله مع انه كان خسا بالحل وبينما كنت ذات يوم جالسا معهم على المائدة اذ دخل طفل لها وهو وسخ الشباب والعلامة فقال لها زوجها لم تغادرين الولد وسخا هكذا فقالت قد غسلته هذا الصباح ولكن طبعه ان لا يدع شيئا من ثيابه نظيفا ثم جلسا فى الكلام فا اشعر الا والست قامت وجاءت بالمكنسة لتضرب زوجها فهرب من قدامها فاقبلت تجرى وراءه وهو هارب فلما لم تلحقه غشى عليها من شدة الغضب فتداركها الرجل بالعرقى وبغيره حتى افاقت مع انها كانت من اهل الصلاح وكان زوجها بمنزلة نصف قسيس ثم ان برستول هى من المدن القديمة لا بهجة لها ولا رونق وهى ضيقة الطرقات قذرتها وليس لها مماش رحبية ولا ساحات فسيحة ولا مقاعد ولا منزهات ولا محال للقهوة او الحظ سوى ملهى واحد وعدد اهلها مئة وخمسون الفا وقل فيها وجود غريب وبيوتها الجديدة حسنة فاما القديمة فلا تصلح لشيء فان صفحتها شبه زاوية منفرجة يبدو منه تسنم سطوحها وتجد بين البيت والبيت من فرق خلأ تنبو عنه العين ونساؤها يشبهن نساء

الفرنسيس في استدارة الوجه ولها نهر صغير فيه بواخر وغيرها مسافته نحو سبعة اميال يأتية الجزر والمد في اليوم مرتين ومنه تسافر البواخر الى والس وقد شرع في بناء جسر عليه من حديد ولم يتم لكثرة مصروفه وعند هذا الجسر كانت محلة للرومانيين لما افتحوا بريتانيا وقد بقي من آثارهم حائط كانوا يترسون به قال مؤلف ابجدية الاوقات كان بناء برستول في سنة ٣٨٠ قبل الميلاد وكانت تعد من المدن المحصنة واسمها في القديم كايبريتو اى مدينة البريتانيين انتهى واتفق بعد نزول في ذلك المحل ان قدم القاضى ونزل فيه وفي الغد حضر نحو اربعين رجلا من شرطة البلد واصطفوا لدى الباب ووقف اثنان ينفخان في ابواق من فضة ثم جاء ضابط متديا بلباس احمر وكان القاضى قد لبس ايضا لباسا احمر وعلى رأسه شعر عارية ابيض فدخل في عاجلة نفيسة وقف عليها رجلان لابسان كسوة مزركشة بالذهب كما هي عادة خدام الامراء ثم دخل معهما رجل حامل سيفا طويلا في كعبه صورة تاج وله ثلاثمائة ليرة في العام لحمل السيف ثم ذهبوا الى دار الحكومة وكان عن شمال العاجلة ثمانية من الشرطة يحملون عصيا من فضة رؤوسها كالمباخر واثنان يحملان مزاريق قد غشيت اعاليها بالفضة وفي كل سنة يحتفلون به هذا الاحتفال فان القاضى لا يستقر في البانة وانما يأتى اليها اربع مرات في السنة لفصل الدعاوى الخطيرة في ايام معدودات وفي مدة غيابه ينوب عنه اناس في فصل غير المهم وفي برستول كنيسة للطائفة المعروفة بالكويكرس والسين علامة الجمع وهم صنف من النصراني الا انهم لا يعتدون بالعمودية ولا بالقربان ولا يقرأون الانجيل في كنائسهم ولا صلوات معينة وليس لهم شعائر معلومة ولا قسيسون كما للنصارى وانما اتقياءهم هم المتقدمون فيهم ومعابدهم عبارة عن بيوت لا فيها فرش ولا محاريب ولا مذابح ولا كتب ولا صور ولا منابر ويقولون ان الدين لله لا يكون مرضيا الا بالروح فجميع الرسوم والتكليفات والفرائض عندهم لغو ويقولون ان المسيح نفسه كان كويكرا وانه لا يجب تأدية العشور لرؤساء الكنائس ويبتغون ساكتين الى ان يوحى الى احد منهم في زعمهم فيلقى ما اوحى اليه في بضع دقائق وهو واقف فاذا فرغ قعد واستراح وقد ذهبت مرة الى معبدهم فاجتمع فيه نحو مائة وعشرين نفعا جلست

النساء في الجانب الايمن على دكك عليها زرابي و جلست الرجال على الايسر على دكك متقابلة من دون زرابي وجلس في صدر المحل اربعة رجال وثلاث عجائز على دكة عالية وجلس دونهم خمس عجائز وثلاثة رجال وبقوا كذلك صامتين ساعة وربعاً ثم قام رجل من اصحاب الدكة العليا الذين كانوا اقرب الى الوحي والقي على الناس كلاماً وجيراً نحو خمس دقائق معناه ان رضوان المولى هو ان يكون عقل العبد منجذباً اليه وانه ستأتي ايام يعين فيها بعض الناس بعضاً بالارشاد والهداية وان جزاء كل انسان منوط بعمله وما اسببه ذلك ولم يذكر في كلامه اسم المسيح ولا اسم روح القدس وبعد نحو ربع ساعة قامت عجوز من اصحاب الدكة الثانية فقام جميع الحاضرين وحسرت الرجال عن رؤوسهم فانه لا حرج على من ظل مقلنسا في المعبد واخذت تصلى بصوت مرتعش نحو خمس دقائق فذكرت اسم المسيح ولم تذكر روح القدس ثم انفضوا وشعار هذه الطائفة هو ان رجالهم يلبسون جيبهم مثنية على اعناقهم من دون اطواق وان النساء يلبسن برانيط طويلة من قدام حتى تغم وجوههن وخصوصاً العجائز وهي غالباً من الحرير وثيابهن من لون واحد ومن مذهبهم انهم يجتنبون مواضع الحظ والاهو والسكر وان لا يحلفوا بيمين ما ولو في مجلس القاضى ولا يرون في الحرب خيراً وحسبك بالسفرآء الذين ذهبوا منهم الى قيصر الروس عند ابتداء الحرب دليلاً ومن شأنهم الاقتصاد في النفقات وان يساعد بعضهم بعضاً وقد كانوا في الزمن القديم عريضة للاضطهاد والطرْد ولكنهم الآن آمنون ولهم بعض خصائص منها اذا تكلموا مع شخص ايا كان خاطبوه بلفظ المفرد بخلاف عرف اللغة واذا حضر احدهم مجلس الملك حضر بكسوته الاعتيادية من دون وضع شعر عارية ولا ينزع برنيطته بيده وانما ينزعها عنه آخر ويتخاطبون كل واحد بلفظة يا صاحب ولا يتنافسون في الالقاب والنعوت ولا يجودون بها على احد ولا يحدون على ميت وعندهم ان النساء في الفضائل والمناقب كالرجال وعدد هذه الطائفة في برستول اكثر من عشرة آلاف نفس ولا يكاد يوجد بينهم فقير قال الفيلسوف فلان لطائفة الكويكر معابد كثيرة في لندرة اعظمها الموضع المسمى منيوينت زرتة مرة مع مضيفي فاجتمع فيه نحو اربعمائة رجل وثلثمائة امرأة وكانت النساء ساترات وجوههن وعلى رؤوس الرجال برانيط كبيرة والجميع

والجميع سكوت فجرت بينهم ولم يرفع احد طرفه للنظر الى وبعد صمت نحو ربع ساعة قام احدهم وحسر عن رأسه ثم بعد ان ابدى بعض زفرات بعضها من فيه وبعضها من منخريه التي على الحاضرين جلا مشوشة مضطربة زعم انها من الانجيل فلا هو ولا احد غيره فهم منها شيئا ولما فرغ من ذلك انصرفت الجماعة فسألت مضيقي ما بال حكماءكم يرضون بهذا الهذيان فقال انا مضطرون الى ان نرخص فيه لانا لا ندرى هل الشخص الذي يقوم للخطبة يكون قيامه بوحى من الروح او الجماعة فنصغى الى ذلك ونحن صابرون مرتابون بل نرخص ايضا للنساء في الكلام وقد يتفق ان يوحى الى اثنين او ثلاثة في وقت واحد فن ثم يقع ضجيج ولغط في بيت الله فقلت أليس فيكم اذا قسيسون قال لا وانا لاجد انفسنا بدونهم في حال احسن ثم تلا من كتاب ما معناه ان الله تعالى لم يرض ان نعين احدا لقبول روح القدس في ايام الاحياء اخراجا لسائر المؤمنين منه ثم قال الحمد لله على انا نحن دون سائر الناس لا قسيسين لنا ولم نترك ولدنا عند مرضع اذا كان عندنا لبن يغذوه قال وانتشار مذهبهم كان في انكلترا سنة ١٦٤٢ وذلك عند ما ظهر فيها ثلاثة مذاهب او اربعة اضرمت فيها نار الحرب بين الاهلين تعبدوا لله تعالى فقام اذ ذاك رجل اسمه جورج فوكس من كورة يقال لها ليسستر وكان ابن رجل نساج للحريز فاخذ يعظ الناس وهو ابن خمس وعشرين سنة وكان اميا حميد السيرة لكنه كان مفتوها فكان يلبس جلدا من رأسه الى قدمه ويطوف من قرية الى اخرى مقبجا على الحرب وعلى اهل الكنيسة ولو انه ذم العسكر وحدهم لما كان لقي ما يخاف منه الا انه لما كان ذمه موجهها الى رؤساء الدين لم يلبث ان قبض عليه واحضر بين يدي قاضي دربي وهو على ذلك الزى وقلاصوته الجلاء على رأسه فبادره احد الجنود بلكمة على خده وقال قبجا لك ألم تعلم انه ينبغي لك ان تحضر بين يدي القاضي حاسر الرأس فادار له فوكس خده الثاني والتمس عليه ان يلكمه لكمة اخرى حبا بالله ثم تقاضاه القاضي يمينا قبل ان يسأله فقال اني لن اتخذ اسم الله بالباطل ابدا ففاظ ذلك القاضي حتى ارسله الى دار المجانين في دربي فسار وهو يحمد الله على ذلك فلم يأل المأمورون بجلده جهدا فكان فوكس يتضرع اليهم ان يزيدوه من هذه النعم لصلاح نفسه فاردوا طلبته ولكنهم عجبوا منه فاخذ حينئذ يعظهم

وينذرهم فتضاحكوا منه اولاً ثم اصفوا اليه وارتاحوا لقوله وصدقه كثيرون منهم ثم لما اخرج من السجن جعل يطوف في البلاد ومعه اثنا عشر رجلاً ممن تمذهبوا بمذهبه وهو يذم اهل الكتيبة فعرض نفسه ايضاً للجلد مرة بعد مرة فلما اخذ يوماً الى موضع النكال التقي على الحاضرين خطاباً بغاية الحماسة فهدى منهم الى مذهبه خمسين نفساً واستمال الباقيين الى محاماته حتى انقذوه من تلك الورطة وجعلوا بدله القسيس الذي تسبب في معاقبته ثم استمال ايضاً بعضاً من جند كرومول فانكروا الحرب وابوا اليمين فامر بان يقبض عليهم اذ لم يكن يريد ان فرقة من الناس لا تحض على القتال فقبض عليهم وملئت السجون منهم الا ان شان الاضطهاد ان يزيد في عدد الدخلاء فرادوا نباتاً في معتقدتهم وارجح عليهم السحيان ايضاً والذي زاد في هذه الشيعة فضلاً عما ذكره هو ان فوكس كان يعتقد بان له سرا يمكنه من التكلم بما يخالف عادة البشر فاخذ يرجف ويرتعش ويتأوى ويكظم نفسه ويتنفس الصعداء فلم يلبث ان صار له دربة بالوحى عظيمة حتى لم يعد يقدر على الكلام الا به وكانت هذه اول منحة افادها لتلاميذه فاسرعوا في محاكاة امامهم في تغيير السمعة والارتعاش عند هبوط الوحى عليهم جهد المستطيع ومن ثم سموا كويكرس اى مرتعشين اما العامة فانهم نبزوههم واتفق مرة ان قال فوكس لاحد القضاة جهراً بحضرة جمع كبير احذر لنفسك يا صاح فان الله يعاقبك سريعاً على اضطهادك الاطهار وكان هذا القاضى مولعاً بالشراب وكان يسكر في كل يوم فاعتراه بعد يومين فالج اودى به وكان بهم اذ ذاك بان يمضى حكماً بحبس بعض الكويكرس فخلج قلوب الناس ان موته كان سبباً عن اضطهاده الرجل الطاهر لا عن ادمانه على الشرب فصار هذا الموت الفجائى سبباً في اجتذاب كثير من الناس الى مذهب الرجل اكثر من الف موعظة والف لية فلما رأى كرومول عددهم يتزايد في كل يوم رغب في ان يستميلهم اليه فعرض عليهم المال فابوه فقال يوماً لعمري ان هذا الدين هو الدين الوحيد الذي لم نستطع ان نغلبه بالمال ثم صاروا عرضة للاضطهاد في عهد كركلوس الثانى ليس لاجل الدين ولكن لامتناعهم من اداء العشر للاكليروس ولخطابهم القضاة بآنت ولامتناعهم من اليمين التى يوجبها الشرع وفى سنة ١٦٧٥ قام رجل من اهل سكوتلاند

سكوتلاند اسم، روبرت باركلي وقدم للملك معذرة عن الكويكرس وهى من احسن ما كتب فى هذا الباب اذ لم يرتكب فيها شيئا من التمجيد والاطراء وانما اودعها الكلام الحق والنصح السديد وكتب فى آخرها انك قد ذقت الحلو والمر والنعيم والبؤس فانك طردت من البلاد التى ملكت فيها وشعرت بثقل الظلم فكان ينبغى لك ان تعلم ان الظلم مقت عند الله والناس فان كان قلبك لا يلين بعد تلك المحن والخيرات ونسى الله الذى لم ينسك فى بؤسك فان اثمك يكون اعظم وهلاكك اشد فايالك من الاصغاء الى ما يطريك به اهل ديوانك بل اصغ الى صوت الضمير الذى ليس من شأنه الاطراء ولا التمليق « من صاحبك الامين واحذر عيتك روبرت باركلي » واعجب من ذلك ان هذه الرسالة مع كونها صدرت من رجل خامل الذكر فقد نجحت فى قلب الملك حتى كف الاضطهاد عنهم وفى هذه الاناء ظهر وليم بن النبي، وبث مذهب الكويكرس فى امريكا الى ان قال وليس لاهل المذهب فى انكلترا اهلية لان يكونوا من اهل مجلس المشورة ولا ان يتولوا المناصب العمومية لامتناعهم من اليمين مما لا بد منه فى الامرين فحل كسبهم المال انما هو من التجارة وحيث كان غنى الاولاد انما هو من كد والديهم كان لهم مطمح الى كسب الشرف والازرار والقفازين ويستحيون من ان يقال لهم كويكرس فيذهبون مذهب الپروتستانت ليكونوا فى عداد اهل السمى والطراز الخ • وفى برستول ايضا كنيسة لليونيترين ومعناها الموحدون يعتقدون بوجود اله واحد فقط وان عيسى المسيح انما كان بشرا وانه انما قيل له ابن الله من قبيل التعظيم كما قيل ايضا لسليمان بن داود وهم فى البلد اصحاب وجهة واثرة وفيها ايضا زمرة تسمى شيعة سويدنبرغ اعتقادهم ان الله واحد احد وانه ظهر فى ناسوت المسيح وان جسم المسيح هو المراد بقولهم الابن وان اللاهوت هو الذى يقال فيه انه الاب الخالق وبالجملة فان المسيح هو عندهم الابن وروح القدس ومظهر اللاهوت ومنشئ هذا المذهب رجل جرمانى ظهر منذ ستين سنة تقريبا ومن شططهم انهم يؤولون كل لفظة وردت فى التوراة بمعنى غير الظاهر منها فيؤولون لفظة سوربة مثلا بالعلم والمعرفة وخيل مصر بالمنعة والجل بالحماية وقد الف سويدنبرغ فى ذلك مؤلفا ضخما لا يكاد القايرئ يختمه فى بضع سنين ومن كلامه لما كان للكلمة استعمالات كثيرة وكان المسيحيون الاولون

سذجا يفهمون كل شئ على ظاهره فرقوا اللاهوت فجعلوه ثلاثة اقانيم فاعتقد به كذلك من خلفهم الى ان قال لانه ما احد يدخل السماء وهو يعتقد بثلاثة آلهة وفي برستول مرقب فيه مقصورة عالية مظلمة لها كوة في اعلاها مرآة يقع عليها نور الشمس فترسم ضواحي المدينة به على مائدة لها سطح مجوف فيرى الناظر فيها النهر والشجر والرجال والنساء والماشية فيخيل له انه بينهم وقيل ان رجلا رأى في هذه المائدة زوجته تمشي رجلا وهو يقبلها فعرفها فلما رجع الى داره خاصمها خصاما اوجب الفراق • وكانت صاحبة المحل الذي نزلت فيه مولعة بالزمرة وهي امرار اليد على وجه انسان حتى يغيب عن الادراك وهي نسبة الى رجل غساوى اسمه مزمر فاشتقوا منه فعلا يقال مزمره اى عاجله بامرار اليد وذلك انهم يعتقدون ان في بعض الاجسام خاصية تؤثر في غيرها على مقتضى ما ينويه المؤثر وقد سمعت من الست المذكورة ان بعض اطباء مزمر خادمة لها حتى خثرت نفسها ثم لمس من رأسها مبعث الانفة والمدافعة وقال لها انت دمية فقالت لا بل انا احسن خلق الله وجهها ثم لمس مبعث الكرم فقالت بالباب مسكين خذوا هذا الدرهم واعطوه اياه ثم لمس مبعث الغضب فجعلت تهيج وتشت شعرها فاراد ان يرجعها الى حالتها وارتاب في استطاعته على ذلك فلم يقدر وبقيت الجارية كذلك هائجة مضطربة وذلك لانك اذا اثرت في شخص واحلته عن حالته وشئت رده لزمك ان تعتقد اعتقادا يقينا بانك مستطيع عليه فلما تبين له عجزه استدعوا بطبيب آخر فحاول ان يخرجها من قوة تأثير الاول بواسطة الامرار فلم يتم له ذلك بالكلية وانما اضعف منها اثر الاول اضعافا فباتت على تلك الحالة ولما اصبحت خف ما بها ثم شفيت ويقال انه اذا امر الشخص المؤثر فيه بقتل انسان قتله او بقضاء حاجة قضائها دون تلبث حتى انه ليفعل ما فيه ضرر نفسه وانه يدل على اشخاص واماكن لم يكن رأها من قبل وينعتها كما هي واتفق ان جارية الست المذكورة اصابها ورم في وجهها عن وجع ضرر فاجلستها على كرسي ومزمرتها حتى غشيها سبات ويديست جوارحها فاخذت سيدتها تنفخ عليها وما زالت بها حتى شفتها بالمرّة ومرّة اخرى اجلستها امامي ثم لوت يديها الى صدرها ثم امرت يديها على وجهها فلما لبثت ان غمضت عينيها فامرتها ان تمشي من ذلك المحل الى

غرفة فشت وعيناها مغمضتان وسيدتها ممسكة بها خيفة ان يصدم رأسها شئ
فلما وصلت قالت المخدمية اين تريدن القعود على الكرسي ام على الارىكة فقالت
بل على الكرسي فقالت لها لك ذلك فجلست فسألتها عن اى شئ يشتغل فلان
به فقالت هو ناظر الى ساعته قالت كم الساعة الآن قالت الحادية عشرة وربع
فقلت اصبعها الى موضع آخر من دماغها وقالت اخطأت فقالت بل خمس دقائق
بعد الظهر ثم امرتها بالغناء فغنت ثم بالضحك فضحكت ثم سألتها عن خادمة لها
كانت ذهبت صباح ذلك اليوم الى امها ماذا تصنع فقالت انها الآن تكلم امها
في شأنك وتطلب منها ان تكلمك لتعفيها من الزمرة وانها تتنى ان تراك مرة
تمزمرين احدا فلما رجعت الخادمة في الغد سألتها عن ذلك فاجابت بما ذكر ثم
انها انفخت عليها وامرت عليها يديها صعدا فافقت وهذه الخاصية قد شهرت
في فرنسا جدا واشد الناس انكارا لها اهل الكنيسة والاطباء فان الاعتماد
بها يوجب الشك في النبوة ويصدق المرضى عن الاطباء وساذكر في وصف
باريس ما جرى بيني وبين احدى هؤلاء النساء وفي هذا القدر الآن كفاية •
ثم سافرت من برستول قصد ان ارى بعض جبال والس فينشرح صدرى لان
بلاد الانكليز كلها كما ذكرت سابقا عبارة عن حقول ومروج وهى وان تكن
ناضرة الا انه لا شئ يبعث على ادارة الفكر واجالة الخاطر كرؤية الاماكن
المختلفة نحو ان يكون فيها سهل وجبال واكام وادوية وغياض فكلما تعدون
المناظر للعين كثرت الخواطر في الذهن وتنوعت الهواجس في الصدر فسافرت
في الباخرة فبلغت فرضة تسمى نيوبورت اى المرسى الجديد في نحو ساعتين
ونصف فبت هناك تلك الليلة وفي الغد سألت عن اقرب الجبال فتيل لى اذا
طلعت هذه العتبة ظهر لك فطلعتها ودلت على جبل يسمى لندوغو وهى كلمة
والسية لانه لا يوجد في لغة الانكليز كلمة تنتهى بحرف الواو فسرت اليه ماشيا
اذ لم اجد راحلة تبلغنى اليه فكنت اسأل المارين عن مقدار بعده فكان بعضهم
يقول سبعة اميال وبعضهم خمسة وبعضهم ستة فسألت عن بلدة استريح
فيها فدللت على قرية بعضهم يسميها مدينة وبعضهم قرية وبعضهم بلدا
وهى عبارة عن ستين بيتا فسألت عن مطعم فدللت على بيت مشهور عندهم
فاردت ان آكل بيضا لعدم وجود اللحم والسمك عندهم فقلت لصاحبة المحل انى

اريد بيضا فقالت لاي سبب قلت للاكل قالت ما ثم بيض في هذا الاوان مع انه كان في الصيف فالجحت عليها فبعثت من طوف في القرية حتى جاء بيضتين بعد الجهد فقلت اقليهما بالسمن فلم تفهم فاعدت عليها الكلام فقالت تريد ان تكسر البيض في السمن قلت نعم قالت فما يكون هذا اغلاء قلت بل هو قلى قالت هذا ما لم افعله في عمرى قط فصصفه لى قلت تضعين المقللة اولا على النار ثم تصبين فيها السمن حتى يذوب ثم تكسرين البيضتين فيه وانا اتولى بعد ذلك امرهما قالت فالاولى ان تتولاه من الآن وتقليهما كما تشاء وانما اوردت هذه الواقعة اشعارا بجهل هؤلاء القوم ادنى انواع الطبخ والمتفنون منهم يقلون البيض بمائه ومن تحته لباب الخبر ثم ان هذا الجبل وان يكن منظره في الحقيقة مما تشرح فيه العين وينشرح به الصدر بالنسبة الى بلاد الانكليز المحتنة الا انه بالنسبة الى بلادنا يعد دكا او اكمة • وادلم ان اهل والس هم اهل شجاعة و بسالة وهم الحريون بان يقال لهم بريتاينون فانهم لم يبرحوا في منعة ولهم لغة خاصة بهم الا ان كبراءهم واغنياءهم يتكلمون بالانكليزية ولكثرة مكاتب الانكليز فيها الآن اقبلوا على تعلم لغتهم غير ان لغتهم الاصلية لم تزل مستعملة وهى تشتمل على بعض حروف الحلق كاللغات المشرقية ويقال انها تشبه لغة اهل بريتون من فرنسا وانها هى بعينها والتمدن والتأنيب عند الفلاحين هنا اقل منها عند فلاحي انكلترة وقد كانت بلادهم في الزمن القديم مستقلة بنفسها واول من الحقها بحكومة الانكليز كان ادورد الاول وذلك في سنة ١٢٨٢ عند موت اميرهم لويلن لكنهم بقوا بعدها يحاولون الاستقلال الى ان رزق الملك المشار اليه ولدا في سنة ١٢٨٤ فسماه من دهائه امير والس وبقي هذا اللقب خاصا بولى العهد في بيت الملك ويقال ان الملك حين سمي ابنه امير والس حمله على ذراعيه وقال لرؤساء والس بلغتهم اخ دين ومعناه هذا بلديكم وملككم فصارت هذه الكلمة شعارا يكتب على ترس امير والس الى يومنا هذا وفي ابجدية الاوقات ان اهل والس كانوا يسمون قديما صلتس وهم اسلاف البريتانيين وكانوا اول من سكن بريتاينا ولقطة بريتاينا تشمل انكلترة وسكوتلاند ووالس وكانت تسمى البيون وهم الى الآن يأنفون من ان يقال لهم انكليز ثم اتحدت بانكلترة وعدت منها بامر مجلس المشورة وذلك في سنة ١٥٣٥ فاما

فاما ارلاند فان الحاقها بانكلتره كان في سنة ١٨١٠ ثم رجعت الى برستول
وتعرفت باحد افاضل الانكليز الذين اولعوا بحب اللغات لا للتفاخر
ولا للتكسب ويقال له دكتور جون نيكلسن وانما لقب بدكتور لانه كان درس
الفلسفة في بلاد النمسا ونال هذه الدرجة فان لفظة الدكتور يوصف بها
كل من الطبيب والرباني والفيلسوف على حد سوى وكان قد تعلم ايضا لغتنا
ولكن لم يكن سمعها قط من اهلها ولما كنت اشد، منها كان يطرب غاية الطرب
فدعاني الى ان ازوره في محله الكائن في بلدة بنريث من شمالي انكلتره فلما رأيت
ان مسامرتة غنم واجابته حتم وعدته بذلك ثم لما فرغت مدة الدكتور لي من
برستول عزم على الرجوع الى القرية المشؤمة فسافر قبلي بايام فسرت لاري بلدة
بان فبلغتها في نحو عشرين دقيقة فاول ما دخلتها رأيت امرأة تغني وغلاما
يضرب بالسنتير المعروف عندنا ولكن على الحانهم فسألت بعضا عن اسم الاكلة
فلم يعرفها فسألت العازف به فقال اسمه داسمر وهو من اللاتينية مشتق من
الحلاوة و بان هذه بلدة ظريفة بناؤها من الحجر وموقعها بين اودية ناضرة
وتلال بهيجة وهي مشهورة بماء معدني يستحم فيه ولهذا سميت بانا اي حماما وهي
مقر الكبراء والاغنياء ولاسيما المتقاعدين من الضباط وغيرهم ممن كانوا في الهند
واهلها ينفرون من الغريب ويسلقونه بالسنتهم وكذا هي سائر بلدان الانكليز
غير المطروقة من الغرباء ثم رجعت الى برستول وسافرت الى جبلتهم فبلغتها
في ساعتين وهذه المدينة معدودة عند الانكليز من اطرف المدن لحسن بناؤها
فانه من الحجر ولنظافة طرقها وكثرة الاشجار في ضواحيها ولكن ليس فيها
محال للهو والقهوة ولا مطاعم حسنة وقد اردت ان اتغدى في الظهر فلم اجد
شيئا عتيذا فاضطرت الى الشواء من الضان واشترط علي ان لا ادخن ثم اردت
ان اسافر الى اكسفورد فقل لي انه لا يمكن ذلك الا اذا رجعت الى كلوستر فعدت
ولما دخلت البلاد اذا بزحام وخلق كثير فسألت عن سبب ذلك فقل لي انه عيد
استئجار الخادمين والخدامات وذلك ان المخدم يستأجر خادمه الى اجل فلا
يمكن للاجير ان يخليه الا لاسباب ومع هذا الزحام والضجيج فلم يكن من شيء
يرني اليه الا باننا كانت تمشي على خشبتين وهذه البلدة هي محل صنع الحديد وهي
قديمة قدرة كاظمة للقلب ثم اجترت بعدة بلدان منها استورد فيها معامل الجوخ

ثم الى اكسفورد وقد تقدم ذكر ذلك ثم الى القرية وكنت قد استأجرت بيتا فيها يشتمل على اربعة مساكن وفرشته على قدر ما اقتضى الحال على متمكن غير امكن واستخدمت رجلا يزرع في ممتلكاته ما لا بد منه من البقول اوها الباطاس واخذت انشاغل بذلك تنقيسا للكرب وتسليه للهم فلم البث ان فجعت بولد لي وحيث لم يكن في القرية ولا فيما يليها طبيب بوثق بعلمه فان المتطبيين في بلاد الفلاحين انما هو نفاية اطباء المدن اشفت على الباقي فرحات من القرية قاصدا لندرة وغادرت البيت كما هو وكان على بادي بدى ان اكلم كاتب الجمعية واخبره بما اصابني فلما قابلته غلبني الحبيب والبكاء حتى انقطعت عن الكلام فاستعظم ذلك منى على سنى فان الانكليز قلما يكون على فائت ثم لما علمته بالسبب وشكوت له ما لاقيت في القرية واني اخشى ان اموت قبل نجاز الترجمة رأى ان الابقاء على حياتي هو الصواب وان الاوفق لي وللتوراة ان امكث في كبريخ لاكون غير بعيد عن الكسفرى واتفق مدة مكثي في لندرة ان وقع ضباب كئيف دام سبعة عشر يوما حتى احتجنا في بعضها الى ايقاد المصباح نهارا تهتدى ايدينا الى افواهنا فرأيت الجلاء اجلى واولى فن ثم سرت اليها فبلغتها بعد نحو اربع ساعات وهذه المدينة لا ملهى بها ولا حظ سوى مشاهدة المدارس والاساتذة والتعلمين وهم من الكبر والصلف بمكان اخوانهم طلبة العلم في اكسفورد وبعد وصولي بيوم جرى النزاع واللكام ما بين اهل المدارس واهل البلدة كما جرى في اكسفورد وفيها تعرفت ببعض فضلاء الانكليز ممن عنوا بالعربية منهم الفاضل مستر وليمس الذي هو الآن مدرس فيها والفاضل مستر برسطون الذي ترجم نجسا وعشرين مقامة من مقامات الحريري الى الانكليزية ومنهم الفاضل مستر جون برطون قرأ على جزءا من المقامات وكان الذي عرفني به يهوديا كان يعلم لغته وانه غاب عنه مدة فسألني عنه تليذه ذات يوم فقلت لا ادرى اين هو وانما لاح لي من سيماء وجهه حين جاءني ان في اماقيه شرا ثم لم يلبث ان شهر عنه في البلد انه كان يضاجع بنته وهي دون العشر سنين وكان ذلك دابه معها مدة مديدة فكم عليه بالنفي المؤبد وقد ادبت عنه احد اعيانهم وهو احد اعضاء مجلس المشورة العام واذ كنا واقفين في المجلس تحدثت من بين القيام شخصا بهم بان يدنو مني ليكلمني

ليكلمني فدنوت منه، فقال لي قد طالما اردت ان اسالك عن شئ في بلادكم فهل
 تمن علي بالجواب قلت ما هو قال اذا برك الجمل أيسر طبع ان يقوم وحده قلت
 لو سألتني عن الطعائن لاخبرتك فاما الجمل فلا ادري ثم لما حان وقت تعطيل
 المدارس قبل عيد الميلاد تذكرت ما وعدت به صديقي الدكتور نيكلسن فن
 ثم سافرت الى لندرة ومنها الى دارنكطون فبلغتها بعد نحو اثنتي عشرة ساعة
 قاسيت فيها من البرد والتعب ما لم اقا سه في عمري كله، وهنا ينبغي ان يلاحظ
 ان السفر في سكة الحديد وان يكن اسرع واسهل الا انه في بلاد الانكليز
 معنت مكمد لان الغريب لا يجد من اركاب من يدل عليه بحرمة السفر والتعب
 فيكامله فترى كل واحد بيده صحيفة الاخبار يطالعها مسافة سفره كلها
 واذا وقف الرتل لا يجد شيئا من المأكول والمشروب ما يفتأ تسخطه وليست
 القهوة عندهم الا ماء دخن سخن ولهذا كان اكثر الانكليز يسافرون
 النهار كله ولا يأكلون شيئا من حوائث المواقف وانما يتزودون الطعام والشراب
 من ديارهم وهو في الحقيقة اولى فاما مواقف فرنسا فان فيها كل ما الف
 الانسان في بيته على ان باعة المأكول والمشروب في بلاد الانكليز اشد
 خلق الله شططا فانهم يتقاضون على قنجان قهوة الدخن نصف شلين ثم سافرت
 من دارنكطون في الساعة النائمة صباحا فوصلت الى بنزيث في الحادية بعد
 الظهر ومررنا في خلال ذلك بعدة قرى ومدن من اعظمها برسطون سكانها
 نحو مائة الف نفس وهي مدينة شغل ومتجر شهيرة بملاني الارتال فيها يمر بها
 في كل يوم اكثر من مائتي رتل وهو عبارة عن صف عو اجل متناسقة بعضها
 الى بعض وكان البرد وقتئذ عارما والتج متساقطا فلما بلغت بنزيث سألت
 عن مقام الدكتور نيكلسن فارشدت اليه لكونه شهيرا في البلدة فلما راى
 رحب بي غاية الترحيب وانزلني في داره خير منزل واكرمني بما لا مزيد عليه
 فجاءه الله عنى خيرا ثم ان اقليم بنزيث حسن جدا لانه يحوى جبالا واودية
 واعظم جباله هل فلان ارتفاعه نحو ثلاثة آلاف قدم وهو مخصوص بمعادن
 الفحم واهل البلد نحو سبعة آلاف وفي اول يوم من ابريل حشدت الناس في
 الطرق ومعهم اعلام وآلات طرب فسألت صديقي عنها فقال ان جمعية هنا
 تسمى جمعية الاد من شانهم ان يجتمعوا في كل ثلاث سنين مرة لمواساة بعضهم

بعضاً فيصنعون وليمة في هذا اليوم ويتلون ما تقرّر عندهم من الترتيب ثم ينصرف كل منهم الى محله ومثل هذه الجمعيات في بلاد الانكلترا لا يعد ولا يحصى واهل ذلك الصقع يلتحفون بشعلة على اكتافهم للتدفئ ونعال فلاحيتهم من خشب وعيشهم اجهد من عيش غيرهم وانحسهم من يعمل في المعادن ثم عن لي ان اسافر الى سكوتلاند لأرى قاعدتها وهي ايدنبورغ اذ كنت غير بعيد عنها فودعت مضيقي وسافرت الى ليفربول فوصلت اليها بعد سفر نحو ست ساعات وهذه المدينة هي من اعمر مدن انكلترا بعد لندرة ومنشستر فلا يزال مرساها مشحونا بالسفن وسفنها مشحونة بالبضائع ومنه تسافر الى جميع الاقطار وهي تقابل مرسيية في فرنسا كما ان منشستر تقابل ليون في كونها ذات معامل للحرير والثياب ولندرة تقابل باريس • وفي ليفربول عدة ملاه وملاعب وحوانيت • هجة وابنية حسنة من اعظمها المحل الذي يقال له قاعة البلاد واهل المدينة لا يسخرون من الغريب وذلك للكثرة اختلاطهم بالغريب • وكان افتتاح سكة الحديد بينها وبين لندرة في سنة ١٨٣٨ وطول قوتها ميل وربع وكانت في الزمن القديم محل صيد للسماك ثم صيرها الملك هنري الثامن محلة لاجتماع العساكر وتجريدهم منها لفتح ايرلاند • ثم سافرت منها الى منشستر فبلغتها في نحو ساعة وهذه المدينة اشهر مدينة في الدنيا بكثرة الناسج والانوال وعدد الصناع فيها نحو ثمانين الفا فاذا اعتبرت ان معظم الآلات يدور بالبخار ظهر لك ان هذا القدر يقوم مقام اربعمائة الف صانع • قال الفاضل مأكولي ان منشستر هي اعظم مدينة لاشغال القطن والنساجة وكان القطن مذخسين سنة يجلب اليها من ازمير وقبرس وجلة ماورد اليها في غاية القرن السابع عشر لم يبلغ مليوني رطل اما الآن فان هذا القدر لا يكفي لعمل ثمان واربعين ساعة • فانظر الى هذا الفرق العظيم الذي نسا عن قوة البخار حتى انه جعلها تفوق في الثروة والغنى على قواعد اوربا جميعا وذلك نحو برلين ومدريد وليسبون وكان اهلها اذ ذاك نحو ستة آلاف ولم يكن فيها مطبعة ولا عاجلة والآن فيها مائة مطبعة وعشرون صنعا للمجلات اه قلت وقد جلب اليها في السنة الماضية ٥٦٠٠٠٠ عكهم او بالة من الحرير ومن القطن ٢١٠٠٠٠٠ عكهم ويقال ان جميع محصول الدنيا من هذا الصنف الاخير يبلغ اربعة ملايين في السنة سبعة اجزاء

اجزاء منها تحصل من امريكا والجزء الثامن من سائر البلاد (١) وجملة المعامل الموجودة في بريطانيا بموجب خلاصة حديثة العهد ١٧٧٥ منها ٤٣٢ر٤ في انكلترا ووالس و ٥٣٠ في سكوتلاند و ١٥٥ في ارلاند وعدد ما يدار من الانوال بالبخار ١٣٧٧١١ وما يدار بالماء ٢٣٧٢٤ وجملة عدد المستخدمين فيها من الذكور ٢٧٣١٣٧ ومن الاناث ٤٠٩٣٦٠ الجملة ٦٨٢ر٤٩٧ وفي جميع المملكة ٤٦٠ معملا للحرير و ٤١٧ معملا للكتان و ٥٢٥ معملا للحبك و ١٥٠٥ للصوف و ٢٢١٠ للقطن وفيها اي في معامل القطن من الصناع وغيرهم ٢٧٩٢١٨ وفي معامل الصوف ٧٩٠٩١ وفي معامل الحبك ٨٧ر٦٩٤ وفي الكتان ٨٠ر٢٦٢ وفي الحرير ٥٦ر١٣٧ (٢) وبلغ ثمن ما ارسل من هذه البلاد من منسوجات القطن في ثلاث سنين احدا وثلاثين مليون ليرة ومن الصوف عشرة ملايين فاما قيمة جميع ما ارسل من بلاد الانكليز فقد بلغ في سنة ١٨٥٦ نحو ١١٦ر٠٠٠ر٠٠٠ ليرة (٣) وقيمة ما يبعث من فرنسا في كل سنة من الامتعة المصنوعة والمصوغة تبلغ ١٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ فرنك وقيمة جميع ما يخرج من مملكة بريطانيا من اللوازم التجارية وغيرها تبلغ في السنة نحو ٥١٢ر٠٠٠ر٠٠٠ ليرة وفي سنة ٥٦ بلغت قيمة

(١) علم من احصائيات دولة انكلترا ان مقدار القطن الذي جلب الى انكلترا من الخارج بلغ في سنة ١٨١٥ ٩٩ر٠٠٠ر٠٠٠ رطل انكليزي وفي سنة ١٨٢٥ بلغ هذا المقدار ٢٢٩ر٠٠٠ر٠٠٠ وفي سنة ١٨٤٠ بلغ ٥٩٢ر٠٠٠ر٠٠٠ وفي سنة ١٨٥٠ ٦٦٣ر٥٧٦ر٨٦١ وفي سنة ١٨٦٠ ١٨٦٠ر٧٥٢ر٩٣٨ر١٣٩٠ وجلب اليها في سنة ١٨٧٩ ١٤٦٩ر٣٥٨ر٤٦٤ ومقدار ما خرج منها الى الخارج بلغ ١٨٨٨ر٢٠١ر١٨٨٨ رطلا

(٢) في سنة ١٨٧٤ بلغ عدد المعامل في انكلترا ووالس وسكوتلاند وارلاند ٧٢٩٤ معملا وعدد المستخدمين والصناع فيها ١٠٠٥ر٦٨٥ منهم ٣٩٤ر٠٤٤ ذكور و ٦١١ر٦٤١ اناث

(٣) بلغت قيمة جميع البضاعة التي خرجت من انكلترا الى الخارج في سنة ١٨٧٩ ١٩١ر٥٣١ر٧٥٨ ليرة

المبعوث من بلاد الانكلير في مدة احد عشر شهرا ١٠٥٨٤٥٠٠٠ ليرة زاد على سنة ٥٥ عشرة ملايين ثم وجدت في الاحصائيات ان قيمة المجلوب الى بلاد الروسية بلغت في سنة ١٨٦٠ ١٨٣١٧٧٢٢١٠١٠١ رويلا وكل رويلا عبارة عن اربعة فرنكات وقيمة الخارج منها بلغت ٥٢٨٥٤٠٢١ ر٢١ وبلغت قيمة المجلوب الى اوستريا في السنة المذكورة ٢٢٩٢٣١٤٧٢ فلورين وكل فلورين عبارة عن فرنكين ونصف وبلغت قيمة الخارج منها ٣٠٦٨٤٩٧١٦ ر١٦ وبهذا تعلم الفرق ويوجد محل في ارلاند يخص احد الانكلير فيه اربعة آلاف شخص مستخدمين في عمل القمصان يصنعونها باندوات النار وهذا القدر بمنزلة سبعة آلاف شخص فاي فرق يرى الآن في بلاد الانكلير وقد صارت تمتد جميع اقطار الدنيا بمصنوعاتها وتكسو الناس والحيوان والديار بمنسوجاتها بعد ان كانت تبعث الثياب الى هولاند لتصبغ هناك وتعاد اليها لتبيعها وبعد ان كانت تنظر احد الفارين من فرنسا وغيرها ان يأتي اليها ويبت فيها صنعة من الصنائع فان هذا الديباج الذي يسمونه داماسك اصل صنعه كان في دمشق ثم حاكمهم فيه اهل هولاند وفي سنة ١٥٧١ هرب منهم جماعة بسبب ظلم الامير الفا وجوره عليهم فجاؤا الى بلاد الانكلير وصنعوه فيها • قال مؤلف المخترعات العجيبة اما صنعة النسيج فقد كانت معروفة في بلاد الصين من قبل ان عرفت في اوربا بدهر طويل والغزل عندهم والنسيج والصبغ انما هو من شغل النساء واول من صنع ثياب الصوف في بلاد الانكلير رجلان قدما من برابان ثم قدم من هولاند صباغون وبزازون وصناع للحرير وشهروا هذه الصنائع بين الاهلين وذلك في سنة ١٥٦٧ والذي جلب من الكوكاو من الهند الغربية في سنة ٥٢ بلغت قيمته ٤٣٤٩٠٥١ ليرة • والمخزون من الشاي في عامنا هذا بلغ سبعة وثمانين مليون رطل ونصف مليون • ودخل من التبغ في احد عشر شهرا ٢٩٧٧٦٠٨٢ ر٨٢ رطلا يصرف منها اكثر من ثمانية ملايين في العام • وبلغت قيمة ما ارسل من الشريط والقيطان من شهر كانون الثاني الى شهر تشرين الثاني ٣٣٩٠٨٣٣٠٨ ليرة واذا نظرنا الى احوال انكلتر منذ القديم وجدنا ان ملابس اهلها انما كانت من جلود الحيوانات وان ثياب زعمائهم لم تكن الا من الكرباس الخشن كما انما هو مسمح حتى ان الفرسان الذين تنوه بهم التواريخ كانوا اذا نزعوا عنهم الدروع

الدروع الملمعة يشف عنها ثياب الجلد فلما عرف النسيج في الاعصر المتأخرة كان الغزل كما لا يخفى من صنع النساء وبقى الحبال على ذلك دهرًا طويلا الى ان قبض الله ارك ريت والتي في روعه استنباط آلة للغزل تكون دائمة الحركة فوفق الى ذلك ونجح ما امكن • وقال آخر ولد ارك ريت في سنة ١٧٣٢ وبقى الى سنة ٣٦ من عمره حامل الذكر مشغلا بالحلاقة ولم يكدي يحهل من حرفته شيئا زائدا على قوت يومه الا انه كان ذا فكر ثاقب في جر الاثقال فما زال يعمل فكره في اختراع آلة الغزل حتى تسنى له ما قصده ولكن بعد صعوبات شتى فلما اشتهر مخترعه اجازت له الدولة ان يستبد بمنافعه الى مدة مديدة فانشأ معملا في دربي ولم تمض عليه مدة حتى احرز اموالا طائلة وطار ذكره بين الناس فحدث باستنباطه هذا في اشغال النسيج تغيير عظيم من تنقيص الصناع وترخيص سعر الثياب اه وحكى عنه حكاية غريبة وهى انه ذهب الى بعض اعمال انكلترة واوهم اهلها ان الدولة جردته لان يقص شعورهم ليسلوا من عدوى البلاء الذى كان فشا بين جيرانهم فاقادوا له فلم يبق الا من قص شعره وانحفه به فاخذ تلك الحصل وصبغها وانتفع بها انتفاعا جزيلا • قال بعض العلماء من الافرنج لولا استنباط ارك ريت لما استطاعت دولة الانكليز ان تقاوم نابوليون الاول مدة خمس وعشرين سنة حتى قهرته في آخر الامر وقصرته في جزيرة صانت هيلان • واول من اتقن صناعة نسج الحرير في انكلترة جماعة هربوا من فرنسا الى لندرة وذلك سنة ١٢٨٦ واصل جلب الحرير المصنوع الى بلاد اليونان كان من بلاد فارس وذلك في سنة ٣٢٥ قبل الميلاد وعرف في رومية في ايام طيباريوس وحرم على الرجال دون النساء و اول من لبس ثوبا منه هليوغابالوس وذلك في سنة ٢٢٠ للميلاد وكان من الحرير اولا في قيمة الذهب وزنا بوزن وكان يظن انه ينبت من الارض كشجر التطن وفي القرن السادس جلب دود القز من الهند الى اوربا وفي سنة ٧٨٠ اهدى شارلمان حلة منه الى افا ملك مرسية وفي سنة ١١٣٠ حرض روجر ملك صقلية رعيته على عمله فكانوا يربون دود القز ويغزلون الحرير وينسجونه ثم اشتهرت صنعته في ايطاليا واسپانيا وجنوب فرنسا وذلك في سنة ١٥١٠ وفي سنة ١٥٨٩ كثر هنرى الرابع دوده وشجره في جميع المملكة وفي سنة ١٢٨٦ لبس بعض نساء الاشراف من الانكليز

حبرا منه • وقال فلتير لم تقم امة قوية في التجارة والحرب بعض انقراض قرطاجنة كما قامت دولة فينيسيا حتى صارت قدوة في ذلك نعم ان دولة البورتغال جازوا الى الهند من عند الرجاء الصالح وظلوا حينئذ من الدهر ولاية سواحلهما واولى شوكة في اوربا وان ولايات امريكا المتحدة صارت ايضا دولة محاربة رغما عنها حتى علجت دول اوربا وان فينيسيا و امستردام وقرطاجنة حازوا من قبلهم من العز والمنعة ما شغل اللسان بالمدح والثناء الا انهم جميعهم عملوا كما يعمل الناس في عصرنا هذا في انهم بعد ان حصلوا الثروة بالتجارة اشتروا ضياعا و املاكا واخلدوا الى الرفاهية والراحة فما احد ابتداء ان يكون محاربا حتى يكون في آخرته تاجرا الا الانكليز فهم وحدهم الجديرون بهذا النعت فانهم حاربوا احتقبا طويلا من قبل ان يعرفوا الحساب ولما انتصروا في وقائع اغنيكورت و كرسا وبوستيروس لم يكونوا يعلمون انهم يقدرون بعدها على تجارة الحبوب او على صنع الجوخ العريض فان ذلك لهم انفع من تلك النصر • لا جرم انه لا شيء يغني الامة ويشيد عزها كعرفة الصنائع والتجارة اذ لولا التجارة لما كانت لندرة تفضل باريس في السعة و كثرة السكان ولما قدروا على ان يثوا في البحر مائتي سفينة حربية و يجروا الرزق العميم على الممالك المتواطئة معهم ألا ترى ان لويس الرابع عشر لما التقى العرب في قلوب اهل ايطاليا واستولت جيوشه على صافوى وبيدمنت وكادوا ان يستولوا ايضا على طورين لم يكن بد للامير يوجين من ان يتوجه الى اطراف جرمانيا لانجاددوك صافوى ولكن لما لم يكن له مال يمكنه من ان يفتح بلدا او يضبطه اضطر الى الاستعانة بتجار الانكليز فاجابوه الى ذلك فورا واقرضوه في نصف ساعة خمسة ملايين فرنك فاستخلص بها طورين وقهر الفرنسيين وردهم عنها مقهورين ثم كتب الى الذين دانوه « ايها السادة اني قد تسلمت منكم مالا وقد انفقته فيما يرضيكم » فكان كلامه هذا حاملا للانكليز على الكبر والافتخار وله على ان ينزل نفسه بمنزلة روماني وهو به خليق على ان اصغر اولاد صاحب المملكة عند الانكليز لا يأنف من ان يكون تاجرا فان اخا اللورد طونسند آر ان يكون تاجرا في السبي على ان يقلد وظيفة في الديوان • ولما كان اللورد ارفورد متوليا تدبير المملكة كان اخوه منشيء معمل في حلب ولم يشأ ان يرجع الى وطنه بل مات هناك • وهذا الداب الذي اخذ الآن

الآن في الدور كان يعد عند امرآء جرمانيا من المنكرات فلم يقدرُوا ان يفهموا كيف يكون ابن صاحب المملكة داخلا في سلاك التجار مع انهم هم كلهم سادة • ولكن كم قد رأينا منهم من كبير يوصف بلقب السمو وليس له ملك ولا ثروة غير هذا الجلاء والكبير الاميرى • اما في فرنسا فان كل واحد يمكنه ان يصير مركباً وكل من يقدم اليها من البلاد الاجنبية وآخر اسمه ينتهى بحرفى الكا و ايل وعنده مال ينفق منه، فان له ان يقول ليس لى من ظير وما احد من بابى وينظر الى التاجر بعين التهاون والاحتقار فاذا سمع التاجر ان الناس يعيبون حرفه ويشينونها اعترا، الخجل ولكن ليت شمرى اى الرجلين انفع لدولته، أسيد يعرف بالتفصيل متى يقوم ملكه ومتى ينصرف الى مرقده ثم يتخذ لنفسه مظهر عظيمة وابهة وهو مع ذلك يرضى لنفسه خطة ذل وعبودية بانتظاره الوزير فى قصره ام تاجر يقعد فى مخدعه ويبث منه، او امر الى سورات وحلب ليغنى بلاده ويسعد اهلها اه • قلت ومدح فلنير التجارة ليس قدحا فى العلوم والمعارف وانما هو تحريض على اتساع دائرة التمدن وشتان ما بين تجار الفرنسيس وبين تجار البلاد المشرقية فان هؤلاء لا يحسنون الكلام الا فى المكيول والموزون ولا يعرفون ان يكتبوا سطورا واحدا من دون غلط فهذه الحال ينكرها فلير وكل ذى ذوق سليم • ثم ان منشستر هذه كانت فى القديم مقاما للدرويدس وكان لهم فيها هيكل ومذبح قيل له باللغة القديمة مين اى حجر وصارت قبل الميلاد مقرا للهمج فبنوا فيها قلعة سميت منسنيون اى مضرب الخيام ثم تصحفت على المتأخرين فقالوا للمدينة منشستر • وهؤلاء الدرويدس كانوا فى القديم كهان جرمانيا وفرنسا وبريتانيا وحكامهم وكانوا فى هذه الاخيرة ينتخبون من اكرم العيال فكانوا يستغلون بالعلوم ومعرفة الفرائض الدينية ويعبرون كلام الآلهة ويفصلون الدعاوى الخطيرة ويتولون تدبير الجيش • ولما غزا قيصر هذه الجزيرة قابلوه بالجيش والبسالة ذبا عن الوطن فنتهم عليهم ذلك بعض ولاة الرومانيين فاستأصل شافتهم • وفى هذه المدينة اسواق ظريفة وحوائيت بهيجة وفيها تعرفت بالفاضل الكريم عبدالله افندى الادبى فنصل الدولة العلية ولم يكن لتعارفنا من سبب سوى حرة رأسينا فانه اول ما رأى طربوشى اقبل الى متبسا باشا ودعانى الى منزله من دون ان ابرز اليه كتاب وصاة على عادة القوم ولم يكتف بهذا

حتى اخذ عنوان مقامي في كبريج قصد ان يبعث الى بهدية من طرف المدينة وقد فعل جزاءه الله خيرا وله مسامح عند الدولة المشار اليها محبونة وذكر حسن عند اهل البلدة وعند اهل السام ايضا • وفيها رأيت محل التلغراف وهو على نوعين • الاول المتعارف وهو شبه الساعة الدقاقة في وجهها ابرة من فولاذ موضوعة تحت نصف حلقة وفوقها مسماران صغيران من عظم قد رسم فوقهما الحروف الهجائية والغالب ان يكون في كل صفحة ابرتان فتتحرك الابر السلاك المتصل بهما من وراء الصندوق طرقت على كلا التودين ولكل حرف طرق معلوم فالالف مثلا لها طرقتان على وتد واحد والباء ثلاث اثنتان على وتد واحدة على آخر وهلم جرا • والثاني وهو ما اخترع بعده فكان اوفق واسهل وهو آلة كالدولاب فيها قلم دقيق من فولاذ مركب من اجزاء كيميائية ويمر من تحته سير رقيق من ورق مركب ايضا فيرسم عليه خطوطا سودا هي في عرفهم حروف • وهناك ايضا آلة كسنوال الحائك ذات اسنان دقيقة بارزة من يمين من تحتها الورق فترسم عليه خطوطا • وقيل انه يوجد آلة ترسم الحروف المكتوبة كما يرسمها كاتبها سواء حتى لو كتب احد بالعربية شيئا انته كما هو وهذه الآلة لم ارها • واكثر الآلات استعمالا في بلاد الانكليز انما هي الابر وفي بلاد امريكا الدولاب • وبكل منهما يصل الخبر من لندرة الى ايدنبورغ وهي مسافة ثلاثمائة ميل في ثمانية وسواء كانت المسافة طويلة او قصيرة فالتأثير واحد • فاما تحريك الاسلاك فانه ينشأ عن الخاصية الجاذبة من وضع صفحة من النحاس وقطعة من التوتيا توضعان في الماء فيخرج منهما روح يسرى في السلك النحاس لهما ومنه الى الاسلاك التي ترى عيانا في الطريق وقد تراها ممتدة في الهواء بجانب سكة الحديد وربما كانت عشرة فاكث وربما بلغ الخبر بعضها الى مكان وبعضها الى مكان آخر • وسواء كانت ساذلة او عالية او على خط مستقيم او منحرف فلا يتخلف حكم الخبر بها وقد ثبت بالتجربة انها تصح تحت الماء كما تصح في الهواء • وهذه المصلحة يتكفل بها جماعة على حدتها والفائدة منها عامة للجميع ولا سيما الدولة والتجار فانه اذا اريد الاستخبار عن امر مهم علم في دقيقة واحدة واذا هرب القاتل من بلد الى آخر عرف شانه قبل وصوله الى مهربه وجعل نحو عشرين كلمة نصف ليرة • ثم لما قر بي المقام في لندرة طالبت

طلبت من مدير التلغراف ان يأذن لي في رؤية الآلات وموضع النحاس والتوتيا فورد الى الجواب منه بانه يكره ان يريها الغرباء ولا سيما الاجانب كل الكراهية ولكن اذا كتبت اليه الجمعية في ذلك يرضى حتى اذا فعلت بعثت معي من ارائها جملة وتفصيلا • فاول ما رأيت هو الموضع الذي فيه التوتيا والنحاس وهو عبارة عن موضع مظلم كالتنفق فيه موائد كثيرة من خشب ذات بيوت صغيرة مقسمة تستمل على هذين الجوهرين وقد غمرت بالماء ومعهما ملح الكبريت وسلك الحديد وهذا السلك متصل بالسلك الظاهر في الهواء كما تقدم آنفا اما التوتيا فتدخل على طول المدى وتتلاشى واما النحاس فيزيد • ثم أريت موضعا في الحائط مغشى بالخشب يشتمل داخله على اجزاء وخارجا على نحو مسامير بارزة منه فجاء الرجل بقطعتين من الفحم وادناهما من مسمار واذا بنور بهي ساطع خرج من طرفيهما ومن هذا التقابل في الجاذبية تخرج ألوان عديدة زهية يبدوونها احيانا في الملاهي بما يقصر عن وصفه القلم ولما وضعت اصبعي على مسمارين منها احسست بارتعاش وجاذبية اخذت مفاصلي فرفعتها حالا • ثم صعدنا الى الموضع الذي تلقى فيه الاخبار من كاتب ديوان التلغراف وذلك انه اذا اراد احد ان يعف خبرا يكتبه وسامه للكاتب او املاه عليه مشافهة فيدونه الكاتب في رقعة ويجعلها في ظرف ويسد اعلاه ثم يضعه في نحو صندوق فتدفع القوة الكهربائية الى موضع يكون عنده غلام واقف فيأخذه ويسلم الرقعة الى قيم الآلة المعدة لتبليغ الخبر فان كان يراد توجيهه مثلا الى باريس سلمه الى قيم آلة باريس وهلم جرا • ثم دخلنا موضع الآلات وهي على الصفة التي رأيتها اولا غير اني رأيت التبليغ هنا على يد النساء لا الرجال وكيفية ذلك ان تقعد المرأة على كرسي وتمسك بيدها مقبضا من خشب وتحرك حركات مطابقة لاصطلاح الحروف فيتحرك السلك المشرب من روح التوتيا والنحاس فيحرك الابرة في المحل المبلغ اليه الخبر على حسب حركات اليد وتري البنت تحرك هذه الآلة كما يحرك العازف يده على آلة الطرب بغاية ما يكون من الخفة وبينما كان الرجل يكلمني امام آلة اذ رأينا الابرة تطرق على المسمارين ثم حركت البنت المقيض وسكتت ثم تحركت الابرة ايضا وكان ذلك باسرع من ان ينطق المتكلم بعشر كلمات فقال لي الرجل أتدري ما سبب حركة الابرة مرتين قلت لا قال قد ورد

وفاراه من يد الشرطة ويطمع في انه اذا بلغ الى احدى المدن الغنائم يخفي
اثره عن غريمه ويضيع خبره في دخوله بين الناس فيعمد الى رتل يمر مسافة
خمس مائة في الساعة ويصكون خبره قد تقدمه في السلك الذي يراه
بعينه مرة عن يمينه ومرة عن شماله ويكون الشرطي قد عرفه بسمته وسمته
وصفاته وعرف الرتل الذي سافر فيه فايكاد يخرج منه الا وهو آخذ بتلايبه
فيبقى مدهوشا مبهوشا لا يدري اين يقصد ثم تفتش صناديقه واوعيته ويستخرج
منها المسروق ويرسل هو الى الحبس فن ثم كانت فوائد هذه الاسلاك من اعظم
الاسباب المؤيدة لاقامة الحق وتشديد سنن الشرع وتنفيذ احكامه ولو كان
ايصال الخبر على هذا الوجه قد عرض على مسامع اهل القرون الخالية لعدوه
من الخزعبلات المقتعلة الا ان هذه العملية لم تنشأ عرضا او بغتة بل بعد اعمال
فكر وجهد روية في مدد متعاقبة واصل ما ادى اهل الحكمة والفلسفة الى
هذا الاستنباط كان استعمال فرنكلين الاميريكانى للطيارة المعروفة ومنذ حينئذ
خطر ببال المتبحرين في العلوم انه لا يبعد عن الامكان ايصال خبر بواسطة
الالة الى بعض الاماكن السابعة • قلت ولد فرنكلين المذكور في مدينة بوستان
من اميركا في سنة ١٧٠٦ وكان في مبدأ امره خامل الذكر ثم اشتغل بالعلم وحسنت
حاله وما زال يترقى في المعالي حتى صار من اهل السياسة وذهب الى باريس
وحظى عند رجال الدولة حظوة عظيمة حتى انه لما بلغهم خبر وفاته لبسوا عليه
الحداد وله مؤلفات عديدة اه فاما خبر طيارته فهو انه صعداها في يوم ذى دجن
وكان قد ربط مرستها الى وتدين واناط بها مفتاحا فلما غشيها الغمام وجد ان
بعض خيوطها قد تنفش وتجا في عن بعض منتصبا فاذنى برجته من المفتاح
فاحس بشرار البرق قال وفي سنة ١٧٨٧ اجري لوموند السكوتلاندى عملية
تقرب من هذا الكشف وفي سنة ١٧٩٤ نصب ريزر تلافرا فايكن استعماله وان كان
اقل نفعا واتقانا من المستعمل الآن فكان التبليغ فيه خاصا بالسلك والعمل كله
للشرارة الكهربائية وكان السلك يجعل في موضع مظلم وحوله صفائح من
القصدير عليها حروف مرسومة وقد ركزت على صفائح من زجاج فاذا طار
الشرر على هذه ليحرق في السلك اضاء الصفائح فتمكن به قراءة الحروف ثم قام
فولتى وحسن هذه العملية بعض التحسين ثم رونالدس من همسميث وارستد من

كوبنهاغن وشويجر وموينك ودافيس واراغو وغيرهم وكل منهم زاد شيئا وحسن شيئا وفي سنة ١٨٢٧ قام الدكتور كوك وويتسطن واخذوا رخصة من الدولة لأجراء هذه العملية وفي سنة ١٨٣٩ استعمل التلغراف كما نراه الآن في سكة الحديد المسماة السكة الغربية الكبيرة وهو الذي يبلغ الخبر بواسطة طارق الآلة على المسامير واخبرني من يعرف ويتسطن انه هو الذي اخترع آلة الطرب المسماة كنشريتو وآلة اخرى من نوع النظارات ثم اخترع الدكتور سطنيل من مونيخ آلة تنمط الخبر على ورق وعلى قدر ترتيب النقط يكون نحوى المنطوق وفي سنة ١٨٤٠ اخترع ويتسطن هذا المنوال الذي يدور ويرسم الحروف وفي سنة ١٨٤٣ نصب مستر وود الاسلاك على دعائم وكانت من قبل تحت الارض وهي غير ممتدة لها بل هي نافذة من حلق من الفخار وبذلك سهل نصب اسلاك غليظة من الحديد بدل النحاس فتمتصت المصاريف نحو النصف وهذه الاسلاك تجري في ثلاثي سلك الحديد الممتدة وليس من بلد عامر الا وتصل اليه الاخبار بها اه • وقال صاحب ابجدية الاوقات اول من خطر به افساء التلغراف المعروف الآن كان الدكتور هوك وذلك في سنة ١٦٦٤ وقيل ان موسيو امتونس هو ايضا مخترعه في ذلك التاريخ الا انه لم يجز استعماله الا في سنة ١٧٩٣ وقيل ان موسيو ساب هو اول من اخترع التلغراف الذي استعمله الفرنسيون في تلك السنة وفي سنة ١٧٩٦ نصب سلكان فوق ديوان الاميرال اه قلت كانت ولادة روبرت هوك في سنة ١٦٣٥ ووفاته في سنة ١٧٠٢ ويقال انه هو اول من اخترع آلة لتقويم حركة الساعة واتقن كثيرا من الآلات الهندسية وفكر في الجاذبية الأرضية واستنبط في الرياضيات والفلكيات والطب والكيمياء اشياء كثيرة وكان شرسا حسودا نازع نيوطون انفس مخترعاه • ثم سافرت من منشستر الى ايدنبرغ قاعدة سكوتلاند وهي مدينة بهيجة جدا مبنية من الحجر الصلب على عدة نبجات وهي شطران احدهما جديد والثاني قديم اما القديم فان دياره عالية جدا فقد تشتمل الدار على ثمانى طابعتات الا ان فيه ازقة قدرة ضيقة جدا واما الجديد فانه يشتمل على طرق واسعة وديار حسنة وحوانيت عظيمة ومبايت للمسافرين رحبية وفيه مدرسة جامعة تحوى نحو ستمائة طالب وهي شهيرة بعلم الطب وفيها مكتبة موقوفة تحوى ثمانين

الف كتاب ما عدا كتب خط اليد • وهناك قبة جليلة فيها تمثال سر
ولطر سكوت شاعرهم الشهير ولها مرقب عال مطل على الخليج الداخل
من البحر وسعته عدة اميال وهذا المطل يكاد ان يكون كسطال جبل لبنان •
وقد كان الفاصل بين الشطرين خليجا والآن جعل ممرًا للارتال • اما ارض
سكوتلاند فهي دون ارض انكلترة في الخصب والريع وذلك لكثرة الجبال
فيها الا ان اهلها اصحاب جد وداب في الصنائع وشأنهم التغرب في جميع
البلاد فهم كاهل حلب في سورية وكل سنة يهاجر منهم اكثر من ثمانية
عشر الفا وهم اكثر شجرة وصهوبة من الانكليز وعدتهم نحو ٣٠٠٠٠٠٠
واهم لغة خاصة بهم غير ان لغة الانكليز غلبت عليهم الآن وحاكمهم
منهم ولكنه تحت طاعة الدولة وهم اشد تحمسا في الدين من الانكليز
فان اصحاب الفنادق يضعون في كل غرفة للمسافر كتابي العهد القديم والجديد
وكثيرا ما ترى نساء يعن الفاكهة في الطريق وبين ايديهن كتاب الانجيل
وقد طالما حاولت اساقفة الانكليز اقرار كنيستهم فيها وجعلها الاصل كما
فعلوا بارلان فقابلهم الاهلون باشد الابداء والتمنع مع ان اهل ارلان اكثر
من ٧٠٠٠٠٠٠٠ وسبب ذلك انه لما اتحدت سكوتلاند بانكلترة وذلك في
سنة ١٧٠٧ كان من جملة الشروط التي اشترطوها ان تبقى رسوم كنيستهم
ومناسكها كما كانت فاقرتهم الدولة على ذلك الى يومنا هذا وهم مثل الانكليز
في كونهم يشفنون الغريب فاني حين كنت امر في الطريق كان يجري ورأي
جمع غفير من الرجال والنساء والاولاد ينظرون الى داربوشي ويتعجبون حتى
اضطرت مرة الى ان اتواري منهم في دكان • وقد رأيت في هذه المدينة
التصر الذي كانت تسكنه الملكة ماري استوارت المشهورة بالجمال والنجابة
وهو في خفض من الارض وفيه شاهدت صورتها وسريها الذي كانت
تنام عليه وصورة الطلياني الذي اتهمت بحبه وهو يقاربها في الجمال وصورته
باقية في الموضع الذي قتل فيه غيلة وسبه فيما قيل انه لما كان يعزف لها
بالكنارة ذات ليلة اذ هجم عليه زوجها من باب خفي فقتله عند الباب الخارج
ولم يزل اثر الدم على الخشب القريب من العتبة • ثم رأيت صورتها ايضا
في التلعة التي حبست فيها بعد ان اتهمها حسادها بالفحش وهي اجل من

صورتها في القصر • ولما كانت محبوسة هناك اخذها الطلاق فوات جامس الاول وهو الذي صير مملكتي سكوتلاند وانكلتره مملكة واحدة • وشاهدت ايضا في القلعة تاج الملك والسيف والصولجان والنيشان وخاتما من ذهب فصد ياقوتة اكبر من الفولة والسباك الذي تدلت منه قبحت وهو عال جدا وفيها ايضا كنيسة صغيرة يقال انما اول كنيسة اقيمت فيها فرائض النصرانية في تلك البلاد وكانوا حينئذ يرمونها وهذه الالة مبنية على صخر ارتفاعه ثلاثة اقدم • فاما ما كان من امر الملكة ماري ففي محفوظي انها بعد ان يئست من الملك بعد وقائع طويلة جرت بينها وبين اعدائها فرت من دار الملكة وكتبت الى ابنة عمها وقيل اختها اليصابات ملكة الانكليز تستجير بها فكتبت اليها ان اقدمي عليّ ولك الامان فلما قدمت عليها اضمرت لها سرا حسدا لها على جالها ومحاسنها فصدق المثل حيث قال • ان من الحسن لسقوة * ثم تجت عليها امورا كثيرة من جلته انها قتلت زوجها فاودعتها السجن ثم خفرت ذمتها معها وتقضت عهدها وعقدت عليها مجلسا حكموا بقتلها فقتلت • ومع ان الانكليز ينوهون باسم الملكة اليصابات لاجارتها مذهب البروتستانط فلا ينفون عنها هذا الغدر الشنيع الذي رضيته لنفسها بعد التأمين فهو دايح يصدأ به ذكرها على مر الدهور • ومن قرأ قصة الملكة ماري وهي مسجونة وما لقيت من الضر والنكد فلا يملك عبراته عليها لعمرى انه لم يشقنى شئ الى رؤية سكوتلاند غير صورتها وقصرها وذكر ايامها • قال بوليه ان ماري ملكة سكوتلاند هي بنت يعقوب الخامس ملك سكوتلاند ولدت في سنة ١٥٤٢ ومات ابوها بعد ولادتها بخمسة ايام وفي سنة ١٥٥٧ تزوجت دوقان فرنسا ثم صار ملكا باسم فرنسيس الثاني ومات عنها بعد سنة ونصف فرجعت الى سكوتلاند الا ان تمسكها بديانة الملة الكاثوليكية جعلها بغیضة لدى الاهلين وفي سنة ١٥٦٥ تزوجت ابن عمها هنري لمجرد جلاله فقط وكان يفار عليها من داود ريزيو الطلياني كاتب سرها فقتله برأى منها وفي سنة ١٥٦٧ هلك هو فانهممت بقتله وبعد ثلاثة اشهر تزوجت كونت بونول ولم تتدبر في العواقب حيث كان انهم بانه اجهز على زوجها فشغب عليها فعلها هذا اهل المملكة والزموها ان تعدي عن

عن مذهبتها ففرت والتجأت الى ابنة عمها الملكة اليصابات وذلك في سنة ١٥٦٨
 وحيث كانت اليصابات تحسدها على جبالها القتها في السجن ثمانى عشرة سنة ثم
 تجنت عليها اذها غاوت جاعة من الكاثوليكين على اهلاكمها فقضت عليها
 بالقتل فانت وهي متجلدة وكانت توصف في عذرها بالـكياسة والظرافة
 والفصاحة وبانها اجل النساء وعند وادعها فرنسا قالت كلاما بليغا • قلت
 وجدت في بعض التواريخ اذها نظمت في هذا المعنى ابياتا بالفرنساوية وترجتها
 كما يأتي «وداعا يا فرنسا الايقية يا بلادي التي هي عندي الاعز والتي رشحت صباي
 وداعا يا فرنسا وداعا يا ايامي الغراء فيها ان الفلك الذي فصل حي لم يحمل الى
 هنا سوى شطري ولقد بقى لك الشعر الآخر ملكا لك وساتركه لودتك حتى
 يتذكرك الآخر» وقال آخر قلت ولها من العمر ٤٤ سنة وشهران ولما قدمت
 الى بلاد الانكلير كان سنها خمسا وعشرين سنة وقال بوليه وماتت عن ولد
 ملك على سكوتلاند باسم جامس السادس وعلى بلاد الانكلير باسم جامس الاول
 وقد الف العالم شلر على قلما تمثله من ابلخ ما يكون اء
 قال بعض من شاهد ايدنبرغ وكلاسكو من الانكلير ان للتيسين ولقهاء
 الشرع في ايدنبرغ يدا طويلة وكلمة نافذة فان الناس تنقاد لهم في اكثر الامور
 ولا يكاد الناظر يترسم البيع والشراء الا في حوائثها بخلاف كلاسكو ومن
 يقيم فيها فكأنما هو مقيم في الريف وذلك لصفاء هوائها عن الدخان ومن
 كل جهة منها يستنشق نسيم البحر وهي مبنية من حجارة منيعة باقية على الدهر
 ويمكن ان يقال انه ليس في الدنيا كلها مدينة مثلها على هذا الوضع الايق
 اما اهلها فابرحوا محافظين على عاداتهم ورومهم القديمة وهي مخالفة لعادات
 الانكلير جدا • اما كلاسكو فانها اعظم منها في التجارة فانها كلها عبارة عن
 معامل للنياب المنسوجة وغيرها وهي وان تكن اقل تجارة من منستر الا ان
 في هذه بيوتا كثيرة ومحترفات عديدة تخص بتلك اما تجارتها واشغالها في
 الحديد فعظيمة الى الغاية واما في انشاء المراكب والآلات من الحديد فن الطراز
 الاول فالك ترى حولها اتاتين عديدة لا تران متأججة حتى كان ذلك القطر
 قطر جحيمي وحتى ينزل للناظر ان خاطر الانسان يرتاح الى النار والدخان
 والى طقطقة المطارق ارتياحه الى الدفك في صقع من ايطاليا والى رؤية

الرياض واستمتع اصوات العيدان وكأن هؤلاء الدخانيين لا يحسدون احدا سواهم ممن يسكن في الريف المربع ولا يبالون بما تقوله الشعراء من وصف المروج الناضرة والجداول المترقرة وغير ذلك من مسارح النظر الانيقة فما قاله ملطون حكاية عن الشيطان حين هبط الى دركات الجحيم واستسلم الى ما قدر عليه ورضى بما طرأ عليه هناك من شواغل حياته الجديدة وهو « كن يا شرلي خيرا » انما هو صفة هؤلاء الناس لا تعداهم فانهم يتجججون بكثرة مواقدهم وتكاثف دخانهم وكأن المدينة حالة كونها تنفث بعمد من النار ليلا وبعمد من الدخان نهارا تذكرة تذكر الناس بخروج بني اسرائيل من مصر • ولا شيء اعجب هنا من ان يرى الرائي تعدد الالواح فوق حوائطها وهي التي تكون عنوانا على اسم التاجر وحرفته فان التاجر في لندرة يكتب بوضع لوح واحد فوق حانوته فاما الطبقة التي فوق الحانوت فانها تكون غالبا مقرا لعباله اما في كلاسكو فانك ترى حانوتا فوق حانوت ومحزنا فوق مخزن بل اعظم الحوائط هي التي تكون فوق الطبقة الاولى وقد تكون الدار كلها عبارة عن مخزن بضائع وايضا تذهب لتستري شيئا يقل لك اذ لمع فوق • قال واني اكره شيئا من قسيسى سكوتلاند وهو انهم لا يرالون يطوفون في البلاد مجتدين بدعوى انهم ينفقون ما يجمعونه في وجوه البر وانساء الكنائس وجل من يقع غرضا لهم ذوات الثروة من النساء اه

ثم عدت الى كبريج وبعد ان انهيت ترجمة النوراة وذلك في اقل من عشرين شهرا سرت الى لندرة وفاوضت كاتب الجمعية في ذلك فقال ان كنت تقيم في هذه البلاد فان الجمعية تعين لك شيئا في مقابلة تصحيح الطبع فقلت على شرط ان اقيم بباريس ويبحث الى المطبوع الى هناك فاصححه فاني طالما همت بان اتعلم اللغة الفرنسية لما اتى ارى في كتب الانكليز جملا وعبارات منها مما يحرض على تعلمها فقال لك ذلك فمن ثم كتبت الى كاتب حاكم مالطة اخبره بانى عدلت عن الرجوع اليها • ثم نأهبت للسفر الى باريس واعدت خيشومي للغة * وخذى للغة * ودريهماتى للمعدة * وهنا اودع القارى وعبراتي منخدة وزفراى متصاعدة واعدت وعد من يراعى قديم الصحبة * ويحفظ اكيد القربة * بانى اصف له باريس عند استقرارى فيها اتم وصف * من دون

دون اسهاب ولا حذف * فأتى جعلت هذه الرحلة مرتبة على الاوقات * واخلتها في الجملة عن الاستطرادات * ولا كن ينبغي قبل ذلك ان انيده فائدة تتعلق بالتوراة مما يعز وجوده في غير هذا الكتاب فاقول ان اول من ترجمها من اللغة العبرانية الى اليونانية هم الاثناس والسبثون حبرا في عهد برثولومي فيلادلفيوس بالاسكندرية وذلك في سنة ٢٧٧ قبل الميلاد • قيل واتموا ترجمتها في اثنين وسبعين يوما وكان كل اثنين منهم في صومعة وعين على كل منهما ترجمتها باجمعها فلما فرغوا منها وجدت جميع النسخ لم تختلف احداها عن الاخرى لا في كلمة ولا في حرف واقدم توراة بيد النصارى هي الموجودة في الفاتيكان برومية كتبت في القرن الرابع وقيل الخامس ونشرت في سنة ١٥٨٧ والثانية هي الموجودة في متحف الانكليز المسمى بريتش ميوزيوم اهداها احد بطاركة الروم الى شارلس الاول وقيل انها نسخت في حدود التاريخ المتقدم ذكره واقدم توراة عند اليهود هي الموجودة في توليدو باسبانيا وذلك نحو سنة ١٠٠٠ بعد الميلاد • وجملة ما في التوراة من الاسفار ٣٠ ومن الفصول ٩٢٩ ومن الآيات ٢٣٢١٤ ومن الكلمات ٤٩٣ ر ٥٩٢ ومن الحروف ٢٧٢٨١٠٠ وقد تكررت فيها الواو العادفة ٣٥٥٣٥ مرة والعدد الحادى والعشرون من الفصل السابع من سفر عررا يستمل على الحروف الابجدية كلها • وجملة ما في الانجيل من الاسفار ٢٧ ومن الفصول ٢٦٠ ومن الآيات ٧٩٥٩ ومن الكلمات ١٨١٢٥٣ ومن الحروف ٨٣٨٣٨٠ وقد تكرر فيه حرف العطف ١٠٦٨٤ مرة

وكان دافع التوراة باللغة الاسبانية في سنة ١٤٧٨	والجرمانية في سنة ١٥٢٢
والانكليزية في	» ١٥٣٤ والفرنساوية في » ١٥٣٥
والمسكوبية في	» ١٥٨١ والرومية في » ١٦٣٨
والتركية في	» ١٦٦٦ والبورتوكيزية في » ١٧٤٨
والطلمانية في	» ١٧٧٦ والفارسية في » ١٨١٥

ووجدت في بعض الكتب ولست منذ على ثقة ان التوراة ترجمت الى العربية في القرن الخامس • ثم اتى ركبت الباخرة التي تسافر من لندرة الى بولون بعد نصف الليل الواقع في السادس من كانون الاول وكنت ارجو انها تقلع في تلك

الليلة فوق الضباب الكثيف حتى تعذر السفر الى الصباح فلما دنونا من المدينة المذكورة صادفنا الجزر في البحر فانتظرنا نحو اربع ساعات حتى جاء المد فبلغنا المدينة في الفجر فاخرجت امتعتنا وقمت في الكمر وكمان معي عدة صناديق من جملتها صندوقا كتب فلم يأخذوا عليها شيئا وسمعت بعضهم يقول هذا مرسل اى قسيس مبعوث من طرف الانكليز لهداية بعض الضالين الا انهم وجدوا في احدى رطلا من الشاي فقالوا اما ان تؤدى عليه شلنين ونصفا واما ان تتركه هنا فقلت لا بل اودى عليه ما تطلبون وفرحت بذلك غاية الفرح لاني كنت موجسا من انهم يتقاضون على الكتب كثيرا لا سيما وان كثيرا منها كان جديدا كما جلده المجلد • وهنا نصيحة او شبه نصيحة لاختواتي من المسافرين وهي ان من تصدى منهم الى فتح صندوقه اولا يلقى المقتش في عرام نشاطه وظمائه الى ان يجد عنده حاجة جديدة فيضبطها منه اظهارا لحذقه في صنعة التفتيش فاما من يأتي آخر التوم فانه يلقا، قد كل وضجر فاول ما يفتح الصندوق ويتمسه يطبقه وربما اجترأ عن ذلك بسؤال واحد ياتيه عليه كأن يقول له هل عندك شيء يؤدى عليه مكس ولا بد بالضرورة ان يكون الجواب بالسلب غير ان جل الناس يحبون التقدم والتصدر في كل شيء فتراه يتزاحون على فتح صناديقهم واخراجهم وعيابهم كأنما هم في حلبة السباق وفي بولون هذه وفي سائر فرض فرنسا المقابلة لانكلترا يزدهم الجمالون وخدام المطاعم على المسافرين ولا ازدحام حارة مصر وهناك ترى النساء حلات يغطين شعور رؤوسهن بتبديل فيبرز من تحته شعيرات من عند افواههن على زى نساء اليهود وسمعنهن كسحن الرجال واقبح منهن النساء اللاتي يصطدن السمك او يبعنه فلا يكاد النظر يعرف منهن علامة الانوية • واعلم ايضا انه من يدخل فرنسا وغيرها من بلاد الافرنج فلا يدل له من ان يبرز جوازه في الثغور اى الباسپورت والا فلا يدعونه يدخل واقبح من ذلك انه لا يمكن للغريب ان يخرج من بلاد فرنسا الا اذا ادى في ديوان الجواز عشرة فرنكات اما من يقدم الى بلاد الانكليز فليس عليه ان يبرز الجواز كما ان الخارج منها ايضا ليس عليه ان يؤدى شيئا ولذلك يقال ان بلاد الانكليز بلاد الحرية وسبه عندي والله اعلم ان الانكليز لما كانوا في الزمن القديم متخلفين عن سائر الافرنج

الافرنج في اسباب التمدن والعلوم كما مربك من جلة مثل ولا سيما في الكلام على منشستر احتاجوا الى ان يتساهلوا مع جيرانهم في اشيء تستميلهم الى زيارتهم وذلك ان اول ظهور التمدن والفنون في اوربا انما كان في اسبانيا حين كان المسلمون مستولين على الاندلس • قال فلتير وكانت ملوك الافرنج جميعا تستخدم الاطباء من العرب واليهود والترم البابا يوحنا الثامن ان يدفع للمسلمين في كل سنة خمسة وعشرين الف رطل من الفضة وذلك سنة ٨٧٧ وقد دخلوا ايطاليا ونهبوا كنيسة مار بطرس وفتكوا بالجيوش الفرنسية الذين كانوا ساروا الى رومية لاجارة اهلها تحت راية القائد لوثاريوس • وفي القرن الثاني عشر كان المسلمون مستولين في اسبانيا على احسن البلدان منها پورتغال ومرسية والاندلس ووالنسية وغرناطة وطرطوشة وامتد ملكهم حتى الى وراء جبال قسطل وسيرقوسة • اما دار الخلفاء فكانت في قرطبة وفيها بنوا المسجد العظيم المشهور قبوه مرفوع على ثلاثمائة وخمسة وستين عمودا وهو من مرمر غريب الصنعة بديع الاتقان ولم يزل معروفا الى الآن باسم مسك (اي مسجد) مع انه حول كنيسة • وكانت الصنائع والفروسية والابهة في عهدهم في مزيد وكان عندهم مواضع شتى للفرج واللهو • اما علم المساحة والفلك والكيمياء والطب فلم يكن الا في قرطبة دون غيرها من سائر المدن حتى ان صانع وملك ليون الملقب بالسمين اضطر الى ان يسافر اليها لياخذ الطب عن رجل كان مشهورا في عصره فلما استدعى به الملك اجابه مع الرسول قائلا ان كان للملك حاجة الى فليقدم علي وقال بعض المؤلفين ان المسلمين ملكوا من البلاد في مدة ثمانين سنة بعد الهجرة ما لم يملكه الرومانيون في مدة ثمانمائة سنة • وقال فلتير في موضع آخر واول ساعة دقاقة عرفت في فرنسا هي التي اهداها هارون الرشيد الى شارلمان • وقال في ابجدية الاوقات علم الحساب انما اخذ عن العرب في اسبانيا وذلك في سنة ١٥٠ ثم شهر في انكلترة في سنة ١٢٥٣ • وقال صاحب معجم الجغرافية ان البابا سلوستروس الثاني وكان يعرف اولا باسم جربرت سار الى الاندلس واخذ العلم عن العرب وكانت ولادته في سنة ٩٣٠ وانتخب بابا في سنة ٩٩٩ وكان ماهرا في علم المساحة وجر الاثقال والفلك وهو الذي بث رقم الحساب

العربي في اوربا واول من عمل ساعة ذات رصاص • وقال فلتير اول من اخترع هذه النظارات للعيون اسكندر سبينسا وذلك في اواخر القرن الثالث عشر وكذا اختراع طواحين الريح كان في ذلك العهد • واصل اختراع الفخار كان في فيانترى • اما زجاج الطيقان فكان معروفا من قبل ذلك الا انه كان نادرا وكان يعد من الاسراف • وكان اشتهار صنعتها في بلاد الانكلترا في سنة ١١٨٠ من بعض الفرنسيين وكان يتنافس فيها • واول من ابدع مرايا الزجاج اهل فينيسيا وذلك في القرن الثالث عشر • وكان استعمال الساعات معروفا في ايطاليا ولكن على ندرة ولم يكن في اوربا كلها من المدن ما يضاهي فينيسيا وجينوى وبولونيا وسيانا وبيزى وفلورانس • ولم تكن البيوت في مدن فرنسا والنمسا وانكلترا كما هي الآن وانما كانت سقوفها من التبن المطين وبناءؤها من الخشب ولم يكن عندهم هذه المواعيد المعروفة الآن لايقاد النار وانما كانوا يوقدونها في نحو كانوا يجعلونه في وسط البيت فيجتمع حوله المصطلون والدخان متصاعدا منه وكانت اغطية الموائد من الكتان عند الانكليز نادرة جدا • ولم يكن البيزنطيين الا عند العقاقيرية • وكان الركوب في مركب ذي عجلتين في طرق باريس الوسخة اسرافا حتى ان فيليب الملقب بالازهر منع النساء من ذلك وكان اهل بولندا يقتلون اولادهم اذا جاءوا ناقصي الخلقة وكذا يقتلون الذين اسنوا وعجزوا وقس على ذلك سائر سكان البلاد الشمالية • واول من احيا صناعة نقر التماثيل برونلشي من مدينة فلورانس • وكان غيوتو نبها في التصوير • وبوكاشيو في اللغة والادب • واول من اخترع مقامات الموسيقى على ما عرف الآن غيدو اوتزو واشهر من برع في النظم والتأليف بتراك ودانتى ولم يكن اذ ذاك في البلاد الشمالية سوى الجهل الفاحش والتفاخر بالفتك والقتال اه قلت وحيث جرى في معرض ما اوردناه ذكر الساعة فلا بد من استيفاء الكلام عليها ثم ارجع الى ما كنت بصده قال مؤلف كتاب المخترعات العجيبة ذكر المؤرخون من الفرنسيين ان اول ساعة عرفت في بلادهم كانت الساعة التي اهداها الخليفة هارون الرشيد الى شارلمان ملك فرنسا وذلك في سنة ٨٠٧ وكانت بدعا في ذلك العصر حتى انها اورثت رجال الديوان حيرة وذهولا والظاهر انها كانت من الآلات التي يديرها الماء المنجدر وكان لها اثنا عشر بابا

بابا صغيرا تنقسم بها الساعات فكلما مضت ساعة انتقم باب وخرج منه كرات من نحاس صغيرة تقع على جرس فيطن بعدد الساعات وتبقى الابواب مفتوحة وحينئذ تخرج صور اثني عشر فارسا على خيل وتدور على صفحة الساعة • قلت بودى لو اعرف اسم الساعة في ذلك العصر فاني انكر هذه اللفظة واهل الغرب يقولون منكالة وهي انكر قال وكان ألفرد الكبير ملك الانكليز يأمر باتخاذ شمع طول كل شمعة اثنتا عشرة اصبعيا ويعلم كلا منها بعلامات متساوية منقسمة الى اربعة وعشرين قسما كناية عن الليل والنهار فكان يأمر بايقادها متعاقبة ايلا ونهارا ويجعلها في قرن رقيق شفاف صوتا لها من الريح • ولم يعلم عمل الساعات الدقاقة الا بعد موته بقرون عديدة • اما تقسيم اليوم الى اربع وعشرين ساعة فعرف من قديم الزمان قلت وفي محفوظي انه ذكر في المصباح المنير للفيومي ان اهل الحساب اصطلمحوا على اربعة وعشرين قيراطا لانه اول عدد له ثمن وربع ونصف وثلاث صحيجات من غير كسر فاعمل هذا هو السبب في تقسيم الساعات الى هذا العدد وذكر هيرودوطوس ان ميقاتية الشمس كانت معروفة عند اليونانيين وهم اخذوها عن البابليين • فاما الميقاتية المائية التي تدل على الاوقات على نسق الرملية فكانت معروفة عند الكلدانيين وعند قدماء الهنود فكانوا يحذرون الماء فيها من اناء الى آخر كما يحذر الرمل في الزجاجية وبذلك يستدلون على اوقات التنجيم الا ان عدم تساوي انحدار الماء وتخالف الهواء كان يجعل حسابهم غير مطرد اما شكلها فغير معروف بالتفصيل وغاية ما يعلم من امرها ان الماء كان ينحدر في وعاء فيها قطرة قطرة فاذا امتلأ الاناء علم مقدار الوقت المفروض • واول من اتقن الساعة المائية حتى صارت من الادوات العلمية الدون كرلوس فالى احد الرهبان البساندكتيين وذلك سنة ١٦٩٠ وزعم بعض انها من مخترعات مرتينلي الطلياني • قيل واول مؤلف ذكر اسم آلة تدل على الساعات هو دانتي الشهير ولد في سنة ١٢٥٦ ومات في سنة ١٣٢١ وشهر ذلك في انكلترا في سنة ١٢٢٨ وكان ايضا مشهورا عند غيرهم وفي زمن ادورد الاول وضعت غرامة على اصحاب الجنايات لاجل عمل ساعة دقاقة في غرفة وستينستر لكي يسمعوها الذين في المحكمة وفي زمن هنري الخامس كان لها شان عظيم حتى ان الملك وكل محافظتها وتعهدها الى وليم واربي دين كنيسة

صانت اسطفان وعين له في مقابلة ذلك نصف شلين في كل يوم من ديوان
 الخزانة • وفي سنة ١٣٣٤ ابرز يعقوب دوندى ساعته المشهورة فكانت تدل على
 الساعات وعلى سير الشمس في منطقة البروج وعلى مواقع الكواكب السيارة ولقب
 بهورولوجيوس • وفي اواسط القرن الرابع عشر وضع في كنيسة استراسبورغ
 ساعة من اكثر الآلات تركيبا وتألفان صفحتها كانت تبدي الكرة السماوية
 وسير الشمس والقمر والارض والكواكب ومحاق القمر ونحوه وتقويمها يدل على
 اليوم الواقع من الشهر • وكان ربع الساعة الاول بطرقه ولد بتفاحة والثاني
 شاب بسهم والثالث رجل براس عصا والرابع الاخير شيخ بعكازه وعند مرور كل
 ساعة يفتح الباب ملك وينحني مسلما على مريم العذراء ثم يطرق الجرس وبقربه
 ملك آخر يحمل ساعة رملية ياتليهما عند انتهاء الدقات الرابع وكان بها ايضا
 ديك من ذهب يصفق بجناحيه عند اقتراب كل ساعة ويمد عنقه ثم يصقع
 مرتين • وفي اواخر القرن المذكور صنع رجل من جينوى اسمه دروز ساعة
 دقاقة ذات حركات غريبة وكانت تشتمل على تمثال اسود وراع وكلب فكان
 الراعى عند طرق الساعة يعزف على الناي ستة اصوات فيدنو منه الكلب
 ويحرك ذنبه متلقيا والما درضاها على • ملك اسبانيا تعجب منها غاية التعجب
 فالتمس اليه دروز ان يديه وياخذ تفاحة من سلة الراعى فلما فعل انبعث الكلب
 ينبج نباحا عاليا حتى صار كلب الملك ينبج ايضا • قيل وكان اذا سئل الاسود عن
 الساعة اجاب بالكلام الفرنسي ليفهمه الحاضرون • واول من وضع الرقاص
 في الساعة الدقاقة ريشارد هارس الانكليزي وذلك في سنة ١٦٤١ اما الساعات
 الصغيرة التي توضع في الجيب مختصرة عن الكبيرة فالجزم بمعرفة مخترعها صعب
 والارجح انها من مخترعات هوك اه وقيل ان اصل اختراع الساعات كان في
 نورمبرغ في سنة ١٤٧٧ وحقق البعض ان روبرت ملك سكوتلاند كان له
 ساعة وذلك في سنة ١٣١٠ وكان استعمال الساعات في الارصاد الفلكية في
 سنة ١٥٠٠ وقال بعض ان الامبراطور كرلوس الخامس هو الذي كان
 عنده ما يصدق عليه اسم الساعة وذلك سنة ١٥٣٠ واصل جلب الساعات
 الى بلاد الانكليز كان من جرمانيا في سنة ١٥٧٧ اما الساعات التي توضع
 في الجيب فن الناس من نسب اختراعها الى دكتر هوك واهل هولاند
 نسبه

نسبوه الى هيكنفس وكيف كان فان دكطر هوك هو الذي اخترع الساعة الدقاقة ذات الرقاص وذلك في سنة ١٦٥٨ وقيل ان ساعة الماء عرفت في رومية في سنة ١٥٨ وان البابا بولس الاول اهدى بپان ملك فرنسا ساعة مائية في سنة ٧٦٠ وقيل ان اصل اختراع الساعة الشمسية كان في سنة ٥٥٠ قبل الميلاد وقيل انها عرفت في رومية سنة ٢٩٣ من التاريخ المذكور وفي سنة ٦١٣ نصبت في الكنائس وفي مدة احد عشر شهرا من سنة ١٨٥٠ جلب الى بلاد الانكليز من هذه الساعات ٢١٥٤٧٤ فقد عرفت مما تقدم ان التمدن في البلاد الافرنجية بدأ اولاً في اسبانيا بالنظر الى العلوم وفي بلاد ايطاليا بالنظر الى الصنائع ثم انبت منها الى فرنسا واول اشتهاها فيها وبناء قصر فنتيلو وقصر صان جرمان وتهذيب اللغة الفرنسية كان في ايام الملك فرنسوا الاول كانت ولادته في سنة ١٤٩٤ ووفاته سنة ١٥٤٧ ثم لما انتشر مذهب البروتستانت في فرنسا وكانت الدولة تضطهد المتذهبين به كانوا يضطرون الى الفرار الى البلاد الاجنبية وحسبك يوم مار برتولماوس دليلا ولما قام لويس الرابع عشر وكان هو ووزيره الكردينال ريشيلو اشد الناس بغضة لاهل هذا المذهب فر كثير منهم الى بلاد الانكليز وكانوا ذوى معارف وعلم فبشوا فيها ذلك وطاب للانكليز ان يضيفوا من التجأ اليهم وان يعفوهم من الجواز وبقيت الحال على هذا المنوال • ثم ان بولون هي مثل غيرها من فرض فرنسا المقابلة لانكلترا في ككونها موردا للتجارة بين المملكتين واكثر ديارها منازل للمسافرين وثلث سكانها انكليز واحسن ما فيها متحفها فيه من غرائب انواع الطير والسماك وسائر الحيوانات ومن الجواهر المعدنية وانواع الورق الذي كانوا يكتبون عليه في الزمان القديم ومن الصور وآلات الطرب لجميع الامم ما هو عبرة للمعتبر ومن رأى عظام السمك والوحوش الضخمة فلا يكذب شيئا مما قاله الاولون ثم سافرنا منها فبلغنا باريس ليلا فدهشت لما رأيت فاني وجدت جميع الحيوانات مفتوحة في الساعة التي لا يفتح فيها شيء في لندرة غير حانات المزور وحين مررنا بالبلغار رأينا من الانوار في الديار من فوق وفي محال القهوة من تحتها وفي فوانيس الطرق من بين الاشجار وفي فوانيس العواجل الواقفة عن اليمين والشمال ما خيل لي اني في

جنات النعيم فقلت في نفسي بخ بخ ان هذه مدينة بحجة وانوار تتفتح فيها آكام المعاني في رياض الافكار وتتجلى بها عرائس القصائد في اخدار الاشعار فلا جعلان دابي النظم فيها الليل والنهار وكلما ارتج على شئ جئت الى البلقار ثم لبثنا اربعة ايام في مبيت الى ان تيسر لنا استئجار محل في دار على حدته وكان الضباب في خلالها كثيفا والبرد شديدا اما البرد فلا ينقص عن برد لندرة نقيرا بل هو اشد واما الضباب فكان ابيض بخلاف ضباب لندرة فانه يقع اسحم فطفقت اشكو من الانتقال من ضباب الى ضباب فقال لي احد اصحابي ان هذا الضباب انما قدم الينا معك من لندرة فان باريس ليست مضربة ووقوعه فيها نادر جدا لكني وجدت قوله بعد ذلك غير الحق فانه وقع ايضا في السنة الثانية وانا مقيم فيها من دون ان يعلق باذيالي من قطر آخر الا انه لا يدوم طويلا كما يدوم ضباب لندرة وقد حان الآن ان اشرع في وصف باريس واهلها ولكن لما كان العالم الاديب رفاع، بك الطهطاوي قد الف كتابه النفيس المسمى بتخليص الابرز في تلخيص باريز وسبقتني الى هذا المعنى كان لا بد لي هنا من ان استاذنه في ذلك ما اضرب عنه بالكلية او اشار اليه اشارة فقط مما استغربته منه ثم اجعل ذلك مقياسا للقارى يقيس عليه باريس ولندرة ولكن قبل الكلام على باريس خصوصا ينبغي ان ابتدئ بالكلام على فرنسا عموما فانها حرية بذلك وخصوصا اني قد اجلت القول في اول هذا الكتاب على انكلترا فاقول

ان فرنسا كانت تسمى في الزمن القديم بالغال ثم سميت بهذا الاسم المتعارف الآن نسبة الى الفرانك الذين فتحوها وهم قبائل من البلاد الشمالية وارض هذه المملكة خصيبة ينبت فيها جميع الاشجار والبقول والحبوب غالبا وكانت ارضها منذ نحو سبعين سنة مهجمة اما الآن فقد بذل الجهد في حرثها وتبنت الاشجار فيها حتى صارت قيمة محاصيل الارض وغلالها تبلغ في العام ٣٣٧ر١٧٨ر٥٠٠ فرنك بصرف على ذلك ٣ر٥٥٢ر٠٠٠ر٠٠٠ فيكون الفائض ١٦٨٥ر١٧٨ر٠٠٠ وهي كثيرة المعادن يوجد فيها معدن الذهب لكن على قلة ويكثر فيها الفضة والحديد والرصاص والتماس والتوتيا وغير ذلك وعدد سكانها في سنة ١٨٤٥ كان ٣٢ر٥٠٠ر٠٠٠ (١)

(١) في سنة ١٨٧٤ باغ عدد سكان فرنسا ٣٦ر٣٨٣ر٤٨١ نفسا

منهم مليونان وثلث بروتستانت ويهود وبلغت قيمة المجلوب من التجارة الى فرنسا في سنة ١٨٤٣ ١٨٤٠ ٦٠٦٠٦ ٨٤٦٦٠٦ فرنكا وقيمة الخارج منها ٦٤٣٩٦١٦٧٧ (١) وفي مدة ثمانى عشرة سنة وذلك من سنة ١٨٢٥ الى سنة ١٨٤٣ كان من جملة اهلها مائتا الف مجنون في المارستانات وثلاثة آلاف قتلوا انفسهم ومائة الف نفس بهم علل واخذوا الى ديار المرضى ومائتا الف يعيشون من الصدقات ومائة الف نفس في السجون لاجل جناسيات مختلفة • وقال آخر وبلغ عدد الاكليروس في سنة ١٨٤٣ اربعة وعشرين الفا منهم ثلاثة كردينالات واربعة عشر مطرانا وسبعة وستون اسقفا ويضاف اليهم نحو ثمانية آلاف وخمسمائة من المترشحين للكنيسة وعدة اديار النساء ثلاثة آلاف وعدد الراهبات اربعة وعشرون الفا وبلغ عدد الاكليروس في زمان الفتنة ١١٤٠٠٠ من جلتهم اثنان وثلاثون الف راهبة وبلغت جملة ايرادهم النين وسبعين مليونا ومبلغ العشور الذى يستوردونه سبعين مليونا بجملة ذلك ١٤٢٠٠٠٠٠ وايراد الكردينالات والاساقفة ١٠١٧٠٠٠٠ وجملة المصاريف على الديانة الكاتوليكية ١٠٠٠ ٢٥١٢٠٠٠ فرنك وعلى البروتستانت ١٠٠٠ ٣٣٣٠٠٠ وعلى اليهودية ٩٠٠٠٠ • وفي سنة ١٨٤١ بلغ عدد المسافرين في فرنسا ٦٣٣٠٠٠٠٠ نفس منهم ١٤٣٠٠٠٠٠ سافروا في سكة الحديد وفي سنة ١٨٥٥ بلغ عددهم بليوناً منهم مليون وثلاثمائة واثنان وسبعون الفا سافروا في الارترال وبلغ ايراد الكبرك في سنة ١٨٥٦ ١٨٢٢٩٦٧٩٨ فرنك وفي سنة ١٨٥٧ بلغ ايراد الدولة نحو سبعين مليون ليرة انكليزية فكان نحو ايراد دولة الانكليز بل أكثر (٢) وفي السنة

(١) منذ التاريخ المذكور اتسعت تجارة فرنسا اتساعاً عظيماً فان جملة المجلوب اليها في سنة ١٨٧٩ بلغت ١٨٣٧٠٠٠ ٨٣٧٠٠٠ ٥٩٤ فرنك وهى عبارة عن ١٨٣٧٩٣٠٤٨٠ ليرة انكليزية وبلغت جملة الخارج منها في السنة المذكورة ٣١٦٣٠٠٠ ٩٠٠ ١٦٣ فرنك او ١٢٦٥٢٣٦٠٠ ليرة

(٢) ومنذ سنة ١٨٥٠ ازدادت ثروة فرنسا ازدياداً عظيماً حتى ان ايرادها بلغ في سنة ١٨٨٠ ٣١٣٠٠ ٧٢٥٢٨٨ فرنكا وهى عبارة عن ١٢٥٢٢٩٠١١ ليرة انكليزية اما المصاريف فانها بلغت ٣١٣٠٠ ٤٩٤٢٤٤ فرنكا او ١٢٥٢٠٩٧٦٩ ليرة

المذكورة كان لها من العساكر البرية نحو خمسمائة ألف وامكن لها في اى وقت شئت ان تجهز من الجيوش البحرية نحو سبعين ألفا والمحروث من ارضها لا ينقص عن اثنين واربعين مليون هكتار وملاكها نحو سبعة ملايين من رؤوس العيال وبهذا يظهر لك الفرق بين المملكتين • وقال بعضهم بلغ مصروف دولة فرنسا في مدة عشر سنين آخرها سنة ١٨٦١ ٧٦٨٥٢٠٠٠٠ ليرة وبلغ ايرادها ٦١٩٦٨٠٠٠٠ ليرة فكان ايرادها في كل سنة ٦١٩٦٨٠٠٠٠ ليرة ومصروفها ٧٦٨٥٢٠٠٠٠ وكان مصروف اوستريا في مدة اربع سنين وهى من سنة ١٨٥٧ الى سنة ١٨٦٠ ١٥٤٢٠٠٠٠٠ ليرة وهو عبارة عن ٦٧٤٠٠٠٠٠٠ ليرة في كل سنة وكان ايرادها في المدة المذكورة ١١٥٠٠٠٠٠٠ ليرة وهو نحو ٢٨٨٥٧٠٠٠٠ ليرة في كل سنة وبلغ ايراد ايطاليا في سنة ١٨٦١ ٣٢٢٠٥٠٦٧٤ ليرة وايرادها ١٩٦٣٤٨٠ (١) وبلغ مصروف دولة شمال اميركا في سنة واحدة من مدة الحرب ٢٥٠٠٠٠٠٠ ليرة فاما سكان هذه الممالك فان عدد اهل فرنسا بلغ في سنة ١٨٦١ ٣٧٣٨٢٢٥٥ نفسا وزاد عدد الروسية في مدة خمسين سنة ضعفين وكانت الزيادة في انكلترة في تلك المدة ١١٩ في المائة وكانت زيادة روسية من سنة ١٨١٦ الى سنة ١٨٥٨ ٧٢ في المائة وزيادة اوستريا من سنة ١٨١٨ الى سنة ١٨٥٧ ٢٧ في المائة وزيادة فرنسا من سنة ١/٢٦ الى سنة ١٨٦١ ١٢ في المائة لا غير فتكون الولادة في فرنسا اقل من غيرها في سائر الممالك اما الزواج فذكره على هذا التفصيل وهو انه يولد فيها ١٠٠ ولد من كل ٢٨٥ زواجا وفي بريطانيا ١٠٠ ولد من كل ٢٣٧ زواجا وفي اوستريا والروسية ١٠٠ ولد من كل ٢٢٣ زواجا وفي پروسية ١٠٠ ولد من كل ٢١٠ زواج فيكون ولادة الولد في پروسية في ظرف سنتين وخمسة اسابيع وفي فرنسا نحو سنتين و٤٢ اسبوعا فاما الموت فن

(١) في سنة ١٨٨١ بلغ ايراد فرنسا ٢٧٥٢٧٩٤٨٣٠ فرنكا او ٧٩٣١١٠٠ ليرة انكليزية والمصروف بلغ ٢٧٥٤٤٣٢٦٠٠ فرنك او ١٧٧٣٠٤ ليرات انكليزية واما ايراد ايطاليا فقد بلغ في السنة المذكورة ١٩٢٥٠٨٣٩٦٥ فرنكا او ٣٣٣٥٨٠٢٣٠٠٠ ليرة ومصروفها مثل ذلك تقريبا

كل ١٠٠٠ نفس في بريتانيا يموت في السنة ٢٢ وفي فرنسا ٢٨ وفي الروسية ٢٩ وفي اوستريا ٣٢ وفي الروسية ٣٣

﴿ وصف باريس ﴾

كانت مدينة باريس في سنة ٣٨٠ تسمى باريسى وكانت عرضة لنهب النورمان وفي سنة ١٤٢٠ استولى عليها الانكليز وبقيت تحت يدهم خمس عشرة سنة وفي سنة ١٤٣٨ رزئت بالطاعون والمجاعة فأت بهما أكثر من خمسين الفا فكانت الذئب تدخل اسواقها وتغتال من تغتال وفي سنة ١٨٤٠ حصنت بسور طويل يحيط بشاطئ النهر وبقلع متفرقة وذلك مسافة خمسة عشر فرسخا وربع فرسخ بدى به في كانون الاول سنة ١٨٤٠ ونجز في شهر اذار سنة ١٨٤٦ وبلغت نفقته ١٤٠٠٠٠٠٠٠٠ فرنك او نحو خمسة ملايين ليرة • قلت وقد جرى ذلك كما قصده نابوليون الاول وهو في جزيرة صنت هيلانة قال ولما دنت منها الاعداء في سنة ١٨١٤ تبادر الناس الى انشائه على عجل لكنه كان غير محكم ثم اكل وجعل حوله اربعة عشر برجاً وقال آخر كانت باريس تدعى في القديم لوكس سميت بذلك في احد الاقوال باسم لو كوس مؤسسها والذي عليه الاتفاق انها من اقدم مدن الغال ولما غزا قيصر بلادهم كان يقال لها باريسى ولم تكن حينئذ الا عبارة عن خصاص مهينة كالجزيرة في نهر السين مع انه لما اراد فتحها قاومه اهلها مقاومة شديدة لم تكن تخطر بباله حالة كونهم خالين عن اسباب التمدن ثم اخذت في التصر والاتساع في عهد ملوك كثيرة ولا سيما في زمان يولييانوس وكلوفى واعظمهم فيليب اغوسط في سنة ١١٨٤ ثم قام لويس الملقب بالصغير وانشأ فيها مدرسة فاقبل الناس اليها لطلب العلم حتى صار عدد الطلبة أكثر من اهل الصقع الذى بنيت فيه وهو الذى احاط بها سورا وصروحاً ثم قام فرنسيس الاول وانشأ فيها اللوفر فقام هنرى الرابع وغير فيه تغييرات جمة وفي زمان لويس الرابع عشر صارت كأنها مدينة جديدة وما قصده نابوليون الاول في تحسينها وتنظيمها استحسنته عائلة البوربون وزاد عليهم اجمعين لويس فيليب فانه ظن ان حفظه ذكر ايام نابوليون يكون ادعى لاستمالة خواطر الناس اليه فن ثم اتم ما ابتدأ به نابوليون فانشأ السور واتم الازج او القنطرة المسماة ارك دوترايونيوف ونصب تمثال نابوليون مرة اخرى على عود

فندوم وفي عهده دفنت جثة نابوليون • قلت وفي زمان نابوليون الثالث كسيت من الرونق و البهجة ما لا مزيد عليه وقال غالتيانى فى كتابه الذى سماه المرشد الى باريس طبع فى سنة ١٨٤٤ اول من ملك فيها من ملوك النصارى كلوفيس وذلك فى سنة ٥٢٤ واول من بشر فيها بالانجيل كان ماردانيس وذلك سنة ٢٥٠ واول كنيسة اسست فيها فيما علم كانت كنيسة مار اسطفانوس فى الموضع الذى ترى فيه الآن كنيسة نو طر دام وفى سنة ٥٨٧ احرقها النورمان ثم بنيت وقسمت المدينة الى اربعة اقسام ومن ثم يقال لكل جهة منها كارتيه وفى زمان لويس السمين كان الايراد من الباب الشمالى اثنى عشر فرنكا لا غير وهى تبلغ بحسابنا الآن ستمائة فرنك وفى القرن الرابع عشر اثنى عشر فيها مدارس للعلم وفى عهد فيليب اغوسط كثرت فيها الابنية والمغانى والكنائس وبلط بعض الطرق والزم الاهلون تحصينها وفى سنة ١٢٥٠ انشأ فيها روبرت صوريين مدارس لم تزل تعرف باسمه وفى زمن شارلس المعتوه دخلها الانكليز ثم طردوا منها بعد ان اقاموا فيها ست عشرة سنة وذلك سنة ١٤٣٦ وفى عهد شارلس السابع خربت من القحط والوباء والذئاب حتى انها صارت فى سنة ١٤٦٦ مأوى لاصحاب الجرائر والنقائص من جميع الاقطار وفى عهد لويس الحادى عشر بلغ عدد اهلها ثلاثمائة الف واكتسبت رونقا وعمرانا فهدم اللوفر القديم وانشأ منشأ حسنا وانشأ مدرسة يعلم فيها كل نوع من العلوم مجانا وفى سنة ١٥٣٣ شرع فى بناء هوتل دوفيل وحسنت طرق وانشئت اخرى وفى سنة ١٥٦٣ انشئ التورى ثم لما قامت الحروب الدينية على ساق تعطلت اسباب التمدن الى ان قام باعباء الملك والسياسة هنرى الرابع فاصالح ذات البين ومد على الناس ظل السلم والرفاهية وزاد فى تبهيح المدينة غاية ما امكن وانشأ مجلة محال وكبير التورى وفى زمن لويس الثالث عشر انشئت طرق عديدة وانشئ قصر اللوكزمبور وبستان النباتات وغير ذلك ثم لما قام لويس الرابع عشر اتم ما كان قصده خلفه هنرى الرابع فانشأ اكثر من ثمانين طريقا وحسن القديمة وانشأ ساحة فندوم و ٣٣ كنيسة ومارستان السقط ومارستان النغول والمرصد وكبير قصر التورى ونظمت المماشي وبلط كثير من الرصف وغرست غيضة شانزلى وكذلك لويس الخامس عشر لم يأل جهدا فى ان افادها فضرة الملك حتى وسعت

وسعت رقعتها في زمانه ١٩١٩م فداناً وانشأ عدة مدارس وعبونا جارية وفي أيام
لويس السادس عشر انشئت فيها مجلة ملاء وكنائس ومنازل سامية واسواق
بهيجة فصارت رقعتها ٨٥٨ر٩ فداناً وجعل للسور ستون باباً يؤخذ منها ضريبة
على ما يدخل اليها من الخارج ووسعت الطرق واتم بالى روابل بما فيه من
الحوانيت الظرفية وفي زمان الفتنة خرب كثير من الكنائس ثم رمت واتفق
عليها اربعة ملايين ولما استرد الملك الى لويس الثامن عشر بنى مجلس
المشورة العام وانشأ اسواقاً كثيرة ومستشفيات عديدة ونصب عمود فنوم وانشأ
خمس عشرة عينا وزين القصر وفي أيام شارلس العاشر زيدت فيها محاسن
كثيرة جلها في الكنائس وانشئت ثلاثة جسور فلما قام لويس فيليب قحمت
طرق جديدة وربع بناء هوتل دوفيل ونصبت مسلة مصر واتم انشاء كنيسة
لامدلين اى المجدلانية وپلاس دولا كنكورد وعمود النصر انتهى لمخلصا قال
وهى على بعد مائة وخمسة فراسخ من لندرة او مائتين واربعة وخمسين ميلا
ودورتها ٢٣٧٥٥ متراً او ٢٥٩٧٩ر٢٥ ياردا واطول ايامها ست عشرة ساعة
وست دقائق واقصرها ثمانى ساعات وعشر دقائق وفيها اكثر من
٤٥٠٠٠ دار و ١٣٠٠٠ دكان و ١٢٦٠ طريقاً و ٣٨ ممشى و ٢١ بلغاراً
و ٩٩ عرصه اوفسحة و ١٨٣ سقيفة او معبراً مما يقال له پاساج و ٣٧ رصيفا
ومسطح طرقها يبلغ ٣٢٠٠٠٠٠ ذراع مربع وطولها ٤٨٠٠٠٠ او ١٢٠
فرسناً ومصاريف تنظيف الطرق تبلغ ٥٣٥٠٠٠ فرنك ومن قبل سنة ١٧٢٨
كانت الطرق عطلاً عن الاسماء ثم بعد ان رقت غيرت مراراً عديدة وفي سنة
١٨٤٢ بلغت مصاريف تبليطها وتوسيعها ٧٥٠٠٠٠ فرنك • قلت جميع
الطرق كانت من قبل مبلطة فلما صار الاهلون وقت الشغب والفتنة يتخذون
حجارتها متاريس امر الآن بان تصير رصراضاً ومن سنة ١٨٥٣ الى سنة ٥٧
بلغت مصاريف المدينة ٩٣ مليوناً صرف منها فى البناء وتجديد الديار ٤٧
مليوناً وفى الماء وتصليح الطرق ٣٣ مليوناً وعلى بوا دو بولون ٥ ملايين وجل
هذه المصاريف مما يرد من المدينة ولم يصرف الميرى من عنده اكثر من
سنة ملايين وقبل أيام لويس السادس عشر لم تكن تنور الا مدة تسعة
اشهر فى السنة وذلك عند غياب القمر فامر بان تنور فى كل ليلة وعدة

ما فيها من الفساد ١٣٢٢١ ركلها تنور بالغاز وفي سنة ١٨٤١ ولد فيها ٢٩٩٢٣ ومات ٢٨٠٢٦ وتزوج ٨٩٦٢ وكان عدد النغول ٩٨٣٠ وفيها نحو ٨٠٠٠٠ خادم وقال آخر كان اهلها في سنة ٥٦ ٣١٦ ١٤١١ ر وفيها من الحرس الامپراطوري ٩١٧ من جلتهم ٢٨ ضابطا ومصاريف ديوان الشرطة تبلغ في السنة ٢٩٥ ٣٣٥ ر وقال الاول ولا يزال في مستشفياتها ١٥٠٠٠ نفس وقدر من يدخل فيها ويخرج منها ستون الفا وفيها تسعة آلاف من ذوى الاحكام النظامية وهم اهل علم ودراية ولهم موضع مخصوص لاغائة الفترآء مجانا وذلك في يوم السبت ومائة واربعة عشر ككتبا للصكوك والعقود وتسعة سجون احدها للمقضى عليهم تبلغ مصاريفه ١٤٥٠٠٠ ر ويعاملون فيه بغاية ما يمكن من الرفق والشفقة وعدها غيره عشرة وفيها احدى وعشرون مدرسة ملكية فيها من الطلبة ١٠٩٧٥ ر وايرادها منهم ٣٨٣ ٥٤٤ فرنكا وثلاثمائة وسبعة عشر مكتبا مما يقال له كومونال فيها من المتعلمين ٢٢ ٥٨٨ ر وايرادها ٢٢٧ ٦٩٣ ر ومائة واحد عشر معلما يقال لها انستيتسيون فيها ٨٣٧٨ طالب علم وايرادها ٢٥٠ ٦٢٠ ر والى وسبعة مراب ويقال لها بنسيونات فيها ٢٣ ٥٣٨ نفسا وايرادها ٤٧٣ ٧٧٣ ر وفيها اربع وخمسون جمعية للعلوم وفعل الخير وبث الديانة ما عدا مواضع اخرى • قلت ان كثيرا من هذه المدارس والمكتب يديره القسيسون فلا يأخذون من المتعلم الا نصف المصروف عليه فيمكن للوالد ان يضع ولده في احدها بمصروف ثلاثين فرنكا في الشهر فن اجل ذلك ترى جميع الاولاد هنا مترشحين للعلوم والصنائع وللأخوات اللائي هن من جنس الراهبات فضل عظيم مشهور في تربية البنات وتمريض الرجال والسآء في بيوتهن او في بيوت المرضى حتى ان بعضهن يداوى وبعضهن قوايل وقد يسافرن الى البلاد الشاسعة في فعل الخيرات ولهن لباس مخصوص يعرفون به على تنوعه • فهذه الطريقة اتفع من طريقة الراهبات في الشرق اذ يحتجب عن الناس في الدير فلا ينفعن احدا من الناس وهاتان المزيتان اى التعليم على الوجه الذى ذكرناه والاعتناء بالمرضى لا توجدان في لندرة على ان التداوى في مستشفيات باريس هو على طرف الثمام وفي لندرة يحتاج الى ذرائع ووسائل • قال وفيها ستة وثلاثون مارستانا وقد علم من خلاصة صدرت في سنة ١٨٤٢ ان هذه المارستانات تقوم بمؤنة

بمؤنة اثني عشر الفامن المرضى والعاجزين رجالا ونساء وفي كل سنة يدخلها نحو ثمانين الفا وان مصاريفها في السنة المذكورة بلغت اربعة عشر مليونا ونصف مليون لكن ايرادها أكثر من المنصرف وهو يحصل من ضرائب على الملاهي ومن العقار الذي يشتري للمقابر وغير ذلك ويصرف فيها اى في هذه المستشفيات من اللحم ٢٥٠ ر ٢٥٦٠ رطلا ومن الزبدة ٤٨٨٠٠ كيلو غرام ومن اللبن ٥٣٠٠ ر ٥٣٠٠ لير ويوجد ايضا ما عدا ذلك مواضع عديدة لا غائاة الفقر آء وتشغيل البطالين قلت وقد علم من كتاب طبع في سنة ١٨٥٥ ان هذه المستشفيات تقوم بمؤنة أكثر من اربعة عشر الف مريض يعالجون فيها واقدمها المارستان المسمى هوتل ديو يتداوى فيه في مدار السنة احد عشر الف مريض وتخدم فيه ستون راهبة وعدد اطباءه انسان وسبعون طبيباً وقال آخر المحسوب ان نصف اهل باريس صناع وعملية وليس فيها أكثر من الف نفس ممن يحسنون انبات ككونهم سكانها في باريس سلفا عن خلف من عهد لويس الثالث عشر وقال آخر ان ثلثي سكان باريس لا يقدرّون على مصروف الجنازة وكل واحد من ثلاثة آلاف يقتل نفسه ومن كل ثلاثة مواليد يكون نغل وفي سنة ٥٣ ولد في مدينة ويانه من الحلال ١١٢٦٤ ولدا ومن الحرام ١٠٦٨٦ وفي سنة ٥٤ ولد من الاول ١١٢٦٥ ومن الثاني ١٠٨٠١ ر ١٠٦٨٦ وفي سنة ٥٥ ولد من الاول ١٠٦٥٠ ومن الثاني ٩٥٢٢ وفي سنة ٥٦ ولد من الاول ١٠٨٧٠ ومن الثاني ١٠٣١١ • وان من اهل باريس ثلاثين الفا من غير الذين يعيشون من الصدقات يقومون في الصباح ولا يعرفون من اين يحصلون غذاءهم ومنهم سبعة عشر الفا سكارى منهم كين في التبايح وقال آخر وفيها تسعة اسواق كبار للمأكولات وخمسة مجازر بلغت مصاريف بنائها وتنطعمها ١٦٥١٨ ر ١٦٥١٨ وشم المسالخ والمدابغ العديدة وعدد الجزارين أكثر من خمسمائة وفي كل يوم يذبح في احدها وهو المسمى بحزر مونت مارت ٩٠٠ من الثيران و ٤٠٠ من البقر و ٦٥٠ من العجول و ٣٥٠٠ من الضان والمونة السنوية من المأكول والمشروب وما هو من قبيل ذلك تبلغ ٣٥٠ مليونا منها ٤٩ مليونا ثمن خمر و ١٢ ثمن لبن و ٧٨ ثمن شمع وسكر وبن وما اشبه ذلك ومليونان ثمن ملح وثمانية وثلاثون مليونا ثمن خبز واربعون مليونا ثمن لحم

وخمسة عشر مليوناً ثمن بقول و ٤٤٤٠٠٠ ثمن فحم والمونة من البطاطس في السنة تبلغ ٣٢٥٠٠٠ كيلو غرام ومبلغ ما يباع فيها من التبغ في كل سنة ٧٠٨٧٩٣ كيلو غرام ومؤنتهم في كل يوم من الخبز ونحوه ٢٠٠٠٠٠ و كل يوم يأتي اليها عشرون عجلة مشحونة بالفصّة وفي بعض الايام يباع فيها من الدقيق ما قيمته ٤٥٠٠٠ ويرد اليها من الخارج في السنة ١٢٠٠٠٠ قارب مشحون بالفاكهة والقمح وقال آخر ومن جملة اسواق المأكولات بباريس السوق المعروفة بالهال اول حجر وضع في اساسها وضعه الامبراطور في سنة ٥٢ تباع فيها البقول والخضرة والفاكهة على انواعها فيرد اليها في كل يوم ثلاثمائة وعشرون عجلة مشحونة بها وفي اوان الفاكهة يستخدم في نقلها ٤٢٠ عجلة ونحوها ويباع فيها في العام من صنف واحد من البقول مما يتخذ للسلطة بليون فرنك ونصف مليون ومن صنف من محار البحر يسمى الدزويتر بنحو ٩٢٦٠٩٦٧ فرنكا • قلت والفاكهة والبقول في فرنسا تعظم للغاية كما في انكلترا فقد يصنعون من قشر ثمر الجوز شبه حقة للنساء تحوى مقصا و ابرة ونحو ذلك • قال ويبيع فيها في سوق الزبدة بنحو ستة ملايين ومن البيض ٥٣٩٨٩٠ ر ٥ فرنكا قلت ومن هنا يعلم ان ما ذكره الشيخ رفاعة بك من ان اهل باريس يقطعون من البيض بخمسة آلاف فرنك سهو والظاهر انه اراد خمسة ملايين كيف لا وقد قال انهم يخلطونه في نحو ثلاثمائة صنف من الطعام • وفيها اى في باريس خمس مشيخات كبار اى اكاديميات من جملة اى الاكاديمية الفرنسية للنظر في تهذيب اللغة وتنقيح اصولها وفروعها وكل من الف كتابا بديعا في التاريخ والادب ينال منها جائزة وفيها ديار كتب عديدة اكبرها واعظمها المكتبة العمومية فيها مليون من الكتب المطبوعة وثمانون الف كتاب بخط اليد ومائة وخمسون الف ميداي ومليون واربعمائة الف صفحة منقوشة وثلاثمائة الف راهاجج وفيها رسائل محفوظة من اويس الرابع عشر وكاير وكلمبر وكتب واحد من الاورد بيرون ومن جملة تلك الكتب كتب مطبوعة من عهد فوست وشوفر وما من ديوان او محترف ميري الا وفيه الوف من الكتب وجملة الكتب المطبوعة الموجودة في المكتبات ما عدا المكتبة المذكورة ١٢٩٣٥٠٠ والتي بخط اليد عشرة آلاف ما عدا ديارا

ديارا اخرى على حدثها بعضها يحوى عشرين الفا وبعضها اقل وهو كاف
 فى بيان ما لهذا الجبل من الحرص على العلوم • وفيها مطبعة ملكية من
 تأسيس فرنسيس الاول فيها حروف متنوعة يطبع بها كتب باحدى وخمسين
 لغة ويطبع فيها فى ليلة واحدة ثمانمائة صفحة من قطع الربع وعدد المستخدمين
 فيها من ثمانمائة الى تسعمائة ومصاريفها ثلاثة ملايين (١) • وعلى نهر المدينة
 سبعة وعشرون جسرا منها سبعة معلقة وثلاثة من الحديد والحجر وواحد
 من الخشب والباقى من الحجر من جملتها جسر دولا كنكورد بدئ به
 سنة ١٧٨٧ ونجز فى سنة ١٧٩٠ وبلغت مصاريفه ١٢٠٠٠٠٠٠ فرنك طوله
 ٤٦١ قدما وعرضه ٦١ وآخر يعرف بجسر لويس فيليب بلغت نفقته مليون
 فرنك وآخر اسم جسر رويال طوله ٤٣٢ قدما وعرضه ٥٢ وآخر يسمى
 يون دزار اى جسر الصنائع طوله ٥١٦ قدما وعرضه ٣٠ ومصاريفه
 ٩٠٠٠٠٠ وقد اجرى اليها الماء فى قنى من جملتها قناة مسافتها اربعة وعشرون
 فرسخا بلغت مصاريفها خمسة وعشرين مليونا واخرى انفق فيها اربعة عشر
 مليونا ومائتا الف فرنك • وقال آخر يوجد فيها ٧٢٧ من وكلاء الدعارى
 و ١٤٥٦ من اطباء والجراحين و ٤٩٧ من باعة الادوية او الكيماويين
 و ٨١١ من البنائين و ٤٤٢ من المصورين و ٨٨٠ من النقاشين على الحجر
 والحديد ونحوهما و ٦٨٩ من الخبازين و ٤٨٧ من الجرارين و ٦٦٢ من
 الصيارفة و ١١٦٠ من التجار بالكومسيون و ١٨٤٥ من باعة الشمع والصابون
 والسكر ونحو ذلك و ٦٨٠ من صناعات الساعات و ٣٩٧٩ خجارا و ٢٦٠ من
 باعة الشريط والقيطان ونحوهما و ٧٣٨ من صناعات الزهر من الورق و ١٢٦
 من المصورين على نور الشمس و ١١٧ من الحمامات الساخنة و ٢٤٠ معملا
 للورق و ٥٢٣ موضعا للاكل و ١٠٣ موضعا للقهوة و ٣٣ محترفا لاشتهار
 الاعلامات و ١٢٨ موضعا للتغنين والتعهد وفيها سبعة مواقف لسكة الحديد
 وسبعة وعشرون مأوى للجند من جملتها مأوى يسع خمسة آلاف وثمانمائة رجل

(١) فى سنة ١٨٧٧ بلغ ايراء المطبعة المذكورة ٦٢٤٥٠٠٠ فرنك ومثل ذلك
 المصاريف

وثمانمائة فرس وفيها اثنا عشر حوضا وثمانية وعشرون ملهى اى ثياطرا ولم يكن فيها فى ايام لويس الرابع عشر سوى ثلاثة وفى سنة ١٧٩١ صدرت اجازة للاهلين من اهل المجلس المعروف بالاسامبلى بان كل من استطاع منهم ان ينشئ ملهى فهو غير معارض فبلغت ثلاثة واربعين وهناك ايضا محال اخرى للغناء والسهرات والحظ مما يطول شرحه قال والملهى الطليانى يرد اليه امداد فى السنة من خزنة الدولة بمائة الف فرنك وان كثيرا من الانكليز والنساويين بل الروس ايضا يقصدون ملاهى باريس ليروا فيها من التمثيل ما لم يروه فى بلادهم الا غير كامل وكلهم يقر بافضليتها على غيرها وامداد الاوپيرة الفرنسية ٧٥٠.٠٠٠ فرنك ما عدا مرتبا آخر لها قدره ١.٣٠٠.٠٠٠ فرنك قلت فى اول المرفع وفى نصف الصيام يصنعون فى هذا الموضع رقصا فتتحشد اليه الرجال والنساء بلباس السخرية بحيث لا يعود الرجل يعرف زوجته ولا بنته ويبتنون هكذا الى الفجر وهذا الموضع يشتمل على نحو خمسين ثريا او نجفة وعدد الآلات فيه يذيف على خمسين قال وامداد الاوپيرة كوميك اى ملهى الضحك ٢٤٦.٠٠٠ وفيها عشرة متدييات مما يعرف بالكلوب وثمانية مراقص اصلية من جملتها مراقص يختص بطلبة العلم فاما المراقص التى تكون مجتمعا للدون فقير جدية بالذكر وفيها احدى واربعون كنيسة كبيرة ونحو منها المعابد واقدم الكنائس واشهرها كنيسة نوتر دام اول حجر جعل فى اساسها وضعه البابا اسكندر الثالث وذلك فى سنة ١١٦٣ ولم يتم بناؤها الا فى عهد شارلس السابع طولها ١٢٦ ذراعا وكسور وعرضها ٤٨ وارتفاعها ٣٣ وعلو برجها ٦٨ وفى المدينة خمسة اسواق للزهر على اجناسه وانواعه وفيها سوق للكلاب يعرض فيها للبيع فى كل يوم احد ٢٨٠ كلبا واخرى للخيل والحجر طولها ٤٨٠ ذراعا وعرضها ٨٨ وفيها ساحة للخمر وسعها ٢٦.٠٠٠ ذراع مربع يرد اليها فى كل يوم ١.٥٠٠ برميل وهى تسع منها ٤٥.٠٠٠ قال غاليانى وبلغ ايراد الخزينة من الدخان ٧.٠٠٠.٠٠٠ وبلغ مكس باريس الوارد اليها مما جعل على الاسواق والخوانيت والمجازر والمخازن والعيار والدفن وغير ذلك خمسين مليوننا وبلغ المصروف عليها خمسة واربعين مليوننا من جملتها مصاريف الابنية والمستشفيات وديوان الشرطة والمكاتب والمتاحف والمماشى والزينة فى الاعياد وبلغت مصاريف الدواوين الميرية

الميرية ١٧٢ ٢٠٨ ٣٨٩ ر ١ فرنكا اعظمها مصاريف دين الامة وديوان الحرب وبلغ ايرادها ٣٣٦ ٨٨٠ ٢٤٦ ر ١ ودين الدولة يبلغ ١٩٥ ٩١٦ ٩٠١ وبلغت مصاريف العسكر في سنة ١٨٤٤ ١٨٤٤ ٣٤٨ ٠٠٠ ٠٠٠ (١) والوزراء هم وزير الامور الخارجية ووزير الحرية ووزير البحرية والاستعمارات ووزير المالية ووزير الزراعة والتجارة ووزير الداخلية ووزير الابنية الميرية ووزير العداية ووزير المعارف ومن هؤلاء الوزراء ومن مجلسي المشورة الخاص والعام ومن صاحب الملك تتألف دولة فرنسا وقال آخر وفي باريس تفرق المكاتب سبع مرات في كل يوم وذلك من الساعة السابعة ونصف صباحا الى الساعة لتاسعة مساءً واول من رتب البريد لويس الحادى عشر وفي سنة ١٧٩٢ اطر د ترتيبه كما زاه الآن • وقد حان لى هنا ان اقول ان باريس تشبه لندرة في كونها شطرين يفصل بينهما نهر الا ان نهر باريس صغير لا يسع المراكب الكبيرة وتخالفها في احوال كثيرة * احدها * ان ديار باريس من الحجر فلا يزال ظاهرها ابيض انيقا بخلاف ديار لندرة فانها مبنية من الاجر فلا يأتى عليه سنتان او ثلاث الا ويسود من كثرة الدخان والضباب بل المنازل المبنية فيها من حجرت سود ايضا * الثانى * ان ديار باريس متناسقه الارتفاع في الغالب متناسقة الظاهر فانها كلها بيضاء متناسقة وضع الشبايك اما ارتفاعها فان بعضها يشتمل على سبع طبقات فربما ارتقى فيها الانسان مائة وثلاثين درجة حتى يصل الى غرفته فهى من هذا القبيل متعبة ولكل طبقة فانوس يسعل بالغاز ولكل دار رتاج كبير لا يزال مفتوحا الى نصف الليل وبواب يتبوأ كئنا بالقرب منه فاذا خرج احد السكان اعطاه مفتاح غرفته ومتى رجع اخذه منه واذا غاب بعد نصف الليل اطن الجرس فيقوم البواب من فراشه ويفتح له ولا بد ان يعطيه شئنا في مقابلة ذلك هذا اذا كان ساكنا في دار مفروشة فاما اذا اكرت شقة من دار تشتمل على مبيت ومقعد ومطبخ فله ان يأخذ مفتاحه معه وعند ذلك يحتاج الى ان يستخدم امرأة لتصلح له مسكنه

(١) قد تقدم ذكر ايراد فرنسا اما ديونها فانها بلغت في سنة ١٨٨١ ٩٨٣ ٠٣٥ ر ٨٦٢ ١٩ فرنكا وهى عبارة عن ٧٩٤ ٤٨١ ٤٣٩ ليرة انكليزية ومصاريف وزارة الحرية بلغت ٥٣١ ٠٠٤ ر ٦٢٤ فرنكا

او يستأجرها ساعة او ساعتين في النهار وربما كانت هذه المرأة اجيرة عدة اشخاص فتذهب الى ككل منهم في ساعة معلومة ولا يمكن لغريب بل لاهلي ان يستأجر دارا من بابها بجميع مرافقها وذلك لكبرها وغلائها فكل دار في باريس عبارة عن قصر فاما ديار لندرة فلا تزيد غالبا على اربع طبقات ثلاث ظاهرة وواحدة تحت الارض لادخار الفحم وغسل الثياب وما اشبه ذلك وبعضها كبير وبعضها صغير ومن ثم يمكن للانسان ان يستقل بدار منها

﴿ الثالث ﴾ ان درج باريس متين جدا ومبلاط البلاط الذي بنيت من عهد حديث من خشب متين جلي بهي ومبلاط الديار القديمة من الاجر الاحمر وفرش البلاط بالبسط او الزرابي غير مطرد وانما يجترئون عن ذلك بنحو سجادة يجعلونها عند الموقد اما في لندرة فان جميع المساكن مفروشة بالبسط ولذلك سببان احدهما ان البسط فيها رخيصة وفي باريس غالية والثاني ان خشب البلاط في لندرة قبيح وسخ فكان لابد من ستره ﴿ الرابع ﴾ ان جميع طبقات باريس تنفتح على مصراعين كالاباب فيسهل غسلها وتنظيفها باهون سعي وطيقان لندرة لا يفتح الا نصفها الادنى صعودا ويبقى الاعلى مطبعا فلا يمكن تنظيفه فيكون لابد من استخدام من ينظف من الخارج وهو معنت شاق ﴿ الخامس ﴾ ان مواقد ديار باريس هي في موازاة البلاط ولا يمكن طبخ شيء عليها وجل وقودهم انما هو الحطب لا الفحم المعدني فانهم يكرهونه غاية الكراهية لرائحته وتوسخه الثياب ولا يطبخون عليه اصلا وحين كنا نوقده للاستدفاء على عانة الانكليز كانت خادمتنا تتأفف منه وغير مرة غشي عليها منه وفي بعض الغرف والدكاكين يوقدون ما اطفى من الفحم او الفحم مع الحطب في كوانين عالية من الحجر القيشاني الطريف او من الحديد وقد تكون متصلة بقصبة من حديد نافذة في الحائط يخرج منها الدخان وقد لا تكون وفي الجملة فان مواقد لندرة احسن فانها مجعولة لان يوقد فيها فحم الحجر ولان يطبخ عليها وذلك لارتفاعها عن البلاط هذا في الديار الصغيرة فاما في ديار الكبراء فتكون ايضا في حيز البلاط كما هي في باريس والحكمة في ذلك عندهم وعند اولئك ايصال الحرارة الى الارجل فانها احق الاعضاء بالدف والحاصل ان الشتاء داخل الديار في لندرة اهنأ واهون وذلك لاعتنائهم بفرش المساكن والدرج ويكون

وبكون المواقد قابلة لوقيد الفحم كما مر وانت خبير بان بناء الحجر يحدث رطوبة اكثر من الاجر ﴿ السادس ﴾ ان لكل طبقة من ديار باريس مرحاضا ووراءه مصب للماء وفي ديار لندرة لا يكون الا مرحاض او اثنان فهي من هذا القبيل انظف وادفئ الى الصحة ﴿ السابع ﴾ ان مداخن باريس الخارجة من السطوح تكون غالبا من الحديد وفي لندرة من الخرف فلك ابهج منظرا والحاصل انه لما كان النظر في امور المدينة والديار بباريس موكولا الى ارباب السياسة كانت الديار وحدها تؤذن بابهة المكان وجلاله فضلا عن الدكاكين والدواوين الملكية فكم فيها من رواشن حديد مذهبة ومن جدران مزخرفة وابواب مؤزجة مما يستوقف المجتاز وكذلك الدكاكين فالك تراها وضئة بهيجة والحاجات فيها زهية ناضرة فيود الانسان لو يشترى كل ما فيه فكان في رقيع المدينة نورا يلقي شعاعه على المرائب فيكسبها بهجة وطلاوة وكان التساعد على كرسى في بيته انما هو قاعد على شوك القنادر ابدأ يتحمل ويتحرك للخروج ليرى الديار والحوانيت مما يشوق ويروق اما اثنان الديار وفرشها فالغالب انه في باريس انفس واغلى واكثر ما يحمل على العجب منها سررهم التي يرقدون عليها فانهم ينضدون عليها عدة من الفرش حتى انهم يصعدون اليها على درج وذلك مطرد للغنى والفقر وخشبها في الغالب من النوع الذي سماه الشيخ رفاعه بك الكابلي ويعملون فوقها اطارا من خشب مذهب على هيئة التاج ومنه يسدلون الناموسية ولا بد وان يكون في البيت مرآة كبيرة وساعة دقاقة يضعونها فوق رف الموقد وتفضل باريس لندرة ايضا في كثرة العيون الجارية في الطرق وفي كثرة الحمامات واذا شاء الانسان ان يستحم في بيته او عز الى قيم الحمام في ان يبعث له بمفطس وماء حميم وهذا يكاد ان يكون معدوما في لندرة • ومن ذلك الكتسابة التي تكون فوق الحوانيت والرواش فان جلها مكتوب بماء الذهب وفي لندرة جلها بالحبر واذا كان بماء الذهب فلا يلبث ان يسود • ومن ذلك ابواب الدكاكين والتضبان الفاصلة بين الواح الزجاج فانها هنا اكثر رونقا فاما من حيث السعة فدكاكين لندرة اعظم • ومن ذلك الرصف التي على جانبي نهر السين فانها مبلطة نظيفة بحيث يمكن للانسان ان يقعد عندها ويسرح ناظره في النهر وهو يشتمل على عدة حمامات ومغاسل كالببوت تغسل فيها

النساء ثياب السكان • ومن ذلك وجود دكا كين اخرى في الطرق للغسالات فانك في كل طريق تجد منها واحدا او اثنين وذلك نادر في لندرة جدا وانما يغسل الزنيل ثيابه عند غسالة الدار التي يسكنها سواء كانت نظيفة او وسخة وهي غالبا في الريف ومن الغريب ان غسالات باريس يغسلن الثياب بالمطارق وكل عن راض • ومن ذلك انه يوجد في باريس مواضع يتخلى فيها الانسان لقضاء الحاجة ولا يخفى ان وجود ذلك في المدن الغناء ضرورى فان من يخرج من داره ويضطر الى قضاء الحاجة لم يمكنه الرجوع اليها وذلك في لندرة معدوم بل مواضع البول فيها على قلائها قدرة رديئة ما عدا ما صنع منها حديثا في طريق استران وهو برن فهي تعز عن النظير واجدر بهذه الحاجة ان تكون في باريس من المصالح وفي لندرة بالتحريف وما احسن ما قيل في الفرنسية من انهم يجعلون كل مقصد حرفة وكل حرفة مقصدا • وتفضل باريس لندرة من حيث النظر لا من حيث الفائدة بكثرة العساكر فان فيها وفي ضواحيها نحو مائة وخمسين الفا فلا تزال تسمع منهم الموسيقى وتنظر منهم الملابس الحسنة وهي احسن من ملابس عسكر الانكليز وقد جرت العادة بان يكون مع العساكر نساء للخدمة يتبعنهم وهن مترديات بلباسهم اما المعيشة فحيث كانت المطاعم عندهم كثيرة وكل ما يشتهونه من المأكول والمشروب يجدونه فيها لم يكن احد يتكلف الطبخ في بيته اما اصحاب العيال الذين يكون لهم مطبخ ومحل للمؤنة في منازلهم فلا يتناولون تلك المطاعم الا في الاعياد وهي نظيفة للغاية واول ما يجلس المستطعم ياتيه الخادم بدفتر فيه اسماء الطعام وبفوطه فيختار ما يشاء اما في لندرة فحين يجلس احد في مطعم ياتيه الخادم ويصرخ في اذنيه شواء لحم بقر شواء ضان كرنب جزر بطاطا وهنا تنتهى الفهرسة ولا يقدم له فوطه وای مطعم دخلت في باريس رأيت فيه الرجال والنساء والاولاد وربما تعمدت امرأة ان تجلس قبالتك لتخاطبها او تعرض عليها شيئا من المشروب فيكون فاتحة اللطاف وخاتمة المطاف ولا بد من ان يوضع امام الاكل نبجات من الكبريت لاشعال السيكار وخلال لتنظيف اسنانه والخاصة من اهل باريس يأكلون مرتين فقط الفطور او الغداء وهو في الساعة الحادية عشرة والغداء او العشاء في الخامسة ويفطرون على شواء الضان والمحار والعامية يأكلون

يأكلون ثلاث مرات اما طعامهم فانه وان كانوا يتفتنون فيه كثيرا فلا يستطيعه الا من الفه وذلك لانهم يسلطون اللحم اشد السلق ليتخذوا منه نوعا من الرعيد ثم يطبخونه بالشحم بدل السمن فيأتي مسيخا وقد قلت في ذلك

- * رب قوم يستمرئون طعاما * فيه شحم الخنزير والدم يسمى *
 - * وانا ان اكلت منه لما ظا * بات شحم الخنزير يأكل شحمي *
- وفي الجملة فانه الذ من طعام الانكليز كما ستعرف ذلك في باب غير ان الشواء عند الانكليز الذ منه عذر الفرنسيس وهناك طريقة اخرى للمعينة وهى ان بعض الديار يصنعون مائدة عمومية يسمونها تابل دوت اى مائدة الضيوف فمن شاء ان يأكل فيها لزمه ان يذهب في ساعة معينة ولعلها ارخص من المطاعم العمومية واطيب وثن الغداء في هذا نحو فرنك ونصف وثن العشاء نحو فرنكين وهو يتدئ غالبا بالشوربة ويختم بالسلطة ثم بشئ من الحلو او الفاكهة وفي البقار مطاعم لا يتساها الا الاغنياء والمسرفون فان ثمن العشاء فيها اربعون فرنكا او خمسون اما القهوة فاذا دخلت محلها جاءك الخادم بكوب سميك كالذى يشرب فيه الشوربة وبسكر جزيل وصب القهوة برأى منك ثم اتبعها الحليب المسخن وقد رأيت كثيرا من ذوى السمى والرواء يضعون نصف السكر في الفجان ويختبئون النصف الآخر والمطاعم ومحال القهوة في هذه المدينة لا تحصى كثرة وهناك محال للقهوة تغنى فيها الرجال والنساء يدخلها الناس مجانا ولاكن بشرط ان يشربوا شيئا يقوم عليهم قيمة شيئين •
- ومما يجب منه في باريس الدكاكين التى يباع فيها المربيات والشراب وذلك لنظافتها وانوارها وربما كانت ستوفها من مرايا وعندهم من اصناف المربيات والمجندات والحلويات ما يزيد على ما عند الانكليز عشرة اضعاف الا انهم مثل الانكليز في ان حلوياتهم جميعها معمولة بالسكر لا بالعسل • واعلم ان ارباب الرئاسة هنا يتعهدون صحة الرعية فيما يباع من المأكول والمشروب فلا يسمحون للباعة بان يبيعوا شيئا فاسدا او مضرا بالابدان او مغشوشا وكأن الخمر مستثناة من ذلك فلهذا كان كل ما يوكل ويشرب هنا الذ وازكى مما يوجد بلندرة بل البقول والفاكهة هنا اطيب والذفن ذلك الخبر وهو ازم ما يكون للمعينة فانه في غاية الطيبة وهو من محض الخلطة غير مخلوط بشئ من الشب

او البطاطاس كخبز الانكليز وقد يصنعون منه شكلا في طول قامة الرجل واللحم على ان الانكليز يدعون بان لحمهم اطيب ويعجني هنا نظافة دكاكين الحمامين فلا يمكن ان تشم منها رائحة كريهة بخلاف دكاكين لندرة وهم يقفلون دكاكينهم قبل ان يوقدوا الغاز فانهم يقولون انه يغير طعم اللحم ومن ذلك الزبدة والجبين ومحار البحر على انواعه والزيت والخل والخردل واللبن وقد يصنعون منه الرائب والقريشة كالموجود في بلادنا سواء وكذا الصابون والشمع بل الكبريت وخطب الوقود هنا احسن مما يوجد بلندره وعندهم كثير من البقول والفواكه مما لا وجود له في تلك فاما جعتهم فقير طيبة ولكن قلما يشربونها لاستغنائهم عنها بالخر اما الهواء فبرد باريس ولندرة صنوان غير انه لما كانت الديار كلها مبنية هنا من الخبر وكانت مواقدها غير صالحة لوقود الفحم المعدني كما مر كان البرد اشق وابلغ وزد على ذلك توالي الامطار شتاء وصيفا وقد شاهدت جسا فقيرا حضروا من باريس الى لندرة وسألتهم عن الهواء فكلهم اجاب بان المطر لم ينقطع مدة اقامته وكان فيها بلندرة صحو الا ان الناس لا يشعرون في باريس بعنت المطر او النجس كثرة ما فيها من السقائف والمنتزهات ومحال القهوة مما يذهب بالكرب اما في لندرة فلن يجد الانسان من ذلك مهربا الا في بيته وهذا حسب

وفي باريس عدة مواضع لا نظير لها في الدنيا باسرها فان ابتدرتني لقطع على كلامي بان تقول وهل رأيت الدنيا كلها حتى تحكم بذلك قلت اني لم ار الدنيا بل رأيت محاريث عتول اهل الدنيا اعني اقلام المؤلفين ممن طوفوا وساحوا في مناكبها فكلهم حكم لهذه المواضع بالاحسنية والافضالية ❖ احدها ❖ البلقار وهو طريق واسع طويل ممتد يحيط بباريس كالمنطقة للنخصر كلا جانبيه محفوف بالشجر المتوازي الوضع وبالدكاكين الظرفية والديار الناهية وموضع القهوة الانيقة الحافلة فلا تزال ترى امامها الوفا من الكراسي يجلس عليها الرجال والنساء وهناك يقرؤون صحف الاخبار ويتفاوضون في ادارة المصالح والاشغال فهي عندهم بمقام المصر وقد تكون حيطان المحل كلها مرآة وسقفه كستف الكنائس من خزفة منقوشة وفيها متكاآت ومقاعد ومواقف نفيسة ولا تزال غاصه بالناس الى نصف الليل وقد يكون لها رواشن او مشربيات فيها مقاعد

يرى الانسان منها جميع ما يمر في الطريق واكثر الملاهي هناك من جعلتها مواضع
للانساء والالعاب وفي ختام اللعب تضعف انواره ويبرز في محرابه نساء لابسات برا
رفيعا على هيئة الجسم ولونه فيحسبهن الناظر عرايا ويتعين كذلك في اوضاع
مختلفة من دون حركة فان برزت احداهن رافعة يديها بقيت كذلك الى ان
تدور بهن المائدة التي برزن عليها دورتين ثم يسبل الحجاب وترجع الانوار ثم
تضعف ويبرزن بهيئة اخرى وذلك ككلاء يدوم نحو ربع ساعة ويقال لهذا
المنظر تابلو فيفان اى الصور الحية واحسن محل في هذا البلفار النحل الذى يقال
له بلفار الطليان فتم ترى النساء يخطرن بالدجاج والاستبرق والسيلان الكثيرة
والخمل والخز الرفيع وهن متلعات شافنات والرجال يرتون اليهن بالفخر اللباس
واحسن السمى وتم اطرف المحال للقهوة وفي طرف البلفار عمود شاهق
من المرمى في قنته تمثال ملك من نحاس واقف على كرة وهو يلعب في مقابلة
الشمس له كانه ذهب ويقال للملك ملك الحرية وعلى العمود اسماء الذين قتلوا
من كبار الامم في سجن باستيل مكتوبة بالذهب وتحت حوض يستقى منه وكان
انساء البلفار في سنة ١٥٣٦ ❖ الثانى ❖ الموضع الذى يقال له بالى روابال اى القصر
الملوكى وانما سمى كذلك لمجاورته قصره كان مقر الملوك وهو عبارة عن صفى
دكاكين متقابلين فوقها منازل ومطاعم وحمامات ومحال للقهوة وبينها اشجار
وحوض ومقاعد ومماش للناس فى الدكاكين ترى احسن الملابس وانفس الحلى
والتحف من المعادن والجواهر وهى وان كانت دون دكاكين البلفار فى الكبير
الا ان حسن تنضيد ما فيها وبراعة تزييف وبهجة ذلك المكان يكسبها سعة فى
النظر ومن رأى كثرة الجواهر والاماس فى هذا الموضع وفى غيره ايضا حكم بان
اهل باريس اغنى من اهل لندرة الا ان الجوهرين من الانكليز لا يبرزون
ما عندهم من الجواهر فى وجه الدكاكين وانما يخبئونها فى خزانة فلهذا لا يكاد
الناظر يرى عندهم من خارج الدكان غير الذهب والفضة وفى تلك المطاعم جميع
ما تستزى به النفس فاذا قعدت للغداء رأيت الرجال والنساء والاولاد يمرحون فى
تلك الروضة وصفة الحمامات وصفة المطاعم وفى الروضة ايضا موضع قهوة عنده
كراسى عديدة بعضها عند الحوض وبعضها تحت الشجر وتم تضرب العسكر
بآلات الحرب ثلاث مرات فى الاسبوع وطول هذه الحديقة شعبمائه قدم

وعرضها ثلاثمائة وكان انشاء هذا المحل البديع في سنة ١٧٢٩ ﴿ الثالث ﴾ الموضع
المسمى شانزلزي اي روضته الاصفياء وهو غيضة طويلة ذات شطرين طولها
الى حد الازج اكثر من ثمانمائة ذراع وعرضها في الاقل مائة وستون ولها
مقاعد من خشب وكراسي على طول جهتي الطريق وبين الشطرين طريق
واسع لمرور الخيل والحوافل والعوادل ففي ايام الاعياد ترى هذا المرملا
من تلك المراكب فان اهل الثروة يذهبون الى هناك متفاخرين بما فوقهم
من اللباس وبما تحتهم من المراكب وترى النساء في العوادل المفتوحة
متكئات كأنما هن على غمارق وفرش والعجب والنيه يلعبان من جنبهن
وكثيرا ما تراهن راكبات على هذه الصفة ونخان التبغ خارج من افواههن
ومن العجب ان اهل باريس يخرجون الى هذا الموضع والى بوا دو بولون
في ايام الاربعاء والخميس والجمعة من جمعة الاكلام قصد المباهاة والمفاخرة فيما
يلبسون ويركبون فهي عندهم موسم التألق والتظرف ومع ذلك فان الجزائريين
يخرجون من بيع اللحم يوم الجمعة اما احتراماً له او حياء من الناس •
وفي هذه الغيضة جاردن ما بيل وهو بستان بهيج تناسبه الرجال والنساء
للرقص فيه خمسة آلاف نور وبستان النساء ولا يمكن ان يكون في العالم
بستان اجل منه على صغره فانه راموز الجنة وفيه عين فوارة يصعد الماء منها
علو قامات وفيها قصر للزهور وموضع واسع ترح فيه الخيل وخيام لا تحصى
يباع فيها الشراب والنمل والحلواء وفيها زممر شتى كزمر باب الرميثة بمصر فن
بين مشعوز ومغن وعازف ومحدث ومحبش وغير ذلك وفيها ثلاث قباب مزخرفة
ذات بهجة واتوار يجلس في كل منها ست نساء او خمس من القيان
الحسان ويغنين على آلات الطرب وهن كاشفات عن الصدور والاكتاف ولكن
لا يكون ذلك الا في فصل الصيف فن شاء ان يقعد على كرسى ويسمع الغناء
لزمه ان يشرب شيئاً من محل القهوة ويدفع ثمنه ضعفين واذا انتقل من كرسى الى
غيره وجب عليه تجديد الشرب ومن وقف يستمع فلا تكليف عليه وهناك
من الحياض والتماثيل والملاعب والملاهي والصروح والاعلام ما ينسى الغريب
وطنه وكان غرس هذه الغيضة في سنة ١٦٧٠ ويقال ان في باريس ثلاثة
عشر الف شجرة من غرس سنة الى عشر سنين وعشرة آلاف شجرة من عشر
سنين

سنتين الى ثلاثين سنة وأكثر من اربع وثلاثين الفامن ثلاثين سنة فصاعدا وغالبها من شجر الميس ﴿ الرابع ﴾ الساحة المسماة بـلاس دولاكنكورد وهى بين الغيضة المذكورة وبين حديقته التورى يجوز الناس من هذه الى تلك ومن تلك الى هذه وفي هذه الساحة حوضان كبيران وسع كل منهما خمسون قدما وفيهما تماثيل من نحاس تقذف بالماء صعدا فيقع على شبه جرن عليه تماثيل اربعة اولاد وبطه يخرج الماء من افواهها فيلتقى كلا المائين وينحدران الى الحوض وبينهما عمود جلب من مصر عليه حروف بلسان قدماء مصر • قال غالينانى هذه المسلة انتزعت من موضع بمصر امام هيكل طيبس بمصر الذى بنى سنة ١٥٥٠ قبل الميلاد واسمها لكسور محرفة عن لقصر وكانت احدى اثنتين جاد بهما محمد على باشا على دولة فرنسا تذكارا لالفتها ومودتها والنائية لم تزل فى موضعها ولا بد من انها تجلب وقد انشئ لنقل الاولى سفينة مخصوصه فى طولون وذلك فى سنة ١٨٣٠ وفى سنة ١٨٣٦ نصبت بحضرة الملك لويس فيليب وآله واهل المناصب وبحضرة مائه وخمسين الفامن الاهلين وفى مدة نقلها ونصبها لم يحدث ادنى خلل ولا اذى طولها اثنتان وسبعون قدما ووسعها من اسفلها سبع اقدام ومن اعلاها خمس اقدام وكسر وزنتها ٥٠٠٠٠٠٠ ليرة وآخر ما صرف على تحسين هذه الساحة بلغ تسعمائة الف فرنك وقال آخر انشئت هذه الساحة فى سنة ١٧٥٤ ونصب فيها تمثال لويس الرابع عشر على جواد وعلى قاعدته تماثيل القدرة والحزم والعدل والسلم ولم تكدهذه الساحة تتم حتى حصل فيها نأبة عظيمة فى يوم عرس لويس السادس عشر ملك فرنسا وهى هلاك مائة واثنين وثلاثين نفسا فى الزحام وفيها اى فى هذه الساحة قتل الملك المذكور وزوجته ماري انطوانت ومادام رولاند وغيرهم وشارلت كوردي وغيرهم • قلت كان لويس السادس عشر حفيد لويس الرابع عشر وتزوج بنت ملكة اوسترى المسماة مارياتريزيا واتهمه الفرنسيون بانه كان ذا ضلع عليهم مع النمسا فحزب جمهورهم عليه وحكموا عليه بالقتل فلما جئ به الى مقتله قدم غير جزع ولا وجل وكلم الناس بصوت جهير قائلا ألا يا ايها الفرنسيين انى اموت بريثا من الذنوب التى تجنيتم بها على وانى اسامح جميع اعدائى واتضرع الي الله تعالى

ان تكون فرنسا العزيزة على نسا كاد يتم قوله هذا الا وصرخ رئيس اهل القننة ويعرف باسم صانتر بان تضرب الطبول ويضرب عنقه فلما صعد المكان الذى اعد لقتله ضجح القسيسون وهم يصرخون يا ابن مار لويس اصعد الى السماء وبعد ان ضربت عنقه حلت جثته ودفنت في قبر ملى جبسا وجعل حرس عند قبره الى ان بليت بالمرّة وفي هذه الساحة نحو خمسة وعشرين عمودا لها قباب في اعلاها وهي مضلعة مذهبة وكل منها جناح يقل فانوسين مذهبين وهي تظهر للناظر في الليل كأنها أبراج نجوم ودول هذه الساحة ٢٤٨ مترا وعرضها ١٦٩ فاما حديقة القصر الامبراطورى فلا يحكم لها بالفضل لسعتها وعظمتها وان تكن انيقة زهية وانما لكونها مجمعا للناس فتراها مشحونة بالكراسى والمقاعد يتنابها المتكيسون والمتكيسات عند العصر وخصوصا في الاعياد وفيها تماثيل عديدة ومحل ينال فيه الطعام والشراب ولهذه الحديقة درابزين من حديد جلى يطيف بهارووس رماحد مذهبة وقيل ان الكراسى التى فيه مضمة بمائة الف فرنك فى العام فاذا لم تقصد هذه الحديقة لتسرح ناظرك فى محاسنها فذلك دليل على فساد مزاجك ﴿ الخامس ﴾ عمود نابوليون الاول صنع على مثال عمود تراجان فى رومية من الف ومائتى مدفع من نحاس كان قد غنمها الامبراطور المشار اليه من عساكر النمسا والروس وقد نقش خارجه بصور الوقائع التى انتصر فيها وصور آلات الحرب يصعد الناس الى اعلاه لرؤية المدينة فى مائة وست وسبعين درجة وفى قنته تمثال نابوليون طوله احدى عشر قدما وارتفاع العمود مائة وخمس وثلاثون وزنته ٣٦٠.٠٠٠ ليبرة ويقال لهذه الساحة پلاس فندوم باسم دوك فندوم ابن الملك هنرى الرابع لزنبة بدى بها فى ايام لويس الرابع عشر وفى يوم ميلاد نابوليون الواقع فى الخامس عشر من آب تأتى الناس باكاليل من زهر ويضعونها على الدرابزين المطيف بالعمود تذكارا لما كره ولما دخلت عساكر الدول الاجنبية مدينة باريس كان من همهم باى بدء ان يزيمحوه فلم يقدرُوا وكان من قبله تمثال من نحاس للويس الرابع عشر فازيح فى سنة ١٧٩٢ قيل وكان اعظم تمثال صنع فان زنته بلغت ٦٠.٠٠٠ ليبرة ﴿ السادس ﴾ السقائف او المعابر المسماة بالپاساج وهي اسواق مسقفة بالزجاج ومبلاطة بالرخام وعلى كلا الجانبين دكاكين بهية متناسقة

متناسقة الوضع يوجد فيها للبيع اغرب التحف واعجب الطرف والغالب ان ما يباع فيها يكون اغلى مما يباع في غيرها ومنها ما حيطانه مرصعة بالمرايا فيرى المار فيها شخصه ذات اليمين وذات الشمال وفي زمن الشتاء تغص بالرجال والنساء فهي ملطاً لهم من المطر والبرد ❖ السابع ❖ الفيضة المسماة بوا دو بولون وهي عبارة عن ندحة من الارض واسعة ممتدة كلها شجر وحياض وفيها طرق رحبية للعواجل يخرج اليها اهل الثروة والجمال في عواجلهم الفاخرة ولا سيما في الآحاد والاعياد والايام الثلاثة التي مر ذكرها في جمعة الآلام وفي هذه الفيضة حلت عساكر الانكليز عند فشل نابوليون واعلم ان الفيضة في مفهوم الفرنسية هي الارض التي تكون اشجارها متماسة الرؤوس بحيث انك اذا جلست تحتها وقتك من المطر والشمس فاما عند الانكليز فهي قطعة من الارض يكون فيها شجرات معدودات ومرج ترح فيه الماشية

فاما ما في باريس من الصروح الفاخرة والبانى السانية فما لا يعد ولا يحصى واكنى اذكر منها اشهرها • فن ذلك القصر المسمى باللوفر وهو منقسم الى عدة اقسام الاول للتصاوير وهو يشتمل على الف واربعمئة وست صور من صنع اهل ايطاليا واسپانيا وفرنسا وهناك محل آخر يحوى اربعمئة وستا واربعين تصوية من صنع مصورى اسپانيا خاصة ومن تلك التصاوير ما يبلغ طوله اكثر من عشر اذرع ومنه ما هو بديع الصنعة حتى لا يمكن للناظر ان يكف عن الرنو اليه وجميع سقوف هذه المحال مزخرفة منقوشة وترى هناك كثيرا من الرجال والنساء يصورون عن بعض الصور المشهورة وقسته بخطواتي فكان طوله نحو سبعمئة وثمانين خطوة معتدلة وقست ما يشبهه بلندرة فلم يزد على مائتي خطوة ولم ار هناك الا مصورة واحدة القسم الثانى للرسم وهو يشتمل على الف ومائتين وثمانية وتسعين رسما الثالث الاشياء العادية وهو يشتمل على الف ومائة تمثال وصنم الرابع للتماثيل الحديثة الخامس للمنقوشات السادس للادوات البحرية كالسفن والمدافع وترى كل سفينة موضوعة في بيت من زجاج على مائدة من خشب نفيس وهناك صور مدن وقلاع بارزة مجسمة السابع للدراهم الثامن متحف لبدائع مصر التاسع متحف الاثوريين العاشر متحف لبدائع امريكا الحادى عشر متحف لبدائع الجزائر ورأيت من جملة تلك الغرائب

ملابس الملوك وسلاحهم من جلاتها عدة اردية مطرزة وغير مطرزة كان يلبسها نابوليون الاكبر وسروج خيله منها سرجان عربيان كان يركب عليهما بمصر ومن ذلك كتاب في الهندسة كان يطالع فيه دائما وهو بلا جلد وادوات كان يستحبها في اسفاره ومن جملة هذه الغرائب ايضا سيف كان لشارلمان وطست غريب الصنعة جئ به من بلاد المسلمين وكان هذا الموضع في الزمن السابق مقرا لهزى الرابع المشهور بحسن السياسة والتدبير وقبل ان ولي الملك كان على دين البروتستانت فلما رآه اهل باريس انه يصلح للملك لما ستره الجميلة وانه لا يقوم باعباء الملك غيره اختاروا توليته بشرط ان يدين بدين الكنيسة الرومانية فاجابهم الى ذلك وقال لعمرى ان باريس تساوى قداسا ومع كونه كان بمنزلة والد لاهل فرنسا اجمعين وفي ايامه نسم الناس الراحة وبلهنية العيش لم يعدم من تصدى لقتله وكانت ولادة هزى الرابع في سنة ١٥٥٣ ووفاته في سنة ١٦١٠ وخلفه في الملك ابنه لويس الثالث عشر وهذا التصر كان دائما منفردا عن قصر الملك المسمى بقصر التورى وكان في عزم الملك لويس فيليب ان يصله به فلم يتهيا له الى ان قام نابوليون الثالث فجعلهما متصلين قال في معجم الاوقات هذا الصرح النهر كان مقرا للملك داغوبرت في سنة ٦٢٨ وفي عهد فرنسيس الاول وضع اساس النحل الذى يقال له الآن اللوفر القديم وذلك في سنة ١٥٢٢ وفيه وضع احسن ما امكن جمعه من الصور والتماثيل ومحف الصنائع المعروفة في الدنيا وجلها جلب من ايطاليا حين كان نابوليون مستوليا عليها ولكن رد منها كثير على اهله ومن ذلك قصر التورى وتفصيل ما فيه يغنى عنه قولنا انه مقر للملك فرنسا وانه فيه سرر مرفوعة واكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابى مبسوطة ومبسطه كله من خشب الجوز المحكم الصنعة والالصاق بذنه كاترين دمديسى واتمه لويس الرابع عشر ثم سكنه لويس السادس عشر في سنة ١٧٨٧ وفي سنة ١٧٩٢ اقتحمه الناس والسلاح بايديهم ليقدموا عرضا للملك وهم على اهبة الفتنة وافضى الامر اخيرا الى ان قضوا عليه بالقتل كما مر ثم تبوأ نابوليون قبل ان لقب امپراطورا وبعده ايضا ثم عائلة البربون ولما كان لويس العاشر قارا فيه هجم الناس عليه وغلبوا على عساكره والجأوا الى النفى وذلك في سنة ١٨٣٠ وفي سنة ١٨٤٠ هجموا فيه على لويس فيليب والجأوه الى الفرار فلحق باسلافه وهو آخر

آخر من ملك من البربون ودام ملكه ثمانى عشرة سنة • وقرأت في بعض الاخبار انه لما هجم الناس عليه وجدوا في دهليز القصر المذكور خمسة وثمانين الف زجاجة مملوءة من الخمر الفاخر • ومن ذلك قصر لوكزمبور بنى في سنة ١٥٩٤ وهو وان لم يكن بناؤه بديع الصنعة الا انه متين مهذم وكان مقرا للويس الثامن عشر ثم جعل في زمن الفتنه سجنًا ثم جعله نابوليون مجلسا خاصا وهو الآن كذلك ويحضره الملك بنفسه وعنده حديقة عظيمة يتسابها اهل تلك الناحية وهى اكبر من حديقة الملك وفي طرفه رصد الكواكب بنى في سنة ١٦٦٧ وحديقة صغيرة تجتمع فيها الرجال والنساء في الصيف للرقص وهذا الموضع وان يكن عاما الا انه يعرف بمحل طلبه العلم ولاجلهم يباح فيه للنساء ان يتخلعن ويتفككن في الرقص وفي غيره يحظرهن الشرطة • ومن ذلك هوتل دوفيل انشى في سنة ١٦٠٥ على عهد هنرى الرابع ولكن لم تكمل محاسنه كما هو الآن الا في سنة ١٨٣٦ • ومن ذلك قصر كاي درسى كان لويس العاشر يريد ان يجعله معرضا لبدائع الصنائع وكان نابوليون يريد ان يجعله مقرا لسفراء الدول وهو الآن ديوان الحسابات ولم يتم بناؤه قبل سنة ١٨٣٥ وبلغت نفقته اكثر من ١٢٠٠٠٠٠٠ فرنك وبجانبه قصر آخر بنى في عهد لويس الخامس عشر وهو من ابهى قصور باريس ومن ذلك مجلس المشورة العام ابتدى به سنة ١٧٢٢ وكان اول ما نهب في دولة البوربون ثم جعل مجلسا لنواب الاقاليم وعدتهم خمسمائة وفي سنة ١٨٢٩ عرض لان يباع بخمسة ملايين ونصف وجلة ما صرف عليه الى غاية سنة ١٨٤٠ بلغت ٣٩٣٣٩٣ر٢٤٣ر٢٤٣ • ومن ذلك القصر المعروف بقصر الصنائع الظريفة والمحكمة الكبرى بنى منها قسم من عهد صان لويس ثم زيد فيها مبان كثيرة حتى صارت من احسن ما يبنى اليه طولها ٢١٦ قدما وعرضها ٢٨ ودار مجتمع العلماء ويقال له الانستيتو اسسه الكاردينال مازارين ووقف عليه مكتبة عظيمة ورزقا يبلغ في كل عام ٤٥٠٠٠٠ وهؤلاء العلماء هم الذين ينقحون كتب اللغة والنحو وينكرون المردول من الكلام ويثبتون الفصيح فان للفرنساوية اعتناء عظيمًا بفن الادب بخلاف الانكليز • ومن ذلك دار السكة اتم انشاؤها في سنة ١٧٧١ وهى تحوى اثني عشر دولا بازنة كل منها ثمانون الف رطل وتضرب في كل دقيقة ستين ذنارا وثمانين

ريالا وفيها دنائير من عهد جميع ملوك فرنسا وفيها ايضا يطبع على المصوغات من الفضة والذهب • ومن ذلك قصر في شانزلى بنى في سنة ١٧١٨ وكان • قرا لاميرة من عائلة البوربون ثم سكنه نابوليون • ومن ذلك المصراى مجتمع التجار طوله ٧١ ذراعا في عرض ٤٩ او ٢١٢ قدما في عرض ١٢٦ يحيط به ٦٦ عمودا ونصف ستف من بلور وهو متعب وصحنه كله ملبأ بالرخام يسم الى رجل بدى به سنة ١٨٠٨ وبلغت نفقته ٨١٤٩٠٠٠ وهو من المباني البديعة قال مؤلف فرنساوى وله من داخله روشن يتأبه الناس ليشاهدوا منه التجار الذين يجتمعون في الساعة الثانية بعد الظهر للتعاقد والتبايع فاذا سمعهم احد ظن انه بين ثمرهم • ومن ذلك المصرف اى البنك انشئ في سنة ١٨٠٣ قيمة ما فيه من الكواغد التى بالف فرنك وبخمسمائة ٢٣٤ مليونا والحاصل في خزينته ٢٢٨ مليوناً وكان رأس المال الذى وضع فيه اول انشائه خمسة واربعين مليونا • قلت لم تتداول الكواغد التى قيمتها اقل من ذلك القدر الا بعد الفضة وقرأت في بعض الاخبار في هذه السنة ان المخزون في البنك بلغ ١٢٩٨٠٠٧٥٠ فرنكا والكواغد المتداولة ٦٠٠٦٩٣٠٥٣٥ ومن الازاج العظيمة الازج الذى يقال له ارك دوطريونف اى قنطرة النصر او الظفر صور عليه الوقائع التى انتصر فيها نابوليون وبلغت نفقته ٩٠٢٣٣٧٢٣٠٢ وآخر امام قصر الملك من جهة اللوفر بلغت نفقته ١٤٠٠٠٠٠٠ وفي البلغار وغيره ازاج كثيرة اضربنا عن ذكرها • ومن الكنائس العظيمة كنيسة نوטר دام وقد مر ذكرها طولها ٣٩٠ قدما وعرضها ١٤٤ وارتفاعها ١٢ وعلو صومعتها ٢٤ فيها ارغن ارتفاعه ٤٥ قدما وعرضه ٣٦ يستل على ٣٤٨٤ قصبه • وهى ام كنائس باريس وفيها تتوج الملوك واول حجر جعل في اساسها وضعه البابا اسكندر الثالث في سنة ١٦٣١ ولم يتم انشاؤها الا بعد ثلاثة قرون ومن ذلك كنيسة لامدلين اى المجدلانية وهى كنيسة ذات بهجة ورونق وصنع بديع داخلها مزخرف بالنقش والعمد من المرمر النفيس ومبأطها من الرخام وسطعها من حديد ونحاس طولها مائة ذراع وعرضها اثنان واربعون ويحيط بها اثنان وخمسون عمودا ويصعد الى بابها في ثلاثين درجة وكان في عزم نابوليون ان يسميها هيكل الفخر تذكارا لفخر فرنسا وان يصور على اعمدتها جميع الذين حاربوا معه من الابطال المظفرين

المظفرين ولذلك بنيت على شبه هياكل اليونانيين ولم يبق نقاش ولا مصور في المدينة الا واشتغل بها وقال اول حجر وضع في اساسها وضعه لويس الخامس عشر وكان في قصد نابوليون ان يخصصها للعسكر ولم تتم الا في ايام لويس فيليب وهو الذي خصها ببريم المجدلانية بعد ان كان الناس يظنون انها تخصص لجويزتر ومن ذلك الكنيسة التي يقال لها البنيون بنيت في سنة ١٧٦٤ على اسم مار جينيفيف ثم جعلت مدفن للمشاهير الفرنسية في العلم او الحرب وفيها دفن فلتير وجان جاك روسو وغيرهما ثم حولت كنيسة في داخلها مائة وثلاثون عمودا وبخارجها نحو من ذلك وبلغت مصاريف نقش قبورها مائة الف فرنك ورقى ناقشها الى مرتبة بارون ودورتها ٦٢ قدما ودورة الكنيسة كلها ٣٢٥٦ قدما مربعا وطولها ٢٨٨ قدما ومن ذلك كنيسة صان صليبيس وهي في حارة النبلاء يقال ان كراسيها مضمخة بستين الف فرنك في العام بنيت سنة ١٦٤٦ ولها صومعة عالية جدا ومن ذلك كنيسة نو طردام دلورت بلغت نفقتها ٢٠٠٠ ر. ٢٠٠ ر. ووظيفته قسيسيها في السنة ٣٠٠٠ فرنك وقس الباقي على ما ذكرناه واهل باريس يذهبون الى الكنائس صباحا وفي المساء الى الملاهي وهو عند الانكليز من اعجب العجائب • ومن المواضع المشهورة المقصودة مارستان السقط بنى في ايام لويس الرابع عشر وهو يحوى ٦٠٠٠ نفر ما بين مرضى وخدمة وتخدم فيه ٢٥ راهبة ويسع ١٠٠٠ نفس وهو مخصوص بالعساكر وكل من قضى في الخدمة العسكرية ٣٠ سنة فله حق ان يدخله ومرتب مديره ٤٠٠٠ ر. فرنك ويعين لمن فيه في كل يوم رطل من اللحم وليتر من الخمر طاول حديقته ١٤٤٠ قدما وعرضها ٧٨٠ وعنده مدافع غنمها الفرنسية من روسية والجزائر وعنايه وطول المازستان ٦١٢ قدما وفيه مكتبة نفيسة وكنيسة طويلة نصب على مشرفتها جميع الرايات التي اخذها نابوليون من جيوش الدول التي انتصر عليها احسبها تبلغ ٢٠٠ ومن جعلتها عدة رايات من عساكر المسلمين قال وكان في الكنيسة ٢٠٠ ر. راية وسيف لفريدريك الكبير فلما دخلت عساكر الدول المتفقة باريس صدر امر من وزير الحرب عن لسان يوسف بوناپارته بان تحرق الرايات ويكسر السيف فخشي المأمورون تبعة ذلك ولم يخرقوها الا بعد ان راجعوا في امرها ثلاث مرات

قال وفي هذه الكنيسة دفن نابوليون وامرآء عسكره ووضع على قبره تاجه
ونيشانه وسيفه وصرف في القبر مليون ونصف • قلت لا يخفى ان نابوليون لم
يمت في باريس بل مات في جزيرة صانت هيلان غير ان دولة فرنسا في ايام
لويس فيليب استأذنت دولة انكلتره في نقل جثته من هناك فاجابت الى ذلك
فارسل الملك ابنه في بارجة اسمها بل بول ونقلوا جثته اليها وذلك في
السادس عشر من اكتوبر سنة ١٨٤٠ وفي الخامس عشر من ديسمبر
دفنوها في كنيسة هذا المارستان بغاية ما يكون من الاحترام والاحتفال مما لم
يشاهد مثله في فرنسا قط وحضر جنازته مليون من الخلق ومائة وخمسون الفا
من العسكر والملك وآله وجميع الامرآء والنبلآء والعظمآء مع ان جميع اقارب
نابوليون كانوا غايبا عنهم من كان منفيا ومنهم من كان مسجوناً وكانت ولادة
نابوليون في الخامس عشر من اب سنة ١٧٦٩ وقد صار هذا اليوم عيداً
تحتزه الدولة في كل سنة وكانت وفاة نابوليون في الخامس من شهر ماي سنة ١٨٢١
في تلك الجزيرة ولم يخلف الا ولداً ولد له في سنة ١٨١١ ولقب اولاً ملك رومية
وفي سنة ١٨١٥ لقب امبراطوراً باسم نابوليون الثاني مع انه لم يكن وقتئذ في
فرنسا لانه نقل في الحادثة التي وقعت قبلها الى بلاد اوستريا وبقي هناك الى ان
مات وذلك في سنة ١٨٣٢ والفرنساوية يحجبون الى قبر نابوليون كحج المسلمين
الى الكعبة • ومن ذلك بستان النباتات تنبت فيه جميع النباتات وتحفظ فيه سائر
الحيوانات وهو يشتمل على عدة مواضع الاول للنبات فيه بيوت من زجاج
لتنبيت ما لا ينبت في البلاد الباردة الثاني مشرفيات فيها اشياء عديدة تعين على
علم حياة الحيوان المسمى عند الافرنج تاريخ الطبيعيات الثالث مشرفية للتشريح
الرابع مريض الحيوانات ومحل موئتها الخامس مكتبة تشتمل على كتب في تاريخ
الطبيعيات السادس محل يلقي فيه التدريس في العلوم يسع ١٢٠٠٠ شخص
وجلة انواع النبات التي في البستان ١٢٠٠٠ نوع والتي في المشرفية ٥٠٠٠
وعدد الطيور ستة آلاف وعدد السمك خمسة آلاف وعدد الاعضاء للتشريح
١٥٠٠٠ وجلة النباتات المجففة المحفوظة ٣٥٠٠٠ ومن الشجر والحب
اكثر من اربعة آلاف ولما دخلت عساكر الدول الاجتية باريس كان من هم
الدولة ان تحميهم من غوائلهم فبقى مصوناً الا ان كثيراً مما جلب اليه من
البلاد

البلاد الخارجية رد على اصحابه وفيه شجرة من ارز لبنان اهداها طبيب انكليزى اسمه غولنصون الى الدولة وقد رأيت فيه عظام حيوانات عادية طول الواحد منها نحو عشر اذرع وجثة سمكة وكأنها هى الذى يقال له بلغتنا الجمل طولها من الرأس الى الذنب نحو خمس وعشرين ذراعاً وفي ظهرها سبع واربعون فقرة كل واحدة كأنها رفش ولها ثلاث عشرة ضلعاً عند رأسها كأنها تراؤها طول كل ضلع نحو اربع اذرع من كل جانب ورأسها نحو قارب وفي فكها الاسفل من كلا طرفيه ثلاث وعشرون سناً قدر كل سن كالوزة وغاية الكلام ان باريس تفضل لندرة فى المباني والمطاعم والمتنزهات ومحال العلم فهى معدن العلوم والذات ولذلك ترى الوفا من عيال الانكليز الاغنياء يأتونها مستوطنين وما احد من اغنياء الفرنسيين يذهب الى لندرة ليأخذها له وطناً وانما يذهب اليها اهل الحرف والصنائع تحصيلاً لمعيشتهم • ومن مواسم الحظ والفرج عندهم ثلاثة ايام فى المرفع وهى التى يسمونها الكرنيفال وقد ذكرناها فى الكلام على مالمطة فلا ينبغي اعادتها وانما نقول هنا انه فى هذه الايام يدومون فى المراقص حتى الصباح وفى يوم خميس السكارى يطوفون بشور مسمن وامامه طائفة الجزارين بلباس السحرية ويغطون الثور بثوب مزركش وعلى رأسه اكليل من الزهر وكانت العادة سابقاً ان يقعد على ظهره ولد يسمونه ملك الجزارين ويمسك باحدى يديه سيفاً وبالاخرى صولجاناً فاما الآن فانه يقعد فى نحو محفة ويتبع الثور بلا سيف ولا صولجان • ومن ذلك عيد رأس السنة وهو ثلاثة ايام ترى فيها جانبى البلفار مشمولاً بالخيام لبيع التحف والطرف التى يتهدى بها وترى ايضا غيضة شانزلى مشحونة بظلال وقبب واخبية فيها جميع انواع الطرب والشعوذة والرقص على الحبال وشم ترى من بدائع المصنوعات والمخلوقات ما لا تراه فى المملكة كلها وقد رأيت مرة امرأة جميلة ذات لحية وشوارب وعلى قفاها وذراعيها من الشعر ما لم يكن على رجل وكأنها هى التى ذكرها صاحب المعجم حيث قال ارسلت امرأة الى باريس لها لحية كنيقة وجميع بدنهما مغشى بالشعر قال وقد علم ان نساء كثيرة لهن شوارب ولحى وشعر مسترسل على اكتافهن وسواعدهن من جلتهن امرأة اتى بها الى حضرة بطرس الاكبر وكانت لحيتها نحو ذراع ونصف وفى الخامس عشر من اغسطس تصنع

الدولة عيدا حافلا يحشد اليه مئات الوف لرؤية الانوار وشهب البارود • وفي الجملة فان ايام باريس كلها مواسم واعياد وان ليلها ابهج من نهارها هذا وعلى قدر ما فيها من المحاسن الفائقة والارنآء الشائقة فان ضواحيها ابهى واشهى • فمن ذلك صان كلو وهو على بعد نصف ساعة من باريس فيه قصر يصيف فيه الملك وغيضة غضة انيقة دورتها اربعة فراسخ وهذا القصر كان اشتراه لويس الرابع عشر وسكنه نابليون الاول وشارلس العاشر بنى في سنة ١٥٧٢ واثله اجد من اثاث قصر فرساي وفي الغيضة مياه خراة ولعلها هي الشلالات وبالقرب منه قصر فرساي الذي كان مقرا للويس الرابع عشر وهو يشتمل على تصاوير بديعة لا نظير لها من جلتها صور جميع ملوك الافرنج من مات منهم ومن هو حي وصور وقائع نابليون وصور سائر الملوك والسلاطين وفي الشقة التي كان يسكنها الملك تحف غريبة كان يستعملها هو وآله وسرير فراشه وهو نحو صفة وفيه ملهى كان اذا امر الملك باجراء التمثيل فيه ينور بعشرة آلاف شمعة ويصرف عليه في تلك الليلة مائة الف فرنك وفي القصر ديوان فسيح كان يجتمع فيه رجال دولته ولم يكن مع رحبه يسعهم وبعد ان تنقضي فرجة الناس من القصر وذلك نحو الساعة الرابعة تطلق مياه الغيضة صعدا وتضرب آلات الطرب فيقعد الناس على الكراسي للسمع والنظر وهو منظر يسحر فان الحديقة ناضرة زاهية والعيون غزيرة ووسع الغيضة الكبرى عشرون فرسخا وقد انفق على حوض فيها مليون ونصف فاما جملة ما انفق في القصر وفرشه وفي الغيضة فقد اختلفت الاقوال والذي صح انه بلغ نحو اربعين مليون ليرة انكليزية فاما بلد فرساي فانه كان قبل الفتنة عامرا فكان اهله مائة الف نفس والآن ليس فيه اكثر من ثلاثين الفا • ومن ذلك صان جرمان وهو على بعد خمسة فراسخ من باريس او سقر ساعة في سكة الحديد وهي بلدة مشهورة من القديم لها غيضة فسيحة ناضرة في ربوة من الارض يسرح الناظر منها نظره في مدى مديد كله خضرة ما بين كروم وبساتين وغياض ورياض وقصور واعلام حتى يود لو يرى في جلتها صخرا من صخور مالطة وفي هذه البلدة قصر كان في الاصل مقرا لفرنسيس الاول وكان هندي الرابع يستطيب المقام فيه وكذا لويس الثالث ولويس الرابع عشر وفيه

وفيه اقام جامس الثانى ملك الانكليز ديوانه اثنى عشرة سنة ثم صار فى زمن
 القنسة محلا للعساكر ثم جعل الآن سجنًا لهم وهذه المواضع يقصدها اهل
 باريس فى ايام الاحاد والاعياد فى ارتال لها مقاعد فى سطوحها مكشوفة فترى
 وانت فى رتل منها عدة ارتال سابقة ولاحقة ولا يمكن استيفاء الكلام على
 هذه المحاسن من دون رؤيتها عيانا وكل ما تراه فى باريس وضواحيها من
 المحسنات والمنزهات فلما تم بعناية صاحب الملك لا بعناية جاعات على عدتها
 كما هى العادة فى لندرة فان الملك هنا لا يغفل شيئا مما يؤول الى ابهة الملك
 وشرف المدينة ورونقها واذا علم مثلا ان فى بعض الشوارع ديارا قديمة متهدمة
 اشتراها من اصحابها من دون غبن وجدد بناءها وفى ايام ملكها الآن
 هدمت حارة كبيرة برمتها ثم بنى فى مواضعها ديار حسنة شاهقة تضاهى ديار
 البلفار فاما فى لندرة فان جميع الانشاءات والتظيمات موكولة الى جاعات من
 الاهلين وليس على الدولة الا ضرب المكس والطسق وتجهيز الجيوش •
 اما ملابس اهل باريس فانها فى الجملة وضيفة فاخرة واكثر انواع الثياب التى
 تباع عند البرازين ولا سيما الحرير احسن مما يوجد بلندرة الا الكتان فاما
 الملابس المخيطة فليس لعمري من مناسبة بين ما يباع هنا وما يباع هناك
 فان من يشتري ثوبا مخيطا فى لندرة يلزمه ان يستأجر معه خياطا ليصلحه له فى كل
 يوم ولاهل باريس تنطس زائد فى اشياء كثيرة مما لا يعبا به الانكليز الا ان نساءها
 اللواتى يعشن من كد ايديهن يلبسن احذية كاحذية الرجال وذلك منكر فى لندرة
 واذا خرجن فى الاسواق خرجن من دون برنيطة ولا شال ولا اكتفاء عن
 البرنيطة سدان الاول الزهو والعجب فانهن يعرضن شعورهن واعناقهن للرنو
 والتعجب والثانى غلاء سعرها حيث كانت اجر اللأى يصنعنها كثيرة فان صناع
 باريس تكسب اكثر من صناع لندرة وبعكس ذلك الرجال وهاتان الصفتان
 من المنكر ايضا عند نساء لندرة ونساء الفرنسيين نظافة زائدة على الملابس
 والمفروش فكل ما كان لونه البياض يبقى كذلك الى ان يلى ولكن ليس لهن
 من الطهارة نصيب ولهن ايضا عناية بليغة بتنظيف اثاث البيت وبهن تليق
 جميع الاعمال وفى الواقع فانهن ازكن والتمن من سائر نساء الافرنج وما من
 امرأة فى باريس الا وتعرف شيئا من المداواة ومن طبعهن التبكيت فى القيام

وتنظيف مراقدهن بخلاف نساء لندرة فان الغالب عليهن الكسل والتواني والاضحاء في النوم ولهن ايضا حرص على تربية اولادهن وتنظيفهن فلا تنكاد ترى في اسواق المدينة اطفالا يمشون وحدهم او يطوفون في الليل ويعرضون انفسهم لخطر العجلات وسائر المراكب كما ترى في لندرة وهن اللاتي يتولين الدخل والخرج فلا يمكن لاحد ان يشتري شيئا من المأكول والمشروب ما عدا الخمر الا من ايديهن وان تكن بعولتهن حاضرة ولهن مزينة مشهورة بين الناس في النطق بالغيبات كما يزعمون واذا استطلعت واحدة منهن لزمك ان تعطيهما عشرة فرنكات ولم اسمع عن نساء لندرة هذه الدعوى الساعة عن نساء باريس وقد اتفق لي مرة ان سرقت لي كراريس من كتاب الفقه وعزمت على عدم افشائه فقلت لذلك كل التعلق ثم رد علي بعضها من لندرة فاخذني الدهول فلما اطلعت بعض اصحابي على ذلك قال لي عليك باسم محبوب فذهبت معه الى واحدة من اعرفين وكان هو ايضا يريد ان يسألها عن حاجة مهمة له وتبعنا آخر لم يكن له مأرب سوى الامتحان فقط فلما سألناها حضرت امرأة اخرى وجلست بين يديها وامسكت يدها اليمنى ثم جعلت فيها كرة صغيرة من بلور وجعلت تحديق النظر في المرأة وبعد عدة دقائق غمضت المسئولة عينيها ثم تنفست الصعداء واشارت اليها بالجلوس وعيناها مطبعتان فناولتها حينئذ قطعة من الورق واخبرتها بما جرى من السرقة فشتمتها وقالت هذه القطعة ارسلت اليك من بلاد بعيدة مع اوراق اخرى يخالف لون بعضها بعضا واصل شرائها كان من تلك البلاد قلت نعم ولكن اريد ان اعرف من سرقتها قالت اين كان مسكنك حين سرقت قلت في روبلانش قالت نعم في الطبقة الثالثة وقد سرقتها رجل كان كثير التردد عليك قلت من هو وكيف هو قالت ليس هو بفرنساوي بل غريب مثلك قلت ما زيه قالت ليس كزينا ولا كزيك وانما يلبس رداء طويلا قلت ما سنه قالت في حد الثلاثين قلت بل أكثر من ذلك بشماني سنين ففكرت هنيهة ثم قالت لست اراه الا كما قلت لك فكانت صادقة في كل ما قالت الا في السن ويمكن ان يقال ان ذلك الشخص ام يكن يظن فيه ناظره انه جاوز الثلاثين ويقال ان هؤلاء المتنبئات انما ينبئن كما يغمره السائل فاني كنت اضمرت شخصا كان على تلك الصفة وكان يتردد على كثير من وجزمت بانه هو الذي فعل الفعل.

ثم تنصت لحس معدتي فقالت ان هذا الشخص الذى سرق الورق صديق
 لطران حاول مرة ان يسمك باطلاع ثلاثة رجال معه ثم انى وضعت بيدها
 خصلة شعر من شعر امرأة وكانت وقتئذ مريضة بداء الخفتان وقد قاست من
 الاوجاع والاطباء ما يطول شرحه فاخذت الشعر ونحته وقالت هذا شعر
 امرأة مريضة واصل مرضها في المعدة والقلب وقد مس هذا الشعر امرأة
 اخرى قلت صدقت ولكن لا اعلم ان امرأة اخرى مسته قالت بلى قد لمسته
 وان صاحبة صارت عرضة للاسقاط والولادة تسع مرات وهى ذات نشاط
 وحدة فاذا غضبت تخرج عن المعقول ويخشى عايتها من اللهم فينبغي ان تداريها
 وتحوطها وتستعمل لها العلاج الفلانى ثم سألتها صاحبي القلق بعد ان ناولها
 اثرا من المسئول عنه فقالت له انك تقيم في باريس سنتين بعد ثم تسافر الى بلادك
 وكذا وقع له اما الثالث فانه سألتها عما في جيبه فقالت له ورق قال على اى شئ
 يشتمل قالت انا لا احسن القراءة حتى انبئك بما اشتملت عليه قال منذ كم قدمت الى
 باريس وما اشبه ذلك قالت قد استحوذ على صداع ولم تجاوبه باكثر من ذلك
 وخرجنا من عندها وهى على تلك الحالة ثم انى لما رجعت اخبرت المريضة بما وقع
 فقالت اما الشعر فقد لمسته الخادمة واما الاسقاط والولادة فكما قالت • ويقال
 انه حين تكثر السؤال على المسئولة تضعف قوتها ويخدر ادراكها ثم انه لما كانت هذه
 الحرفة مضادة للديانة وللطب كان التمسيسون والاطباء اشد الناس مقاومة لها
 ولقد عجبت كيف ان الدولة تسوغ معاطاتها ان لم تكن حتما فانا اذا اعتقدنا
 بصدق ما تقوله هؤلاء النساء لم يكن بينهم وبين الانبياء من فرق اللهم الا
 ان نقول ان انبياءهم غير وارد في الالهيات وان يكن تدجيلا وتمويهها فلم لم
 تمتنهن الدولة من غبن الناس واختلاس اموالهم وتحكم بخروجهن من الجماعة اخذا
 بنص التوراة على ان بعض المتفلسفين في باريس يدعون ايضا بان فى الانسان
 خاصية او جاذبية تسرى منه حتى الى الجماد فينفعل بها فضلا عن تأثيره فى
 انسان نظيره وعلى ذلك شاعت الاخبار بان الموائد تميد بلبس عدة رجال لها
 وان الكراسى تمشى والسكاكين ترقص الى غير ذلك والذى يخطر لي على
 قدر ما ادركه انه كان ينبغى امتحان هؤلاء النساء وبعد ذلك اما ان يحظرن
 لو يقررن على صنعتن وقيل انهن امتحن فوجدن صادقات فى امور كثيرة

حتى لم يمكن حظرهن وانه انما رخص لهن في الانباء رجاء ان تظهر وسيلة
اخرى لاتقان هذه الحرفة حيث لم يستبعد ذلك على تمادي الزمن اما ما قيل عن
بوسكو فلم ار من شعوراته ما يصدق كلام الناس فيه فان كل ما صنعه امام
الناس لم يصنع الا بادوات وقد شاع عن روبرت اودن انه كان عنده زجاجة
وكان يسأل الناس اى شراب يبغيون منها فكان كل يقترح عليه شيئا فيسقيهم
كلهم منها ثم رأيت هذه القناني تباع بثنى غان ولا ادري شأنها والله اعلم • اما
اخلاق الفرنسية فالكلام عليها يستغرق زمنا طويلا لان الطبيعة البشرية
فيهم لمتها من نوع وسداها من نوع اما اولا فلائن سمحهم وبنية اجسامهم
متفاوتة جدا فاعل جنوب فرنسا سمر كاهل البلاد الحارة واهل شمالها
بيض شمر والساني ان ما يظهر منهم للغريب اولا انما هو الانس وحسن
المعاشرة فاذا رأى ذلك منهم اول وهلة ظن انهم يزدادون من مؤانسته
والفته وان هذا الانس لا بد وان يتبعه كرم وصداقة ويزيد تعجبه من ذلك
على الخصوص ما اذا واجههم على هذه الصفة المستحبة بعد مفارقتهم الانكليز
على حالة الانتقاض والعبوس ولكن هيهات فان انيسك منهم اليوم اذا راك
غدا ظننت ان ملاقاتكما انما كانت حلا وعلى فرض استمرار الالفه بينك وبينه
فلا يدعوك الى منزله ولا يعرفك باهله • ومن ذلك ان اهل البلاد الباردة
كباريس وغيرها تراهم اخف حركة واحقد الى الاشغال من اهل البلاد الحارة
او المعتدلة كرسيلية ونحوها فان الناس هنا لا حركة لهم ولا نبض فن قدم
اليها من باريس ورأى بلادة اهلها عجب كل العجب فاين هم من اهل مالطه
الذين يبادرون الى العمل باذنى اشارة • ومن ذلك ان كثيرا منهم ولا سيما اهل
باريس يعيشون مع النساء عيش المنة ويأتى لهم بنون وبنات وهم على هذه الحالة
ولا يتزوجون زواجا شرعيا فكيف يحب الرجل امرأة ولا يتزوجها لا سيما
وقد ولدت له اولادا وربتهم وزواجهم التسرعى هو الذى يعقد فى الديوان
لا فى الكنيسة ومنهم من يعقده فى كلا الموضعين وهم المتدينون العابدون •
ومن ذلك انهم مائلون بالطبع الى حب النساء ومخالطتهن ومداراتهن ومع ذلك
فانهم يدعونهن ليعملن الاعمال الشاقة ليكسبن بعض شئ ويمكن هنا ان يقال
ان نساءهم مائلات بالطبع الى حب الكسب وليست الراحة عندهن الا بتحصيل

المال ومن هذا القبيل ان الرجال من فرط عشقهم يقتلون انفسهم ويرتكبون اقصى الاخطار لارضائهم ومع ذلك فليسوا يقيمون على وداذهن فتبديلهم عندهم اهون من تبديل اللباس ومع اعتقادهم بان نساءهم اكيس النساء واطرفهن واحذقهن جميعا فلا يأنفون من زواج الحبشيات وغيرهن • ومن ذلك انك ترى ادباؤهم وكيسيههم ابدا يترددون على الملاهي والملاعب ليسمعوا فيها ويروا ما سمعوه ورأوه مرارا وانت خير بانه يكرر في هذه المواضع تمثيل الحوادث كثيرا اذ لا يمكن اختراع شئ حديث في كل ليلة ومهما يكن الشئ الممثل بديعا فاذا اعيد زالت طلاوته • ومن ذلك انك لا تزال ترى الخاسرة منهم والعامية يتمشون في الحدائق والنياض ومواضع الفرج والغناء حتى تظن ان اهل باريس كلهم سباهة لا شغل لهم ولا عمل ومع ذلك فهم يتأثثون في المطاعم والمشروب والملبوس والمفروش فلا ادرى في اى وقت من الاوقات يكسبون المال • ومن ذلك ان لهم عناية بتربية اولادهم اكثر من الانكليز اذ لا يغادرونهم وحدهم في السوارع والطرق عرضة للاخطار او يهملون تعليمهم حرفة من الحرف تغنيهم عن المسكن في المستشفى او عن الطر والاختلاس في السوارع كما هي العادة في لندرة غالبا ومع هذا فانهم عقب ولادهم يبعثونهم الى الريف ليتربوا عند المراضع والانكليز على خلاف ذلك • ومنها انهم على بلادهم وجنسهم اغير من الرجل على امرأته فلا يسمون بان في الدنيا بلادا تسبه بلادهم او جيلا يضارعهم ومع ذلك فانهم يسافرون عنها لغير موجب وحينما ساروا بشوا وسائل التمدن والعلوم وجادوا بما خصهم الله به من البراعة والحكمة على من لبثوا بينهم وربما كانوا لهم اعداء لعمرى انى ارى طريقة ملك الصين في منعه مخالطة رعيته بغيرهم اولى او ليس ان الدولة حين تنصب الحرب لدولة اخرى تمنع اخراج كل ما يتعلق بالهبات الحربية من بلادها الى بلاد تلك الدولة فاي الخارجين انفع لها وافضل الرجل ام الاداة • ومن ذلك انهم حين يكونون متغربين في بلاد الناس يختلطون بهم ويحانسونهم ويخالقونهم حتى يصيروا كأنهم منهم واذا تغرب احد بينهم لم يختلطوا به ففاية ما يخلصونه به من الاكرام انما هو ان يسألوه من اين قدمت واين تقصد وكيف اعجبتك باريس • ومن ذلك انهم لا يزالون ينقرون عن الحقائق ويودون لو يعلمون كل امر من فسه وقد حذقوا كل علم وبرعوا في

كل فن ومع ذلك فقد عذب عنهم اهم الحقائق وهو ضرورة وجود الدين لكل من السائد والمسود والرئيس والمرؤوس ولو سلم لهم بان الكيسى واهل المعارف والادب غنيون عنه بما فطروا عليه من حسن الاخلاق او حسنوا به املاءهم من مطالعة الكتب لم نسلم بان الرعاع الذين هم الجمهور الاعظم في كل البلاد غير مفتقرين الى دين يردعهم عن الشرور والمعاصي ويحثهم على فعل الخيرات ولولا ذلك لاكل القوى الضعيف فان قلت كيف يأكله والحاكم من ورأته قلت ليس في كل الامور يمكن استحضار الحاكم او الاستغاثه به ألا ترى انه اذا اجتمع مثلا اثنان في مكان خال وبطش القوى منهما بالضعيف أفيكون لصاحب الحكم عين باصرة او اذن سامعة للقصاص فكهم من قضية جرت بين الناس وفاتت اجتهاد اهل السياسة والايالة ولكن اذا كان الناس يستحضرون خالقهم في السر والعلن ويخافون عقابه ويرجون ثوابه كان لهم بذلك اعظم رادع ووازع فانصاف امة بعدم الدين من اعظم ما يهين شرفها ويخفض قدرها • ومن ذلك انه لم يزل دابهم تغيير الحكومة وتبديل السياسة واربابها ولم يخطر ببالهم قط ان يغيروا هذا الاسلوب السمج الشنيع الذي يجري في عبارات اهل السياسة والاحكام منهم فان فيه من التكرار والمواربة والحشو ما يشهد عليهم امام الله والناس بانهم لا ذوق لهم ولا امام بشئ من الادب • ومن ذلك انهم ينكرون على اهل اللغات المشرقية وخصوصا اللغة العربية كثرة الاستعارات والكنايات مع ان لغتهم تطفح بها طفعا ولولاها لضافت بهم العبارة عن نأدية اكثر المعاني وسيأتى الكلام على ذلك بالتفصيل وانما اقول هنا اني لما اردت ان اترجم من قصيدتي التي مدحت بها الامبراطور نابوليون قولي

ولا تملل وقت توأمي عدة * له وانجازها بل قلما سلا

قال المصحح ان ذلك لا يكون مفهوما بلغتهم ولو جاء بهذه الاستعارة احد مؤلفيهم لحسبت من البلاغة بمكان ومن طبعهم في التأليف والكلام ان ينتقوا اللفاظ الجزلة الفخمة يكسون بها سخيف المعاني فتسمع منهم جمجمة ولا ترى طحنا وهذا دأف فاش فيهم اجمعين • ومن ذلك ان نساء عامة الفرنسييس مع زهو هن واعجابهن اذ الزهو صفة عامة لجميع اناث هذا الجيل تراهن يتعاطين من الاعمال الخسيسة ما نأنف منه اخس نساء الانكليز ككتكتيس الطرق وحمل الاحمال وتنظيف

وتنظيف الاحذية وصيد السمك والمناظرة على المراحض ونحو ذلك ولا بد
من ان تخاطب كل واحدة من هؤلاء الحسيسات المتذلات بلفظة مادام
فاما الستات المترفات من هذا الجيل فالعزة لله الواحد القهار فان ما نقص
من مترفية سادة الانكليز وجلالهم ومجدهم تلقاه فيهن وافيا فهن نساء
صورة وشكلا ورجال امرا ونهبيا وحيث قد استوفيت الكلام عليهن في
كتاب الفارياب فلا حاجة الى اعادته وانما اقول هنا انهن لا يعترفن بفضل
الرجل على المرأة فانهن يقلن ان الله تعالى لم يختص الرجل بمزية الا وعوض
المرأة عنها باخرى فجعل بين ذلك توازنا حتى تستتب الالفه والوفاق بينهما فما
اختص به الرجل القوة والسدة ليكنه تحمل المشاق في تحصيل اسباب معيشته
فعوض المرأة عنها بالصبر والتجلد لمصالح بيتها وتربية اولادها واختص الرجل
بسطه الجسم والمهابة فعوض المرأة عنها بفطنة الحسنة والروع فهما يكن
الرجل متزعا الى السوء تردعه عنه من نظرات المرأة روادع واختص الرجل
بطول النظر والفكر في العواقب فعوض المرأة عنه بالبديهة العتيدة وسرعة
الجواب المقنع واختص الرجل بالشهامة وعزة النفس فعوض المرأة عنه بالتساون
والحياء وهكذا • ويحكى عن احدى الخواتين انها استأجرت مقعدا في بعض
الملاهي حيث اريد اجراء التمثيلة المعروفة بالبروفت اى النبي وكان الناس
يتراحمون الى رؤيتها لانها كانت اول ليلة فاتفق ان مرض زوجها بغتة فاقبل
اليها بعض اصحابها ليبدوا لها التأسف على حرمانها من الذهاب وهي في
خلال ذلك تتأوه وتفرك يديها ثم قالت ان هذا المخلوق لم يأت في عمره كله الا
ما يغيبني وسترون الآن انه يموت عمدا ليحرمني من الخروج الى الملهى اه وفي
الجملة فان كل ما تفعله احدى هؤلاء الخواتين فانه يعجبها واهلها وجيرتها
واهل المملكة اجمعين • ولا شئ يعجبني من احوال الفرنسيس اكثر من معرفتهم للناس
فان هؤلاء الذين يخرقون على الانكليز لو اقاموا بين الفرنسيس سنين لم تكسبهم
مخاريقهم خرقه يسترون بها عورتهم او رغيفا يفتأ صخرهم واعلم ان امة
الفرنسيس امة قديمة مشهورة مشهود لها بالفضل والتقدم في المعارف والمساعى
العظيمة حتى ان اهل المشرق اطلقوا اسمهم اعنى الافرنج على ساكن اوربا
وكما ان بلادهم ولا سيما باريس لم تزل مقصدا للناس في الكياسة والحضارة

كذلك ما برحت الممالك الشرقية متابا لهم ولم تكن دولة من دول الافرنج قبل استعمال البواخر تذكر بالنسبة اليهم نعم ان الانكليز اشتهروا في الهند منذ اكثر من قرنين الا انهم لم يكونوا يجولون في بلادنا ولم يكن يرد اليها منهم غير القناصل ولكن لم تكدها خاصة البخار تعرف عند الكيمياءيين حتى ملأت سفائنهم البحار وامتعتههم وبضاعتهم جميع الحوانيت والاسواق وحيث عرف انهم ذووا كد واجتهاد فادركوا من تقدمهم في متقادم الزمن وقد جرت العادة بان سكان الجزر ابدأ يكونون ناشطين الى التجارة والاسفار ضرورة انهم لا يستغنون عن البرور الفسيحة الا ان الانكليز لا يتطبعون بطباع اهل البلاد التي يتنابونها ولا يتساهلون فيما يجدونه هناك من الاحوال المغايرة لاحوالهم والمباينة لطباعهم بخلاف الفرنسيين فان بلاد الله كلها لهم بلاد والذي زاد هؤلاء ايضا شهرة ونباهة هو ان نبغ ائس منهم تفردوا في عصرهم بمآثر ومزايا لم يشاركهم فيها جيل آخر ففتحهم شارلمان في العز والسطوة فانه دانت لعزه ايطاليا وجرمانيا وكان فيصلا عند جميع ملوك اوربا قيل انه كان سعيدا كاغسطوس ومقـدـاما في الحرب كادريانوس وهو اول من انشأ مشيخة للعلوم في باريس وكان هو من جملة اعضائها ومنهم لويس الرابع عشر في المجد والكرم كان في شهرته بالغرب نظير هارون الرشيد في الشرق وفي دولته نبغ كثير من العلماء والادباء والفضلاء وذلك كفيليون مؤلف تليماك خطب في الكنائس وهو ابن خمس عشرة سنة ولد في سنة ١٦٥١ وبوسوا الشهير في التاريخ والفصاحة ولد في سنة ١٦٢٧ ومولير الشاعر البارع ولد في سنة ١٦٢٢ وبوالو وهو ايضا من الشعراء المفلّحين ولد في سنة ١٦٣٦ وراسين وهو بمنزلة شكسبير عند الانكليز ولد في سنة ١٦٣٩ ولافونتين وهو وان لم يحظ عند الملك الا انه كان من الفضل والعلم بالمكان الاعلى ولد في سنة ١٦٢١ والامير كوندى جعل قائد الجيش وهو ابن ٢٢ سنة وقهر جيوش اسبانيا والنمسا وهولاند ولد في سنة ١٦٢١ وغيرهم كثيرون ونبغ من قبله هنري الرابع الشهير في التدبير والايالة وقد مر ذكره ومنهم فلتير في العلوم ولا سيما في التاريخ والادب وسعة الاطلاع والعبارة ولد في سنة ١٦٥٤ وفلني في التاريخ والادب ايضا ولد في سنة ١٧٥٧ وبوفون في الطبيعيات ولد

ولد في سنة ١٥٩٦ و دكرا في الفلسفة ولد في سنة ١٧٤٩ ودلامير في الهندسة ولد في سنة ١٥٩٦ ومونتيسكيو في الفلسفة والادب وعموم المعارف ولد في سنة ١٦٨٩ وناپوليون الاول وناهيك باسمه، واصفا على ان الانكليز الآن يتنافسون في كل شيء يقال فيه انه فرنساوى فاذا ارادت التجار منهم ترويج شيء من سلعهم كتبوا عليه فرنساوى وكذلك اصحاب الملاهي يكتبون في اعلامهم ان مادام كذا تلعب الليلة في الملاهي وموسيو كذا يحكى كذا وما تكون هذه المادام او هذا الموسيو الا منهم وفيهم ولا تكاد ترى شيئا في باريس مروجيا باسم الانكليز ويمكن ان يقال انه لم تستتب في الدنيا واقعة خطيرة الا وكان للفرنسيس فيها يد فانهم هم كانوا سبب الحرب المعروفة بالصليبية في عهد السلطان صلاح الدين الايوبي وذلك ان بعض ضباط الفرنسيين المسمى بـ بـطرس الارميت اى الناسك كان قد سافر الى الارض المقدسة في سنة ١٠٩٣ واجتمع بـ بطرك اورشليم فشكا البطرك ما تقاسيه النصارى هناك من جور المسلمين فلما فصل عن المـكان اصحبه بـ كتاب الى البابا اوربان الثانى فخرده البابا لان يطوف على ملوك النصارى ويحرضهم على القتال فاخذت بقوله وهاجوا لارسال الجيوش ثم قام من بعده راهب من بريتانى اسمه ارلوان ثم صان لويس ألا ولولاهم لم تستقل دولة امريكا بامورها كما نراها الآن وتفصيله ان دولة الانكليز كانت قد كلفت المستوطنين في امريكا من المكس والضرائب ما لم يكونوا يعهدونه وكان الخامل للدولة على ذلك ما ركبها من الدين بسبب الحروب التى تقدمت كما يرد تفصيله فلما بلغت الاوامر الى بستان او بستان تعصب اهلها على ان لا يدفعوا شيئا مما لم يجرب به العادة ثم عقدوا مجلسا عاما ورأسوا عليهم جورج واشنطون وفوضوا اليه التدبير والامر وفي سنة ١٧٧٦ شهر و انفضالهم عن الانكليز وبعثوا بنيامين فرنكلين الى ديوان فرنسا ليعرض ما استقر عليه رأى القوم واستجدوا بالملك لويس السادس عشر فأرسل لهم اثنتى عشرة بارجة من طولون فتوجهت البوارج الى رود وهى جزيرة ككانت تدخر الانكليز فيها جهاز الحرب فاكادت تصل الى هناك حتى ثارت عليها الرياح العواصف فبادت عن آخرها ثم ذهب من فرنسا لاعانة الاميريكانيين كثير ممن شهبوا بالبسالة والنجدة اشهرهم لافايت وكان قد بلغ من العمر عشرين سنة لا غير فلما

وصل الى هناك حظى عند واشنطنون حظوة عظيمة و وقتئذ اتفقت دولة فرنسا مع دولة اسبانيا بعد ما كان بينهما من المنافرة على اعانة الاميريكانيين ثم امدهم الجنرال روشامبو بستة آلاف من العسكر لاستخلاص جزيرة رود ثم استخلصوا ايضا مدينة يورك واستأسروا من الانكليز ثمانية آلاف وعندها تم انعقاد الهدنة بين الدول و جرى تحريرها في باريس سنة ١٧٨٣ انتهى ملخصا من فلتير • قلت ثم اضطرت الحرب بين الانكليز والفرنسيين فقام الاميريكانيون مقام من لا ضلع له مع احد الفريقين ثم اشتعلت ايضا بين الانكليز والاميريكانيين وذلك في سنة ١٨١٢ فلم تنته الا بعد ثلاث سنين قال في مجمع الاوقات اصل حروب فرنسا التي تغلغل فيها الانكليز نحو مائتي سنة نساء عن امرآء نورماندى وهم ملوك الانكليز فانهم كانوا يضبطون هذا الاقليم كأنه وقف لئاج فرنسا حتى فتح وليم الاول انكلتره فصارت هذه الولاية ملحقة بها ولكنها انسلخت عنها في عهد الملك يوحنا وذلك في سنة ١٢٠٤ قال وقد تعددت حروبنا مع الفرنسيين ونصرنا عليهم نصرات متعددة وفي عهد هنرى الرابع طرد الانكليز من فرنسا وبعد ان خرجت من يدهم بقيت الحروب تعاقب المهادنة والمهادنة تعاقب الحروب مددا طويلة فجملة ما وقع من الحروب بيننا وبينهم ثمانى عشرة حربا وقد قضت الانكليز ستا وخمسين سنة فى الحرب واثنين وستين فى السلم فصرفوا فى حرب سنة ١٦٨٨ ٠٠٠ ٠٠٠ ٣٦ ايرة وفى حرب اسبانيا اثنين وستين مليونا وفى الحرب الثانية معهم اربعة وخمسين مليونا وفى الحرب التى دامت سبع سنين مائة واثنى عشر مليونا وفى حرب اميريكيا مائة وستة وثلاثين مليونا وفى حرب فتنة الفرنسيين اربعمائة واربعه وستين مليونا وفى حرب نابوليون الفا ومائة وتسعة وخمسين مليونا فتكون جملة المصاريف فى مدة مائة وسبع وعشرين سنة وذلك من وقت الفتنة التى جرت فى سنة ١٦٨٨ الى آخر مدة نابوليون فى سنة ١٨١٥ ٠٠ ٠٠ ٢٣ ٠٠٠ ٢٠٠٠ وقد حسب بعضهم عدد القتلى من الفرنسيين فى ست وقائع فى حرب جرت بينهم وبين عسكر اسبانيا فكانت ٠٠ ٠٠ ٦٠ ومثلها من اهل اسبانيا ومن كان يتحزب لهم وبقيت اقطار البلاد عرضة للتخريب والمصائب من كل وجه • قلت وقد بلغت مصاريف حرب الهند فى هذه الايام الاخيرة ٩٥٠٠٠٠ ٠٠ ٠٠ ٩٥٠٠٠٠ اما نابوليون الاول فانه دان له اكثر

أكثر ممالك أوروبا فقهر بروسية والروسية وسويد حين توالفوا مع الانكليز على حربه ودخل مملكة بروسية منصورا فاجتمعت غايه دول الروسية واوتريا وبروسية وغيرهم ثم عنوا لطاعته في مدينة درسدن وكانت هذه خامس مرة تواطأت فيها الدول على خلعهم ثم لم تمض برهة حتى حشد جيشا عظيما وتوجه بهم الى الروسية فلم يجد ممانعا له حتى بلغ مدينة المسكوب فلما اشرف عاينها هو وجنده تعجبوا من كثرة ما فيها من الكنائس والقباب المذهبة اذ كان فيها نحو ٨٠٠ كنيسة فيها الوف من الاجراس فقال عند رؤيته ذلك هذه مدينة المسكوب ثمرة تعبكم وجهادكم من زمن طويل وهي تكون خاتمة مساعيتكم واتعابكم ثم انهم دخلوها فوجدوها خالية على عروشها فان مملكتها كان قد اخلاها خدعة فظن نابوليون ان نصرته تحققت وان مملكته قد استتب فلبث فيها اياما ثم لم يشعر ذات يوم الا والنار تضرع في اطرافها فلحقه من ذلك الفشل واضطر الى اخلائها فلحق به جيش الروس وما كاد يتخلص منهم الا بعد اخطار شاقة فلما رجع الى باريس رأى اهل السورى قد تغيرت خواطرها عليه فاضطر الى ان يخلع نفسه وسار الى جزيرة ادلب فخلفه في الملك لويس الثامن عشر لكنه ابدى من سوء التدبير ما امال خاطر بعض رجال الدولة الى نابوليون فجرت بينهم المكاتبة والمراسلة ثم لم يشعر الناس بعد مدة الا وهو يحول في البلاد ويحرض حزبه على قتال العدو وجعل يعدهم ويمنيهم قالت قلوب الناس اليه فابرح سائرا حتى دخل باريس ففرحت به رجال الدولة وفر منه لويس ثم انه جمع جيشا عظيما وتوجه لقتال الانكليز وروسية عند فلوروس فانتصر على جيش روسية فقتل منهم يومئذ ٢٢٠٠٠ الا ان عساكر اعدائه كانت اكثر عددا من عساكره باضعاف ثم زحف الى قتال الانكليز عند واطرلو وكاد ان يغفر بهم لولا ان تداركتهم جيوش بروسية فاحدقوا بعساكره فلم يطيعوا النبوت ويومئذ تقطعت به اسباب الآمال فجعل يتلقى رصاص البنادق والمدافع وهو كاشف صدره ومع ذلك فلم ينله ضرر فرجع منكسر الخاطر مهيبض الجناح فحكم اهل السورى بخلعه فعرض عليهم ان يقاتل العدو في رتبة امير لواء فابوا فمسم على ان يسير الى امريكا حتى اذا سار بشرزمة من حزبه الى روشفورت وكانت سفن الانكليز تطوف هناك امسكوه وتوجهوا

به الى جزيرة سانت هيلان وهناك قضى نحبه • اما اتحاد بروسية مع الانكليز فكان سببه ان نابوليون كان يريد ان يعطى مملكة هنوفر للانكليز في مقابلة صقلية فهاجت حمية ملك بروسية على نابوليون وبلغ من غيظ زوجته انها كانت تركب وتدور في شوارع المدينة وتحرض الناس على القتال وهي متردية بلباس الجند ووقتئذ توأطأت الدولتان ودولتا الروسية وسويد على نابوليون الا انه غلب الجميع حيث دخل قاعدة مملكة بروسية منصورا مظفرا كما تقدم فاما توأطؤ سائر الدول عليه فانما كان خوفا منه ان يستولى على ممالكهم اذ كان لا يرد شئ عما نواه ووقتئذ سولت دولة الانكليز لملك الدانمرك ان يواطئها عليه فابي فارسلت بوارجها الى كوبنهاك فاطلعت المدافع عليها فهدموا منها ٣٠٠ بيت واستولوا على بوارجها وكانت ٥٣ بارجة انتهت ملخصا من فلنير • ومن ابطال نابوليون المشاهير مورو الذي قهر امپراطور النمسا وبدد عساكره حتى اضطر الى طلب المهادنة فاجابه بشرط ان تنفصل دولة النمسا عن دولة الانكليز فانهما كانتا متوأطئتين على فرنسا وسياى ايضا ذكر نابوليون عند ذكر الامير نلسون الانكليزى وغيره في وصف لندرة • ومن تفرد في البسالة والجماسة من هذا الجيل اى الفرنسيس جان دارك الشهيرة وكانت فى الاصل خادمة فى بعض الحانات وكانت تركب الخيل بلا سرج لجرأتها وقوتها وتدعى انها تقدر على استخلاص فرنسا من يد الانكليز فاحضرت بين يدي دوك دورليان فى برج ثم بعد ان علم انها بكر وانه كان يوحى اليها فوض اليها ان تقود جيشا وتسير بهم لاستخلاص اورليان وكانت حينئذ تحت حصار الانكليز فلما بلغت البلد اقلت خطابا بليغا على من معها من الجيش وحرضتهم على قتال الانكليز فاخذتهم الحمية والجماسة وتقدمتهم الى التمال ويدها راية فلم تمض ساعات حتى هزمت جيش الانكليز واستنقذت البلدة • قال فى ابجدية الاوقات لما كانت الانكليز محاصرين اورليان زعمت جان دارك بان الله اوحى اليها ان تطردهم منها فقلدها شارلس الثامن تدبير الجيش فسارت بهم الى الموضع المذكور وذلك فى سنة ١٤٢٩ وضايقتهم حتى اضطرتهم الى ترك الحصار واستردت منهم عدة مدن كانت تحت يدهم وهزمتهم فى واقعة باتي المشهورة ولم يكن احد يجد فيها محلا للوم والقذف فانها جرحت عدة مرار

حكى والعهد على الراوى انها لما كانت ذات مرة سائرة مع ابوها في بستانه وهى بنت خمس سنين ابصرت حولها نورا ساطعا فى الهواء فالتفتت فرأت صورة الملك ميخائيل رئيس الملائكة فاعز اليها ان تكون مملعة لما يجب عليها وان الله يحميها فلما سمع ابوها بذلك وكان رجلا شرسا عاملها بالعنف والقساوة حتى اضطرت الى ان تفارقه وتخدم عند ارملة صاحبة فندق وهناك ابدت من صدق السعى والاقدام على الاعمال ما فطرت عليه فكانت تتركب الخيل لتسقيها وتسافر فى قضاء حاجة سيدتها من دون خوف وكانت فى الصلاح على اعظم من ذلك قال المعلم سريس انه كان على طلعتها سياء الحياء والبهجة واللين مع العزم والمضاء وكان كلامها سديدا والعفة قرينة اعمالها كلها ثم انها رجعت الى بيت ابوها بعد خمس سنين وعادت الى رعاية ماشيته حتى بلغت ثمانى عشرة سنة وكانت امور فرنسا اذ ذاك على شفا جرف هار من البوار والخراب وكان قد بلغ الجارية ما اصاب اهل بلادها من الضيم وملكتهم من الهزيمة والفشل وفى غضون ذلك رأت ما الم بمعارفها من البؤس بسبب الحرب التى وقعت فى فرنوى فكانت تبصر رؤى وتسمع اصواتا سماوية اكثر مما كانت ترى وتسمع من قبل الى ان ارجف الناس باستوط اورليان فى يد الانكليز اذ كانوا وقتئذ محاصرين لها قال فابصرت الملك ميخائيل والقديستين كاترينة ومارغاريت يحرضونها على ان تخصصن نفسها لانتقاذ بلادها فقالت انى فلاحه مسكينة ولا دراية لى بمثل هذه الخطوب فاكد لها الملك انها تعطى مقدرة وحكمة وان القديستين تصاحبانها وان كل شئ يجرى على وفق المراد ثم ظهرت لهما ايضا فى نور عظيم وعلى رؤوسهما تيجان بهية مرصعة ولهما صوت رخيم وكانت البنت تذكر رواية جرت بين الناس بحرى النبوة وهى انه كما ان خراب فرنسا نسا عن امرأة شريرة اعنى ايزابلا من بافارى كذلك يكون استردادها على يد بنت غير ذات عيب تجرد لانتقاذ بلادها وان هذه المنقذة نأتى من جهة بواشنو ثم كثر توارد الاصوات عليها وكثر حثها لها حيث كانت امور فرنسا تختل بالكلية واوشكت ان تكون فى البحران

واشارت اليها انها هي تلك البكر المعنية فاستحوذ عليها الكرب والكتابة وكانت كثيرا ما ترى باكية عند مفارقة الرؤيا لها وكان ابواها لا يصدقان بما ترى فارادا ان يزوجها منعا لها عن الخروج مع الجند فاعرضت عن عرضهما حيث كانت قد نذرت البتولية واتفق وقتئذ ان جاعة من حزب الانكليز مروا بقريتها فنهبوها واحرقوا الكنيسة فاضطرت الى الفرار مع والديها فلما رجعوا ورأت ما نزل بالقرية اشتد غيظها وجأشها فامرتها الاصوات بان تذهب الى بعض الحكام في ذلك الجوار وتطلب منه ان يوصلها الى الملك وانها ان لم تفعل ذلك تعدم خلاص نفسها وانها حين تمثّل في حضرته تخبره بانها ارسلت لكف حصار اورليان ولتتوجه في رام فتصدت الحاكم وطلبت مقابله فابي اولاً ان يراها فما زالت تلح عليه حتى اذن لها فلما دخلت نظر اليها نظر المزدري وامر خالها بان يردها الى بيت ابيها وان تجار فقالت له ان ذلك عمل سيدي ولا بد من انجازه قال ومن سيدك قالت ملك السماء فايقن بانها مجنونة وصرفها فلبثت في تلك الجبهة وكانت تبذل في كل يوم وتقول ان الاصوات تلح عليها بانجاز العمل فشاع خبرها في البلد فكانوا يهرعون الى رؤيتها ويعجبون من تقواها وحسن سيرتها فارسل اليها احد الامراء ان نأتيه وتسفيه من دأ به فارسلت تقول له اني لم ابعث اليك وان الاصوات لم تذكر لي اسمك وفي جميع هذه الحوادث كانت افعالها وكلامها على حد سوى وكانت مالكة هوى نفسها فلم تكن تبدي شيئاً من الجفاء او السرف وكان ذهنها يزيد صفاء وتوقدا ولم يكن لها مأرب سوى اغائة اورليان وتوزيع الملك فعرض عليها احد الرهبان ان يعضدها بامرأة زعم ان لها قدرة علوية فوق الطبيعة فقالت له لا حاجة لي بها ثم قالت من حيث ان الحاكم لم يكثرث بي فانا اذهب الى الملك وحدي ماشية اذ ليس احد من الملوك يغيب فرنسا حتى ولا يذت ملك سكوتلاند فما من اغائة الا بي على اني لو خيرت لاخترت المقام بدار ابي والغزل بازاء امي ثم الح الناس على الحاكم بان يجيها الى ما طلعت قال وبعد ان رش عليها القسيس الماء المبارك واختبرها وعلم انها ليست بساحرة ارسل معها بعضا من خواصه فسافرت في شهر شباط من سنة ١٤٢٩ وكان الملك بعيدا عن ذلك الموضع مسافة مائة وخمسين فرسخا في اقطار مشحونة بالحرس والعسس والمخاوف

والمخاوف فركبت الجواد في زى رجل وتقلدت السيف وطمنت قلوب السائرين معها فجابوا تلك النواحي من دون ان يصادفوا احداً من الاعداء حتى اذا اشرفت على مقر الملك بعثت من يخبره بقدومها فلما سمع بذلك اندفع في الضحك وان كان وقتئذ في حالة يصدق عليها قول من قال انه يتعلق بحبال الهوآء فاشار عليه بعض وزرائه ان يقابلها وسخر منها الآخرون وظل رجال الديوان ثلاثة ايام في هذه المذاكرة والملك لا يدري بايها يجزم الى ان قر رأى اخيراً على ان يؤذن لها في الدخول ولاجل ان يختبرها تزييا بزي رجل من السامة وجعل احد خواصه في زيه فلما دخلت خرقت صفوف الحشم والتبع حتى وصلت اليه وجثت بين يديه وقالت ملاك الله بالامر ايها الملك الحليم فتعجب وقال لها لست انا الملك وانما ذاك وأشار الى الوزير فقالت باسم الله ليس الملك الا انت انا جان العذراء ارسلني الله اليك لاغيثك والمملكة وعن امره ابين لك انك تتوج في مدينة رام فاخذها الملك ناحية وبعد ان ذاكرها هنيئة قال لقد اطلعتني على امور لم يكن احد يعرفها الا الله تعالى والا انا واتى اول من صدق بانها ارسلت لانقاذ المملكة وقال فلتير في كتابه الذي سماه «لاپوسل درليان» ان الملك سألتها عما جرى بينه وبين محبوبته في تلك الليلة ولعل ذلك تهكم منه على عادته قال الراوى وفي الغد القابل رآها الناس علانية على جواد تركضه وتضبطه احسن ضبط وكانت تعتقل الريح وتبدي من الفروسية ما لم يعهد لغيرها وكانت مهفهفة القوام ولها شعر اسود مسترسل على كتفيها وعمرها في حد سبع عشرة سنة فعجب الناس لما شاهدوها على هذه الحالة وهتفوا باصوات عالية تنبئ عن تصديقهم لها غير ان الملك لم يستخلص سريرتها فامر بان يتمحنها جماعة من الاطباء والمتكلمين فالتوا عليها مسائل صعبة مدة ثلاثة اسابيع وحاولوا ان يعرقلوها بالكلام وكان ذلك عبثاً فانها اصررت على قولها الاول وهو انها ارسلت لكف حصار اورليان وتتويج الملك في رام وكانت وقتئذ بيد العدو ولم تزد على هذا شيئاً فاقترحوا عليها آية فقالت ارسلوني الى اورليان مع جماعة من العسكر تعلموا حقيقة ما اقول اعني كف الحصار وكانت حين تنصرف من عندهم تقضى اوقاتها بالدعاء والخلوة حتى اذا فرغوا من القاء المسائل عليها على انواعها ونضحت بالماء المبارك عادت متسلحة من الرأس الى القدم في زى الفرسان

الاقدمين فكانت تتركب الجواد وربتها امامها والريح بيدها وتبدي من طرق
 الفروسية ما يحجب الجيش وكان اهل اورليان اذ ذاك في كرب شديد وكانوا قد
 سمعوا بنحبر الفتاة فارسلوا يطلبون مددا والتمسوا بان تكون الجارية على رأس
 الجيش فطابت ان تعطى سيفا قديما زعمت انه موضوع في قبر في كنيسة القديسة
 كاترينة فبحث عنه وسلم لها فتقلدته وسارت مع جماعة من مشاهير ذوى الامر
 والنهى بفرنسا واول ما بلغت المعسكر طردت منه النساء الدنيئات اللائى كن
 يصحبنه وحثت على كل جندي بان يعترف ويتناول ثم سارت بالجيش الى اورليان
 وسار صيتها بين يديها فاستقبلها الانكليز اولا بالاستخفاف والاحتقار ثم
 بالخوف الخفى واخيرا بالرعب الذى تمكن فيهم فكانت تأمر الجيش بالتقدم
 على مقتضى تبلغ الاصوات واتفق مرة انها امرتهم بالزحف على البلد من
 جهة يمين الشط الا ان احد الضباط ممن ام يمكن له اعتقاد بها انزلها
 في فلك هي والجيش واخذ جهة اليسار مخافة ان يتأبل المحاصرين من الانكليز
 في الجهة التى رسمت بها فثارت عليهم ريح عاصفة اضطرتهم الى الرجوع
 والى ان يأخذوا عين الطريق التى امرتهم بها اما اهل البلدة فحيث كان قد
 بلغ الضنك والجوع منهم كل مبلغ استقبلوها بالمشاعل والاكرام واحتفلوا بها
 غاية الاحتفال لاعتقادهم ان نجاتهم تكون على يدها وصنعوا لها وليمة فاخرة
 لكنها ابت ان تنال منها وآثرت ان تتعشى في دار خازن مال الملك على الخبز
 دبلولا بالخمير فاستحوذ الرعب على قلوب الانكليز وكانوا قد سمعوا مذ
 شهران بانها قادمة لمحاربتهم حيث كانت كتبت الى رئيسهم تنذره بان الله
 امرها بطردهم من فرنسا واختلفت فيها الاراء والمذاهب فاعتقد الفرنسيس
 بانها رسول من السماء واعتقدت الانكليز بانها رسول الشيطان ثم قالوا ان
 تكن من البشر فنحن لا نخاف بشرا وان تكن من الشيطان فلا قبل لنا بها
 فاجتهد رؤساء عسكرهم في ازالة هذا الوهم الذى اثر في الجيش بقولهم انها
 دنيئة الاصل وجاهلة وان هي الا آلة استعملها الفرنسيس ليهولوا بها عليهم
 ولكن كان ذلك عبثا فانهم اعتقدوا انها من اعظم السواحر ورسخ تأثير
 ذلك فيهم فكانت حينما تظهر تفر منها عساكرهم فجعل الفرنسيون يدخلون
 ويخرجون بلا مانع وزحفت مرة على الانكليز وهي راكبة جوادها الابيض
 وامامها

وامامها رايتها البيضاء ووراءها جوف من القيسيين يرتلون فغشيه من الدهشة والرعب ما غشيه ثم نصبت سلام على برج طورنل وارتقت فيه ودعت من كان فيه من عسكر الانكليز الى ان يخلوه او يحيق بهم شر فشتهما احد الامراء وعيرها رعايتها البقر فقالت له بئس الفارس انت انك غير جائز من هنا انما انت مقتول ثم امرت جندها بان يهجموا هجمة واحدة وكانوا حينئذ قد نسموا في الحسد لها فواعدوها الى غد ليكون الفخر كله لهم فاندسرت لتستريح فاهو الا ان نزع درعها حتى نهضت وابسته وقالت قد امرتني الاصوات بالقتال فالبدار البدار ثم لما اقدمت رأت الفرنسيين مرتدين على اعقابهم اذ كانوا هجموا من دون علمها وقد هلك منهم كثير فاشتد غيظها وتقدمت الجند بنفسها واخذت تحض على صدق الحملة فاستخلصت ثلاث قلاع ثم سارت الى برج طورنل وتهددت جميع من يخالفها بالعتاب فواطؤوها حينئذ مواطاة رجل واحد وهجمت عليه فناعها الانكليز بممانعة قوية فلم ينقص ذلك من عزيمتها شيئا واعلنت ان الله قد سلم الانكليز ليد الفرنسيين ثم اخذت سلسا وركزته عند حضب البرج والرمي عليه متواصلا واخذت في الارتقاء فاصابها سهم نفذ في درعها ما بين صدرها وكتفها فانطرحت في الخندق فاهل الانكليز من فرحهم وظنوا انها ماتت ثم حلت الى المقدمة واخرج منها السهم فافاقت وجئت تصلى ثم عاد اليها نشاطها فنهضت وقالت ليس ما قطر مني دما وانما هو ظفر وان الاصوات تدعوني الى اتمامه ثم استأنفت القتال بأشد صولة وامنع بأس فلما بصر بها الانكليز فشلوا وخاروا فقتل منهم يومئذ ستة آلاف رجل من جلتهم ذلك الامير وغيره ممن انبأت بهلاكهم فعتد احد قواد الانكليز المسمى صفولك مجلس مشورة وفاوض اصحابه في الحرب فلما رأوا هلع الجند عزموا على كف الحصار حتى اذا كان اليوم القابل جمع الجند كلهم وعباهم للقتال واوهم انه يبدى بممانعة ومغالبة وهو في الواقع منسحب بالخييش ثم بعث الى الفرنسيين ان ينازلوه بلثاهم سواء كانت فاجرة او ندية او ساحرة فرسمت الجارية على العسكر بان لا يفارقوا البلاد لانه كان يوم الاحد وان يقضوا النهار بالعبادة لله الذي نصرهم فانتظر صفولك ساعات فلما لم يأت احد احرق البرج وما حوله وانسل بعسكره فنهت الجارية جندها عن ان يعقبوهم وعند ذلك اسرعت للقاء الملك في بلوى وصكانت في ممرها

تزدحم عليها اهل القرى لمس قدمها او ثيابها او في الاقل لمس جواردها فاستقبلها رجال الديوان بغاية الاكرام وامر لها الملك بمأدبة فقالت له ليس الآن وقت القصف والرقص واللذات فان على بعد ان اسعى لفرنسا ومدتى قريبة لان الاصوات اندرتنى بانى اموت بعد سنتين ثم دعت له لية قدم معها الى رام لتوجه وتترك الانكليز في يد الله فتقدم الملك بمن عنده من الجند حتى وصل الى لوار ثم ارناى ان يخرج الاعداء اولا من المعقل والحصون ليأمن السير الى تلك الطية فسارت بالجيش الى جارجو حيث كان صفوفك مخيما بعسكره فقاتلتهم عشرة ايام حتى استولت على المحل عنوة وقبضت على صفوفك اسيرا وكانت هي اول من ارتقى في السلم وعند بروز رأسها بادرها احد الجند من داخل الحصن بضربة جندلتها في الخندق فصرعت حتى لم تقدر على النهوض والمث جدا لكنها كانت تصرخ وتقول تقدموا يا رجال ولا تخافوا شيئا فان الرب سلمهم ليدنا فدخلت الحمية في قلوب الجند لبسالتها وثقتهم بكلمتها فهجموا هجمة شديدة واستولوا على البلد فقتل من الانكليز يومئذ ثلاثمائة رجل فلما بلغ الخبر مسامع الامير طالبو الانكليزى اخلى جميع البلدان وانصرف الى باريس ثم سارت الى باتى فالتبث جندها هناك ينتظرون مددا من الفرسان فقالت لهم دعوا التلبث واقدموا فليس عليكم الا ان تضربوهم ثم زحفت عليهم فحاق الفشل بالعدو من كل وجه مع ان رماتهم كانوا من احذق الرماة ولطالموا اثخنوا الفرنسيين فقتل منهم في ذلك اليوم الف ومائتا رجل وكان حزب كبير من القسيسين ينتظرون الملك والجارية ليوصلوهما الى البلد وفي الخامس عشر من تموز سنة ١٤٢٩ سارا ومعهما رؤساء الضباط والقواد وبعد يومين توج الملك في الكنيسة ففرح الناس واستبشروا بطيب العيش والراحة وتمكن اعتقادهم بها فكانوا يرون حول رايتهما حينما سارت اسرابا كثيرة من الفراش الابيض البهيج وبهذه الراية كانت واقفة على رأس الملك عند التتويج ولما فرغ من تتويجه جثت عند قدميه وعانقتهما وهي باكية وقالت الآن تم سعيي وكل ما وعدت به باسم الله فقد انعم به فالتمس من الملك ان يطلاني الآن لاذهب الى بيت ابى واسير سيرتى الاولى فابى الملك ذلك اذ رأى ان خلاص الامة متوقف عليها وانها فعلت في الزمن القصير ما لا يفعله غيرها في الزمن المديد الا انها من تلك الساعة تغيرت احوالها بالكاية فان

فان الروح فارقتها وانقطعت عنها الاصوات وذهب عنها ذلك الراى الرشيد واستحوذ عليها الغم والابتئاس فكان اذا طلب منها ان تقضى امرا تضطرب افكارها فيه واذا امرت بشيئ ترتاب وترجع فيه فاعادت الالتئاس من الملك وهى جائشة النفس شكرى العين لان يأذن لها فى الانصراف لان عملها قد تم وكانت قد علفت دروعها فى كنيسة رام اشارة الى انها قضت ما وجب عليها فاشار عليها الملك بان تلبسها فامتثلت امره الا ان ضباط العساكر حينئذ كانوا قد اضمروا لها السوء حسدا فصاروا يشنعون عليها وبسيئون معاملتها واغروا العساكر بان تنبرها بالالاقاب الذميمة لابل حاولوا ان يهتكوا حجابها ليفضحوها بين الناس ويكفوا كلتها عنهم فردتهم اقبح الرد ولم يكن يجالسها سوى النساء العفيفات ولا تنام الا ومعهامرأة فى الفراش ثم اشارت على الملك بان يتوجه الى باريس فسار وعنت له بلدان عديدة حتى وصل اليها وامر بالهجوم على فوبور دوصانت اوزرى فجرحت البنت هناك وصرعت مدة ساعات ثم قامت وعلقت دروعها مرة اخرى وطلبت من الملك الانصراف فابى ووعداها بان يرقبها فى رتبة شريفة ويجرى عليها وظيفة الارل وان يعفى قربتها من الخراج ابدا فاجابت الى ذلك ثم فى تلك الاثناء قام راهب اسمه رينارد ومعه امرأة زعم انها نبية واخدا يمثان الناس على جمع المال امدادا للملك فابت جان ان توادئهما وقالت انما النجاح على اسنة الرماح وفى سنة ١٤٣٠ سارت بامر الملك لكف الحصار عن كويمبان وكان عليها دوك برغندى فسارت على عادتها فى الاقدام والبسالة الا انها لما وقعت بالمحاصرين خذلها اتباعها فلما قاربت باب المدينة رماها احد الرماة فوقعت على الارض واستسلمت للامير فندوم فذاع خبر اسرها فى جميع الامصار فوردوا ينظرون اليها وخذلها الملك لئوما منه وام يسع فى افتكاكها ثم باعها فندوم للكسمبوروغ وباعها هذا للانككبير بعشرة آلاف فرنك وتخلى عنها معارفها وتواطأ الناس على احراقها كساحرة وكان اهل باريس يشتمون من ذكرها حتى انهم احرقوا مرة امرأة لقولها ان جان رسول من السماء وفى الثالث عشر من شباط سنة ١٤٣١ اقيمت عليها الدعوى فاحضرت فى الديوان ست عشرة مرة والقت عليها المسائل المعرقة الزابقة من كثير من القسيسين وفقهاء الشرع والاطباء وكانوا زهاء مئة

وبذلوا كل ما عندهم من الدهاء في ان يتصيدوها بكلمة تدل على ان فعلها الذي فعلته كان بقوة الشيطان فلم تنطق بشئ كما توقعوا ولبثت صابرة متجلدة وهي تقول ان الله هو الذي قبضها لذلك حتى اخفت قضاتها غير مرة فسألوها عن الكنيسة فقالت اني ما زلت مواظبة على العبادة فيها ولكني كنت اطيع الاصوات حين كانت تأمرني بشئ مخالف لهما فحكم عليها اهل الديوان بانها مبتدعة وصوب ذلك اهل مجلس الشورى والمدارس والاساقفة فلما صدر الحكم بسجنها اخذ الرهبان يترددون عليها وينذرونها هول يومها ثم اخرجت يوما وجعلوا يقبضون عليها فعلمها وينعمون على الملك فعند ذلك ثارت حيتها الى تبرئة الملك والمناضلة عنه فحكم عليها بالسجن المؤبد وان تقات بالخبر والساء فتمط ثم حكم عليها ان لا تتردى بلباس الرجال وهددت بانها اذا خالفت ذلك يوجب عليها التصاخص بالموت ثم كادوا لها مكيدة وهي انهم كانوا ينزعون عنها ثيابها عند النوم ويضمون مكانها ثياب الرجال فكانت اذا رأتها تلبث في الفراش الى ان تضطر الى القيام فلبسها اذ لم يكن عندها شئ غيرها وبينا هي كذلك ذات يوم اذ هجم عليها الحراس واستاقوها وهي في هذا الزى الى الضابط فحكم عليها بانها حنت في يمينها واذها جديرة بالاحراق ثم اعيدت الى السجن فاعترت لله بذنب ضعفها وفسلها في كونها لم تصرح غاية التصريح بان قدرة الله هي التي ساقنها لعمل ارادته في انقاذ فرنسا فعاودتها الاصوات فامتلات عند ذلك شجاعة ورأت رؤى بئيرة الا انما حين اخرجت ورأت ما اعد لها من العذاب المهول خارت قواها فسيئت اليه وهي تنن وتتوأه ثم اضرمت النار واسخلت فيها فجعلت تدعو الى الله وتبتهل حتى ان عدوها الكدينال بوفور لما شاهدها على هذا الحال لم يطق بعد ان ينظر اليها فقام عجلا هو ومن كان معه من الاساقفة والدموع منحدرة من مآقيهم وكان احراقها في الثلاثين من شهر ايار من السنة المذكورة في موضع يقال له لاپلاس دولا بوسل اى موضع البكروذرى رماها في نهر السان ثم بعد عشرين سنة قام مطران باريس ومطران رام فتمضا الحكم الذي جرى عليها واثبتا برآئتها اه • قلت قد وجدت هذه القصة المحزنة في تاريخ بلاد الانكايه فقلت اني بتمامها لغرابتها ثم وجدت في كتاب آخر مروية بعبارات مخالفة

لما تقدم بعض الخلاف ولا غرو فانه لا يكاد راويان يتفقان على رواية واحدة او على رأى واحد وكيفما كان فان ما جرى على هذه الفتاة التي تفردت بهذه المزايا الحسنة يبقى معرة وخزيا على اسماء جميع الدين تسببوا في اهلاكها سواء كانوا من الفرنسيين او الانكليز على ان موتها لم يفد الانكليز فائدة كبيرة لان اهل فرنسا اذ ذاك كانوا قد تنشطوا الى مغالبتهم ومقاواتهم بعد ان ذاقوا طعم الفوز والظفر وسرى فيهم روح الحمية للذب عن اوطانهم وبما ذكر تعلم ان الناس في ذلك العصر كانوا متسكعين في ظلام الجهل والوسواس فكانت الاساقفة واهل المدارس اقل كياسة من عامة هذا العصر • قلت ولولا نابوليون هذا العصر لم يبق للبابا كرسى برومية ولم يقف في وجه الروس واقف وذلك مستغن عن البيان ولم يقم احد في بلاد الافرنج ككلها من برع في اللغتين العربية والفارسية مثل البارون دساسي ولم تقم امرأة تؤلف الكتب النفيسة مثل مادام جورج ساند وليس الآن من شاعر في اوربا يقارب طبقة دولا مرتين ولا من مؤلف ينظر باوحيان سو او بال كسندر دوماس فهذه بعض درارى جيل الفرنسيين الغابرة والحاضرة التي بزغت في افق المعالي ولم يكن لها في عصرها ند ولا مثيل على انه لا ينكر ايضا ان قد نبغ من الانكليز وغيرهم كثير من الفلاسفة والحكماء والعلماء والادباء ممن اشرق بهم الزمان ولهج بحمدهم اللسان • ثم اقول ايضا انه قد ظهر لى على قدر ما ادركته ان كثيرا من المصالح في باريس احسن استنبابا وانتظاما منها في لندرة اما ﴿ اولاً ﴾ فاني مكنت في هذه نحو ثلاثين شهرا ولم اسمع عن بيت فيها انه احترق الا مرة فقط وفي لندرة لا تكاد النار تخمد عن احراق دار اود كان او معمل ونحو ذلك ففي سنة ١٨٥٦ وقع فيها وفي ضواحيها ٩٥٧ حريقه منها ٣٩٣ حريقه كانت متلفة جدا وبلغ عدد الحرائق في فرنسا كلها في مدة ثلاث سنين وذلك من سنة ١٨٦٤ الى آخر سنة ١٨٥٦ ٢٢٠٣٨ نعم ان ديار باريس هي من الحجر وديار لندرة من الآجر غير ان اثانها من جوهر واحد ﴿ الثاني ﴾ انه لا يعرف في باريس تداول نقود زائفة او كواغد بنك مزورة وفي لندرة كثيرا ما يقع ذلك واذا دفعت الى تاجر فيها قطعة من الفضة او الذهب فلا بد وان يختبرها • الثالث ﴿ ان ارتكاب القتل في باريس بالنسبة الى لندرة نادر جدا لاسيما الآن

حيث أجازت دولة انكلترة للعلماء والمنفيين ان يرجعوا الى بلادهم بعد انقضاء مدتهم ﴿ الرابع ﴾ ثقب الديار والخوانيت والطرق والاختلاس من الديار والمحترقات والدواوين ولا سيما البوسطة فهو على نسبة القتل ﴿ الخامس ﴾ العوارض التي تحدث للمسافرين في الارتال فانها في بلاد الانكليز كثيرة والحق بها ايضا العوارض التي تقع في طرق المدينة بمرور الحوافل والمواجل وسائر انواع المراكب ﴿ السادس ﴾ المضار التي تحدث من بيع السم والمسبت والمأكولات المنتنة والمشروبات الكريهة فانها في لندرة بليدة من بلايا الله والحق بذلك رخصة العطارين والصنادلة في بيع الادوية من دون وصف الطيب وبيع المفاتيح لاي ما كان وفي باريس يجب على المحتسبين ان يسعروا الاصناف ويختبروا الحليب والخمر والدقيق واللحم والسمك وما اشبه ذلك على حين غفلة من الباعة فادا وجدوها مغشوشة او فاسدة غرموهم وشهروهم في صحف الاخبار ولا يساح ايضا بيع الفسكهة فجأة وذلك كله في لندرة موكل الى ارادة الباعة فلا تكاد تجد شيئا خالصا حتى ان الجنازة في باريس مسعرة من الديوان فاقلمها خمسة فرنكات واغلاها ٣٦٨ ر ٣ كذا في غالنياني ﴿ السابع ﴾ تولية المراتب من يستحقها فان دولة فرنسا لا تولى جاهلا مرتبة الا ما ندر فاما عند الانكليز فتولية المراتب اما تكون بالمحابة والاختصاص او بتعريضها للبيع وهذا الاخير مستفيض في مراتب العساكر البرية وما زال الناس يبنون انفسهم باصلاح هذا الخلل وما برح كتاب الاخبار ينددون به وينصحون ارباب الامر والنهي بلافية ﴿ الثامن ﴾ ترتيب الشرطة حيث يزدهم الناس كالملاهي والمراقص ومواقف سكة الحديد فان أكثر هذه الاماكن في لندرة لا يكون فيها شرطى او يكون وراء الباب فترى الناس يضغط بعضهم بعضا عند دخولهم الملهى وغير مرة رأيت نساء يغشى عليهن في الزحام وغير مرة يموت عدة اولاد ومنهم من يستهزئ ومنهم من يضحك وفي داخل الملهى ترى الاوباش يصفرون ويزيطون ولا وازع يردهم فاما في باريس فلا يخلو مكان من احد هؤلاء الشرطة وترى الناس في الملهى ساكنين منصتين فكأنما هم في الكنيسة ومع ذلك فان الانكليز يفتخرون بقولهم ان جون بول لا حاجة له بالشرطة لانه مطبوع على الترتيب وهيئات فان اوباشهم ارذل خلق الله ﴿ التاسع ﴾ تعهد ديوان المدينة بما فيه حفظ الصحة وبسط النفس وراحة

وراحة العباد فيدخل في ذلك ترتيب المستشفيات فهي في باريس احسن وانظف والمقابر فهي هناك لا تكون الا خارج البلد وفي لندرة كانوا يدفنون الموتى في ساحات الكنائس ولم تبطل هذه العادة الا منذ ثلاث سنين فقط ثم المناصب وهي المواضع التي يتخلى فيها الانسان للبول او لقضاء الحاجة فالاولى في لندرة قليلة جدا على رداءتها والثانية معدومة رأسا ثم تنظيف العرق فان طرق لندرة عند وقوع الامطار تكون لكثرة المارين وحيلة للغاية وليس من يرى في ذلك مشقة ولا شيئا ثم وجود مقاعد يستراح عليها ففي باريس كلما اعياى الماشى وجد دكة او مصطبة يجلس عليها وفي لندرة لا يمكن للانسان ان يقعد الا في بيته او في محل قهوة وبئس ذلك مقعدا ثم التطريب بالآلات الموسيقى ففي باريس تضرب العساكر بهذه الآلات في عدة مواضع وخصوصا في الآحاد والاعياد وفي لندرة لا شئ من ذلك وقد عزف بها بعض ايام في احدى الغياض المنتابة فابطلها رئيس المطارنة بدعوى انها مناقضة لنص الانجيل ﴿ العاشر ﴾ وجود دكاكين في باريس في اى موضع كان سواء كانت للاكل او الشرب او غير ذلك وفي لندرة جميع الحارات التي يسكنها الكبراء والاغنياء خالية من الدكاكين فانهم يرسلون خدمتهم الى الاسواق ليشتروا منها ما يلزم او تأتيهم المؤنة مرتبة من عند اصحاب الدكاكين ﴿ الحادى عشر ﴾ انتظر في امر المومسات فانهن في باريس يتجنن في كل اسبوعين فاذا رأى الطبيب احداهن مريضة بالداء المعروف ارسلها الى المستشفى لتداوى هناك فلا تخرج منه الا بعد ان تشفى فاما في لندرة فقد تطوف المومسة والداء افسد آرابها واحشاءها فيمكن انها في ليلة واحدة تعدى جمعا ولا جرم انه حيث كانت هذه المفسدة في المدن الجامعة مما لا يستغنى عنه وكانت هؤلاء المتهالكات على الدينار وقاية لعرض الحرائر كان النظر في احوالهن يعد من المصالح ولا سيما اذا ابيع لهن التطواف اناء الليل واطراف النهار كما هو الواقع في لندرة اما في باريس فلا يباح لهن التطواف في الليل بعد الساعة العاشرة ﴿ الثانى عشر ﴾ اباحة استعارة الكتب من المكاتب الملكية في باريس فان المعروفين عند ناظر المكتبة يمكن لهم ان يستعيروا كتابا ليطلعوه في بيوتهم ويستفيدوا منه وفي لندرة لا يباح ذلك ﴿ الثالث عشر ﴾ سهولة تحصيل العلم والصنائع اما الاول فلكثرة المدارس وحسن ترتيبها ورخصها بالنسبة الى غيرها

حتى ان الانكليز يبعثون اولادهم الى باريس ليتعلموا فيها ما يعسر عليهم تحصيله في بلادهم واما الثاني فلأن الاب اذا شاء ان يعلم ابنه حرفة هنا اتفق مع احد الصناع على ان يبقية عنده ثلاث سنين ففي اول سنة يعطيه شيئاً في مقابلة التعليم وفي الثانية يكون شغل الولد مقابلاً لتعليمه وفي الثالثة يتدبّر ان يكسب شيئاً وفي لندرة يلزم المتعلم ان يبقى عند معلمه سبع سنين ومصره فيه في خلال ذلك ثقيل على والده ﴿ الرابع عشر ﴾ الحماية الجنسية فقد اسلفت لك ان حماية الانكليز لا تفيد الا لنسأ الاملاك وهناك أمور اخر غير هذه تراها في باريس على احسن انتظام وذلك ككيفية تبليغ البريد الرسائل وكيفية ايقاد الغاز وتسعير المأكول والمشروب وترتيب الجمالين مما هو في لندرة مغفل او مضيع • قال بعض الفضلاء الحاكم في فرنسا هو خصم المذهب فلا يصح للمفترى عليه ان يصفح عن المفترى وعند الانكليز يلزم المصروف او يطلق الجاني وعلى كل نوع من الذنب قصاص وعند الانكليز يغرم من دون قصاص وكل بلد هناك له صندوق ينفق منه وآخر للايراد وله ديوان مكس على المأكول خاصة فلا تتكلف السكان بشئ وفي لندرة يجب على السكان اصلاح الطرق وتجهيز الماء والنور وغير ذلك وفي فرنسا معاش القسيسين والقيام بمصاريف الكنائس مرتب من خزنة الدولة وهناك موكول الى الرعية وهناك ديوان للتجارة وآخر للجراثم وآخر لاحوال متنوعة وهناك ديوان واحد وهناك طبع التجار مائل الى المناقشة والنزاع على اشياء لا طائل تحتها وهناك جل التجار متكبرون شيمتهم الضبط والرشد وهناك ترى الفقراء اعداء الاغنياء وهناك يابونهم ويكرمونهم وهناك التوانين والاحكام اقوم واعدل الا ان الذين يباشرونها ويجرونها هنا اصليح وافضل وهناك تقضى الناس سائر اوقاتهم خارج منازلهم وهنا بعكس ذلك وهناك يطعم التاجر الكبير في ربح كثير لقله تجارته وهناك يجترئ بالقليل من الكسب لكثرة تجارته وهناك تختلط الاكابر بالاصاغر وهناك كل ينحاز الى شكله ونده وهناك تفخر الشبان بالفجور وهناك يأتونه اضطراباً وفي هذا القدر كفاية • قلت وهنا يحق لي ان اقول في الانكليز والفرنسيين ما قاله الامدى في ابى تمام والبحترى وهو ان الجيد من الانكليز خير من الجيد من الفرنسيين والردى من هؤلاء خير من الردى من اولئك ومآل الكلام ان عامة الفرنسيين افضل وان خاصة الانكليز

الانكليز اجل وامثل • واعلم ان الفتن والمعامع التي وقعت في فرنسا ولا سيما فتنة سنة ١٧٩٣ قد غيرت كثيرا من اخلاق هذا الجيل فما يقال عنهم من البشاشة والانس والاحتفاء بالغريب فليس على اطلاقه كذلك سمعته منهم نعم هم ابش من الانكليز هذا ولما كنت ذات يوم مفكرا في وحشة الغربة ومقاساة تعلم اللغة بعد ان ولي عني نسطا الشباب والاهلية الى الاحتكاك اذا بالخورى غبرائيل جباره دخل عليّ وفي طلوعته من البشر والطلاقة ما يترجم عما اذطوى عليه من حسن الاخلاق فان الخلق كثيرا ما يدل على الخلق ثم بعد ان دارت بيننا كؤوس المناقشة قال لي اني اود ان اذهب الى انكلترا فهل لك ان تكون لي رفيقا فاني اجهل لغة التوم واحوالهم والآن يذهب الناس اليها من جميع الاقطار لمشاهدة معرض التحف بلندرة وهو المسمى عند الفرنسيين اكسپوزيسيون فاجبته الى ذلك وسافرنا من باريس الى كالي وذلك في تاسع شهر جون ومنها الى دوفر ودوفر هذه اول منازل فيها يوليوس قيصر حين غزا بريطانيا وذلك في سنة ٢٦ قبل الميلاد وفيها قلعة قيل انها من بناءه ومدفع يعرف بداغري جيب الملكة اليصابات اهدته اليها دولة هولاند، وهو مدفع عظيم من نحاس طوله اربع وعشرون قدما ويومئذ طلب منا ابراز الجواز وذلك لكثرة الذين كانوا يردون الى بلاد الانكليز ثم سرنا الى لنندرة فوجدت اجرة المساكن وثمان المأكول والمشروب على ضعف ما كنت اعلمه وثاني يوم وصولنا وقع من المطر والبرد ما لا يقع في الشتاء حتى زعمنا الغزالة من طول المدى خرفت ثم توجهنا الى معرض التحف وكان سبب انشاءه ان الفرنسيين كانوا عقدوا مجلسا في باريس لاجل عرض بدائع الصنائع ثم تكرر ذلك مرارا حتى اغرى الانكليز بمحاكاتهم في انشاء موضع تجلب فيه التحف والغرائب من جميع البلاد وذلك في سنة ١٨٥١ وكان قد استقر الرأي اولا على ان يبنوه من الآجر ولكن لما كان مقصودهم به انما هو الى مدة قصيرة ارنأوا ان يبنوه من الزجاج فحسبوا ان نفقته تبلغ سبعين الف ليرة اذا كان ينقل وينتفع به والا فبحو ١٥٠٠٠٠ فبرع في العطاء لانشاءه أكثر من ١٠٠٠٠٠ من الانكليز بدئ به في جولاي سنة ١٨٥٠ وقم في اول ماي سنة ٥١ وجعل طوله ١٨٥١ قدما على مقدار عدد السنين وعرضه ٤٠٨ اقدام وفي اول شهر ماي

دخلته الملكة وزوجها وقد جعل نصفه لبضائع بلاد الانكليز وارلاند
وسكوتلاند والنصف الثاني لساثر الدول وكان يعطى لكل وكيل دولة موضع
وهم يعنون بوضع الاصونة والمخادع لصون بضائعهم وتخفهم واذا اشترى
احد شيئا منها لم يكن يخرج الا بعد انقضاء المدة وكان في بناءه من الحديد
٤٠٠٠ طن و ١٧ من الزجاج في سقفه ما عدا ١٥٠٠ طاقة وبعد انقضاء
مدته بيع بسبعين الف ليرة ونقل الى سدنام وجع لتنظيمه وتركيبه هناك ٥٠٠٠٠ ر
ليرة ثم زادت حتى بلغت ١٠٠٠٠ ر ١٠٠٠ ر وكان يشتغل به من العملة نحو ٤٠٠ ر
وكان احقر موضع فيه الموضع الذي نضد فيه ما بعث من اقطار مصر
وسبب ذلك فيما بلغني ان الرئيس البرت لما ارسل كتبنا الى جميع الدول يخبرهم
بهذا المقصد وطلب اليهم ان يرسلوا من بدائع صنائع بلادهم ترجت لخدوهم مصر
لفظة الصنائع بالارض اذ كانت صورة الخط فيها متقاربة تقاربها في النطق فان
مرادف الصنائع في الانكليزية ارتس ومرادف الارض ارت فلذلك لم يبعث
من مصر الا القطاني وبعض اشياء اخرى لا طائل تحتها وقد رأيت في هذا
المعرض حلي الملكة من جملتها ثلاثة حجارة من الالماس قدر الكبر منها نحو الجوزة
تبلغ قيمته فيما قيل ٣٠٠٠ ر ٣٠٠٠ ر وكان فيه ايضا صوان حلي ملكة اسبانيا
وتحف اخرى بديعة لم ير مثلها قط من جملتها فرولقيصر الروس قيمته ٣٠٠٠ ر
ليرة ومرآة لم يصنع اكبر منها في العالم باسره واول من صنع المرآة كما هي الآن
اهل فينيسيا وذلك في سنة ١٣٠٠ وكانت تصنع قبل ذلك من النحاس ولم تعرف
في انكلترا الا في سنة ١٦٧٣ فانظر الى التمدن كيف يفعل والى الايام كيف
يداولها الله بين الناس وكان فيه آلة تصنع ٢٨٠٠ مغلف للكتب مصممة مطوية
في ساعة واحدة وآلة تصف حروف الطبع بنفسها ونحو ١٧٠ نوعا من التوراة
والانجيل وكان يجتمع في هذا المحل كل يوم نحو ٦٠٠٠ ر يؤدي كل شلينا وكان
يوما الجمعة والسبت مختصين بالكبراء والاعيان ويقال ان الملكة دخلته يوما
فاجبها ثوب مزركش في محل البضائع التركية فسألت قيمه عن ثمنه فقال
٢٠ ليرة فقالت هذا غال جدا ويقال ايضا ان الفرنسيين احرزوا قصب السبق
في كذا وكذا نوعا من الصنائع والمشهور عند الناس عموما ان الانكليز
في الاعمال القينية امهر منهم والله اعلم وغاية ما اقول ان كل ما يصنعه

الفرنسيس يظهر عليه الرشاقة والمشق والطلاوة وما يصنعه الانككليس
 يكون جزلا متينا حتى ان هؤلاء في تصويرهم السخري يصورون الفرنسيين
 نحافا ضعافا واولئك يصورونهم ضخاما جساما فاما صنعة الطبع فلا شك انها
 عند الانككليس اتم واحسن وهم يقولون ان الاختراع من شان الفرنسيين
 لكن الاتقان والاحكام من شاننا ومن الديار العظيمة التي فتحت للمتفرجين او ان
 المعرض دار دوق نرثبلاند وهي دار عظيمة البناء والفرش والاثاث فيها تصاوير
 نفيسة وتحف غريبة حتى ان اطر مواقدتها كانت من فضة بدل الحديد ثم
 ان هذا المعرض لم يفد الانككليس فائدة ما ان الغرباء فقط بل افاد ايضا اهل
 الفظاظاة منهم حسن العاشرة والمجاملة نوعا ما فانهم كانوا قبل ذلك على غاية
 النفور من لحي الغرباء وشواربهم ثم سرت الى حديقة فكس هال المشهورة
 ورأيت المنطاد وهو المعروف باسم البالون وهو قبة في كبر الخيمة على شكل
 الاجاصة يصنع من الحرير المدهن ببعض الادهان ويملاء داخله غازا وذلك بان
 يجعلوا باسفله قربة من جلد متصلة بآبوبة من حديد يدخل فيها الغاز من موضعه
 ويجعلون له مثل الشبكة شاملة له وبها ينوطون اكياسا ثقيلة فكلما امتلأ جانب منه
 من الغاز خفضوا الاكياس حتى يرتفع حتى امتلأ كله زموا منه من اسفل وربطوا
 به نحوناووس من خشب او غيره ليقعد عليه من يتولى امره ومن شاء ان يسافر
 معه ثم يزيجون الاكياس ويطلقونه فيندفع صعدا ومديره تحته وربما اقتضى
 ملئه عدة ساعات فاذا اراد مديره ان يخفضه اداره بحبلين متصلين به هما كالعنان
 له فينزله حيث شاء اللهم اذا كانت الريح عاصفة تغله فربما القته على محل غير
 مقصود الا انهم لا يصعدونه غالبا الا في يوم ذى سكون وما يقال من ان الناس
 يصعدون او يسافرون في البالون فليس المراد بذلك انهم يدخلونه فان داخله
 ملآن من الغاز اذا الم به نور او نار تميز كل فاحرق ما حوله وانما المراد انهم
 يقعدون تحته وربما اخذوا معهم حصانا ونحوه وقد رأيت منطادا آخر انبسط
 تحته امرأتان وكان رأس احداهما تحت قدمي الاخرى وقبيل انبساطهما على
 هذه الحالة حجبوهما عن اعين الناظرين بنحو خيمة ثم لم نشعر الا وهما في الجو
 تشيران بالناديل وقد ظهر في باريس من ادعى بانه يقدر ان يصنع منطادا من
 الخشب على شكل سفينة ليكون اوعب للناس واسلم عاقبة وبعد ان تصدى

لذلك وركب الاواح لم تأذن له الدولة في ان يجرى ذلك فعلا بالقرب من باريس مخافة ان تقع السفينة على الناس فتعطيهم وحيث لم يكن غاز الا فيما عليها حبط عمله وقد رأيت هذه السفينة وظهر لي ولاغيرى عدم امكان اصعادها بالغاز لطولها وضخامتها غير ان منشئها كان ذا لسان ذلق فكان يموه على السامعين احتمال ذلك واطن ان ما خسره في صنعها ربحه من المتفرجين ، واصل اذشاء المنطاد كان في فرنسا سنة ١٧٨٣ وكان الناس قد ذكروا من قبل ذلك شيئا يشبهه والكن هذا اول ما عرف وفي سنة ١٧٨٥ صعد فيه رجلان على ان يسافرا من بولون الى انكلترا فاحترق فهلكا ومن هذه الادوات ما يصعد في الجو مسافة ٢٣٠٠٠ قدم ومنها ما يدوم في الهواء ثمانى عشرة ساعة واول من صنع المنطاد في انكلترا السنيور لوناردى وذلك في سنة ١٧٨٤ وكانت مادام بواتيغان تصعد تارة وهى قاعدة على ثور على مشال اوريا وتارة على جواد ففكره بعض الناس منها ذلك لكونه من ظلم الحيوان وهو ممنوع فكفت عنه فاما كيفية ادخال الغاز في ابوبة المنطاد وكذا في الاتاييب التى توصل الانوار في المدن فهو ان يوقد الفحم في موقد مخصوص ويجعل فيه قصب من حديد متصلة بالديار والدكاكين فينحصر روح الفحم في تلك الاتاييب فاذا ادنيت نارا من رأسها اشتعلت وبقيت كذلك الا ان تطفئها ونورها اشد سطوعا من نور الزيت والنفط والشمع وليس له دخان لكن قوى منظر بالعين وقد ارى ان غاز باريس اشد صفاء وبياضا من غاز لندرة ويمكن ان يكون ذلك اصفاء جو تلك وسيقأتى الكلام على الغاز ومخترعه وفوائده في وصف لندرة ان شاء الله تعالى ثم خطر ببالي ان اطلب من وزير الامور الداخلية بلندرة حاية جنسية لكونى ائت في مالطة عدة سنين وفي بلاد الانكليز بضعها فكتبت اليه عرضا فجاء الجواب مؤذنا بان اكل ذلك الى فقيه من فقهاء الشرع اذ لا يصح معاطاة امر من الامور الشرعية الا بهم كما انه لا يصح معاطاة مصلحة كبيرة من المصالح المتجربة الا بواسطة السماسرة وكان مما لزمى مباشرة في ذلك ان اخرج للفتية اربع شهادات ممن لهم بيوت وملاك من الانكليز تؤذن بحجة ما اقول ففعلت * واعلم ان الحصول على نوع هذه الحماية لا يتوقف عند الانكليز على عدد سنين يلبنها الغريب في بلادهم وانما هى منة من قبل مخولها ولو ان انسانا لبث في بلادهم عشرين سنة

سنة ولم يكن حسن التصرف والسيرة لم يستحقها وجل نفعها انما هو تأهيل صاحبها لان يشتري املاكا كالأدار والعتار والسفينة وما أشبه ذلك وعليه ان يحلف ان يتخذ دارهم وطنا له فاذا استوطن غيرها فلا تنصل المقيم هناك ان ينكره اما حاية فرنسا الجنسية فتوقف على عشر سنين ولا كنها تكون بعد ذلك حاية ووقاية لصاحبها في كل مكان وزمان والتمك في انكلترا على اربعة انواع الاول ان يكون شبيها بالاجارة الى مدة معلومة من السنين الثاني ان يكون الى ٩٩ سنة الثالث الى ٩٩٩ سنة الرابع الى الابد والثاني هو الاشهر وهذه ترجمة الحماية " اني اشهد ان فلانا المقيم الآن في طريق كذا في خط كذا الكائن في اقليم كذا في اعمال بريتانيا الكبرى من حيث انه عازم على استيطانها عرض عرضا لي انا سرجورج كرى بارونت احد رؤساء كتاب الدولة مضمونه انه من بلد كذا ومن رعية الدولة الفلانية وله زوجة واولاد وحرفته كذا وان في عزمه ان يبقى ساكنا في هذه المملكة والتمس مني حالة كوني كاتب الدولة هذه الشهادة المذكورة وحيث اني بحثت عن حقيقة الحال واتاني من البيئة ما اعتدته ضروريا لاثبات صدق ما اودع في ذلك العرض فالآن بموجب الامر الذي فوض الي حالة كوني كاتب الدولة في الح كم الفلاني اعطى فلانا المذكور عند اجراء اليمين المذكورة في ذلك الحكم جميع الحقوق والاهلية الخاصة بمن يكون مولودا من اهل بريطانيا ماعدا اهلية ان يكون عضوا من مجلس اهل الديوان الخاص او عضوا من اعضاء مجلس المشورة وما عدا الحقوق والاهلية المختصة بمن يكون مولودا بالطبع من اهل بريتانيا خارج الممالك المنسوبة الى التاج البريتاني وما يليها • فقد علمت ان اعطاء هذه الحماية لم يتوقف على سني الإقامة وانما هي لنواله كالوسيلة ثم اني لما رايت ان الفقيه لا يقدر على اخراجها الا بعد مدة ولزمني العود الى باريس طلبت منه انه اذا حان انجاز هذه الطلبة يعلم بها ك كاتب الجمعية ورجوت من هذا ان يبحث بها الى في باريس وسافرت وبعد ايام ورد خبر بقبول ملتقى ولزوم حضوري لاجراء اليمين فسافرت الى مدينة هافر فبقيتها بعد نحو سبع ساعات ومنها الى سوت امبطون وكانت ليلة مشومة فقد ثار علينا النوء حتى ك كانت السفينة تتقلب في البحر كالسمكة مع ان الوقت كان في صميم الحر وكان من همي قبل ك كل شيء اجراء اليمين وهذه ترجمتها

« انا فلان اعد واقسم صادقا بانى اكون امينا ومخلصا الطاعة لسعادة الملكة »
فكطوريا واعلمى عنها بغاية جهدى وطاقتى ضد جميع من يتحالف عليهما
او يهيم بسوء عليهما سواء كان على شخصها او تاجها او شرفها وابذل غاية
جهدى فى ان اكشف لسعادتها ولورثتها ولمن يخلفها جميع الخيانات والخائنين
والمتغاونين عليها او عليهم واعد بامانة انى ابذل غاية استطاعتي فى ان
احفظ واسند واجير خلافة التاج المعبر عنه فى الاحكام بحكم كذا الخ
ثم عدت الى باريس واتفق حينئذ ان تولى الملك الآتى ضبط الامور السياسية
وهو يومئذ رئيس مجلس الشورى وقهر مناوئيه وحاسده فاشار على بعض
معارفى ان امتدحه بقصيدة فانه ذو المام بالعربية وله اطلاع على لغات كثيرة
فنظمت له هذه القصيدة الآتية وهى

- * من شان اهل الهوى ان يفرطوا الغزلا * قبل المديح والا غازلوا الطللا *
* اما النسيب فلا حسناء تشغلنى * اذ قلب ذى الحسن عن حسن الوفاء خلا *
* لكن انا ناسب وجدا بطيف كرى * ما كنت اعرفه من قبل ان وصلا *
* اتى على غرة والليل معتكر * من صبغ همى وما جنح له نصلا *
* وهمنه غادة جاءت تغررنى * فحين صحت به مستنكرا جفلا *
* ان لم اتم لم يزر ايضا وان هو لم * يزر فانا نظرى بالغمض مكتحلا *
* يا حسنه زائرا ما شانك صلف * ولا يرى شانفا كالحود او شكلا *
* عف نزيه خفيف اللمس يبعده * وكم جيل به خال قد اشتغلا *
* حلو الشمائل لا طرفا يمل ولا * عتبا يدل ولا مستحقبلا بدلا *
* لا يزدهيه رياش حسين ترمقه * كأنا هو طاووس به رفلا *
* ولا يوح بسر اذ يبين ولا * يكون امعة مع كل من بذلا *
* رقت محاسنه حتى استرق بها * قلبى وقد جعل التذكار لى شغلا *
* دعنى وشانى فاذا وجد تشغله * شكوى الهوى انها شغل لمن هزلا *
* من رام مأثرة فليمدحن رجلا * بين الرجال يراه وحده الرجلا *
* لويس نابوليون الراق منزلة * فى الملك ما ان يرى الرأى لها مثلا *
* من ذا الذى ليس يثنى فى الانام على * من فى المكارم والمجد السنى علا *
* وايت شعرى هل فى الكون من لغة * تحوى كلاما يوفى حق ما فعلا *
لولا

* لولاه باتت فرنسا في معامع لا * تكاد تطفئها حرب ونحو طلى
 * لما تفرقت الآراء واحتدمت * نار الترائى وظن الخطب قد عضلا
 * تدارك الامر لا عيا ولا فشلا * ومن بالعفو لا عجزا ولا مللا
 * وبات بالملك والتدبير مشغلا * وبات حاسده بالياس مشغلا
 * حق على الناس ان يدعوا له ابدا * فان معروفه كلا لقد شغلا
 * وكيف لا وفرنسا دولها سبب * يدبيل في غيرها الاملاك والدولا
 * فكان تدبيره للارض قاطبة * امنا وهذا الذى كل الورى املا
 * وحرمة الدين لولا عزمه انتهكت * وعرضه صار بعد الصون مبتذلا
 * فعال من تمسك الدنيا بساعده * والدين خيفة ان يستتبلا زلا
 * يرى من الامر حزما في اوائله * ما غيره عنه في صيوره وهلا
 * فما قضى قط الا وهو ذو ثقة * ولا نوى خطة الا وقد فصلا
 * ولا تململ وعد توأى عدة * له وانجازها بل قلما سئلا
 * فانما هو يولى العرف مبتدرا * والعفو مقتدرا والمن مرتجلا
 * فما انا قائل ما قال بعضهم * يرتاح عند سؤال المجتدى ثملا
 * فان ذى شيمة فيه ملازمة * له وما احد عن دأبه انتقلا
 * من بشر طلعته بشرى لناظره * ومن تفوهه توكيدها حصلا
 * تلقاه مبتسما والحرب دائرة * ونافلا وسواه لا يمن بسلا
 * يزبن باريس مرآه وهمته * حتى ترى لملوك العصر ذا نزلا
 * وكل ايامها تغدو مواسم اذ * لم يبق حسن بها الا وقد كلا
 * ما لاح من باعث فيه لها دعة * الا وبادره من يومه عجزلا
 * له الولاية حتما لا عدال بسا * فان خير ملوك الارض من عدلا
 * لئن مضى عنه ذاك الهمام فقد * ظلت معاليه في جيد الزمان حلى
 * اكرم بفرع زكا عن دوحة بسقت * كل الى ظلها الممدود قد وءلا
 * لله يوم به مادت عساكره * من حوله كجبال تذب الاسلا
 * كأنه البدر قد حفت كواكبه * به وما من سها من بينهم ضؤلا
 * قد كاد يذهب بالابصار لمع سنا * سلاحهم بيد التأيد قد صقلا
 * ما ان ترى فيهم عينك اذ برزوا * الا فتى فارسا اوراجلا بطلا

* نالوا من الشرف الاوفى بطاعته * ما لم يذر احدا عن اثره عطلا *
 * ولو خلوا عن سمات فاسمه لهم * مغن فما احد اجلاله جهلا *
 * في رايه النسر لكن فوق موقعه * من السما رايه المربي على زحلا *
 * قد كان في دارة المريخ حشدهم * لكن لسم فكل راح ممتثلا *
 * فكنت تسمع من ضرب الطبول ومن * رعد المدافع ليلا صاهلا زجلا *
 * وزهر نار من البارود قد طلعت * في ليلة ذات دجن نجمها افلا *
 * يرى المجوسى فيها حجة وهدى * على السجود لها انى نوى جدلا *
 * زادت زهورا يجعل اسم الامير بها * كأن جثمانه فيه قد اتصلا *
 * وعاد والخلق قد طابت خواطرهم * وبالرعاة له كل قد ابتهلا *
 * والسعد يقدمه والعز يقدمه * والله يصممه ما سار او قفلا *
 * فليأتين كل ذى ملك بهنئه * ومن ونى حمدا فليبعثن رسلا *
 * وليعلم الناس ان ما خاله جللا * سواء كان عليه هينا جللا *
 * كن يا امير العالى كيف شئت فن * يقصد رضى الله لم يحبط له عملا *
 * ومن تحرى سبيل الرشذ فاز ومن * اطاع داعى الهوى لم يدرك الاملا *
 * هذى الممالك والاملاك غابطة * هذى التواريخ يديرها الذى عملا *
 * فافتد شوارد احوال برمتها * ورض صعب امور تلقها ذللا *
 * وقد يسر الله لى نظم هذه القصيدة في يوم واحد الا انه بقيت الصموبة في تقديمها
 * لاعتاب الممدوح حيث لم تجر العادة عند ملوك الافرنج بان يقرؤوا قصائد مدح
 * فيهم ولا غيرها ايضا مما يخاطبون به وانما يقرأ ذلك كله كتاب اسرارهم وهم
 * يجاوبون عنها المخاطب بحسبما يرونه صوابا وفي الجملة فان نظم القصائد سواء
 * بالعربية او غيرها اسهل من تقديمها للممدوح من ملوك الافرنج وقد كنت مدحت
 * ملاكة الانكليز بقصيدة وقدمتها لضابط البلد وهو وكل بها زوجته لتهدىها الى بعض
 * القائمت بخدمتها وترجتها ايضا الى لغتهم والى الآن لم يأتنى عنها جواب ولا
 * اعلم هل وصلت او لا وكل من تعلم لغات الافرنج من عليقة الترك واشرافهم سلك
 * هذه الطريقة فاني كنت نظمت قصيدة في و . باشا سفير الدولة العلية في
 * باريس والخرى في ن . باشا والخرى في آخر ولم تتج احداها سلبا ولا ايجابا بل

ضاعت الاوليان واضاعا على كراسين من ديواني ذهبت كل منهما بالكراس الذي اشتمل عليه ولم يكن مقصودي بهذا المدح سوى نهمه الشعراء المعديّة الى تحمير دواوينهم بقولهم وقال يمدح الملك وقال يمدح الامير ثم انه لاشئ افطع عند الافرنج من ان يروا في قصائد المدح تغزلا بامرأة ووصفها بكونها رقيقة الخصر ثيلة الكفل نجلاء العينين سوداء الفرع وما اشبه ذلك فشعرهم كلهم خصى وافطع منه النشيب بغلام واقبح من هذا وذلك نسبة شئ من صفات المؤنث الى المذكور كقول الشاعر كأن ندياه حقان فانهم اول ما يتبدئون المدح يوجهونه الى المخاطب ويجعلونه ضربا من التاريخ فيذكرون فيه مساعي الممدوح ومقاصده وفضله على من تقدمه من الملوك بتعديد اسمائهم ولما ترجم موسيو دوكان قصيدتي التي مدحت بها المرحوم احمد باشا والى تونس وطابعها مع الترجمة كان بعضهم يسألني هل اسم الباشا سعاد وذلك لقولي في مطلعها زارت سعاد وثوب الليل مسدول فكنت اقول لا بل هو اسم امرأة فيقول السائل وما مدخل المرأة بينك وبين الباشا وهو في الحقيقة اسلوب غريب للعرب • قال العلامة الدسوقي اعلم انه قد جرت عادة الشعراء انهم اذا ارادوا مدح انسان ان يذكروا قبله الغزل لاجل تهيج القريحة وتحريك النفس للشعر والمبالغة في الوصف وترويح النفس ورياضتها اه قلت كما ان الافرنج ينكرون علينا هذه العادة كذلك ينكرون المبالغة في وصف الممدوح واما تشبيهه بالبحر والسحاب والاسد والطود والبدر والسيف فذلك عندهم من التشبيه المبتذل ولا يعرضون له بالكرم وبان عطاياه تصل الى البعيد فضلا عن التعريب فهم اذا مدحوا ملوكهم فانما يمدحونهم للناس لا لان يصل مدحهم اليهم ومع علمي بهذه الحال لم يمكنى مقاومة نزعة النهم العربية الى تقديم القصيدة المذكورة ولا سيما لما سمعت بان الممدوح يعرف لغتنا فاجتمعت بالفاضل اللبيب والصديق الاديب الخواجا روفائيل كحلا وطالعت في ذلك فقال انا اعرف وسيلة لتقديعها ولكن ينبغي ان نترجمها الى اللغة الفرنسية فان معانيها لا تضع بالترجمة اذ هي منسوفة على نسقهم لولا التغزل بالطيف لكنه شئ عديم ولا سيما انك اشرت في مطلع القصيدة الى انكار الغزل قبل المديح فن ثم ترجمناها وادلمنا عليها احد ادبائهم فقال بل الاولى ان ترسلوها غير مترجمة فان الملك

عنده مترجون يترجونها له فقدمت كما هي وبعد ايام لم نشعر الا والبريد بطرق الباب واذا بيده رسالة من كاتب الملك باسم الخواجا المذكور وباسمى مضمونها ان القصيدة بلغت جنابه العالى وحسن موقعها لديه وانه يشكرنا على ذلك شكرا جزيلا ثم انه فى خلال هذه الاوقات استقل الملك المشار اليه بولاية الملك ولقب الامپراطور فترغنى نازغ آخر من وقال يمدح الامير الى ان اهنته بقصيدة واقدمها على يد رئيس تراجم بابها الشكر كونت دكرانج الذى مر ذكره فلما فرغت منها وقرأها عليه قال ليس من هذه الصفات التى نسبتها الى الملك ما هو مختص به وحده فانه يصلح لان يخاطب به اى ملك كان وهى مع ذلك عويصة لا يمكن ترجمتها ولو قدمتها كما هى لما استحسنت منها غير الخط والشكل فقط فلهذا اضريت عن تقديمها وشكرته على نصحه، ولكنى لا اضرب عن قيدها هنا حتى يتفخ بها بطن هذا الكتاب وهى هذه

- * اللويس نابوليون حق السؤدد * والملك اذ هو فى المعالى اوجد *
- * فلتقدم الاملاك داعية له * بالتهنئات وشانه فليحمدوا *
- * بشرى لى ملك يزور نديه * ولن ينسأ عدله فيقلد *
- * ولن يبائع ويشرى نفسه * بولائه فخرآء مديد يد *
- * نظر الزمان بسعيه ابطاءه * من قبل فاستحيا فاقبل يحفد *
- * فجلا لنا فى ظرف عام منه ما * لم يحمله للناس دهر سرمد *
- * امن الورى فى ظله وتعموا * والى الترفه والتترف اخلدوا *
- * حتى خشوا ان البلاهة من دوا * عيها بلهنية وعيش ارغد *
- * يتعبد العافون امنا وهو من * شفق على اغفائهم يتعجد *
- * اصحى لهم من بعد انواء العنا * عيش بطالع سعده لا يجهد *
- * تنسى الثواكل حزنهن فعالة * فهى التى ما بينهن تعدد *
- * ضبط الامور بحزمه واقتدها * فبما حباننا اليوم يأتينا غد *
- * قيد الاوابد رآيه ما حادث * عنه يند ولا قديم يشرد *
- * وضجيعه الفكر المنير يريه ان * اضحى فينهض للامور يفرد *
- * ما بعد ان ظهرت مكارمه يري * احد يلوم لغائت او ينكد *

* عن حلمه تروى الشهود لغائب * وبفضله كل البرية تشهد *
 * هذى المآثر فاهتدوا بمنارها * يا ايها الثقلان ثم به اقتدوا *
 * هذى المفاسد فأتنا بمثالها * يا من مديح ملوك عصرك تنشد *
 * يستسهل الراؤون مطلع صاعد * شرفا ولكن ما كذا من يصعد *
 * ويروق مخز المنشآت لناظر * ما خاض لج اليم وهو يهدد *
 * قل للمشبه قد غويت فهاتنا * بنظيره ان كنت ممن يرشد *
 * لا تدرك الابصار لولا الشمس ما * جرم الهباء ولا يراها ارمد *
 * هبنا اسمه حتى نجل سميته * حبابه ولنا اليه تودد *
 * فات الملوك فخاره فرضوا بان * يدعوا ببعض صفاته كي يسعدوا *
 * ولربما حاكى السراب الماء عن * بعد واطمأ من اتاه المورد *
 * يا من تولى عرش عز صانه * ذو العرش وهو بما حباك مؤيد *
 * شرفت تاج الملك حين رضيته * وازداد وهو عليك فخرا يخلد *
 * فجلت فرنسا طلمعة كانت لها * ايام عمك عبده المستعبد *
 * ما زال مذعرف الورى املاكهم * يعطأ الممالك من حياها سيد *
 * فاسلم في يمينك غبطة اهلها * وبعرها الارضون طرا تنجد *
 * دم آفقا قدرا ورأيك ارشد * ومسابقا فخرا وجدك اسعد *
 وفي غضون ذلك شرعت في تأليف كتاب الفارياق الذي نشر طبعه الخواجا
 روفائيل كحلا الموما اليه وبعد ان طبع منه عدة صحائف اقتضى لانجازه سبك
 حروف جديدة فانتظرت مدة حتى اذا قنطت اوكدت اقنط من ذلك وكانت نفسى
 قد تاق الى فقع لندرة وفقاءها سافرت على نكط فتعرفت حينئذ بالخواجا مخائيل
 المخلع فقد كان قدم لمعاطاة التجارة وبما اعجبني منه كرمه وسعة اطلاعه فقلما يرد
 ذكر شاعر الا ويروى عنه او نكتة ادبية ويسردها اقام فى لندرة عاما ونيفا
 وسافرو هو يدرى جميع احوالها وقد اهدانى نسخة من كتاب كلستان الذى ترجمه
 اخوه من الفارسية الى العربية فلما تصفحته وتأملتة حق التأمل ظهر لى ان خبره
 دون مخبره اذ لم اجد فيه من المعانى المبكرة ما اوجب احتفال العجم به هذا الاحتفال
 العظيم فانه عندهم بمنزلة مقامات الحررى عندنا غيران عربيتة فصنحة فلما قابلته

المرّة الثّانية وجرى ذكر هذا الكتاب قلت له لقد طالما سمعت بذكر كلستان غير انى لم اجدّه يستحق هذه الشهرة وقد حدثنى نفسى بان انشئ كتابا على نسقه لكن التزم فيه الهزل قال فافعل فانشأت فى اليوم القابل هذه الحكايات الآتية ولما قرأتها عليه وقت الاجتماع قال قد افرطت فى محاكاته وهو فوق ذلك وابى الا التنويه به هذا ولما كان باب الانساء قد ارتجى على باندرة لكثرة قعقة العواجل والحوافل فيها بحيث لا يمكن استمعها اثناء الليل واطراف النهار ان يجمع افكاره او يتكر معنى حسنا حق لى ان اثبت هنا ما كتبت محاكيا لصاحب كلستان

﴿ حكاية ﴾ رأيت قوما ينسابقون حشدا ويتزاحون حفدا فن بين ضاغظ جاره ومهطع كأنه يشن الغارة فقلت تالله ما اجتمعت هذه الجماعة الا لامر عظيم ولا قصدت الا مقصد خير عظيم ثم قلت لنفسى بعد استصواب حدسى

* انهض الى المكرمات مستبقا * ولا يصدك عائق عنها *
 * وان تجد عصبة سعت جهة * فاسع اليها ثم استفد منها *
 فخاريتهم وانا اظن انى اكون اول الفائزين * ومقدام البارزين * فلما بلغت حلقة الرجال * وكانوا ما بين حرقرة وطويل وطوال * خزقت صفهم * وخرقت مصطفهم * واذا فى وسطهم خطيب كنت اعرفه مذ عهد غير قريب * فاول ما وقع عليه الطرف * وانست منه الظرف * قلت له السلام عليك يا خطيب يا امام * فاجابنى بديها وعليك السلام *

﴿ حكاية ﴾ بينما كنت اطوف فى مدينة القاهرة * وانظر ما فيها من المحاسن الباهرة * واحدف فى وجوه الشوافن * فى الرواشن * اذ لمحت فى روشن غادة فاقت النساء بالظرف والجمال * والصباحة والدلال * فقلت منشدا * وانا على غير هدى *

* بالله رقى لمغرم دنف * قد اسلمته الى البلى عينه *
 * تصدق بالوصال علك ان * تشفيه حشاه فقد دنا حيه *
 ثم غشى على من شدة اللوعة * ثم افقت طمعا ولم ابرح اسير الهوى وطوعه * وناديتها

وناديتها بلسان مبين * ألا انى اليك من التائقين العاشقين الخاضعين * فقالت
وانى لك لمن السافقين الصافقين الصافعين *

﴿ حكاية ﴾ كنت امشى فى اسواق الاسكندرية * وعرضى لالسنة الناظرين الى
كالدرية * اذ كنت لابسا نعلا بالية وثوبيا صفيتم * وقد انحل حزامى فكان
يكنس البلد طريقا فطريقا * فصادت عجوزا تلحظنى فقلت علام القوم
يضحكون * وفيم ينهمكون * فقالت وقد قهقهته * وعن انيابها المتهمة
جلقت * من مكنستك هذه الحرير * وطورك الذى لم ير له نظير * فقالت

* من احب المعروف فليكرم الضيف بايناسه وابلاغ سوله
* ليس ينبغي قرى ولا بذل مال * منتهى ما يؤم فى تأهيله

فقالت أما ان شئت ان تقول لك اهلا وسهلا * فانت ادينا مؤهل ومسهل والا فلا
ثم هرولت عنى وعن عيني اختفت * فاتبعتهما اللعنة التى بها التحنت *

﴿ حكاية ﴾ قصدت الرشيد * لما فيها من الحظ العتيد * والحدائق الناضرة *
والمسارح السارة * فلما دخلتها لاح لعيني غلام كالقمر * ينجل الحور بالخور *
فتفألت بنضرتة * وعجبت من عدم شهرته * فانشدت بمسمع منه

* لبعض الناس فعل دون ما اسم * وبعضهم له اسم دون فعل
* وارت ان افتح معه الكلام * فاستدلت منه على الجمام * فقال لى بلهجة
فصيحة * وعبارة صحيحة * أأنت جنب مذ خروجك من البيت او فى الحال
فقلت

* ان كان يملكك اصطناعى عاجلا * فافعل ولا تسأل عن الاسباب
* فلربما اخرت معروفا وما * قدمت غير مساة الاصحاب

فدلنى عليه فاذا ابوه قيم فيه فنوه عنده بى * واثنى على ادبى * فلما خرجت
من ذلك النعيم * كخروج آدم من الجنة وهو ملهم * بش بى الرجل وادبنى تلك
الليلة الى طعامه * فليت دعوته واجزلت له السكرك على انعامه * وسرت اليه
وفى اعماسى وقوب * ولاضراسى رقوب * فلما حظيت بانه وحصلت

في مجلسه وضع الخوان * وهو يمد من الطعام بالوان * فاكلنا وشربنا * ولعبنا
وطربنا *

﴿ حكاية ﴾ ما زلت مذكرف حلوا الاستراط * ومر السراط * اتشوف
الى رؤية دمياط * لما بلغني عنها من كثرة سمكها واطيارها * ورخص
اسعارها * وكان بي نهم الى اكل السمك شديد * وقرم الى العصفور ما عليه
من مزيد * وقد قال في الاول * من اجاد القول جدا وهزل *

* ما ان ندمت على شراء الحوت في * وقت وان افرغت فيه الكيسا *
* ان كنت انفق فيه فلسا واحدا * ألقاه فيه قد استحبال فلوسا *

فلم اكد ابلغ ساحلها * حتى رأيت صيادا قد التى شبكته في البحر وهو مبتئس
ولها * وفي طلعتة سمكة الضجر فتقدمت اليه * وسلت عليه * فقلت اجذب
الشبكة باسم الله على بخي * وان كنت اعهد، يردائما من تحتي * فان اشملت
على حيتان صغيرة اديت اليك قيمتها موفورة * وان حوت الكبيرة * كان لي
ان اتال منها مجانا حصء * وفيرة * فرضى بذلك * وقال حسبي الله الوالى المالك *
فلما اخرجها اذا بها قد استوعبت من كبار السمك * ما لم يكن عهد مذ درج
وسلك * فجاد على منه بحصة * وقد اجرضه من الشرط غصه * فلو قدت
جنبه نارا * وبعثت الى السوق من اشترى لي خبزا وعتمارا * وملحا وابزارا *
وما زلت اشوى وألثم التفافا * واشرب اشتفافا * حتى منيت بالهيضة
والزحير * واستحال على التقديم والتأخر في المآب والمصير *

﴿ حكاية ﴾ وجدت في صدرى ضنكا من مجالسة الرجال *
ومطارحتهم الحديث والامثال * وقد جبل الانسان على حب التبذل *
والتحول والتنقل * فبسأم النعيم اذا طال * ويرى في المثابة الثبور والوبال *
وفي الادمان الدمن والوبال * فتحررت مجالسة الصبيان * والخوض معهم
في صار وكنان * فلم اكد اخرج من غرفتي حتى رأيت زمرة منهم يلعبون
بالقنال والاوதாக * ويضجون ضجيج الناس في يوم الجراد * فتوهمت ان بي
صمما او لمها اذ لم اسمعهم على قريبهم من الغرفة ولو انى سمعتهم لعظم على
لغظهم على هذه الصفة فدعوت احدهم فحشد الى حفزا * وكلنى ركزا * فسكن

روعى عند سماع نعمته الرخيمة وايقنت ان حاسة سمعى بقيت فى سليه فحمدت الله تعالى على لطفه بى * وزاد فى عشرة الاولاد اربى * انتهى •

ثم ورد الى كتاب من الخواجا روفائيل كحلا يؤذن بنجى حروف للفارياب فسافرت الى باريس ولما علمت ان طبعه لا يتم فى مدة قصيرة رجعت الى لندرة وكانت صحف الطبع ترسل الى هنا لاصالحها ثم اعيدها وهكذا نجى الكتاب ثم لما فتح معرض التحف فى باريس وذلك فى ١٥ ايار سنة ١٨٥٥ سافرت ايضا لاشاهده وهو بناء جليل من حجر لكنه ليس فى كبر معرض تحف لندرة ولم يكن يحوى بضائع متنوعة ما حوى ذلك الا ان من حذى الفرنسيين انهم ينضدون الامتعة بنوع تبدو به للعين رائعة فائقة وفضلا عن ذلك فان الناس كان همهم فى تلك السنة اتقاء مضار الحرب وغوائلها وكان الذين عرضوا بضائعهم فيه خمسة وعشرين الفاً منهم عشرة آلاف من الغرباء وقد رأيت فيه حلى الملكة زوجة الملك وهى مما يفوق الوصف ثم عدت الى لندرة ثم سافرت بعدها مرتين الى باريس ثم عدت وكانت عودتى هذه الممتعة للعشرين مرة من زيارتى لندرة وحيث وجدت نفسى هذه المرة قاراً فيها وجب على ان اصف ما فيها مما يحمد ويذم وصفا تاما وافيا وانما لم اطل الكلام فى وصف باريس لما تقدم آنفا من ان الشيخ رفاعه بك الف رحله فيها ولان البلدة معروفة عند سكان البلاد الشرقية أكثر من لندرة ويجب قبل الشروع فى الوصف ان تعلم ان ما قيمته من المأكول والمشروب فى باريس فرنك فى لندرة شلين غالبا وان نفقة السفر من لندرة الى باريس فى المحل الثانى من الرتل لا تزيد على احدى وعشرين شلينا سواء كان على طريق هافر او ديان او بولون او كالى وذلك فى ظرف خمس عشرة ساعة بعضها فى سكة الحديد وبعضها فى البواخر وهذه البخرة التى تجرى ما بين سواحل انكلترة وفرنسا ليست كذلك التى تجرى فى بحر الروم فانها قدرة وقل ان تجد فيها فراشا للنوم فان قصر المسافة بين الارضين قصرها على ان تكون للتجارة اولى من ان تكون للركاب واقصر المسافات هى التى يسافر فيها من دوفر الى كالى والاوفق لمن يجهل احوال لندرة اذا سافر من باريس ان يجعل قدومه اليها فى النهار لانه يصعب عليه فى الليل وجدان محل يبيت فيه لما ان الحوانيت والمبايت كلها تقفل فى الساعة الثامنة ليلا قاما فى باريس

فلا يعدم ان يصادف ميتا في اى وقت واى منزل شاء

﴿ الكلام على لندن او لندرة ﴾

كان عدد اهل لندن في سنة ١٨٠١	٩٥٨٨٦٣
وفي	١٨١١
وفي	١٨٥١
وفي	١٨٥٧
	٢٣٦٢٣١٣٦
	٢٣٦٢٥٠٠٠ (١)

قال بعض المؤلفين ان دورتها سبعة وخسون ميلا ونصف ميل وذلك عبارة عن سفر نحو ثلاثة ايام اذا كان يسافر في كل يوم قدر عشرين ميلا وتفصيلها من شسويك الى كنتش تون اثنا عشر ميلا ومن كنتش تون الى ملول سبعة عشر ميلا ونصف ومن ملول الى شسويك ثمانية وعشرون ميلا • وقال آخر ان لندن اصح مدن العالم هواء والدليل على ذلك ما ذكر في احصائيات الموت من انه يموت فيها من كل الف خمسة وعشرون وفي غيرها يموت من الالف من ثلاثين الى اربعين • وقال آخر ان لندن اغنى مدن العالم واكبرها زعم بعض انها كانت مدينة من قبل الميلاد بالف ومائة وسبع سنين وقبل تأسيس رومية بثلاثمائة واربع وخسين سنة وانها كانت مقرا للطريقين وملكهم قبل الميلاد باربع وخسين سنة وفي سنة ٦١ بعد الميلاد كان الرومانيون يسمونها لندينيوم وهو اسم لمقر التجار في ذلك العصر ولسوق المعاملات والمبايعات وزعم بعض انها مشتقة من لود اسم الملك قديم في بريطانيا والاصح انها مشتقة من لين دين اى بلد على بحيرة وزعم آخر انها كانت تسمى في الزمن القديم لندنبورغ كما يقال الآن لقاعدة سكوتلاند ايدنبورغ • وقال آخر موقع لندن على نهر التيمس على بعد نحو خمسين ميلا من فوهته وقد صدق ما وصفها به ساي بقوله ليست لندن مدينة واحدة وانما هي اقليم مغشى بالبناء وفي سنة ١٨٤٩ لزم لاهلها من الدقيق ١٦٠٠٠٠٠ كوارتر (نوع من الكيل) ومن الغنم ١٠٠٠٠٠٠ ومن الشيران ٢٤٠٠٠٠ ومن العجول ٢٨٠٠٠٠ ومن الخنازير ٣٥٠٠٠٠ وفي احد اسواقها

(١) وبلغ عدد سكان لندرة في سنة ١٨٨٠ ٣٧٠٠٠٠٠ ومساحة المدينة وتجارتها وجميع متعلقاتها زادت ايضا بنسبة ذلك

السمى « ليدن هل » بيع في سنة واحدة من الطيور ٤٠٢٤٠٠٠ ر ومن السمك
السمى « سمونا » ٣٠٠٠٠٠٠ ر وهذا القدر من المأكول غسل من المشروب بمقدار
٤٣٢٠٠٠٠ ر كالن من المزر كل كالن يملا نحو خمس زجاجات من زجاج الحمر
المعتاد وبمقدار ٢٠٠٠٠٠٠ ر من الارواح وبمقدار ٦٥٠٠٠٠٠ ر قصبة من الحمر كل
قصبة في عرفهم تسع ستين كالنا وفيها ١٣٠٠٠٠٠ ر بقرة للاحتلاب و ٣٦٠٠٠٠٠ ر
قنديل يشعل بالغاز ينقد منها في كل اربع وعشرين ساعة ١٣٠٠٠٠٠٠ ر قدم
مكعب من الغاز وتمد الاهلين من الماء بنحو ٤٤٣٣٨٣٢٨ ر كانا في كل يوم
ويستعمل لاجل اصطلائهم ولوازم المعامل اكثر من الف سفينة لنقل الفحم
فحمل في العام اكثر من ٣٠٠٠٠٠٠ ر طن وكثيرا ما رؤى دخان النار منها
على بعد ٣٢ ميلا وفيها من الحياطين ٢٣٠٥١٧ ر ومن الاساكفة ٢٨٠٥٧٩ ر ومن
الحياطات وصانعات برانيط النساء اكثر من ٤٠٠٠ ر ومن الخدمة
١٦٨٧٠١ ر وقال آخريوجد في لندرة من اهل ارلاندا اكثر مما يوجد في دبلين
قاعدة بلادهم ومن اهل سكوتلاندا اكثر مما يوجد في ايدنبرغ ومن اليهود اكثر
مما يوجد في فلسطين ومن الرومانيين ١٠٠٠٠٠٠ ر وهو اكثر مما يوجد في
رومية ومن الgerمانيين ٦٠٠٠٠٠ ر ومن الفرنسيين ٣٠٠٠٠٠ ر ومن الطليانيين
٦٠٠٠٠ ر وقال بعض المؤلفين من الفرنسيين ان مدينة لندرة في قول اسيان
مرسلان قديمة جدا واشتقاقها من لفظة لون بمعنى سفينة وديناس اي مدينة
فكأنك قلت مدينة السفن وذهب بعض الى ان اشتقاقها من لون اي غيضة
ودن اي مدينة فكأنك قلت مدينة في غيضة قال اما موقعها فهو في
اقليم مدلس على تسعة وستين الف ذراع من فم نهر التيمس وعلى
ثلاثمائة وتسعة وسبعين الف ذراع من باريس وهي اكثر مدن العالم اهلا
رقتها مائة الف ذراع مربع واهلها ٢٠١٣٠٠٠ ر منها ٩٥٦٩٠٧٦ ر ذكور
والباقي وهو ٩٣٦٠٤٤ ر اناث وقلت وقد تقدم ما زلت به الى سنة ٥٧ فينبغي ان
تقيس عليه سائر الزيادات ويولد فيها في العام نحو ٨٥٠٠٠ ر ويموت
نحو ٧٤٠٠٠ ر والمحسوب انه يولد فيها في الاسبوع نحو الف وثمانمائة نفس
منهم ٩٦٠ ذكور و ٨٤٠ اناث ويموت فيها نحو ١٣٠٠ نفس و ممن ولد فيها
من المشاهير ملطون ويوب الشاعران واللورد بيرون الكاتب الشاعر الاديب

ودفن فيها من الشعراء الكبار خمسة وعشرون قال وهي تحتوى على ٢٨٨٠٠٠ دار تغل في العام ٢٢٠٠٠٠ ر ٢٢٠٠٠٠ فرنك وعلى ١٥٠٠٠٠ شارع وزقاق وتربية وقد اتسعت من مدة خمسين سنة اكثر من ضعفين مما كانت في السابق • وقال مؤلف الهرالد كانت لندرة في سنة ١٨٣١ تشتمل على نصف ما تشتمل عليه اليوم (اى سنة ٦٢) او اكثر فكان فيها من السكان مليون وثلاثة ارباع ومن المساكن ١٦٠٠٠٠٠ فصار فيها من النوع الاول ٢٨٠٠٠٠٠ ومن الثاني ٣٦٠٠٠٠ • وقال آخر ويرد اليها ويصدر عنها من السفائن التجارية نحو ٥٠٠٠ سفينة واربعة آلاف اخرى مستخدمة لثمانية آلاف نوتي واربعة آلاف صانع ورأس المال الذى اخرج في عمل الاقنية والمجارى وغير ذلك مما يختص بالنار بلغ ستة وسبعين مليونا وثلاثمائة وخمسين الفا من الفرنك والمصروف على التوريد في العام يبلغ ستة عشر مليونا وفي لندن ثمانية مواقف لسكة الحديد وست غياض وثلاثمائة واربعون كنيسة ومعبد للمتأملين وربما كان المعبد داخل الكنيسة وثلاثمائة وسبعون معبدا للمتفرعة وثلاثمائة واربعون مكتبا للتعليم واربعة عشر سجنا وثمانية دواوين للشرطة و ٢٢ ملهى اى ثياترا و ٥٠ سوقا لبيع المأكولات من اللحم والدجاج والبقول ونحوها وسوق القمح فيها كلف ٩٠٠٠٠ ليرة وعدد ما يذبح في العام من البقر للطعام اهلها ١٩٠٠٠٠ راس ومن الغنم ٧٧٦٠٠٠٠ ومن الخرفان الصغار ٢٥٠٠٠٠٠ ومن العجول قدرها ومن الخنازير ٢٧٠٠٠٠٠ يبلغ وزنها في الجملة ثلاثمائة وثلاثة وسبعين مليونا ومائتين وثمانية آلاف رطل من ارطالهم ورطل لندرة قدر رطل تونس وهو عبارة عن ست عشرة اوقية وثمانه كمنه فاذا قوم كل رطل بنصف شلين في اجمال بعضه ببعض بلغ ثمنها مائة وسبعين مليونا وسبعمائة الف وخمسة وخمسين الف فرنك يخص كل انسان على حدته ١٤١ رطلا وهو اكثر مما يخص كل واحد في باريس بضعف مثله والمصروف من السمك ١٢٠ الف طن ومن الزبدة او السمن ١١٠٠٠ الف طن ومن الجبن ١٣٠٠٠ الف ومن القمح ٣٦ مليونا من الكوارترومن الفهم ثلاثة ملايين طن ومن اللبن ٤٠ مليون زجاجة ومن الخمر ٦٥ الف برميل والبرميل عبارة عن ستة اطنان ومن الارواح ٨٠ مليون لير ومن المزر والجمعة مليونا برميل • قلت وفيها ٥٥٧ حانة يباع فيها المزر وساير انواع الشراب قال وفيها ١٦٥٠٠ اسكاف

و ١٤٥٠٠ خياط و ١٣٢٠٠ نجار و ٦٨٣٠ بناء و ٢٣٢٠ صانعا في الرصاص و ٥٠٤٩ رة جلفاطا و ٢٦٧٠ صانعا للبراييط و ٢٦٤٠ في الساعات و ٤٠٠ رة في الخشب و ١٠٩٩ بائع ادوية و ٢١٤٠ صانعا للبراميل و ٣٧٠٠ طباع و ١٠١٠ صناع لمجلات المراكب و ٢١٠٠ حلاق و ٩١٠ من صناع الخلاء و ٤٣٣٠ جزارا و ١٥٩٠ تاجرا في الجبن و ١٠٨٠ في السمك و ١٠٩٠ في التبغ و ٢١٧٠ تاجرا في العواجل والمجلات و ٦٦٠ رة و ٤٦٤٠ تاجرا في الشمع والسكر والصابون ونحوها و ٤٢٠٠ يزا و ١٠٤٥٠ بائعا للحليب و ٢٨١٠ للجواهر و ٧٨٠٠ سائق عاجلة وحافلة و ٧٤٢ باخرة تجرى في نهر التيمس كما تجرى الخوافل في طرق المدينة وذلك ما بين رشنند و كرافسند وما حولهما واشهر المواضع فيها التريعة المعروفة باسم ترافلكر (محرفة عن طرف الغرب) فيها عمود فلسون مبنيا من المرمر ارتفاعه ١٧٦ قدما وفوق العمود تمثاله وعلى جانبي الساحة عينان نضاختان قبالتهم صورة الملك شارلس الاول من نحاس • قلت قال بعض ان عمود فلسون هو من حجر جلب من بورتلاند وكان نصبه في سنة ١٧٤٣ وسميه شرف من نحاس صنعت من مدفع اخذ من الفرنسيين ونحزى الدولة واهل البلاد بقى غير متمم وقد بلغت نفقته ٣٣٠٠٠ ليرة وممن تبرع في العطاء لانشاءه قيصر الروس فانه اعطى خمسمائة ليرة وهو اكثر ما تبرع فيه لهذا الانشاء وعنده تمثال كرلوس اوشارلس الاول صنع في سنة ١٦٣٣ اه • واعلم ان نلسون المذكور هو الذي ظفر بمراكب الفرنسيين التي سار فيها نابوليون وجنده الى مصر فاحرقها عند ابى قير وذلك في سنة ١٧٩٩ وانلف ايضا بوارج فرنسا واسپانيا في الحرب المعروفة بترافلكر عند رأس قنستير وذلك في سنة ١٨٠٥ وكانت سفن الانكليز ٢٨ سفينة وسفن الدولتين المذكورتين ٣٢ ويومئذ قتل وهو عند الانكليز معظم الدكر لا يزالون يلهجون بمساعيه البحرية لهجهم بمساعي دوك ويلنكطون البرية وكان مولده في سنة ١٧٥٨ • وفي معجم الاوقات ان نصرة الانكليز في الحرب المذكورة هي اعظم نصرة حازوها وكان للفرنسيين من البوارج ١٨ وللإسپانيول ١٥ وللانكليز ٢٧ وبعد قتال شديد اسر اميرال الفرنسيين وغيره وتلف لهم ١٩ سفينة غير ان الاميرال نلسون لاقى منيته يومئذ فقام مقامه ولكن وود

وكان اسم سفينته فـكـطورى اى نصرة وآخر اشارة صدرت من نلسون قبل الشروع فى القتال قوله ان انكلترة تتوقع من كل انسان ان يقضى الواجب عليه وكان ذلك فى ٢١ من تشرين الاول سنة ١٨٠٥ قلت وهذا عندهم من الكلام البليغ ولذلك كتبت هذه الجملة على العمود الذى تقدم ذكره وفى كتاب آخر يسمى تعليقات ومسائل ان بعض خدام نلسون وكان به غفلة قال كان سيدى اذا باشر الحرب يلبس احسن لباسه المنصى فكنت انهاء عن ذلك فيتول لى مه فانى اقضى الحرب بانخر لباس لى فاقول له بل الاولى ان نلبسه بعد ان تفرغ من الحرب قال ولو انى كنت حاضرا يوم تافلكر لما اصابه ما اصابه بذلك اللباس الذى ترداء، قال المؤلف الاول وفيها ايضا عود آخر بنى تذكرة للحريق الذى وقع فى لندرة سنة ١٦٦٦ بلغت نفقته ١٣٧٠٠ ليرة وارتفاعه مائتا قدم وقدمان وهو اجوف يستمل على ٣٤٥ درجة وارتفاع شرفته ٤٢ قدما وآخر نصب فى سنة ١٨٣٣ عليه تمثال ابن الملك جورج الثالث ارتفاعه ١٢٤ قدما وعلو التمثال ١٤ قدما قال واعظم كنيسة للبروتستانت كنيسة مار بولس فى المدينة المذكورة بنيت على هندسة كنيسة مار بطرس برومية ابتدئ بنائها فى سنة ١٦٦٦ ونجز فى خمس وثلاثين سنة وبلغ جولة ما انفق عليها ٣٧٥٠٠٠ ر. ٣٧٥٠٠٠ فرنك جمع ذلك من طسق جعل على الفهم وطولها خمسمائة قدم وارتفاعها اربعمائة واربع اقدام ووسعها ٣٠ فدانا انتهى قلت وسياأتى ذكر لهذه الكنيسة • ثم ان هذه المدينة شطران ينزقهما نهر التيمس احدهما ليس فيه شئ يسر الناظر فانه عبارة عن ديار وطرق وحوانيت والثانى وهو الذى تقيم فيه الاشراف والاعيان يستمل على اشياء كثيرة بديعة سير ذكرها بك ان شاء الله وهذا النهر مبنى عليه عدة جسور ~~من~~ احدها ~~من~~ وهو اول ما يراه القادم الى لندرة الجسر الذى يقال له جسر لندن طوله ٩٢٨ قدما وهو مبنى من حجر صلب ويشتمل على خمس قناطر علو ~~كل~~ منها ٢٨ قدما بدئ به سنة ١٨٢٥ وقصح فى سنة ١٨٣١ وانفق فيه نحو مليونى ليرة عليه فوانيس للتزوير صنعت من مدفع اخذ فى حرب اسبانيا ولا يزال مزدحما للناس والحيل والحوافل والبواجل حتى ان من يشاء ان يمر فيه من جهة الى اخرى يعرض نفسه للخطر فيلزمه ان يسير على سمت واحد ومن ير ازدحام الناس عنده ولم

ولم يكن قد الف احوال البلد يظن ان الناس متأهبون للخروج الى الحرب والقتال اذ يمر عليه في كل دقيقة نحو عشرين مركبا ما بين عاجلة وحافلة ومججلة وما اشبه ذلك وعنده عمود شاهق من حجر وتمثال للملك ولهم الرابع من رخام قال بعضهم يرد في كل يوم الى السقي ستون الفا من مراكب البر على اختلاف انواعها في نحو خمسين شارعا منها اثنا عشر الف مركب يمر على جسر لندن في ظرف اربع وعشرين ساعة فانما حسبت رجوعها عليه كان لكل ساعة الف مركب ﴿ الثاني ﴾ الجسر المسمى صوث ورك طوله ٧٠٨ اقدام وله ثلاث قطار من حديد بدئ به سنة ١٨١٥ وقمح في سنة ١٨١٩ وبلغت نفقته ٨٠٠٠ ليرة ﴿ الثالث ﴾ الجسر المسمى بلاك فرير بدئ به في سنة ١٧٦٠ وقمح في سنة ١٧٧٠ وهو يستعمل هلى تسع قطار طوله ٩٩٥ قدما وبلغت مصاريفه ١٥٢٨٤٠ ليرة ﴿ الرابع ﴾ جسر واطرلو وهو اعظم جسر في المسكونة بدئ به سنة ١٨١١ وقمح سنة ١٨١٧ وبلغت مصاريفه اكثر من مليون ليرة ما عدا القرض الذى اخذ من الدولة وقدره ستون الف ليرة وهو بديع الصنعة كاه من حجر المرمر يستعمل على تسع قطار سعة كل منها ١٢٠ قدما وارتفاعها خمس وثلاثون وطول الجسر ١٣٨٠ قدما وقد جعل على كل مار به نبي فجاء المجموع من ذلك في سنة واحدة ٦٧٦ ليرة وعده بعضهم من عجائب الدنيا • قلت وكانت واقعة واطرلو المشهورة في سنة ١٨١٥ قال بعض المؤلفين زحف نابوليون على الانكليز ومعه من الجيش احد وسبعون الفا وكان يرجو ان يفسلهم بكثرة العدد اذ لم تكن عساكرهم تضيف على ثمانية وخمسين الفا لكنهم صابروا ودافعوا عساكره من الساعة التاسعة صباحا الى الساعة ليلا فلما رأى منهم الجلادة والثبات ابتدأت عساكره ان تتراخي ثم اتصل بالانكليز بولو ومعه خمسة عشر الفا وحيث ان امر دوك ويلكنظون بالاطلاق عليهم فاحترمت نار القتال بينهم اى احترام فقتل من الانكليز مائة وعشرون ضابطا والى وستمئة واحد وخمسون نفرا وجرح ٤٣٦ ضابطا وخمسة آلاف واربعمئة وستة وخمسون نفرا ولكن قتلى الفرنسيين كانوا اكثر ويومئذ اضطر نابوليون الى الرجوع الى باريس ليحشد جيشا آخر فلم يوافقه اهل الشورى لانه كان قد تلف معه اربعة جيوش من قبل فاضطر الى ان يخلع نفسه على ما ذكر

سابقا ﴿ الخامس ﴾ الجسر الحديد المسمى بالعلق لانه غير مبنى على قناطر له ثلاث قنحات واسعات جدا وهو اعلى جسر في الدنيا من هذا الطرز بدئ به سنة ١٨١٤ وفتح سنة ١٨١٩ زنة ما فيه من الحديد ٥٠٨ رة اطنان ﴿ السادس ﴾ جسر وستينستر بدئ به سنة ١٧٣٨ وتم في سنة ١٧٥٠ طوله ١٢٢٨ ردا قدما وعرضه ٤٤ وله ١٥ قنطرة وبلغت نفقته ٣٨٩٥٠٠ ولسا شرع في بنائه حسب المهندسون من احسن جسور الدنيا ﴿ السابع ﴾ جسر فكسهال صنع من حديد صب بدئ به في سنة ١٨١١ وفتح في سنة ١٨١٦ طوله ٧٩٨ ردا قدما وهو يشتمل على تسع قناطر ﴿ الثامن ﴾ جسر همرسميث طوله مائة واثنان وثمانون ردا قدما وغير ذلك مما ذكره يطول • ومن اعجب ما بنى على هذا النهر والاحرى تحته المجاز المعروف بتيمس طنل وهو موضع انشئ تحت الماء طوله ١٣٠٠ ردا قدم ارتوى انشاؤه في سنة ١٨٢٥ ثم اغلق لطمو المياه عليه ثم استؤنف العمل فيه وفتح سنة ١٨٤٣ بلغت نفقته ٦١٤٠٠٠ ليرة وجلة ما يؤخذ له من المتفرجين عليه في كل سنة نحو خمسة آلاف ليرة وينزل اليه في نحو مائة درجة من الحديد ويدفع على ذلك بنى واحد انشأه جماعة تعرف بجماعة الطنل ومعنى الطنل القبو او السرب او النفق ويقال ان نقر ذراع واحد منه في بعض المواضع انفق فيه الف ومائتا ليرة وبعضه ١٢٠ ليرة والفائدة من انشائه مرور الناس فيه من جهة لندرة الاولى الى جهتها الاخرى فهو بمنزلة الجسر الا انى ذهبت اليه غير مرة فلم ار فيه الا المتفرجين وقيل ان الغرض منه ذكر شرف للدولة وترى البواخر تجرى منحدرة وصاعدة في هذا النهر مشحونة بالرجال والنساء كما تجرى الحوافل والعوادل في الطرق وحين تمر تحت القناطر تيل قصب الحديد التى هى مداخنها ليكنها الدخول فاذا جاوزتها اصابها كأنها قطعة واحدة وعدة المراكب المنسوبة الى هذا النهر بلغت في سنة ١٨٥٠ ٢٧٣٥ ردا وعدة البواخر ٣١٨ يستخدم فيها ٣٥٠٠٠ نفس من الرجال والغلمان وفي سنة ٤٨ ورد الى مرسان ٤٢١٤٥ سفينة ورد من المكس عليها الى الكمر ٧٧ ردا ١٩٣ ليرات وكانت قيمة الخارج منه ١١٠٠٠ ليرة وعدة المراكب التى تسير في المدينة ما بين كبيرة وصغيرة نحو سبعة آلاف وعدة الصنف المسمى هكنى كرج ٤٣٥٠ وعلى الكبيرة والمعروفة باسم امينوس ترى اسماء الحارات والاماكن

والاماكن التي تسير اليها ولا بد ان يكون مكتوبا عليها اسم البنك فانها كلها
تمر به الا ما قل وكل منها يسع اثني عشر شخصا بداخلها وتسعة بخارجها
ومن هذه الحوافل نحو ستمائة حافلة اشترتها جمعية واحدة مع لوازمها
من الخيل والعدد باربعمائة الف ليرة فتكون كل واحدة منها بنحو سبعمائة ليرة
وهي بالنسبة الى حوافل باريس معتدة من وجوه ❖ احدها ❖ انه ليس في داخلها
شيء يتمسك به الانسان فاول ما يدخلها يستمر سائقها في السير فيترنح الداخل
مينة ويسرة وربما وقع على بعض الجلوس وكثيرا ما يعجل البواب الى اطاق
الباب على يد الداخل وكثيرا ما وردت شكاوى الركاب في هذه الى القضاة فتهم
من حصل ارشا ومنهم من خاب ❖ الثاني ❖ انه اذا كان بين الستة رجلان سمينان
ضاق الموضع بالباقي اذ لا يكاد يسع هذا العدد الا بالز والتضام وقد وقع
غير مرة نزاع افضى الى الشرع ما بين هؤلاء السواق وبين الرجال السمين
فان السائق يأبى ان يأذن للسمين في ان يتبوأ موضعين ويدفع عليهما اجرة واحد
فاما في باريس فبين كل قاعدين فاصل من قضيب نحاس فلقاعد فيها مقعدا
لا يكاد يس جاره وكأنما هو قاعد على كرسي بداره ❖ الثالث ❖ انه قد يتفق
ان يكون اليوم باردا ويبتدر احد الجلوس الى قمع احدي الطيقتان من دون ان
يسأل جاره هل يستطيع ذلك او لا فان كل واحد من الناس عموما ومن الانكليز
خصوصا يرى ان في صلاح نفسه صلاح غيره ❖ الرابع ❖ ان الداخلين
لا يدفعون الجمل عند الدخول كما يفعل في باريس بل عند الخروج فيدفع الخارج
الاجرة الى السائق ويذهب في خلال ذلك الوقت عبثا ما بين تصريف الدراهم
والقال والقبيل والبواب هنا ابدا معرض رأسه للمطر والشمس اذ لا جنة تقيه
بخلاف البواب في باريس ولبوابي حوافل باريس شريط من قصب على اطواق
ملابسهم وصفحة على صدورهم تؤذن بجهنتهم ومتى وجد احدهم موضعا
فارغا عند باب الحافلة قعد فيه وافاض في الحديث مع جاره وعد نفسه من جملة
الركاب بلا محاشاة وهناك فرقان آخران بين حوافل لندرة وباريس وهو ان
حوافل باريس ليس لها مساعد على ظهرها فكل ركابها يقعدون
في داخلها فلهذا كانت اطول واوسع من حوافل لندرة وهي اشق
على الخيل غير ان الفرنسيين لما كان دأبهم وولعهم التبديل والتغير صاروا

الآن يصنعون حوافلهم كحوافل الانكليز في الصغر وفي جعل مقاعد لها على ظهرها وسواق العواجل في لندرة ذووا شطط وجفاء فانهم يتقاضون الغرباء اكثر من الرسوم عليهم من الميرى وحيث انهم يعلمون ان اصغر القضايا لا تفصل الا بحضرة القاضى بعد قال وقيل وانه ليس كل احد يروم التشرف بمجلس الاحكام فلا يألون جهدا في غبن الراكب واخذ شئ منه زائد على المرتب ومن لؤمهم ايضا انهم قلما يذهبون الماشين في الطريق قبل ان يدركوهم واذا تكلفوا ذلك نيهوهم بنوع من الشتم اما في باريس فان للسواقين شيخا في كل خط فتي حصل بين احدهم وبين المستأجر نزاع فصله الشيخ ومتى دخلت العاجلة اعطاك السائق ورقة مطبوعة فيها عدد عاجلته لتهديك الى معرفته عند الاقتضاء والجعل على المضممار في باريس بعيدا كان او قريبا نحو شلين ولا فرق في عدد الركاب فاما في لندرة فعلى كل ميل نصف شلين اذا كان راكب واحد ولكن اذا كانت المسافة مثلا ميلين وادعى السائق انها ثلاثة لم يفصل بينك وبينه غير البأس والبطش فان راكك اضعف منه الزمك ثلاثة فاما اذا اكرتت بالساعة فسير ساعة في لندرة جعله شلينا وفي باريس فرنكان غير انه يوجد في هذه عواجل مفتوحة تشبه عواجل الامراء والكبراء وربما جرها حصانان وفي لندرة لا وجود لها ومن الغريب ان الحوافل التي جعلها في لندرة اغلى تكون ابدا مشحونة بالركاب والخيصة يعرض عنها * وعن بعضهم ان هذه العواجل الكبيرة هي من مخترعات الفرنسيين في زمن فرنسوا الاول ولكن لم يكن منها حينئذ الا اثنتان وفي سنة ١٥٥٠ كان منها ثلاثة وواحدة لهنرى الرابع ولكن من غير سيور ولم تتقن الا في عهد يوحنا دولا فال فانه لعظم جشته لم يكن يقدر ان يسافر الا بها وكانت ملوك فرنسا من قبل ذلك تسافر على الخيل والمملاكات في محفات والخواتين يركبن وراء الامراء واول عاجلة رؤيت في انكلترة كانت في زمن الملكة ماري وذلك سنة ١٥٥٣ وفيه نظر * وفي لندرة تسع جمعيات لامداد سكانها وما يليها بالساء ينفذ منه في كل يوم ستة واربعون مليون كالتن منها عشرون مليونا من نهر التامس وستة وعشرون مليونا من النهر الجديد ومن موارد اخرى وهذا النافذ مواز لنهر عرضه تسع اقدام وعمقه ثلاث وجريه في كل ساعة قدر ميلين ومشروب السكان كله من النهر الجديد ومن نهر آخر يسمى

يسمى « لى لا » من نهر التامس وطول النهر الذى حفر حديثاً ثمانية وثمانون ميلاً وقد تم حفره فى سنة ١٦٢٠ واسم من نهره سرهف ميداطون • قال وكان سير مراكب البر فى انكلترا بطيئاً جداً حتى ان احد المؤلفين قال ان الخورى آدم على ترهله كان يمشى اسرع منها وكانت كثيراً ما تنشب فى الوحل وتقرقع وقال آخر لم تكن الحوافل من قبل سنة ١٨٢٨ معروفة عند الانكليز فقدم اليهم فى التاريخ المذكور رجل من فرنسا اسمه شليير فاستعملها عندهم والآن يوجد لها جمعية ارادها نصف مليون ليرة فى العام ورأس مالها نحو ٣٠٠٠٠٠٠٠ وعدد الحوافل التى لها رخصة ٣٠٠٠ وكل حافلة فى لندرة يلزم لها عشرة رؤوس من الخيل وعلف الحصان يقوم فى اليوم بنحو شلنين ويوجد ايضا فى لندرة ٧٦ جمعية لضمان الحريق والغرق والمعيشة وغير ذلك وقل ان يوجد دار عظيمة او حانوت كبير او شئ آخر نفيس من دون ضمان وصورتها اذا خاف انسان على داره او سفينته او امتعته من النار او السرقة ذهب الى جمعية منها والزم نفسه ان يدفع لهم فى المائة شيئاً معلوما الى اجل مسمى فاذا هلك ماله غرمت الجمعية قيمته فاما ضمان المعيشة فهو ان الانسان يلزم نفسه ان يدفع فى كل سنة شيئاً حتى اذا مات قامت الجمعية بمؤنة عياله ولكل سن مبلغ فان القوى المظنون تعميره يدفع اقل مما يدفع الطاعن فى السن وقبل تدوين اسمه فى دفتر الضمان يكشف الطبيب عن بدنه ليعلم هل فيه داء خفى او لا فان علم ان به علة لم يقبل او يكلف دفع مبلغ وافر وللميرى ايضا شئ مما تأخذه الجمعية اذ لا يصح انعقاد جمعية شرعية او احداث شئ شرعى فى بلاد الانكليز من دون غرم الخزنة وفى المحترقات الكبيرة والديار العظيمة يتخذون اصونة من حديد لصون المال والحلى وكمواغد المصرف وغيرها • وعن بعض المؤلفين لم تعقد جمعية ضمان الحريق من قبل ١٧٠ سنة فكان من يرزأ بالنار يجمع له مدد من الناس الى ان انعقدت الجمعية المسماة اليد باليد فى سنة ١٦٩٦ ثم اقتدى بها جمعيتان اخريان فلما ان نجحت مساعيها تابعتها على ذلك اخرى حتى بلغت الآن فى المملكة ٧٤ جمعية وفى سنة ١٨٠٥ قومت الاملاك التى ضمنت من خطر الحريق بمائة واحد وثمانين مليون ليرة وفى سنة ٥٥ بلغت ٩٢٧٠٠٠٠٠٠ وقد اطفئوا فى سنة واحدة ٣٩٠ حريقاً وانجوا ٧٠ نفساً

وفي لندرة ٨٨ محلا للصيارفة ولكن لا ينبغي ان تفهم من لفظة الصيرفي هنا ما تفهمه منها في البلاد الشرقية فتظن انه يصرف الليرة مثلا بشلينات ويأخذ عليها فلسا او فلسين وانما الصراف هنا هو من تأتمنه الاغنياء والكبراء على اموالهم فيدفعونها ويأخذون منه فائدها في العام وكل واحد من هؤلاء الصيارفة عنده عدة من الـكـتاب والحساب والخدمة فحترفه عبارة عن ديوان يدخل فيه الناس افواجا افواجا وفي لندرة من المواضع المنشأة للبر وفعل الخير ما يصعب عدّه ويعسر حده قال بعض المطربين على الانكليز واطنه امر صون الاميريكانى المشهور ان الانكليز اكثر الخلق فعل خيرات واطن ذلك يصدق عليهم من دون مرء وها انا ابين لك بوجيز من القول عظم ما تفعله هذه الامة من البر والاحسان فاذا سمعته فاقض لنفسك بما تراه الحق فاقول ان في لندرة مستشفيات للمجانين والجذمي وناقصى الاعضاء وللمرضى والجرحى والسقط والصم والبكم والعمى والمحتاجين والاشقياء ولساثر من حلت به نكبة وفدحته مصيبة وللمحرومين من الرزق وللعاجزين من الشيوخ وللآيتام وللغول وللغرقى والارامل ولارشاد الضالين وتحرير الرقيق والرفق بالحيوان ما عدا محال التعليم والعبادة ونشر التوراة والانجيل وغير ذلك مما يبلغ مئات فى مستشفى صانت برثولومى ٥٨٠ فراشا وتوزع منه ادوية وغيرها على سبعين الف شخص فى كل سنة منهم اربعة آلاف بداخله وفى غير مستشفى آخر ٥٣٠ فراشا وتوزع منه ادوية وغيرها قدر ما يوزع من ذاك وفى مستشفى صانت جورج ٣١٧ فراشا ويوزع منه ادوية وغيرها على كثير من المرضى والزمنى ويوجد مثلها سنة اخرى لشفاء الامراض والجراح ولتربية الغول يربى فيه نحو ٤٠٠ ولد وآخر لاجل تربية اولاد العساكر البحرية واولاد اهل سكوتلاند وآخر لتربية اولاد العساكر البرية فيه الف ولد ومحال اخرى للآيتام اكثر من ان تعد • هذا وللجمعية الانسانية مساع جيدة لاستنقاذ الغرقى فانها تستخدم اناسا لاستخراج الغارقين بالآلات مخصوصة وتبذل جهدها فى مداواتهم وشفائهم وتجود بالجوائز على كل من ينقذ اخاه فى البشرية وكذلك يوجد جمعية لاغائة الذين يصابون بالنار وفى كريست هسبيتال يربى اكثر من الف ولد وقل كذلك فى الباقي اه • قال صاحب الكتاب الذى منه نقلت

ان جلة المستشفيات والمنشآت الخيرية من عند لندرة وما يليها الى حد كريتش
وهي على عشرين دقيقة من لندرة لا تقص عن اربعمائة واحد وتسعين محلا
وتفصيلها كما يأتي

عدد	
١٢	مستشفيات عمومية
٥٠	موزعات مخصوصة لادواء كالجدري والسل ونحوهما
٣٥	موزعات عمومية (وهي المواضع يعطى منها الدواء)
١٢	جمعيات ومنشآت لحفظ الحياة والادب وحسن السيرة
١٨	جمعيات لمنع الجرائم والشر
١٤	جمعيات لاغثة الذين هم في الضيق والفاقة على العموم
١٢	جمعيات نظيرها على الخصوص
١٤	جمعيات لمساعدة ذوي الكد والكدر
١١	جمعيات للصم والبكم والعمى
١٠٣	مدارس ومستشفيات ومحال للصدقة على العاجزين من الهرم
١٦	جمعيات خيرية تجرى ارضاها عمومية مما يعرف عند العامة بعلافة
٧٤	جمعيات خيرية خاصة بطبقات من الناس مخصوصة
٣١	مستشفيات للايتام ولغيرهم من الاولاد المخدولين
١٠	محال للتربية والتعليم
٠٤	محال اخرى مثلها
٤٠	جمعيات للمدارس والكتب الدينية ومساعدة الكنائس وعيادة المرضى
٣٥	جمعيات للتوراة والانجيل والمرسلين
تبلغ مصاريفها في وجوه مساعيها المتنوعة في كل سنة ١٨٧٧٤٧٣٣ رطل يجمع منها	
اكثر من مليون من المتطوعين لفعل الخير اه ويقال ايضا ان جلة ما فرق	
على الفقراء في بلاد الانكلير من سنة ١٨١٦ الى سنة ١٨٤٩ بلغ مائتي مليون	
ليرة وايراد المستشفيات الكبار من الوقف وعدتها اربعة عشر يبلغ ١٠٩٦٨٧ رطل	
ويقال ان في مستشفى صان برثولومي يصرف في كل سنة نحو ثلاثمائة ليرة	
ثم نخر تسقى للمرضى ونحو ٢٠٠٠ رطل من زيت الخروع و ٢٠٠ كالن	

من الارواح ثمن الكالن ١٧ شلينا و ١٢ طنا من بزر الكتان و ١٠٠٠ رطل من السن و ٢٧ قنطارا من الملح و ٥٠٠٠ رطل من البفت للربائط و ٢٩٧٠٠ علقه وطن ونصف من ازب و ٥٠ رطلا من العشب في كل اسبوع وقس على ذلك ومصروف مستشفى كرينج في السنة عشرون الف ليرة وفي هذه السنة صرف على التعليم في بريطانيا ٢٢٣ر٥٤١ ليرة وعلى العلوم والفنون ٧٣ر٨٥٥ ليرة ولما سنت الانكليز تحرير الرقيق في سنة ١٨٣٨ تطوعوا بعشرين مليون ليرة تعويضا لمواليهم وبلغ ما جمع لهم في لندرة في عام واحد ٤٦٤ر١٣٦٠ وفي سنة ١٨٤٨ كان منهم في المستشفيات ٣٢٣ر٥٦ منهم ٩٥٨٨ نفلا امهاتهم في المستشفى و ١٧٥ر٤ امهاتهم في الخارج وجميع الجمعيات تنال مددا من الملائكة ومن زوجها وعلى قدر هذه الجمعيات المتواظفة على البر والاحسان فاذا رأيت الفقراء في لندرة توهمت ان ليس احد فيها يعمل الخير فالك ترى نساء يمشين على الثلج حافيات باخلاق ثياب يظهر منها مواضع كثيرة من ابدانهن وكثيرا ما تراهن يلتقطن الجذور من الطرق ونفاية ما يرمى به من الطعام من الديار ولا يباح للفقير هنا ان يتكفف واذا وجد احد الشرطة انسانا ماداكفه اخذه واودعه السجن غير ان بعضهم لا يخرج من ذلك ليلا اذا علم ان الشرطي لن يبصره واكثر من يفعل ذلك النساء وخصوصا نساء ارلاندهن يخرين مع المارين ويخفن في الطلب الخاف الغريم فاذا لم تنل احداهن شيئا من غريمها لعنته وانصرفت وكذلك لا يباح لاحد ان يكسب مالا بغير الوجه الذي يؤهله الى ذلك فلا يسوغ مثلا لاحد ان يتعاطى الطب وهو جاهل به او صنعة من الصنائع من دون ان يأخذها عن آخر ويشهد له استاذة بآلة اتقنها ولكن هم في ذلك اقل ضبطا وتحرجا من الفرنسيين واكثر عرضة للتدجيل والمخرقة • وبقي لي هنا ان اقول ان زى الاولاد الذين في المدارس والمستشفيات الخيرية بهذه المدينة من اقبح ما يكون فان الاولاد الذين في بلوكوت سكول اعنى مدرسة الرداء الكعلى وهى من اشهر المدارس يلبسون اردية من هذا اللون طويلة الى اوساط سوقهم ويتحزمون بالجامد كالرهبان عندنا ولهم جوارب صفر ولا تزال رؤوسهم مكشوفة صيفا وشتاء مع انهم من ابناء الوسط فإين هم من اولاد مدارس باريس الذين يلبسون

يلبسون لباس ضباط العسكر فتحسب كلا منهم ضابطا او ضويطا ويقال ان اللون الكحلي في بلاد الانكليز كان في السابق خاصا بالخدمة والصبيان فلم يكن احد من الخاصة يستليقه لنفسه حتى استعمله ضباط العساكر البحرية أولا فصار مرغوبا فيه ثم استعمله الوكس وهم فرقة من الاشراف من اهل المجلس فصار الآن خاصا بالعظماء والنبلاء • وذكر مؤلف ابجدية الاوقات جماعة تعرف بجمعية الببل قال من شان هذه الجمعية في فرنسا وانكلتره جمع الاموال لمقاصد خيالية على اى وجه من السمحت كان وغير مرة تقع في العنت وسوء العاقبة وقد انهمكت بالكلتره في هذه الايام في رأس مال بلغ ثلاثمائة مليون ليرة اه • والحاصل ان في لندره جمعيات كثيرة للخير والشر وكل ما يدار فيها من المصالح الجسمية والمساعى الجليلة فانه يكون بواسطة جماعة لا بواسطة الدولة بخلاف مصالح باريس كما سبقت الاشارة اليه واقدم جمعية للتجارة هى الجمعية المسماة ستيل يارد كان انعقادها في سنة ١٢٣٢ واقدمهن في المساعى الدينية جمعية انتشار المعارف المسيحية كان انعقادها في سنة ١٦٩٨ وفي الستى وحدها احدى وتسعون لجنة اى كومپانية لاصناف التجارة والبايعه منها اثنا عشرة لجنة تنعت بالهونورابل اى المكرمة • وفي لندره نحو سبعة آلاف شرطى وهم يتنابون عس المدينة ليلا ونهارا وفي كل طريق شرطيان منهم في كل طرف واحد وهم على غاية من النظافة والوضاءة ولا يكون مع الشرطى سلاح بخلاف شرطة باريس وانما يكون بيده عصا قصيرة عليها صورة التاج فاذا عصاه احد من ذوى الشرور القاها عليه ايجابا للطاعة فلا يمكن بعدها الخلاف و يكون معه فانوس مضلع فاذا اراد ان يتعرف شخصا عن بعد اذاره فوقع النور على وجهه حتى يراه كأنه مجنبه ولا يسمح للشرطى بان يتعاطى الدخان في حال مباشرته الخدمة خلافا لشرطة مرسيلى وغيرها ولا ان يلبطأ من المطر او الثلج ولا ان يرفع فوق رأسه ظلة تقيه منها او من الشمس ومن هؤلاء الشرطة من يتزيا بزى العامة حتى لا يكون معروفا ويسمى الثقاف ويجب على كل منهم ان يتعهد ابواب الديار والخوانيت ليلا ليعلم هل هى محكمة القفل او لا فاذا رأى احدها غير مقفل نبه مالكها عليه وان ينظر الى انوار الغاز في المواضع المذكورة وينبه على اطفالها بعد فوات الوقت وان يمنع من رمى المياه القذرة وغيرها من

الشبابيك ويسر المرور في الطرق للمشاة والراكبين وان يبذل جهده في فض
الجموع ومنع الخصاص في الطرق وفي ازالة كل ما يخل بالحياة والادب وليس له
ان يدخل البيوت الا باستدعاء سكانها وقد يدخلها في بعض الاحوال بامر رئيس
الديوان وذلك عند التفتيش على اشياء مهمة واذا طلب منه احد ان يدلّه
على طريق او دار فلا يألو جهدا في ارشاده ويجب عليه ان يتعرف اهل الشرور
والمساوي ويراقبهم ولا سيما اذا اجتمع منهم اثنان او ثلاثة واذا اراد احد مثلا
ان يشتري شيئا من حاتوت او يستكرى عاجلة فامتنع مالك الشيء من بيعه او
اكرأه فللشرطي ان يلزمه بذلك نفيا للحسابه ويجب حضور واحد او اكثر
من الشرطة في جميع المحال التي يكثر انتياب الناس اليها منعاً لما عسى ان يحدث
من الجلبة والخصام اما في باريس فان الشرطي يتنوّأ موضعاً في داخل المحل
واما في لندرة فانه يقف خارجاً او في دهليز المحل وربما دخل ايضاً للتفرج كآحاد
الناس ولكن حده في ذلك معروف عند المتتبيين ويجب على الشرطي ايضاً ان
يمنع الفقراء من التكفف في الطرق او من الاضطجاع امام الابواب وفي الاماكن
المظروقة واذا وجد ولداً تائها عن مأواه ارشده فان لم يعلم له مأوى آواه في ديوان
الشرطة وكتب اسمه وصفته في صحف الاخبار حتى يأتي من ينشده واذا
بلغه احد الاهلين شكوى عن لص او ذى عدوان تتبع اللص والمتعدى حتى
يثقفهما فاذا وجد المذنب ساقه الى الديوان برفق الا اذا كان شرساً فحينئذ
يستدعى بشرطي آخر لاعتاقه ويكون معه آلة يصوت بها لاجتذاب من استدعى
به وعليه ايضاً ان يرى الكلاب مقيدة ولا سيما في زمن الصيف وان يمنع الرعية
من حمل السلاح ظاهراً او خفياً ومن اذى الحيوانات وتحميلها ما لا تطبق
ويجب على كل منهم ان يكون معه كتاب فيه اسماء الطرق المملوكة والمواضع
المشهورة وحد اجرة العواجل حتى يفصل ما بين الغريمين وان يعرف قدر
المسافة من طريق الى غيرها وفي كل يوم صباحاً ينظر رئيس الشرطة في
ملبوس المستخدمين في هذا الديوان وفيما يلزم ابقاؤه نظيفاً فاذا رأى احداً
منهم قد اهل نظافة شيء او تصليح غرمه على ذلك وفي يوم الاربعاء
يكون تفتيش عام على الملابس ومرتب الشرطي في لندرة من ستة عشر
شليفاً في الاسبوع الى خمسة وثلاثين واكثرهم يموت بداء الصدر

من طول الوقوف وهم انفع طائفة المدينة والناس • وفي الجملة فان شرطة
لندرة خير من شرطة باريس فان جل هؤلاء من الفلاحين وهم على غاية من
الفظاظة والتكبر ولا سيما الذين يلبسون برنيطة نابوليون وفي سنة ١٨٤٨ بلغ
عدد الشرطة في انكلترا ووالس ٢٧١٦٢٠٠٠ أكثرهم في انكلترا وبلغت مصاريفهم
١٦٣٩٤٤ ليرة منها ١٣١٢٠٢ مرتب وظائف لهم و ٣٢٧٤٤ لدواع اقتضتها
الضرورة وبلغت مصاريفهم في سنة ٥٦ ٤٣٤٠٨١ لكن عددهم زاد على
ما تقدم وفي لندرة ثلاث فرق من المشاة وكتيبتان من الفرسان وهؤلاء الفرسان
نخبة من جميع المملكة فهم على غاية من الجمال والاعتدال فاذا رأيت منهم نفرا
حسبته رئيس عسكر ولهم سروايل من جلد ابيض وجزم طويلة تفوت ركبهم
وعامة نساء لندرة من السفلة يذهبن معهم مجانا وفيها ٦٠٠ موضع للاكل
و ٩٠٠ موضع للقهوة و ١٨ ملهى وهو المسمى عندهم ثياطرا اعظمها الملهى
الكائن في « هاى ماركت » يقال انه أكبر ملهى في الدنيا ومثله او أكبر منه ملهى
بميلان في ايطاليا يسمى « لاسكالا » كان بناؤه في سنة ١٧٩٠ عن رسم رجل من
النمسا ثم غير بعض التغيير في سنة ١٨١٨ واكرى بعض اكنانه العليا بثمانية آلاف
ليرة وبعض مقاعده في الحضيض باربعة آلاف ومن ذلك الاوپرة الطليانية المملوكة
في كافن كاردن است في سنة ١٨٠٨ وقمت في سنة ١٨٠٩ واقتضى لانشائها
وتهيئتها مبالغ وافرة وبلغ مصروف محل الغناء فيها في سنة ٤٨ ٣٣٣٥٩ ليرة ومحل
الرقص ٨١٠٥ ليرات ومحل الموسيقى ١٠٠٤٨ ليرة وصرف على الآلاتية ٧٠٠٠ ليرة
ليرة واجارته في العام ٦٠٠٠ ليرة واستخدمت فيه امرأة لاعبة من الفرنسيين على
ثمانية اشهر بمبلغ ١٢٥٠٠ ليرة وحسب ان نفقته في كل ليلة بلغت ٨٤٥ ليرة
وقد احترق الآن ثم بنى وا قدم ملهى بلندرة هو المسمى « درورى لان ثياطر »
ولكن بناءه غير قديم فانه احرق مرتين وهدم مرة واحدة واخسها المحل المسمى
فيكتوريا ثياطر كما ان فيكتوريا بارك هو اخس الغياض وفيكتوريا كافى هوس
اخر محل القهوة واكثر مواضع اللهو هذه تشرف بحضرة الملكة وحينئذ يمكن
للغنى والصعلوك ان يراها وزوجها واولادها الا ان الغالب انه متى ذهبت الى
ملهى ما تنافس الناس في الذهاب اليه فتغلو المقاعد بحيث لا يعود يتبوؤها الا
اهل الاستطاعة وربما ارخيت ستارة المحل الذى تقعد فيه وليس حضورها بمانع

مما الفه اللاعبون والمتفرجون فقد شاهدت مرة بحضرة زوجها واولادها زمرة اللاعبين مقبلين بعضى عليها اصناف كثيرة خسيصة من جملتها زوج نعال واعلم ان التمثيل في الملهى يتجاذبه نوعان من التاريخ والادب وفيه تمثل الحوادث والوقائع الماضية فتصير كأنها مشاهدة بالعيان وفيه تنشدا الاشعار الرائقة والقصائد البليغة ويقع من المحاورات الادبية جدا وهزلا ما يسرى به عن الثكلى حزنها وكل ما يقال فيه فهو من الكلام الفصيح الذى تستمله علماءهم وادباؤهم فان اعظم شعراء الافرنج الفوا فيه وما من خطيب مصقع او اديب بارع الا ودون شيئا من هذه المحاورات ومن طريقة اللاعبين فيه ان يخصصوا كل شخص منهم بحال فن كان مديد القامة جهير الصوت اتباع خصصوه بان يمثل الامور التى فيها حاسة ووعيد وتدمير ومن كان لطيفارخصا خص بمأشاه الاستشفاع والملاطفة والتلقى ومن كان حزقة خص بالامور السخرية المضحكة وقس على ذلك ولو عرفت قدر ما يسرده هؤلاء اللاعبون عن ظهر القلب لاعظمته جدا فان كلا منهم يحفظ من القصص والنوار ما يكون اكبر حجما من ديوان المتنبي ولا يكاد احدهم يتلثم في عبارة وقد يوارون شخصا بيده الكتاب الذى تحفظ منه تلك الحكايات في مكان حتى اذا ذهل المتكلم عن شئ رده ولكن وقوع ذلك نادر ويقال ان هؤلاء الفصحاء في ملعبهم اولوا عى في غيره وفي هذه المواضع من الاكالات والادوات والمنظر ما يحير الناظر لانه على قدر اختلاف الوقائع والحوادث ينبغي ان يكون اختلاف الادوات اللازمة لتمثيلها مثال ذلك اذا اريد تمثيل ما جرى بين السموأل وبين الحارث بن ظالم حين طلب منه ان يسلمه الدروع التى كان اودعها عنده امرؤ القيس نصبوا مكانا شبيها بالقلعة وجاؤا بدروع وسيوف وشخصين مثلي امرئ القيس والسموأل فيكون هذا لابسا لباس الملازم لبيته المشتغل بامور نفسه وذلك بلباس البطل المحارب المزمع على السفر ويشرع الشخص الممثل لامرئ القيس في ان يخاطب الآخر با قام له هم في النفس اضطره الى مفارقة الوطن ومباينة السكن فان المعالى لا تدرك الا بجهد النفس والخاطرة وازالة المصون من النفائس والרגائب وما اشبه ذلك من الكلام الحكيم وينشد في خلال ذلك ابياتا يمثل بها كقول المتنبي مثلا

* تريدن ادراك المعالى رخيصة * ولا بد دون الشهد من ابر النحل *

﴿ او قول الآخر ﴾

* يفوص البحر من طلب اللاكى * ومن رام العلى سهر الليالى *
ويتأوه فى اثناء الخطاب ويحرك رأسه ويظهر نظر المبتس الشافن الى ان يفرغ
من الانشاد والناس منصتون لا تسمع لاحد منهم نامة ثم يأتى بالادرع والسلاح
ويسلمها للسؤال فيأخذها منه وبعد ان يتوادعا وينشاكل منها ابياتا دعاء لصاحبه
على ما يقتضيه المقام يدخل السؤال حصنه ويرخى الحجاب وبعد قليل يرفع
ويأتى الشخص الممثل به الحارث بلباس فاخر يدل على صفته ومعه جند واعوان
شاكى السلاح ويطلب الدروع من السؤال وهو متهدد له ومتوعد ويمثل بايات
تدل على شدة بطشه وسطوته بين اقرانه كقول الفرزدق مثلا

* وكنا اذا الجبار صعر خده * ضربناه حتى تستقيم الاخادع *
﴿ او قول المتنبي ﴾

* الخيل والاليل والبيداء تشهد لى * والرمح والسيف والقرطاس والقلم *
فيجيبه السؤال من حصنه بالمنع وينشد ابياتا تدل على وفائه وصدق نيته
وشرف نفسه ثم تدور بينهما المحاورة الى ان يقنط الحارث من اخذ الدروع
فيعتمد الى ابن السؤال فيأخذه ويذبح بمرأى منه وهنا يرخى السجف وبعد
قليل يظهر السؤال ويده الدروع ويذهب بها الى اقارب امرئ القيس
ويسلمها لهم وينشد اياته المشهورة وهنا يتم الفصل وهذا التمثيل يجرى فى
اكثر من ساعة لما يتخلله من المحاورات كما ذكرنا وليس الخبر كالعيان *
ثم ان التمثيل عندهم على نوعين الاول تمثيل ما يحزن من نحو الحروب واخذ
النار ويقال له عندهم « تراجيدى » والثانى وهو عكسه ويقال له « كوميدى »
وكلاهما يعدان من الادبيات غير ان النوع الثانى يكثر فيه التوريات والمؤاربات
والتجنيس ولغة الانكيار فيما اظن اطوع على ذلك من غيرها وان اللغات فى
هذه الملاعب وان اختلفت وفضل بعضها بعضا الا ان الحركات والاشارات
جميعها واحدة واشهر اللاعبين عند الافرنج اهل ايطاليا ولعل ذلك بالنظر الى
الانشاد والغناء فان اللغة الطليانية اطوع على الغناء من غيرها لكثرة ما فيها
من الحركات وهم اول من احيا طريقة التراجيدى وذلك فى القرن السادس عشر
ولكنهم كانوا يحفظون النغم عن ظاهر القلب كما هى العادة عندنا الآن ثم اقتدى

بهم اهل فرنسا لكن الخلق وقتئذ كانت مثل العقول غليظة جافية واول من
الف في هذا الفن من اليونان اوروبيدوس وذلك قبل الميلاد بأربع مائة وثمانين
سنة فاما في تمثيل المحزنات ونحوها وفي خفة الحركات واللباقة فالزينة لاهل فرنسا
والانكليز تبع لهم فاما في المضحكات فهو لآء هم المتبوعون وذلك لسعة لغتهم
ومن العجب هنا انه مع ما يظهر في وجوه الانكليز من العبوس والانقباض
فان لسانهم ادعى الى البسط والضحك من السنة سائر الافرنج ومن الطليانيين
من ينشد في هذه المواضع ابياتا بل قصائد على البديع بان يختار احد الحاضرين
لفظة ويقول للاعب انشد ابياتا على هذا الروي فينشد دون توقف وقد سمعت
احد الانكليز ينشد ابياتا زعم انه مرتجلها وذلك بان يصف مثلا احد الحاضرين
بانه لابس لباسا بلون كذا او ان بيده عصا او انه متكئ وعند التحقيق علم انه انما
كان راويا لها فقط على ان ارتجال الشعر عند اي جيل كان من الافرنج هين لان
كلامهم كله مجزوم اي خال عن الاعراب وليس بين الكلام المتعارف عند
خاصتهم وبين كلام الكتب من فرق كبير الا ان يقال ان مهابة الجمع تفهم الشاعر
غير ان من الف رؤية الجموع في كل ليلة تساوى عنده قلوبهم وكثرهم فثله
كثل العائم في البحر يستوى عنده قاموسه وضخماحه وعلى كل حال لهم المزية
الكبرى في كثرة الحفظ وفي حسن الاداء ثم انه كما يتعلم من هذه المشاهد
كثير من المحامد والمكارم والفصاحة والخطابة كذلك يتعلم المترددون عليها
ولا سيما النساء كثيرا من الخيل والاسباب الموصلة الى الوصال وتبديل البعولة
بالعشاق لما يرين من فتور الزوج وحرارة العاشق الممثلين نصب اعينهن وخصوصا
تكلف المحب والته من اللاعات على الرجال فانهن يبدن من هذه الحركات
والصفات ما يغري كل امرأة بمحاكاتهن وكذلك اللاعبون يبدون من الحماسة
والتجبر ما يشوق كل امرأة الى ان يكون لها بعل او عاشق نظيره ولا سيما حين
يلبسون الدياج ويتقلدون السيوف ويأمررون وينهون واعظم ما يعجب النساء
من تلك المناظر هو ان يرين الرجال يتضاربون بالسيوف ونحوها او ان يأخذوا
ثارهم ممن افترى على حرمهم وقد تلبس الرجال في هذه الملاعب ملابس النساء
والنساء ملابس الرجال واحسن ما تبدو المرأة به ما اذا لبست لباس الكمي وعلى
رأسها خوذة وفي الواقع فان كل ما يلبسن هناك يلبق بهن ومن اعجب ما يرى
من

من احوال هؤلاء اللاعبين واللاعبات هو ان الشيخ منهم يفتى في زيه واطواره وكلامه حتى لا تحسبه الا فتى والفتى يتشيخ بحيث يحسبه هنا هرما فلو ظهرا في المرة الآتية ما عرفت منهم احدا بل يغيرون ايضا اصواتهم ولهجتهم وسختهم وشعورهم ويتحادبون ويتعارجون ويتمارضون ويتناومون ويتعامون ويتساكرون ويتباكون ويتضاحكون ويتحامقون ويتجانون ويحسون الملوك والقضاة والعلماء والاطباء والفقهاء والمتحذلقين والحنى وكل صنف من الناس ومن اعظم ما اضحكني من محاكاة التثاؤب تمثيلهم اميرا من امرآء باريس قدم الى لندرة واستوخم هواكها فكان كلما قال كلمة تنأب وتناعس اشارة الى ان هواء البلاد قد ثقل عليه وان جميع الانكليز ذووا وجوه ككالحة ومن يرهم اول وهلة فربما حسدهم او تمنى ان يكون في زمريهم اذ يراهم مغازلين للنساء الحسان ومتردين باللباس الفاخر وربما اكلوا في الملعب الطعام القدي وشربوا الشراب اللذيذ الا انه عند التزوى يعلم ان حرقهم لمن اشقى الحرف لان اللاعب يلزمه ان يعيد لعبته عدة ليال متتالية كما هي وكذا المغنى والمشد والشئ اذا تكرر تكرر وربما لزمهم في الليالى الباردة ان يلبسوا الثياب الرقيقة وفي الصيف عكس ذلك وخصوصا انهم يعلمون من انفسهم انهم ان هم الامستأجرون وان استبرقهم ان هو الا عارية وهي عار وحيث قد جرت العادة بان ابتداء اللعب يكون غالبا في الساعة السابعة وختامه بعد الحادية عشرة كان كثير من العابهم سخيفا فلو قصروا الوقت واجادوا اللعب لكان اولى وهذا كالتزام بعض المؤلفين عندهم لنوع يسمى نوفل وهو ان يجعلوا الكتاب ثلاثة مجلدات فيفسفون ويدنقون ويأتون بالغث والسمين وقد رأيت غير مرة امرأة تبرز في ثياب رثة ثم تغسل وجهها وتمشط شعرها والناس يغربون من ذلك في الضحك واعرف اناسا كثيرين يحرمون انفسهم من لذة الاكل والشرب حتى يمكنهم مشاهدة هذه الملاهى ولا يلون من ان ينظروا تمثيل واقعة واحدة عدة مرار وفي الواقع فان نصف تمثيلهم انما هو هراء بالمتزوجين وكذلك اكره من تمثيلهم انهم يجعلون المرأة الضعيفة الصوت تنشد اشعارا فيها حاسة ووعيد وكذا يجعلون الانسان مشتركا اى يحدث نفسه فيقول المحب مثلا وقد اعبته الخيلة في وصال محبوبته كيف افعل الآن وقد سدت على مذاهب الآمال فلم يبق لي

الا هذه الوسيلة وهي كذا وكذا او يقول انا لا استحم الليلة قبل ان انام وكذلك استحمق بروز المرأة مثلا في الملعب ويدها كنارة او آلة اخرى للطرب ولا تعزف بها وانما يعزف عنها بعض العازفين من تحت الملعب وهي مع ذلك تمر يدها على الآلة وتوهم الناس ان الصوت خارج من آلتها • وبودى لو كانت العرب نقلت عن اليونانيين شيئا من هذه المحاورات كما نقلوا عنهم الفلسفة او انهم الفوا فيها ولا يبعد عندي ان شعراء العرب حين كانوا يتناشدون الاشعار في عكاظ كانوا يجرونها على وجه يكسبها حوكا في النفوس مع اقترانها بالحركات والاشارات ولا شك ان في هذا التمثيل يكتسب كلام الشاعر رونقا أكثر مما لو بقي في الكتب او انشاء مجرد انشاء ولا شك ان مبدأ الملاحى عند اليونانيين كان مثل اجتماع العرب في عكاظ ثم توسعوا بها فان جميع العلوم والفنون بل الاديان نفسها تكون في مبدأها ضعيفة ومن انواع هذه الالعب اللب الذي يقال له نطوميم وهو لعب بالاشارة والحركة من دون محاورة ولا يلعب فيه الرجال والنساء الا بما يضحك ويسر والواقع ان للاشارات شجونا وفنونا ككثر من الكلام ولا تكاد تدخل تحت حد وتعريف ولا تنتهى الى مدى واحسن هذه الاضاحيك ما وقع بعد عيد الميلاد وصفتها ان يبرز رجلان او أكثر بلباس سخرية وآخرون عليهم لباس مذهب في هيئة الجسم ونساء بايديهن شبه عصا الساحر وهن بلباس الرقص فكلما ضربت المرأة بالعصا على الحائط خرج منه شيء او انشق او على صندوق انفتح واستحال الى هيئة اخرى وقد جرى مرة بقفص كبير فيه صورة ديكين فضربت به امرأة بالعصا فادا هو قد استحال الى عاجلة مليحة مزخرفة فسارت فيها وربما انقلب المكان كله بسقفه وحيطانه وانائه فصار بيتا بديع الاستحكام وربما رأيت ككل ما فيه يدور ويتحرك او يصعد في الجو ويغيب عن النظر ومن احسن ما رأيته في هذه المواضع على كثرة ترددي اليها تمثيلهم قبح الاسبانيولين مدينة ييرو في اميركا واجتماع اهلها في هيكل لهم يسمى هيكل الشمس للاستغاثة بها على العدو فجعلوا دائرة جهة المشرق شبيهة بالشمس ولها شعاع بهي وبين يديها مذبح عليه شعلة نار سنية وقام كاهنهم يحضهم على القتال ثم اندفعت الرجال والنساء يرتلون لها ترتيلا مطربا وكانوا جمعا عظيما حتى كاد المكان يتزلزل لاه وانهم ثم جعلوا محلا يأتي عليه ضوء القمر وجاء

وجاء نحو ستين جارية من الحسان بلباس الكمة وعلى رؤوسهن اكاليل وكان يرى لهن ظل في ضوء القمر ثم اطلعوا شجرة نخل من وسط الملعب ثم رمت بما كان يرى في جنتها شبيها بالسعف فصارت كالشرائط فامسكت كل جارية بشربطة وجعلن يرقصن بالتقابل والتدابر والتزاوج والانفراد وبكل شكل من الاشكال بما يدهش الناظر ومن ذلك انه برز في الملعب مائة وثلاثون جارية بلباس الرقص الشفاف وبعد ان رقصن هنيهة ارخى الحجاب ثم قمع واذا بهن كل سنيعة يتلأأ بالانوار الملونة البهيجة الساطعة وقد وقف عشر جوار من هذا الجانب وعشر من الجانب الآخر باثواب من الخز شفافة بلون القرنفل وبدت رؤوس ست جوار من فوق حيرة فصفت الناس تعجبا واستحسانا ثم اصعدت هؤلاء الست وظهر صف آخر من فوقهن بثياب من قصب مرصعة بحجارة تلعب وعدتهن اثنا عشرة جارية فزاد تعجب الحاضرين فلما تكامل الاعداد اذا بالجوارى الست متكئات كل اثنتين منهن متقابلتان ثم اصعد ثلاث جوار ووقفن بين الصفيين بلباس مذهب وبأيديهن صوايح تلعب ثم زادت الانوار تدبجا وسنا وزاد تعجب الناس ثم اصعدت ثلاث جوار اخرو ووقفن فوق الصف الثاني وبأيديهن صفائح لماعة ثم ادلى ثمان جوار من كل جانب اربع فكن يدرن متدليات في الهواء المنير وبعضهن اعلى من بعض ثم اصعدت جارية واقفة على شبه قبة مرصعة بقطع من جواهر تتألق كأنها الثريا التي تعلق في السقف وهي في داخل الهيكل ويدها صولجان فكانت اعلى من الجميع وكانت ثيابها تتألق تألق التبة وكان على حائط الهيكل صورة امرأتين ايضا بصفة هؤلاء الجوارى فلم يكن الناظر يميزهما من النساء وحينئذ بلغ العجب اقصاه واخذ اصحاب الينطوميم يلعبون والنساء على تلك الحالة وقد يصعدون النساء والاشجار من اسفل الملعب اصعادا وينزلونهن من السقف انزالا ويجعلون جميع الحجب والحيطان تتحرك بنفسها ويمثلون الشمس والقمر والبحر والشجر والجبال والضباب والثلج والمياه وساير المخلوقات والمصنوعات ومرة اخرى رأيت سفينة في بحر اوشى شبه بالبحر ثم اخذت الامواج ترتفع وتلاطم حتى علت على السفينة فغرقت فيها اعلا ويطلعون قبيبا مذهبة محفوفة بالانوار المتألقة والبرق يحفها ثم تنشق عن رؤوس نساء ثم تأخذ في النزول والنساء في الظهور الى

ان تغيب القبيب بالكابة وتبرز النساء في الملعب ويلبس الرجل هيئة ديك والمرأة هيئة دجاجة وترى شيئا يستحيل طاووسا يمشى وآخر بقرة تتحرك وغير ذلك مما يقصر الوصف عنه ومما اعجبنى ايضا تمثيل عرس بعض ملوك الهند بان زينوا فيلين احدهما كبير والاخر صغير وعلى كل منهما قبة مزخرفة فدخل الملك في قبة الفيل الاكبر ودخلت الملكة في قبة الاخر وامام الفيلين ووراءهما جمع لا يحصى ومرة اخرى مثلوا حالة المتزوج مع امرأته بعد عقد الزواج بيوم واحد وذلك ان رجلا غضوبا تزوج امرأة مثله وكل منهما كان يعلم حال صاحبه وكان في نوبة غضبه يركس من امتعة البيت ما يمكن ركسه ويكسر ما يمكن كسره ثم يدعو خادمه ويعبث به ويؤذيه وكذلك المرأة كانت تركس وتكسر وتفعل بخادمتها فلم تأت عليهما ليلة الا وقد اتلفا جميع ما في الدار فكنا نرى اوراق الكتب تتناثر في الجو والقماش يمزق والكراسي والموائد تركس وكان مرة اخرى يؤتى لرجل آخر غضوب بطبق فيه طعام فيرمى به في الملعب فحيث انتهى الطبق يطلع رأس انسان من كوة في الملعب ويدخل فيه واعلم ان الرقص في هذه الملاهي مخالف للرقص المعهود في المراقص فانه هنا اكثر خفة وصنعة وموازنة فقد ترقص المرأة على رؤوس اصابعها عدة دقائق وتمشي كذلك القهقري وقد تتخلع وتتفكك تتخلع الرقصات في بلادنا تقريبا بحيث لا يدين شيئا مخلا بالحياء الا انه كثيرا ما يرفعن سيقانهن في وجوه الناس وحين يدرن دورا متابعا يرى الرائي افخاذهن المستتره تشف من الخز ومع ذلك فلا يعد هذا مخلا بالحياء وكذا التقبيل فان الرجل يلثم المرأة في فمها وخديها ولا حرج وتعلم الرقص في بلاد الانكلترا اصله من بلاد ايطاليا وذلك في سنة ١٥٤١ • ونقلت من كتاب معجم الاوقات ان مبدأ هذه التمثيلات في بلاد الانكلترا كان لاشياء روحية دينية واول تميلة اجريت متقنة كانت على عهد الملكة اليصابات وان اول تميلة اجريت منتسقة ومنظمة كانت في رومية بحضرة البابا ليو العاشر وذلك سنة ١٥١٥ • وفي لندرة اثنان وعشرون موضعا يرى فيها صور البلاد والمدن والاشخاص من وراء الزجاج ويقال لها بانورامه اعظمها المحل الذي يسمى كوليسيوم يصعد الى قبة في درج او في قبة صغيرة مزخرفة على شكل بيوت الصين لا تسع اكثر من اثنين فاذا استقرا فيها حركت باكة من تحتها كآلة الباخرة فتنبعث صعدا فاذا

فاذا بلغ الانسان القبة وهى ذروة المحل رأى صورة لندرة ابوباريس بكل ما فيها من الديار والطرق والانوار والمواقع المرتفعة والمنخفضة حتى يظن ان المرئى شئ محسوس ويخيل له ان المسافة التى بينه وبين اطراف المدينة بعيدة كسافة المصور ويرى ايضا القمر يسير والنجوم تنقض وتزمهر والنلج ينساقط ويسمع زمزمه الرعد وغير ذلك مما يذهله • ومن المواقع الشهيرة دار الاختبارات العلمية وهو موضع يشرح فيه خواص الاشياء وكيفية العلوم والصنائع ومن اعظم الآلات فيها جرس كبير ينزل الناس فيه فى حوض ماء وهناك ماء رأيت الناس يغمسون فيه اصابعهم ويترعونها بحجلة لان فيه خاصية الارجاف الكهربية • واعظم بناء فى لندرة بل فى الدنيا كلها مجلس المشورة اول حجر وضع فى اساسه كان فى السابع والعشرين من نيسان سنة ١٨٤٠ ودام بناؤه عشرين سنة ومساحته اكثر من ثمانية جربان فيه اكثر من ١٨٠١ حجرة و ١٩ ديوانا و ١٢٦ مرقى وبلغت نفقته ٣٥٠٠٠ ر. ٥٠٠ ليرة طول مجلس الاعيان فيه ٩٧ قدما وعرضه ٤٥ وارتفاعه كذلك فيه عرش تجلس عليه الملكة وكرسيان عن يمينه وشماله احدهما لزوجها والثانى لولدها وهويشبه كنيسة صغيرة لكنه من دون كوى وعلى مدار حيطانه زجاج ملون عليه صور ملوك الانكليز وارتفاع مجلس النواب ٤٥ قدما وعرضه كذلك وطوله ٦٢ وهويفتح فى شهر شباط ويغلق فى تموز فتكون مدة انعقاده ستة اشهر وقبل الشروع فى المذاكرة والنظر فى المصالح تقام الصلاة وكذا هى العادة عند الانكليز قبل كل امر دى بال ولا سيما قبل القتال وحين تحضر الملكة لفتحه او لاغلاقه يقدم لها احد ارباب المناصب العلمية خطابا وهو جاث على ركبتيه فتأخذه منه وتتلوه ايدانا بما ذكر وقبل حضورها بساعتين تفتش اسرابه ودهاليزه جريا على العادة من سنة ١٦٠٥ وذلك ان اهل مجلس المشورة حين كانوا مجتمعين يوما وكان دين البروتستانت قد استتب حديثا حاول بعض من الكاثوليكين ان يحرق المجلس واهله ببارود كان قد خزنه تحت اسسه فانتبه لهذه المكيدة بعض الحاضرين وفسدت على الرجل حيلته وقد فرضت كنيسة الانكليز المتأصلة صلاة معينة لذلك اليوم وهو الخامس من شهر نوفمبر وفيه يخرج رعاة الناس بتساوير وتمثيل كثيرة يمثلون بها ذلك الرجل والبار

وغيرهما ممن يحسبه الانكليز عدوا لهم و بعد ان يطوفوا بها المدينة بضجة
 وزأط يحرقونها عند برج لندن ويسمون هذا اليوم كى فكس • واعلم ان اهل
 المجلس ينقسمون الى قسمين الاول يقال له مجلس الاعيان والثانى مجلس النواب
 اما اعضاء مجلس الاعيان فقد يكونون من اصحاب الوظائف العالية سواء كانت
 دينية او دنيوية وعدتهم ٤٦٢ منهم ٢٦ من مطارنة ايرلند و ٢٨ من اعيانها
 وما حكم به هؤلاء السائدون لا يتقضه اصحاب مجلس النواب الا فى امور
 مخصوصة ولكل منهم ان يحتج عن نفسه حين تقام عليه الدعوى ويبدى
 الاسباب التى يستصوبها خطأ و اذا لزم اثبات ما قرره يكتفى بمجرد قوله على
 شرفى وفى غير ذلك يحلف واذا قضى اهل مجلس النواب بشئ فلا بد وان
 يعرضوه على مجلس الاعيان ولللكة ان تبطل حكم المجلسين ولكن قلما تجرأ
 على ذلك ولكل من الوزراء ٥٠٠٠ ليرة فى السنة ولاحد الدوقات من رزقه
 فى كل يوم الف ليرة ورئيس المجلس ٨٠٠٠ ليرة وداريسكنها وعدة اعضاء
 مجلس النواب ٦٥٨ يتخبرهم اهل اقاليم انكلترة وهى ٥٢ اقليما واهل المدن
 والمدارس ولا بد من ان يكون لنائب الاقليم ايراد ٦٠٠ ليرة فى العام من رزقه
 ولنائب المدينة ٣٠٠ والحكمة فى ذلك ان يكونوا قادرين على التفرغ للنظر
 فى مصالح الرعية واول مجلس مشورة عرف للانكليز كان فى عهد هنرى
 الثالث سنة ١٢٦٦ وفى سنة ١٣٤٠ انقسم الى مجلس الاعيان ومجلس النواب
 كما تقدم ومصاريف المجلس تبلغ فى السنة نحو ١٦٢٢٣٠ ليرة منها مصروف
 الطبع يبلغ ٧٥٩٥٤ • وعروض الحال التى تقدم لمجلس المشورة يبلغ عددها
 فى السنة نحو ١٠١٢٨ وعدد التوقيع او الامضاء ١٦٨٧٩٣٣ • ومن
 المباني العظيمة فى لندرة المتحف البريطانى وهو الموضع الذى فيه التحف
 الغريبة والاشياء العادية والحجارة المعدنية ويقال له بريتش موزيوم بنى من
 سنة ١٨٢٣ الى سنة ١٨٥١ واصل انشاءه ان رجلا من الاعيان اسمه هانس
 سلون توفى سنة ١٧٥٣ واوصى بعشرين الف ليرة لمشتري تحف توضع فى محل
 مخصوص للتفرج عليها فاعجب ذلك مجلس المشورة وفى ذلك التاريخ
 جمع ٣٠٠٠٠٠ بامر المجلس لانشاء ذلك الموضع وفيه من الغرائب حجر يقال
 انه سقط من الجو فى ولاية السالك حين كان الامبراطور مكسميليان عازما على ان
 يوقع

يوقع بالفرنسيس لحفظ في كنيسة انسهم الى اوائل فتنه الفرنسيين ثم نقل بعد ذلك الى مكتبة كلار زته ٢٧٠ رطلا انكليزيا. ويوجد فيه ايضا حجارة اخرى سقطت من الجو بعضها سقط في سنة ١٧٩٠ وبعضها بعد ذلك باربع سنين وبخمس وفيه جميع الحيوانات مصبرة وصور وتمثيل وكسي اهل البلاد الاجنبية وآلات طربهم واثاثهم والعصافير المصبرة والطيور والوزغ والاسماك والاصداف والعظام والقرون والجماجم واسنان الفيلة والبيض ومن هذه الحيوانات ما انقرض نسله من جلاتها سلحفاة جلبت من الهند وقد دفع في ثمنها ١٠٠٠ ليرة وفيه موضع آخر لجميع اصناف الجواهر المعدنية وآخر لاصناف الدراهم والدنانير القديمة رأيت في جلاتها دنائير ضربت على عهد هارون الرشيد بالخط الكوفي وهي كبيرة رقيقة وفيه موضع آخر للكتب تبلغ اكثر من ٦٥٠.٠٠٠ كتاب واذا اعتبرتها بحسب الاجزاء تبلغ اكثر من ٩٠٠.٠٠٠ وهذا التدر يساوي مقدار كتب برلين وويانه ولكن دون القدر الموجود في باريس ومونيش وهذه الكتب موضوعة على رفوف تشغل مسافة ١٥ ميلا من جلاتها الكتب التي كانت للملك الانكليزي تبرعوا بوقفها على المحل المذكور منها كتب مجلدة بالخمحل كانت للملكة اليصابت ولبامس الاول ولشارلس الاول وغيرهم وكتب كانت لجورج الثالث وهي ٨٠.٠٠٠ واعظم موضع في هذه المكتبة هو ما وقفه الملك جورج الرابع يبلغ ثمنه ١٣٠.٠٠٠ ليرة فيه توراة قديمة طبعت في متس سنة ١٤٥٥ وامثال لقمان الحكيم طبعت في ميلان سنة ١٤٨٠ واول نسخة طبعت من اشعار اوميروس طبعت في فلورانس سنة ١٤٨٨ ونسخة اشعار فرجيل طبعت في فينيسيا سنة ١٥٠١ وفيها صوانان قيمة ما فيهما من الكتب ربع مليون وهذه المكتبة يدخلها الناس باذن من ناظرها لاجل المطالعة والمراجعة وفي كل نصف سنة يتجدد الاذن ولا يؤذن للمطالع ان ينسخ كتابا منها برمه وانما ينسخ منه جلا ولا ان يستحبه ولا ان يطلب كتابين في تذكرة واحدة وقد بلغ عدد المطالعين في سنة واحدة ٧٠.٠٠٠ وعدد كتب الخط ٣٠.٠٠٠ وثمان خزانتين منها فقط ٢٥٠.٠٠٠ في جلاتها كتاب توراة كتب لشارلمان وكتاب صلوات للملكة اليصابت غشاؤه من صنع الابرة عملته بيدها وفيها ٣١٧ كتابا باللغة السريانية • قلت لم يذكر المؤلف عدد الكتب العربية جريا على عادة اهل بلاده من عدم المبالاة بلغتها وان يكن

قد دون بها من العلوم والفنون ما لم يدون في لغة شرقية قط وحين كنت اذهب الى هذا الموضع للمطالعة لم يتهدأ لى ان اعرف اسماء الكتب العربية بحملتها لان اكثرها مكتوب بالحروف اللاتينية ومعلوم ان الاسم العربي لا يظهر بها حق الظهور ومما رأيت فيها من الكتب الجليلة ادب الكاتب لابن قتيبة والنوايع للزمخشري ومدح الشيء وذمه للمحافظ وديوان ابي تمام وهذا المتحف هو من بعض ما تمكن رؤيته مجانا بلندرة يفتح ثلاثة ايام في الاسبوع وهى الاثنين والاربعاء والجمعة من السابع من سبتمبر الى اول شهر ماي ولا يدخله من الاولاد من كان سنه دون ثمانى سنين وعند بابيه عسكريان بالسلاح اعتبارا للمحل وقد ضمن بعض الكتب بلندرة بثلاثة آلاف ليرة وبيعت نسخة من بوكاتشو بالفين ومائتين وستين ليرة وقومت نسخة من توراى مكين بخمسمائة وكسور • ومن ذلك متحف آخر يعرف بمتحف الخدمة المتحدة بنى في سنة ١٨٣٠ وهو يشتمل على تحف نفيسة من جملتها سيف كان يتقلده اكرامول المشهور وجثة الحصان الذى كان يركبه نابليون الاول في حرب واطراو يقال له مارنغو ذو اللحية وفيه ايضا صورة تلك الواقعة ولوح من وجه السفينة التى انتصر فيها نلسون وآخر يعرف بمتحف خصائص الجيولوجيا بنى في سنة ١٨٣٥ وقم في سنة ١٨٥١ بلغت نفقته ٣٠٠٠ ر ٣٠ ليرة وهو يشتمل على الجواهر المعدنية وعلى ما يوجد من اصناف الحجر في بلاد الانكليز وغيرها من البلاد وعلى الآلات المتعلقة بهذا العلم وآخر يعرف بمتحف المرسلين يشتمل على اشياء كثيرة مما يتعلق بعلم حياة الحيوان وعلى مناسير آلهة الوثنيين واشياء اخرى عديدة جلبها هؤلاء المرسلون من البلاد التى جالوا فيها وآخر يعرف بمدرسة الجراحين بنى في سنة ١٨٣٥ وبلغت نفقته ٤٠٠٠ ر ٤٠ ليرة يفتح لاهل المدرسة ولمن يكون له اجازة من احدهم وذلك في ايام معاومة من الاسبوع وهو يشتمل على ٢٣٣٠٠٠ قطعة من الاجسام المصبرة ومن الاعضاء والآراب وعلى جثة جبار من اهل ارلاندا طولها ثمانى اقدام مات وهو ابن اثنتين وعشرين سنة وذلك سنة ١٧٨٣ ولما مات قيسر فكانت ثمانى اقدام وربعا وفيه جثة رجل حرقه من صقلية طولها عشرون اصبعًا • قلت ومن مناسير التصار فيليبوس الكوسى كان من صغره اذا خرج يضع في جيبه كرات من الرصاص خيفة ان تطيره الريج وكان شهيرا ايضا في عصره بالعالم ونظم الشعر وآخر يسمى البيوس الاسكندري

الاسكندري كان طوله قدما وخمس اصابع ونصف اصبع وكان له شهرة ايضا
 بالمنطق والفلسفة قال وفيه جثة جبار آخر من ارلاندا طولها ثمانى اقدام وسبع
 اصابع ونصف وقدر ذراع من جثة جبار فرنساوى كان طولها سبع اقدام واربع
 اصابع وجثة فيل جلب من الهند وكان يؤذى الناس لداء اعتراه فكان لا بد من
 قتله برشق من الرصاص ولما اريد قتله اناخ على صوت قائده ليصوب بعض
 المقاتل في جسمه فلم يمت الا بعد ان اطلق عليه مائة رصاصة وثم جثت اجنة
 اسقاط واختان توأمان ولدتهما امهما وهى بذت سبع عشرة سنة من دون مقاساة
 الم ولم تزل اجسامهما متحدة وفيه شكل احشاء نابوليون مظهرة لانتسار الداء الذى
 اودى به • وآخر يقال له متحف صون بالقرب منه بنى فى سنة ١٨١٢ يستمل على
 اربع وعشرين مقصورة فيها تماثيل وتصاوير وحجارة ثمينة وغير ثمينة ومتحف
 وكتب فن جملة تماثيله تماثيل احد آلهة المصريين المسمى اريس ثمنه ٢٠٠٠ ليرة
 وفيه فرد مرصع (طنجية) كان الملك بطرس الاكبر اخذه من قائد الجيوش
 التركية فى بحر الخزر سنة ١٦٩٦ ثم اهداه الملك الكسندر الى نابوليون عند
 الهدنة التى وقعت فى نلسيت سنة ١٨٠٧ واستحبه نابوليون الى جزيرة صانت
 هيلان ثم جاد به على بعض ضباطه وانتقل اخيرا الى لندن • ومن ذلك الموضع الذى
 يقال له روشن الامة بنى فى سنة ١٨٢٤ وبلغت نفقته ٩٦٠٠٠ ليرة وهو يستمل
 على ٣٩٠ صورة منها ٣٨ صورة قومت بسبع وخمسين الفا وست عشرة ليرة ثمنها
 ٧٥٠٠ وهو دون نظرائه فى بلاد اوربا • ويوجد ايضا محال اخرى عدتها
 خمسة عشر محالا لجماعات الجغرافية والبناء ومعرفة المعادن والتصوير واللقاء
 الخطب وغير ذلك • ومن المباني الجميلة البنك انشىء فى سنة ١٦٩٤ مرتب ناظره
 فى السنة اربعة آلاف ليرة وللوكيل ٣٠٠٠ ليرة ولكل من المباشرين وهم ٢٤
 رجلا ٢٠٠٠ ليرة وعدد المستخدمين فيه ١٠١٦ منهم ٨١٤ كتاب وسنويتهم
 من الخمسين ليرة الى الالفين بجملة مرتبهم فى السنة ١٩٠٠٠٠ ليرة وكل
 كواغد يعاد اليه يلاشى ودين الدولة للبنك يبلغ ١٠٠٠٠٠٠ ليرة
 ولا يسمح بان كواغده تزيد على ١٤٠٠٠٠٠ ليرة وقيمة ما يتداول منها فى ثلاثة
 اشهر تزيد على ثمانية عشر مليونا ومن هذه الكواغد ما تساوى قيمته الف
 ليرة واظن ان اعلى كواغد فرنسا لا يساوى اكثر من الف فرنك وفيه سبائك

ذهب منها ما وزنه ستة عشر رطلا وقيته ثمانمائة ليرة وفيه عدة موازين من
جلتها ميزان وزن من سبائك الفضة من خمسين رطلا الى ثمانين وآخر وزن في كل
دقيقة ٣٣ ليرة وقد جعل بحيث وزن الديار الرابع ويرميه في صندوق والزائف
في صندوق آخر وفيه آلة لطبع الكواغد ورسم اعدادها من الواحد الى مائة
الف بغاية ما يكون من الضبط والاحكام وبجانب هذا المحل الدار التي تجتمع
فيها التجار فتحته الملكة في سنة ١٨٤٤ وبلغت نفقتها ١٨٠٠٠٠ ليرة
وفي وسطها تمثال الملكة وعلى حيطانها روائع ما عند اصحاب الصنائع والتجارة
من الادوات والتحف وامامها ساحة مبلطة فيها تمثال ويلنكطون من نحاس
راكبا على فرس فوق عمود من الرمر • وقال صاحب المعجم كواغد البنك
التي تداولها الناس في سنة ١٨٥٥ بلغت ١٩٦١٦٦٢٧ ليرة وفي بعض
الاحايين زادت على هذا التقدير وقيمة السبائك التي فيه بلغت في سنة ٥٣
٢٠٥٢٧٦٦٢ وفي سنة ١٨٢٨ تفرع عنه في المملكة عدة فروع • ومن ذلك
الكمر ك بني من سنة ١٨١٤ الى سنة ١٨١٧ وفي سنة ١٨٤٩ بلغ عدد المستخدمين
فيه ٢٢٢٨ شخصا يصرف عليهم من المرتبات ما يبلغ في السنة ٢٧١٢١٣
ليرة ودونه كمر ك ليفربول كان فيه من المستخدمين في ذلك التاريخ ١١٤١
نفسا و اراد الكمر ك الاول وافر جدا وفيه مقصورة طولها ١٩٠ قدما وعرضها
٦٦ • ونقلت من بعض صحف الاخبار ان ما دخل من التبغ في سنة ١٨٤٨
بلغ ٢٧٣٠٥١٣٤ رطلا ومقدار ما دفع عليه من المكس ٤٣٦٥٢٣٣ ليرة
وعدد من ثقفوا من مدخلي الصنف المذكور من دون مكس ٢١١٥ وفي سنة
١٨٥٠ بلغ المجموع منه نحو ٤٣٥٠٠٠٠ رطل واما اسم التبغ فيقال انه
منقول عن اسم اقليم في اسبانيا الجديدة بامريكا واول ما علم امره كان في سنة
١٦٩٤ وفي سنة ١٧٢٠ استعملته الاسبانيول في يوكاتان واكثروا منه وفي
سنة ١٥٦٥ جلب الى بلاد الانكليز فكان يصنع فيها اولاجل ارساله الى
الخارج وفي سنة ١٥٨٤ شهر استعماله في ازلتون ثم منع وفي سنة ١٦١٤
ضرب عليه اداء على كل رطل نحو سبعة شلينات وفي عهد شارلس الثاني منع
تربيته وغرسه ثم ابيح • ومن ذلك المالك العام اي الوسطة بني من سنة ١٨٢٥
الى ٢٩ يبلغ عدد المستخدمين فيه ٢٠٠٠ و عدد المستخدمين في ضواحي لندرة ١٢٠٠
وبلغ

وبلغ الصافي من ايراده في سنة ٥٦ ١٨١٩٤٣٩٨ ليرة (١) وبلغ مصروف المحل ١٨١٥٠٧٢٠ منها للجامعات ٩٤٨٥٧٣ وللمرتب ٢٩٣٦٧ وللبناء ٤٢٢٩٤٣ ولارسال المالك (المكاتب) في سكك الحديد ١٦٧٨٢٣ ولارسالها في عجلات ونحوها ١٢٢٩٨ وبلغت كمية المكاتب التي سلمت لاصحابها في بريطانيا في سنة ٥٧ ٥٠٤٠٠٠٠٠٠ فيكون لكل واحد نحو ١٧ والمحسوب ان كل واحد في انكلترا يتسلم ٢١ رسالة وفي سسكوولاند وفي ارلانند ٧ وفي سنة ٥٦ بلغ عدد الجرائد التي سلمت فيها في بريطانيا ٧١٠٠٠٠٠٠٠ وصدر منها حوالات بمبلغ ٦٣٨٩٧٠٢ قيمتها ١٢١٨٠٢٧٢٢ ليرة وعدد مراكز البوسطة في المملكة كلها يبلغ ١٨٦٦ منها ٨٤٥ اصول والباقي فروع وفي لندن وحدها يوضع في كل يوم نحو ٥٠٠٠٠٠ رسالة . قال بعضهم وما يفرق الآن من الرسائل في مسافة ١٢ ميلا حول عموم مركز البوسطة الاصلى يكون قدر ما كان يوزع منها في الزمن القديم في جميع جهات المملكة واجرة المستخدمين في بوسطة صتعم لندرة تبلغ في الاسبوع ١٥٠٠٠ ليرة وعدد المباشرين لهذه المصلحة العظيمة في المملكة كلها سنة ٥٧ وذلك ما بين رؤساء ونظار ومباشرين وكتاب وحالين وخدمة ٢٣٧٣١ منهم ١١٠١ مديرون و ١٦١٠ كتاب و ٢٠٥ حراس و ١٠٥٨٢ لتبليغ الرسائل وغير ذلك قال والمحسوب انه من كل ٢٠٠ رسالة ترجع واحدة الى مرسلها لعدم العلم بمقر المرسل اليه فاذا وقع امر مثل هذا ابقيت الرسالة في المحل وفي العام الماضي كان من هذه الرسائل نحو ٧٠٠٠٠٠٠٠ قال وجلة الرسائل التي سلمت في الروسية في سنة ١٨٥٥ بلغت ١٦٤٠٠٠٠٠٠ وهو نحو القدر الذي سلم في مدينة منسستر وضواحيها فقط وجلة الرسائل التي فرقت في فرنسا في سنة ١٨٤٧ بلغت ١٢٧٤٨٠٠٠٠٠ وفي سنة ٥٦ ٢٥١٩٩٦٧٠٠ ما عدا ٢٨٦٧٩٠٤ رسالات بقيت في البوسطة لعدم بيان عنوانها وعدد المستخدمين في بوسطة هذه المملكة

(١) بلغ ايراد نظارة بوسطة انكلترا في سنة ١٨٨٠ ازيد من ٦٠٠٠٠٠٠٠ ليرة والمصاريف بلغت ٣٠٠٠٠٠٠ ليرة

اي فرنسا ٨١٥ر٢٥ نفسا • واول من رتب البريد لويس الحادى عشر ملك فرنسا ولكن ليس على هذا المتوال الذى نراه الآن وانما كانت الكتب تبلغ الى اصحابها على يد رسل من الملك من بلد الى آخر وبقى هذا الترتيب مجهولا عند غيره من الملوك مدة طويلة وهو الذى عدل الميران والكيل واول من نعت بنعت ماجستى اى عظمة واول من اخترع هذا الطابع الذى يلصق بالرسائل رجل من اهل السويد اسمه تريكنبر وذلك فى سنة ١٨٢٢ وبقى اهل هذه البلاد الى القرن الحادى عشر خالين عن المعارف وكان دأبهم التنقل والترحل الى البلاد الاجنبية • وفى لندرة ٢٦ منتدى ويقال لها الكلوب وهى ديار رحبية يجتمع فيها اغنياء الانكليز للذاكرة والمعاملة والمطالعة والاكل والشرب منها ما يجتمع فيه ٣٠٠ ومنها ١٠٠٠ واكثر ولا يدخل فيها احد الا بشهادة بعض من اهلها واداء الدخول من ٩ ليرات الى ٣٢ ليرة وفى كل سنة يدفعون ايضا شيئا لمصاريف خدمتها وفرشها وانوارها وذلك من خمس ليرات الى اثنتى عشرة ليرة وكلها حديثة عهد بالبناء وهذه المحال لا يدخلها النساء واذا رضى احد من اهل هذه المواضع عن احد من الغرياء ادخله فى زمرتها اكراما له • وفيها عدة كنائس عظام اقدمها وستينسرابى كانت فى الاصل ديرا للرهبان البانديكتيين اسست فى سنة ٦١٦ ثم وسعت وجددت وفيها تتوج ملوك الانكليز وملكاتهم من عهد ادورد الماتب المعترف الى عهد الملكة فكتوريا وقد جلست على الكرسي الذى تتوج عليه الملوك وهو كرسي عال قديم مغشى بالجلاد ككراسى الكنائس والاديار فى الزمن القديم خال عن الزخرفة مطلقا وكثير من ملوك الانكليز واعيانهم وعلمائهم قد دفنوا فى هذه الكنيسة من جملتهم هنرى الثالث ومارى ملكة سكوتلاند وكنكراف الشاعر صنع له قبر فبلغت نفقته عشرة آلاف ليرة صرفت من هانرته زوجة الدوك اودتشس مالبولور وفيها قبر لسراسحاق نيوطون كلف خمسمائة ليرة وآخر لشكسبير ولما سئل يوب الشاعر ان يكتب تأييده كتب ما ترجمته هكذا « اهل بريتانيا يحبوننى ويحفظون صيتى سالما عن اسم بربر او بنصون » يعنى ان هذين الرجلين كانا لا يحسنان الرثاء والتأيين مع كونهما كانا متعارضين له • ومن ذلك كنيسة صان پول اى مار بولس وقد تقدم ذكرها اول جرح وضع فى اساسها كان فى سنة ١٦٧٥ وآخر جرح فى سنة ١٧١٠ وذلك بعد ٣٥ سنة فى عهد اسقف واحد

واحد وبلغت نفقتها ٧٤٧٩٥٤ ليرة و ٢ شلين و ٩ بنس جمعت من مكس جعل على الفحم ولذلك يقال انها تزلت بلباس اسود كما نراها الآن • قلت بل جميع مباني لندرة متردية بهذا الرياش حتى ان مجلس المشورة مع كون البناء فيه متواصلا ينظر الناظر قد مضى عليه احقاب من الدهر قال وشكلها على شكل صليب لاتيني وطولها من الشرق الى الغرب ٥٠٠ قدم وعرضها ١٠٠ وطول صومعتها ٢٢٢ قدما وارتفاعها من الخضيض الى ذروة الصليب ٤٠٤ اقدام وعدد قضبان درابزينها المحيطة بها ٢٥٠٠ بلغت نفقتها ١١٢٠٢ ليرة ونصف شلين ودورتها ثلاثة ارباع ميل • قلت جميع التريعات والحدائق والغياض بلندرة ومعظم الديار محاطة بدرايزين من حديد لعل ثمنها يوازي ثمن مدينة باسرها • وداخل الكنيسة مبلط بالرخام الاسود والابيض وسقفها عقد من دون زخرفة ولها قبة عظيمة دورتها من داخل ٣١٦ قدما واذا طلعت الى اعلاها من داخل الكنيسة خطوات ٦١٦ درجة ومن شان هذه القبة انه اذا وقف رجل في جهة منها ووقف آخر في جهته المقابلة واسر اليه كلاما بان يضع يده على حائط القبة سمعه الآخر وفي داخل الكنيسة تماثيل الملوك والمشاهير من الانكليز وابطالهم عندها تماثيل ملائكة بصورة نساء يقدمون لهم الاكالييل اشارة الى انهم ماتوا في سبيل الله وثم ايضا تماثيل نساء بارزة نهودها ولها اربعة ابواب في كل جهة باب وقدام الباب الاكبر ١٢ عمودا من اسفل و ٨ في الطبقة الثانية ولكل من الباقي ٤ اعمدة ولها قبتان متقابلتان في كل منها ساعة دقاقة وفي يوم معلوم من السنة يهيئون موضعا فيها لترتيل الاولاد تبلغ نفقته ٣٠٠ ليرة وفي اليوم الثاني يزاح وهذه الكنيسة هي اكبر كنيسة للبروتستانت في الدنيا ودون كنيسة رومية وهي تشبه بعض الملاحى في انها لا تفتح الا في ساعة معلومة من النهار ولا يمكن رؤية جميع ما فيها الا باداء نحو خمسة شلينات • وايراد رئيس اساقفة كنتربورى في السنة ٢٥٠٠ ليرة وايراد رئيس اساقفة يورك ١٥٠٠٠ وليس لمطران باريس من الايراد ثلث ما لمطران لندرة وجلة ما يصرف على الكنائس نحو ٥٠٠٠٠ ليرة وايراد اسقف لندرة في السنة ١٥٠٠٠ ليرة ولكن خليفته يكون له ١٠٠٠٠ فقط وايراد باقى الاساقفة من ٤٠٠٠ ليرة فصاعدا فهم بمثابة وزراء الدولة فان سنوية اول لورد في ديوان نظارة البحرية ٥٠٠٠ ليرة ثم انه كما ان هؤلاء الرعاة المتبتلين الى الله

تعالى ماثلوا الوزراء والامراء في اخذ الارزاق والوظائف كذلك ماثلوهم في
الرفعة والشان والانفراد عن الرعية فان مواجهة رئيس اساقفة الانكليز اصعب
من مواجهة البرنس البرت زوج الملكة وقد اضطرت مرة الى ان اكتب اليه في
امر ما فورد الجواب منه في رقعة قدر نصف الكف وكان خطابه بضمير الغائب
ونفي فيه ما لم يكن محله النفي احترازا من ان اكلفه بخطاب آخر ولكن اى لوم عليه
اذ لم يجاب احدا لان رئيس الكنيسة الذي اراده ٢٥٠٠٠ ليرة في السنة ليس
عليه ان يجاب من ليس له صلدى واحد من كل ليرة تدخل خزائنه الرسولية وقد
كان الخورى ميخائيل شاهيات حضر الى هذا الطرف وكتب ثلاث رسائل احداها
الى البرنس البرت والثانية الى اللورد پلمستون والثالثة الى المطران المسار اليه
بجاءه الجواب من الاولين ومن الاخير لم يرد سلب ولا ايجاب واقسم لو ان
يهوديا غنيا من امستردام وفد عليه في عاجلة ورواى لاحتفل به واكرمه غاية
الاکرام ولكن ليت شعري ما معنى كلام من قال اما الذين يرومون الغنى
فانهم يقعون في المحنة والفخ وفي شهوات كثيرة سقيمة ضارة تفرق الناس
في العطب والهلاك لان حب المال اصل كل شر وهو الذى اشتهاه قوم فضلوا
عن الايمان وطعنوا انفسهم برزايا كثيرة فاما انت يا رجل الله فاهرب من هذه
الاشياء واقف البر والتقوى والايمان والمحبة الخ وقال ايضا من حيث ان لنا
القوت والكسوة فلنقتنع بهما اما التقوى مع القناعة فانها مكسب عظيم
ورب معترض هنا يقول ان الكنيسة الآن ليست كالكنيسة في مبدأ النصرانية
اذ لم يكن للنصارى وقتئذ دولة ولا سطوة فاما الآن فان عزها يرجع الى عز
الدولة وان رئيس الاساقفة الآن يلزمه ان يكون من اهل مجلس المشورة وان
يزور الوزراء ويكون مزورا منهم و ان يصنع ما ادب للاعيان ويتكلف
نفقات كثيرة فلا بد له والحالة هذه من رزق وافر يجرى عليه ومن صرح وعاجلة
وخدم و اواني فضة ونفيس اثاث * قلت اذا كان الاسقف تزوره ارباب الدولة
وتدعوه الى الولائم مع اقتصاد حاله او بالحرى مع تقشفه كان ذلك ادعى الى
كرامته وتعظيمه فاما تكلفه للنفقات والولائم وغير ذلك فانه شاغل له عن اداء
ما يجب عليه من تعهد الرعية وتفقد احوالهم وهذا هو اصل معنى الاسقف
فان قيل ان امور الكنيسة الآن قد استتبت وانتظمت فلم يبق حاجة الى تكليف
الاسقف

الاسقف اورئيس الاساقفة النظر فيها والتعهد لها قلت اذن هو اقرار على انفسهم بعدم لزومهم على اتي لا تعرض لمثل هذه المسائل فان لكل كنيسة اساقفة ومطارنة وحيث ان امامهم قد ذكر اسم الاسقف فلا بد من وجود سماء ولكن ارى شيئا على من يعير غيره شيئا وهو متباس به فان الانكليز ينسبون الكنائس الشرقية الى العظمة والتبذخ والسرف والشطط مع ان رؤية بطاركة انطاكية ممكنة لكل احد ولا يخفى ان انطاكية في الدين اشرف من لندرة • ومن المباني العظيمة بيت الهند اى بيت الجماعة التى بيدها تدبير مملكة الهند بنى فى سنة ١٧٩٩ وفى سنة ١٨٣٣ حصل فيه تغييرات جمة وحينئذ صدر امر من مجلس المشورة باقرارها على حالها وفيه متحف واصنام من فضة وذهب جلبت من تلك البلاد وكتب وسلاح ودنانير وغير ذلك ونقلت من بعض الكتب ان جمعية الهند استتبت للتجارة فى تلك البلاد سنة ١٦٠٠ ثم صارت تاجرة ومحاربة معا فطردت الجمعية الفرنسية وذلك سنة ١٧٥٠ حتى تغلبت على اكثر البلاد وقال آخر ان اول سعى ابدته الانكليز فيما يخص الهند كان تجهيز ثلاث سفائن وذلك فى سنة ١٥٩١ ولكن لم يصل منها الا واحدة فقط وبعد سفر ثلاث سنين رجع الربان فى سفينة اخرى لان الملاحين غلبوه على سفينته فلما ان رجع اخبر الاهلين بما جرى له وبما رأى فجد بهم الحرص لارسال سفن اخرى تجارية وتم انعقاد ذلك فى سنة ١٦٠٠ فجمعوا ٧٢٠٠٠ ليرة جهزوا بها اربعة مراكب ونالوا اربهم واستمروا يتجارون ويتاجرون هكذا وفى سنة ١٦٩٨ عقدت جمعية اخرى ثم التحمت مع الاولى فصارتا جمعية واحدة وذلك فى سنة ١٧٠٢ ثم بنى بيت الهند فى سنة ١٧٢٦ وفى سنة ١٧٩٩ وسع وكبر وفى سنة ١٧٨٤ استقر ديوان جماعة الهنداة • قال فلتير ان براهمة هذا العصر ما زالوا على مذهب اسلافهم الذميم من اغراء النساء باحراق انفسهن بعد موت بعولتهن والعجب ان هؤلاء الناس الذين لا يستحلون دم الانسان او البهيمة يرون ان ابر الناسك هو احراق نسائهم ولكن هذا شان الوسوس والاضاليل ابدانأتى بافعال متناقضة ومن زعمهم انهم يقولون ان برهام هو ابن الله نزل الى الارض واتخذ ازواجا كثيرة فلما مات تطوعت احب ازواجه له الى ان تحرق نفسها رجاء ان تلحقه فى نعيم

السماء ومذ ذلك الوقت سرت هذه العادة السمجة ولكن ليت شعري كيف يتأتى للنساء ان يعرفن بعولتهن وقد صار بعضهم خيلا وبعضهم فيلة وبعضهم يوما وكيف يمكن لهن ان يميزن الحيوان الذي دخل فيه روح الميت غير ان هذا الاشكال لا يعسر على هؤلاء الكهان فان الناسخ عندهم انما يكون للعادة فقط فاما ارواح الخاصة فمن حيث انها كانت من جملة الملائكة الذين مردوا فلا بد من انها تسعى في التقى والتطهر وكذا ارواح النساء اللاتي احرقن انفسهن تنعم بالنعيم السماوى حتى يحذن بعولتهن على حال الطهارة والغبطة وهذا المذهب القبيح قد عرف عندهم منذ اربعة آلاف سنة مع كونهم قوما ودعاء لا يتجرأون على قتل الجرادة ولكن لا يمكنهم ان يجبروا الارملة على الاحتراق لان سر الشريعة انما هو ان تتقدم المرأة الى ذلك عن طيب نفس والتي تكون اقدم عند زوجها لها ان تأبى الاحتراق وكذا التي بعدها الى الاخيرة ويحكى ان سبع عشرة امرأة دخلن النار مرة بعد موت رجل واحد وكان من الرجة ثم من بعد استيلاء المسلمين على بعض بلادهم قل استعمال هذه العادة ثم قلت ايضا بمخالطة الافرنج لهم الا ان هذا المنظر السيئ المحزن قل ان فات واحدا من حكام مدراس وينديكرى فقد قال مسترهلول ان ارملة لم يزد سنها على تسع عشرة سنة احرقت نفسها برأى من زوجة الاميرال رسل وكانت بديعة في الحسن ولها ثلاثة اولاد ولم تلن لدموع الباكين عليها ولم تقبل طلبتهم فاقسمت عليها الست المذكورة لتعدلن عما نوته شفقة على اولادها فا كان منها الا ان قالت ان الله الذي خلقهم لا يتركهم ثم شرعت في تضديد الحطب بيديها فلما احتدمت النار دخلت فيها حتى احترقت وهي صابرة متجلدة ورأى احد الانكليز مرة اخرى فتاة حسناء سائرة الى النار فلما كادت تضرمها اجتذبها قسرا وساعده على ذلك بعض اصحابه ثم سار بها الى منزله وتزوجها فكان ذلك عند الهنود بمنزلة انتهاك المحارم ولكنى اقول ما بال الرجال لا يحرقون انفسهم ليحتموا بازواجهم ولم وقعت هذه القرعة على هذا الجنس الضعيف الهيرب أفكان ذلك لان الرواية لم تذكر ان بعض الرجال تزوج ابنة برهام بل ذكرت ان برهام تزوج امرأة هندية نعم ان قدماء البراهمة كانوا يحرقون انفسهم ولكن انما كان ذلك ليتخلصوا من مضض الهرم وطوله بل بالحرى

من خلاصة اخرى ان عدد ضباط الانكليز فيها يبلغ ٢٤٩ر٥ وعدد عساكر الانكليز وغيرهم من الافرنج ٤٣١٤٩ر٤ وعدد عساكر الالهين ومن جلاتهم الشرطة ٢٨٨ر٥٩٦ واذا اضيف اليهم عدد العساكر القائمة التي جرى عليها شروط بين الالهين والدولة يبلغ العدد ٣٩٧ر٩١٨ وفي الجملة فكل عسكري واحد من الانكليز خمسة عشر من الهنود • ونقلت من صحف الاخبار ان عدد من دخل في طاعة دولة الانكليز من الهند وما يليها بلغ ١٦٣ر٠٠٠ر٠٠٠ من النفوس وجميع ما فيها من الانكليز ٥٠ر٠٠٠ منهم ٣٠ر٠٠ في الخدمة العسكرية والعساكر المستخدمة في دولة الهند تنيف على ٢٠ر٠٠٠ وقد زادوا الآن بسبب الغيرة من دولة الروسية في سنة ١٨٢٧ بلغوا ٣٠٠ر٠٠٠ منهم ١٥٧٨٢ مدافعية و ٢٦ر٠٩٤ من فرسان من الهنود و ٢٣٤ر٤١٢ من المشاة منهم ايضا و ٤ر٥٧٥ مهندسا وعدد العسكر المالكى ٢١٩٣٤ فجملة ذلك ٣٠٢ر٧٩٧ وان اراد دولة الهند يبلغ في السنة نحو ١٥٠ر٠٠٠ر٠٠٠ ليرة (١) وكل عسكري يبعث من انكلترة الى هناك يكلف الدولة خمسمائة ريال وان جميع ادوات الحرب وجهاز العسكر تصنع في انكلترة وترسل الى تلك البلاد وان حاكم الهند له في السنة ٢٥٠ر٠٠٠ رويية ولكل من اهل ديوان المشورة ١٠٠ر٠٠٠ وللقاضى ٢٥٠ر٠٠٠ ولكل من كتاب الديوان ٢٥٠ر٠٠٠ ومثلها لناظر الملح اه • ومن العجب ان اهل هذه الدار الذين يحكمون على هذه المبالغ من الناس والبلاد والعساكر ليس يباليون بان يعينوا عسكريا واحدا امام الباب كما يفعل لساثر الدواوين الميرية ولو كانت هذه الدار في باريس لكنت ترى عندها جوقا من العسكر يحرسونها ليلا ونهارا • وفي اخبار العالم ان اراد الدولة من الهند يبلغ ١٦ر٠٠٠ر٠٠٠ ومصاريف العساكر تبلغ ١٠ر٠٠٠ر٠٠٠ وقدرهم نحو ٢٥٠ر٠٠٠ وان دولة الانكليز متسلطة الآن على بر واحد وعلى ١٠٠ جزيرة متصلة بالارض و ٥٠٠ قب او رأس و ١ر٠٠٠ بحيرة و ٢ر٠٠٠ نهر و ١٠ر٠٠٠ بضيع اى جزيرة غير متصلة بالارض واذا اضطرت

(١) في سنة ١٨٧٩ بلغ اراد الهند ٦٥٩٢ر١٩٩ر٦٥ ليرة والمصروف يبلغ ٦٣١٦٣ر٣٥٦

الى الحرب جهزت ٥٠٠.٠٠٠ عسكرى و ١٠٠٠ سفينة حربية و ١٠٠.٠٠٠ بحرى وان دول الاثوريين والرومانيين والفرس والعرب وقرطاجنة واسپانيا لم تحصل على هذا العز والبسطة والسعة وانه ليس من اذيلة او اسكندر المقدونى او ناپوليون او تيمور او هلاكو من بلغ ما بلغت اليه من الفخر والسطوة • قلت فى سنة ١٨٥٠ بلغت البواخر المختصة ببلاد الانكليز و ارلان و سكوتلان ١٨١١ سفينة وفى سنة ١٨٥٢ بلغ جملة ما دون منها فى مراسى تلك البلاد كلها ١٢٢٧ سفينة (١) ثم ان اول من فكر فى استنباط اداة لاصعاد الماء بواسطة النار كان مريكير ورسستر وذلك فى سنة ١٦٦٣ وهو الذى ينسب اليه ايجاد تبليغ الاخبار من بلد الى بلد بواسطة خارجية و لكن الظاهر ان فكره هذا لم يهم اهل عصره لان يتعلموا بالاسباب الموصلة اليه وقال آخر لاشك فى ان مريكير ورسستر هو مخترع آلة البخار وذلك فى زمن شارلس الاول وفى سنة ١٦٦٣ الف كتابا سماه عصر الاختراع وذكر فيه استنباطات عديدة على سبيل الاختصار والغموض الا ان اهل عصره لم يبالوا بذلك وكذلك ذكر بالتدقيق بعضا من مخترعاته واول تجربة اجراها كانت فى مدفع وذلك بان ملأ نحو ثلاثة ارباعه ماء ثم سد خرقه وفعه ثم ادناه من النار اربعا وعشرين ساعة فانطلق بدفع شديد فدلله ذلك على ان قوة البخار هي اعظم مما يدركه الانسان وروى عنه انه قال قد جعلت الماء ينبعث من الجدول ارتفاع اربعين قدما والانى الذى فيه بخار يرفع اربعين اناء ملئت ماء باردا الا ان الناس لم ينتبهوا لذلك الا فى آخر ذلك القرن ثم اخترع القبطان صفرى آلة لرفع الماء فى سنة ١٦٩٣ فهذان الرجلان هما المخترعان لهذه الطريقة وقد نسبت الفرنسيس استنباط ذلك الى احد فلاسفتهم المسمى دكطر بايان وذلك سنة ١٦٩٥ والحق ان عملية لم تجر عندهم الا بعد مدة طويلة واول ما اجريت عملية القبطان المذكور كان فى معادن كورنوال ثم قام مسترنيوكومن ومستر كين فترجرا دوهودن بلور ووط وبلاطون وبعد

(١) فى سنة ١٨٧٩ بلغ عدد السفن الشراعية فى انكلترة باسرها ٢٠٥٣٨ وبلغ عدد بوأخرها ٥٠٢٧ باخرة

ذلك قام القبطان شالك فانشأ سفينة لتسافر الى كندة في مدة حرب الامير كانيين
 ونجح وفي سنة ١٦٨١ اخترع پاين آلة من هذا القبيل ثم قام صفرى فصنع اداة
 لاصعاد الماء وذلك سنة ١٦٩٨ وفي سنة ١٧٨١ اخترع واط السكوتلاندى آلة
 مزوجة ثم قام غيرهم كثيرون وكل منهم زاد شيئا او اتقن آلة وقال الفاضل
 لارندر انه يمكن اصعاد البخار من طاستى ماء باوقيتين من الفحم وفي حال تبخيرها
 تكثر فتصير ٢١٦ كالونا من البخار فيمكن والحالة هذه ان ترفع بقوة
 آلة معها سبعة وثلاثين طنلته ارتفاع قدم واحد • ويقال ان جملة القطع التى
 تركب فى آلة النار تبلغ ٤١٦ رة قطعة • واول تجربه عملت على نهر التامس
 كانت فى سنة ١٨٠١ • واول باخرة انشئت فى انكلترة كانت فى سنة ١٨١٥
 وفى ارلاند سنة ١٨٢٠ • واول باخرة سافرت الى بلاد الهند كانت فى سنة ١٨٢٥
 وكان انشاء البواخر الحربية فى انكلترة سنة ١٨٣٣ • واعلم ان اول من
 عرف فن الابحار اى ركوب البحر هم اهل فينيقية وذلك منذ سنة ١٥٠٠ قبل
 الميلاد • واول سفر طويل عرف منهم كان سفرهم الى افريقية وذلك سنة
 ٦٠٤ قبل التاريخ المذكور ثم عرف فى الاسكندرية الى ان صار كانه من خصائص
 الرومانيين ثم عبر من اهل فينيسيا وجينوى الى اهل البورتغال واسپانيا ومنهم
 الى انكلترة وهولاند ولم يكن اليونانيون يعرفون الابحار فى بحارهم الضيقة الا
 على الطوف وهو عبارة عن خشبات يسند بعضها الى بعض الى ان عرفوا
 ركوب البحر فى السفائن من داناوس المصرى حين قدم عليهم هاربا من اخيه
 راماسيس وذلك سنة ١٤٨٥ قبل الميلاد • وهذا الطوف الذى يستعمله النوتيون
 الآن هو دون ما كان يستعمله اليونانيون فان ذاك كان مجعولا بحيث يمكن تدبيره
 وادارته عند هيجان البحر واول ما عرف للانكلير مراكب حربية ملكية مرتبة تحت
 ديوان معين كان فى عهد هنرى الثامن سنة ١٥١٢ وكانت عدة البوارج فى
 زمان الملكة اليصابت ثمانيا وعشرين وفى سنة ١٨١٤ كان لبريتانيا الكبرى
 تسعمائة سفينة وفى سنة ١٨٣٠ كان لها ٦٢١ سفينة وفى سنة ١٨٤١ كان مجموع
 سفاتها الكبيرة والصغيرة ١٨٣ وفى سنة ١٨٥٠ بلغت مراكب الانكلير
 الملكية ٥٠٠ من جلتها ١٦١ باخرة وفى سنة ١٨٥٤ زاد هذا القدر
 فبلغ ٥٢٦ ما عدا سفائن اخرى كانت تستعمل فى مصالح اخرى وفى
 سنة ١٨٥٤

سنة ١٨٥٥ بلغ مجموعها ٦٠٢ • وعدد ما اتلفت او غنمت من السفائن في فتنة الفرنسيين الى غاية سنة ١٨٠٢ كان ٣٤١ من سفن الفرنسيين ومن سفن هولاند ٨٩ ومن سفن اسبانيا ٨٦ ومن دول اخرى ٢٥ بجملتها ٥٤١ سفينة • وعدد ما اتلفت او غنمت في حربها مع دولة فرنسا الى غاية سنة ١٨١٤ كان ٥٦٩ سفينة منها ٣٤٢ لفرنسا و ١٢٧ لاسبانيا و ٦٤ لهولاند و ١٧ للروسية و ١٩ للاميريكانيين فمجموع ذلك كله ١١٠١ سفائن فاما بوارج فرنسا فيمكن ان يقال انها بلغت اعلى شانها في سنة ١٧٨١ ولكن باد كثير منها في حربها مع الانكليز وفي سنة ١٨٥٤ بلغ مجموعها ٦٩٧ منها ٤٠٧ بواخر • وفي الاحصائيات ان عدد البواخر التي انشئت من سنة ١٨٤٣ الى سنة ١٨٥٧ بلغ ١٨٠٥ سفن وفي سنة ٥٧ كان منها في خدمة البلاد ومصالح البلاد الاجنبية ٨٨٩ ومن سفن الريح ١٨٤٢٩ سفينة فاما احداث البارود فكان سنة ١٣٣٦ وذلك قبل استعمال المدافع بعشر سنين ولا يعرف محدثه وانما يظن انه من مخترعات راهب من بروسية اسمه مخائيل شوارتز • والحق انه كان معروفا عند اهل الصين من قبل تاريخ الميلاد باحساب كثيرة الا ان استعمالهم له كان للصالح لا للتدمير وذلك كتمهيد الطريق ودك التلال وحفر القنى وان يكن قد ظهر من ادوات سلاحهم ما يحقق انه مجعول له الا انه لم ينقل عنهم انهم استعملوه قط في حرب قال واول ما استعمل في الحروب فيما علمناه كان في الحرب التي وقعت بين الانكليز والفرنسيين وذلك في سنة ١٣٤٦ وقد نبغ في الانكليز عن قريب ضابط من ضباط العسكر اسمه وزير اداه الاجتهاد والتبحر الى ان اخترع شيئا يقدر به على اتلاف اى سفينة كانت من مسافة ثلاثة ارباع ميل من دون مماسة البارود اياها وقد جرب ذلك بحضرة مأمورين من طرف الدولة عند مدينة بريتون وصحت تجربته لا بل زعم انه يتلف المركب من مسافة خمسة اميال • قلت فلا يبعد اذا ما ذكره لوقيان وغالان عن ارشميديس من انه احرق مراكب الرومانيين في حصار سيراقوسة بواسطة الزجاج وذلك قبل تاريخ الميلاد بمائتين واثنى عشرة سنة • قال وقد اراد الضابط المذكور ان يبيع هذا السر للدولة لكنه اشط في الطلب فلم تشتريه منه • قال وقد نبغ ايضا شين الكيماوى من برلين في هذا الفن واحداث شيئا يفعل فعل

البارود بل اكثر وهو ان يغمس القطن في اجزاء متساوية من النظرون والكبريت ثم ينشف فياتي كالبارود في الثقل والدفع وهو اسلم عاقبة منه • وقيل انه باع هذا السر في بلاد الانكليز باربعين الف ليرة الا ان دولتي فرنسا وانكلترا ابتا استعمال القطن في البنادق بدل البارود وذلك لكثرة سخونته فان البندقية اذا ملئت منه مرات تشتد بها السخونة بحيث انها تنطلق بنفسها من قبل ان تطلق • ويقال انه استعمل ايضا نوع من النبات يسد مسد البارود • وفي سنة ١٥٤٤ استعملت فرسان الانكليز الفرد اى الطنجية • وزعم بعض ان استعمال المدافع كان في سنة ١٣٣٨ • وزعم آخر انها عرفت في حرب كرسى ولك في سنة ١٣٤٦ وقيل ان الانكليز استعملوها في حصار كالى سنة ١٣٤٧ • وقيل انها استعملت في الموضع المذكور في سنة ١٣٨٣ اه • وقال فلتير ان پرنس والس المعروف بالاسود لسواد درعد وريشته اتمصر على فيليب فلوى ملك فرنسا عند نهر سم وكان من اقوى الاسباب التى اعاتته على ذلك استعمال بعض مدافع كانت مع عسكره فان المدافع لم يشهر استعمالها قبل تلك الواقعة الا بنحو ١٢ سنة ولم يعلم من كان المخترع لها اه • قلت فيليب المشار اليه ولى الملك في سنة ١٣٢٨ • واكبر مدفع في الدنيا فيما علم مدفع نحاس صنع في بلاد الهند سنة ١٦٣٥ وفي برج في جرمانيا مدفع طوله ثمانى عشرة قدما ونصف قدم ووسع قطريه قدم ونصف ووزن كلته ١٨٠ رطلا وملؤه من البارود ٩٤ رطلا • ويعلم من نقش رسم عليه انه صنع في سنة ١٥٢٩ • وكلة المدفع الصغير تذهب مسافة ٤٠٠ يارد وابعدا تذهب اليه من ٥٠٠ الى ٦٠٠ وهو عبارة عن نصف ميل ومن المدفع الكبير من ميل ونصف الى ميلين • ومن ذلك اى من المباني العظيمة بيت ضابط البلد فى الستى ويقال له منش هوس بنى في سنة ١٧٣٩ وبلغت مصاريفه ٧١٠٠٠ ليرة وبعض اثائه من ١٠٠ سنة وبعضه من ستين وهذا الضابط تنتخبه الجماعة المنوط بها تدبير هذه المحلة في كل سنة وذلك فى التاسع من تشرين الثانى ويوم انتخابه يجعل فى الطرق حواجز لمنع مرور الحوافل وتغص المدينة بالزحام فيضغط الناس بعضهم بعضا فلا يبقى احد من اهل البطالة الا ويخرج للتفرج او بالحرى للتلرز فيخرج الضابط من الديوان المسمى كلدهال فى موكب عظيم ويجلس فى عاجلة مذهبة فاخرة تجرها ستة افراس ثمنها

ثمها في الاصل ١٠٦٥ ليرة ويصرف على زينتها في كل سنة ١٠٠ ليرة ويجلس معه رئيس المحاكم بقباء اجر وهو متقلد سيفه وشعار سلطنته وتقف في ذلك اليوم شرطة الديوان لمحافظة الطرق وتمشي صفوف شتى وهم يحملون اعلاما مختلفة وآخرون يضربون بالآلات الطرب وآخرون ينفخون في الابواق وآخرون متكئون بالدروع على منوال المجاهدين الاقدمين وتوضع امام آلات الحرب على عجلة مزينة وما تذبذبت الارض وسفينة ذات قلع تجرها ستة افراس ويسير معه اصحاب المراتب السنية والمناصب العلية وضابط البلد المعزول وعند وصولهم الى محل معلوم تلاقيه سفراء الدول ووزراء الدولة ورؤساء المحاكم واران مجلس الشورى وغيرهم من ذوى الشأن حتى اذا رجع الى مقره دعا اولئك النبلاء الى وليمة فاخرة تشتمل على ٢٦٣٧ صحن كبرى وصغيرة ولا بد من ان يوضع امامه صحن فيها نوع من السمك الصغير اشارة الى انه ضابط نهر التامس الذى هو عند الانكليز اعز من نهر كنتكا عند الهنود وعلى ذكر الوليمة يحسن هنا ايراد ما وجدته مكتوبا في اوراق تسمى تعليقات ومسائل من ان ضابط نوريش من اعمال انكلترا صنع مادبة فاخرة في عهد الملكة اليصابت سنة ١٥٦١ ودعا اليها جماعة من اعيان ذلك الصنع وكبرائه فبلغت مصاريفها ليرتين و ١٣ شلينا و ١١ بنسا كان ثمن الوزه فيها ثلث شلين وفخذ الضان ربعه وكذا ثمن الدجاجة و ١٢ بيضة و ثمن ١٦ رغيفا ثلث شلين و ثمن برميل من الجعة شلينا و ثمن ٤ ارطال من السكر سدس شلين وفواكه و لوز ٧ بنس وقس على ذلك والولائم التى يصنعها اهل السق تكون فاخرة جدا تشتمل على صحاف من الذهب والكواب من الفضة وسنوية الضابط ٨٠٠٠ ليرة ولكنه يصرف في مدة ولايته اكثر من هذا القدر و اراد تلك الجماعة ١٥٦٠٠٠ ليرة يستوردونها من ضرائب على الفهم والاسواق والديار والسماسة وهذه الجماعة ينتخبهم الاهلون الذين لهم عتار وديار ومن خصائص الضابط مدة ولايته ان يتولى امور المدينة غير معارض وقد نازع الملك جورج الرابع في هذه السلطة وحاول ابطالها غير ان الانكليز كما ذكرنا سابقا لا يحبون تغيير العادات القديمة فن تم بقى الحال كما كان واذا اتفق موت الملك في ايامه فله ان يجلس في ديوان الشورى الخاص ويوقع قبل اربابه وله ايضا ان

يفلق باب الموضع المعروف بتبل بار وهو اول خط المدينة في وجه الماسكة حين تذهب الى المدينة ولكن ليس بقصد ردها عن الدخول بل بقصد ادخالها جريا على العادة وتفصيل ذلك ان صاحب الملك اذا اراد التوجه الى المدينة يصل الى ذلك الباب فيجده مغلقا فينفخ بين يديه رجل في البوق ويقرع الباب آخر ويقع بينه وبين الضابط محاورة وكلام هنيهة ثم ينفتح الباب ويدنو الضابط من صاحب الملك ويقدم له سيف المدينة فيأخذه منه الملك ثم يعيده اليه ثم يدخل معه الضابط سائرا بركابه وهذا الباب هو مبدأ خط السبي بني في سنة ١٦٧٠ وعنده تمثال الملكة اليصابات والملك جامس الاول وكرلوس الاول وكرلوس الثاني وهو لا يفلق الا في ذلك اليوم غير ان توجه صاحب الملك الى المدينة لا يقع الا نادرا وذلك كأن يذهب الى كنيسة مار بولس ليهدي الشكر لله على قمع او ظفر بالعدو او ليفتح بناء عموميا كمدار مجتمع التجار او البنك ونحو ذلك والحاصل ان تدبير هذا الخط الذي يقال له سبي وهو عبارة عن اول ما انشئ في لندرة من الابنية والخوانيت والمحترفات مفوض بالاستقلال الى الضابط واولئك المديرين ومصاريف محكمة هذا الخط تبلغ ١٨٢ر١٢٠ ليرة في العام ومصاريف شرطته ١١٨ر١٠ ومصاريف محل فيه اسم، نيوكات ٩٢٢٣ر٩ ومصاريف الحبس فيه ٦٠٢ر٧ ومصاريف حبس المديونين ٩٥٥ر٤ ومصاريف النهر ١١٧ر٣ (١) وشعار المدينة هو سيف مار بولس وصليب مار جرجس وفي العام الماضي كان الضابط يهوديا وقيل ان الضابط الذي نصب في هذه السنة كان نفرا من العسكر ومن الغريب هنا ان الضابط يعزل في كل سنة وخدمته يبقون الى ما شاء الله وسيأتي بقية الكلام على السبي • ومن ذلك كلد هال وقد تقدم ذكره وهو ديوان احكام السبي فيه توقيع بخط شكسبير من شعراء الانكليز اشتراه المديرون بمائة وربع واربعين ليرة وبالقرب منه دار عظيمة ايضا ختم ما يصاغ من الذهب والفضة فيها الكاس التي شربت بها الملكة اليصابات عند تنويعها • ومن ذلك

(١) جميع هذه المصاريف زادت الآن اضعافا

البرج الذي يقال له تور اف لندن اى برج لندرة وهو اعظم برج فى بريتانيا وهو حصن للمدينة ومقر لصاحب الملك عند عقد هدية ونحوها وسجن للمجرمين من ارباب الدولة لا يعلم متى كان انشاؤه وانما يظن انه بنى فى سنة ١٠٧٨ فيه امتحن كاي فوكس الذى عمل على احراق مجلس المشورة على ما تقدم ذكره والملكة مريم ملكة سكوتلاند ويوحنا ملك فرنسا وكرلوس دوك اورليان وابولويس الثانى عشر والملكة انه او حنة بوليان ضرب عنقه سنة ١٥٣٦ والملكة كاترين هاورد زوجة الملك هنرى الثامن والاميرة رشفورد وسر توماس مور ورئيس الاساقفة كرايمر ورئيس الاساقفة لود وسبعة اساقفة آخرون وغير ذلك وقتل فيه هنرى الخامس وادورد الخامس وغيرهما وهو يشتمل على الدروع والسلاح التى كانت تستعمل فى الزمن القديم وعلى مدافع ثمينه من جعلتها مدفع اخذ من نابوايون الاول وكان هو قد اخذه من مالطه وهو بديع الصنعة ومدفعان عظيمان اخذا من البلاد الاسلاميه طول كل ٢٣ شبرا وفيه دروع جامس الاول وهنرى الرابع وادورد الرابع والملكة اليصابت وغيرهم وتاج يقال له تاج صانت ادورد صنع لتويج كرلوس الثانى ثم توارثته جميع الملوك من بعده وهو التاج الذى يضعه رئيس الاساقفة على رأس صاحب الملك عند المذبح وفيه ايضا تاج جديد صنع للملكه وهو نحو طربوش من فخل احمر يحيط به اطار من فضة مرصع بالالماس زنته رطل و ثلاثة ارباع وفى التاج ياقوتة غير مجلوة يقال انها كانت فى تاج الملك ادورد الملقب بالاسود وقيمة التاج كله ١١١٩٠٠ ليرة وفيه تاج لامير والس من ذهب غير مرصع بالجواهر وآخر لزوج الملكة مرصع بالالماس والدر وغيرهما من الجواهر وفيه صولجان يسمى صولجان العدل او صولجان الحمامة لان فيه حمامة وطوله ثلاث اقدام وسبع اصابع وهو من ذهب مرصع بالالماس وغيره وآخر للملكة عليه صليب بديع الصنعة مرصع بالالماس وآخر يسمى صولجان الملك عليه تفاحة مرصعة بالياقوت والزمرد والالماس طوله قدما وتسع اصابع وفيه صليب من ذهب مرصع بالجواهر المتنوعة وآخر يسمى قضيب صانت ادورد من ذهب مطرق طوله اربع اقدام وسبع اصابع فى اعلاه دائرة وصليب ويقال ان فى الدائرة قطعة من صليب المسيح وفيه ايضا سيوف العدل الكنائسية

والمدنية وركب (جمع ركاب) من ذهب تستعمل يوم تتويج الملك او الملكة ووعاء للماء المبارك في شكل نسر وملعقة من ذهب للمناولة يوم التتويج وطست من فضه مذهب يستعمل يوم معمودية ولد صاحب الملك وغير ذلك من التحف مما يطول شرحه وقيمه ما فيه من السلاح بلغت في سنة ١٩٠٣ ر ٦٤٠ ليرة • قلت لما رأيت هذا الموضع اخبرني الدليل بان الياقوتة الحمراء التي في مقدم تاج الملكة وهي نحو البيضة الصغيرة تساوي ٥٠٠٠٠ ليرة وثمن الياج كله مليون وثمان مائة الف ليرة والله اعلم • وقد جرت العادة بان تاج الملكة يودع في هذا الحصن وعند الحاجة اليه يؤخذ منه ثم يرد اليه وقد سرق مرة مع سائر الجواهر وذلك سنة ١٦٧٨ وأعجب من جميع ما ذكرت ان هذا البرج الاميري الملكي التاجي لا يمكن رؤيته الا بعد اداء شلن • وفي لندرة اربعة قصور لصاحب الملك اعظمها وهو الذي تسكنه الملكة الآن في الشتاء القصر المسمى باكنهام في اسطبله عاجلة لها تساوي نحو ثمانية آلاف ليرة وطول حديقته القصر ٣٤٥ قدما قال فيه بعضهم قد لزم لترميمه وتصليحه ٥٠٠٠٠ ليرة مع انه لا يصلح لسكنى الملوك وبني فيه قنطرة من رخام صرف فيها ثمانون الف ليرة مع انه لا يمكن ابقاؤها حيث هي وقبلا صرف على القصر ٧٦٣٢٢٦ ليرة ما عدا ما لزم له من الفرش والاثاث وكان يمكن ان ينشأ بهذا المبلغ قصر جديد فاخر خير من هذا القصر الذي ان هو الا عبارة عن مواضع ملفقة وبعد ان صرف ذلك المبلغ المذكور على القنطرة لزم الآن صرف مبلغ عظيم والله يعلم الى اين وصرف ايضا على قصرها الذي تسكنه في الصيف في ونصروهو على مسافة نحو اربع ساعات من لندره ١٠٠٠٠ ليرة وذلك لاجراء الماء اليه وثاني مرة صرف عليه ٦٥٠٠ ليرة لوقايته من النار وقد تبين من دفاتر المصروف انه من سنة ١٨٢٥ الى سنة ١٨٣١ بلغ المصروف على هذا القصر ١٨٤٩٨٥١٦ ليرة فاذا اضفتها الى المبلغ اللازم الآن بلغت جملة ذلك ١٨٥١٥٠٠٠ ليرة ما عدا ما يصرف على الغياض والشجر الملحقة به وبلغ مصروف الاثاث ٢١٦٠٠٠ ومصروف التحف ٣٠٠٠ قال فهذان مليونان صرفا على قصرين هما سخرة وهزء لاهل اوربا

أوربا جميعا ويقال انه يصرف في السنة على ترميم القصور والمباني الميرية ١٧٨٠ ر ١٧٠ ليرة والقصر الثاني ويسمى قصر صان جامنص اصله مستشفى للبرص ثم صار مقرا للملك هنري الثامن ومنه تصدر الآن الاوامر الملكية وهو مبني من الآجر وما تحته طائل ونحوه الباقي * وفي تاريخ بلاد الهند انه لما مات هنري الخامس احبت زوجته الملكة كاثرين رجلا والسيا من العسكر الذين يحرسون الملك اسماء اوين تودور فتروجته سرا فهو ابوملوك الانكليز من بعده وكانت وفاتها في سنة ١٤٣٧ واول اولاده قيل له اولاد امند ارل رشموند ثم عرف باسم هنري السابع وهذه الملكة الجليلة الآن على كرسى الملك اسمها اليكساندرينا فكتوريا بنت دوك كنت ولدت في الرابع والعشرين من شهر ايار سنة ١٨١٩ ووليت الملك في العشرين من حزيران سنة ١٨٣٧ وتوجت في الثامن والعشرين منه سنة ٣٨ وتزوجت ابن عمها الپرنس البرت من صكس في العاشر من شباط سنة ١٨٤٠ ويقال انه لم يقم قبلها ملكات ثلن الملك بالاستحقاق سوى اربع وكان لاهل هنكارياراهة لتتليك النساء زائدة حتى انه حين كان يتولى عليهم ملكة كانوا يسمونها ملكا واول ملكة عرف لها الولاية في الدنيا سيميراميس ملكة اثود وذلك في سنة ٢٠١٧ قبل الميلاد وهي التي حسنت بابل وكبرتها حتى صارت اعظم مدينة في العالم والملكة فكتوريا اخلاق حيدة واحترام ليوم الاحد عظيم يحكى عنها ان بعض الوزراء ذهب الى قصرها في ونصر في ليلة السبت متأخرا وهو عندنا ليلة الاحد فعرض لها ان معه اوراقا مهمة تتوقف على مطالعتها قال ولكن لا اكلفك الليلة تصفحها فانها طويلة وقد فات الوقت ولكن في صباح غد فقالت له كيف في صباح غد وهو يوم الاحد فقال نعم فانها من مصالح الحكم قالت اجل يجب مداركتها ولكن ساتصفحها بعد الخروج من الكنيسة فلما كان الغد ذهبت الى الكنيسة وذهب الوزير ايضا فلما انقضت الصلاة قالت له كيف اعجبتك الخطبة قال لقد اعجبتني جدا فقالت لست اكرم عنك الآن اني اوعزت البارحة الى القسيس في ان يحرق الخطبة على محافظة يوم الاحد وقد سمعت ما سمعت ولكن تعال غدا في اية ساعة شئت قال في الساعة التاسعة قالت من حيث هي اوراق مهمة كما ذكرت تعال في هذه الساعة تجدني مستعدة وكان كذلك اه وهذه الساعة باعتبار ايام البلاد

هنا باكرة جدا ومن ذلك عدم الاسراف في الملابس والابهة فأنها لا تتميز به عن كرائم خوادمها واسراف الملابس منع في بلاد الانكليز في عهد ادورد الرابع سنة ١٤٦٥ ثم في عهد اليصابات في سنة ١٥٧٤ واشهر من عرف فيه سر واطر والى كانت كسوته تساوى ٦٠٠٠ ليرة وكان له دروع من الفضة وسيفه مرصع بالالماس والياقوت والدر وكان دوك باكنهام صفي الملك جامس يلبس حلة مرصعة بالالماس ترصيعا غير وثيق بحيث اذا شاء ينفضها فتلتقطها خواتين القصر ولا بأس هنا بايراد جملة من الكلام مفصلة نذكر فيها ايراد الممالك وما خصص للملوك منها فنقول ان ايراد الملكة في السنة ٣٨٠٠٠٠ ليرة ولكن لا يدخل في كيسها من ذلك كله غير ٦٠٠٠٠ ليرة والباقي يصرف في ابهة الديوان وملاهيته واذا لزم لها زيادة مصروف على القدر المذكور اخذ من الخزينة على سبيل القرض الى ايراد العام انقابل وهكذا وبلغت وظائف الحشم والخدام وحساب التجار في سنة واحدة ٣٧١٨٠٠ ليرة وبلغ المكس والضرائب والاتاوة في العام الماضي ٧١٣٤٨٠٦٦ والمصاريف ٨٨٣٠٧٤٧٧ وفي سنة ١٨٤٨ كان ايراد الدولة ٥٢٩٣٣٦٩٢ ومصروفها ٥٢٣٥٦٣٣٤٠ وخرجت خلاصة من مجلس المشورة في مبلغ ما صرف في عامي الحرب وذلك من ١٣ اذار سنة ٥٤ الى غاية اذار سنة ٥٦ مضمونها الى سنة ١٨٥٤ بلغ الايراد من جميع موارد ٦٤٠٩١٠٠٠ وبلغ المصروف ٧٠٢٣٦٠٠٠ ونقلت من كتاب آخراته في سنة ١٨٤٢ بلغ الايراد من ديوان الكبرك ٢٣٥١٥٣٧٤

ومن التبغ والمسكرات
ومن المالك اى اليوسطة
ومن اتاوة الارض
ومن اشياء متفرقة
فجملة ذلك نحو
وكانت اتاوة فرنسا على الارض
وسائر الضرائب والمكس
واتاوة الروسية

وسائر الضرائب ٣٦٦٧٠٠٠ ليرة واثناوية اوبستريا ٨٧٩٥٠٠٠
وسائر الضرائب ٧٧٠٠٠٠٠ ومن ضمن تلك المتفرقات التي وردت الى
خزينة دولة انكلترة في سنة ١٨٥٦ ما اخذ على التركات وقدره ٢٨٥٠٠٨٧٣
وعلى الخيل ٣٤٠٠٨٩٨ وعلى العقود والصكوك ١٢٢٥٠٢٣٤ وفي سنة
١٨٥٢ اخذ على نحو احد وسبعين مليون رطل من الشاي ٤٣٣٠٢٩٠٢ وفي
سنة ١٨٥١ اخذ على نحو اربعة وخمسين مليون رطل منه ٤٧١٦٤١٠٥
وبصرف في كل سنة على اشخاص مرتزقين لا عمل لهم نحو ٤٠٠٠٠٠٠
وفي بعض الاحصائيات الرسمية ان ضريبة الايراد وحده تبلغ ١٦٠٠٠٠٠٠
والمراد بالايراد هنا ما يدخل للناس من كسبهم وسعيهم وارزاقهم وكان ايراد
ديوان المكس في ايام الملكة اليصابات ٢٠٠٠٠ ليرة وفي ايام شارلس الثاني
٣٩٠٠٠٠ ليرة وكس جميع ايراد الملكة اليصابات ٦٠٠٠٠٠ ليرة وايراد
شارلس الاول ٨٠٠٠٠٠ وكان ايراد دولة الانكليز في زمان وليم الفاتح
٤٠٠٠٠٠ ليرة وفي زمان هنري الرابع ٦٤٩٧٦ وفي زمان الملكة
ماري ٤٥٠٠٠٠ وفي زمان جيمس الاول ٦٠٠٠٠ وفي زمان شارلس
الاول ٨٩٥٠٨١٩ وفي سنة ١٨٥٠ بلغ ٨٠٠٠٨١٠٠٢ وفي سنة ١٨٥٢
٣٠٠٨٧١٣٠٠ (١) قال فلتر وكانت املاك سليمان بن داود تساوي
١٢٩٥٠٠٠٠٠٠٠٠ فقد رأيت مما تقدم ان ايراد دولة انكلترة ومصاريفها
يأتي نحو ايراد دولتين او ثلاث من الدول العظام فان ايراد دولة فرنسا كان شأنه
ان لا يزيد على ٤٠٠٠٠٠٠٠٠ وايراد دولة اوستريا ١٥٠٥٠٠٠٠٠ ومصرفها

(١) منذ سنة ١٨٨٠ تغيرت احوال دول اوربا تغيرا عظيما فبلغ ايراد دولة فرنسا
في سنة ١٨٨٠ ١٢٧٠٣٩٢٠٤ ليرات انكليزية ومصاريفها بلغت ١٢٢٠٢٤٩٩٣
ليرة وهذا الايراد الوافر تسبب من كثرة الضرائب بسبب الديون التي
تحملتها دولة فرنسا بعد حربها الاخيرة مع المانيا فان هذه الحرب كلفتها
٢٨٠٥١٥١٠٣٧١ ليرة واما ايراد انكلترة فانه بلغ في السنة المذكورة ٧٩٠٧٠٣٥٧
ليرة والمصاريف بلغت ٧٣١٩٧٨٤٤ ليرة واما ايراد اوستريا فانه بلغ
٣٨٢٧٦٨٩٤ ليرة والمصاريف بلغت ٤١٨٢٣٩١ ليرة وايراد الدولة
البلية بلغ ١٦٠٠٠٠٠٠٠ وكذلك المصاريف

يزيد على ١٧٠٠٠٠٠٠٠ وايراد الدولة العلية نحو ٨٠٠٠٠٠٠٠ تقريبا الا ان كثيرا من ايراد دولة انكلترة يذهب في فائدة الدين وجلبته ٧٨٠٠٠٠٠٠ ليرة واعلم هنا انه اذا قيل ان دولة انكلترة مديونة فلا تنوهم من ذلك انها ضعيفة فان نفع هذا الدين يؤول الى رعيتهما حتى ان جل الدائنين لا يريدون استيفاء دينهم مرة واحدة لانهم ياخذون فائدته في كل سنة وهو مأمون لهم ما دامت الدولة قائمة ومعلوم ان غنى الدولة يكون من غنى رعيتهما وسعائتها من سعائتهم ولا ينبغي ان جميع الدول مديونة فدين دولة اوستريا يبلغ ١٢٠٠٠٠٠٠٠ وفائدته في كل سنة ٤٥٠٠٠٠٠٠ ودين الدولة العلية يبلغ نحو ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ ليرة ودين دولة فرنسا لعله زاد الآن عما ذكر ضعفين فاما دولة امريكا فقد كانت قبل هذه الحرب الاخيرة على غاية من الاقتصاد فكان دينها نحو ١٠٠٠٠٠٠٠٠ ليرة ثم لاثورت في الحرب ثمانت في الاسراف المشط فصار مدسروفا في كل يوم ١٠٠٠٠٠٠٠٠ ريال وبلغ دينها ٦٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ ريال (١) وهذا الدين على الدول هو من قبيل الجسام للرعية يكبحهم عن المعامع والفتن فان الدائنين الذين هم بالضرورة وجوه اهل البلاد واغنياؤها لا يرضون بانقلاب الدول مخافة ان يؤول الحكم الى الرعاع فيحرموا منه ونقلت في بعض الكتب ان ملك الانكليز وراثة والمجلس المشورة ان ينقله من عيلة الى اخرى وانه بعد ان سلع جامس الثاني نفسه عن الملك وذلك في سنة ١٦٨٨ صار الملك محصورا في الملوكة الذين على دين البروتستانت ولما لم يكن لشارلس الاول خلف نقل الملك الى نسل جامس الاول وهم من البروتستانت وهذه العيلة المستولية الآن هي من نسل صوفيا بنت ملك هنوفر والواجب على

(١) هذا بيان ديون الدول الى غاية سنة ١٨٨٠ دين فرنسا ٩٨٣٠٣٥٠٣٠٠٠٠٠ ١٦٨٦٢٢٠٠٠ فرنكا فائدتها السنوية تبلغ ٩٥٢٠٤٠٤٠٠٠ ٧٤٨٠٠٠٠ فرنكا (كل ٢٥ فرنكا عبارة عن ليرة انكليزية) - ودين دولة انكلترة ٢٣٥٠٤٤٠٠٠ ٧٧٤٠٠٠٠ ليرة انكليزية فائدتها السنوية ١٨٥٠٤٨٨٠٠٠ ٢٧٤٠٠٠٠ ليرة - ودين اوستريا ٦١٠٠٠٠ ٧٣١٠٠٠ ٢٩٨٠٠٠ ليرة انكليزية فائدتها السنوية نحو ١٠٠٠٠٠٠ ١٠٠٠٠٠٠ ليرة - ودين ايطاليا ٥٣٠٠٠ ٣٩٠٠٠ ليرة انكليزية ودين الروسية ٣٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠ ليرة انكليزية - ودين الدولة العلية نحو ٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ ليرة وقس على ذلك بقية الدول

الملك يوم تتويجه ان يحلف على محافظة ثلاثة امور ﴿ الاول ﴾ سياسته بحسب القوانين والاحكام ﴿ الثاني ﴾ اجراء الحكم بالرحمة ﴿ الثالث ﴾ اقراره مذهب الدولة وهو دين البروتستانت وللملك خصائص ومزايا ينفرد بها عن غيره بحسب ما ارتقى اليه من الشان والشرف منها ان له قدرة على ان يأذن بالحرب والصلح وان يعث من قبله سفراء الى الدول ويرضى بسفرائها وان يعفو عن ذوى الجنائيات وان يخص من شاء بالشرف والالاقاب السنية وان ينصب الحكام ويولى الوظائف العسكرية برا وبحرا لمن يراه اهلا وان يرفض ما يقدم له اهل المجلس من الدعاوى والتضاييا ليقع عليها وهو رأس الكنيسة التى عليها رجال الدولة وهو الذى يولى الدرجات والمراتب للاساقفة الا انه لا يمكنه تنفيذ هذه الامور الا على يد الوزراء فهم المطالبون بكل ما يصدر عنه من الاوامر ولهذا يقال ان الملك لا يخطئ وله ايضا خصائص اخرى منها انه لا يغرم شيئا فقد لاحد الامة وان دينه يقدم على دين غيره ولا تقام عليه دعوى ولكن لكل من الرعية حق فى ان يعرض له على يد وزيره ما يدعى به من الاملاك ولعيلة الملك ايضا مزايا امتازت بها فيحق لزوجته ان يقال لها ملكة وان يحترم مقامها ولو بعد وفاة زوجها ولها استطاعة على ان تشتري وتبيع ما تشاء باسمها وان تحيل ما يرد عليها من الدعاوى الى اى ديوان دولة شأت ولا ين الملك البكر حق من يوم ولادته ان يدعى امير والنس ومن منصبه ان يدعى دوك كورن وال وارل شستر وجميع اولاد الملك ينعتون بالنعى الملكى فيقال مثلا جنابه الملكى او حضرته الملكية • وفى لندرة ست غياض اعظمها النيزة التى يقال لها هيد بارك اى غيضة لهو وهى فسيحة عظيمة مساحتها من الارض عبارة عن ٣٨٧ فداناً باسفلها قنطرة بلغ مصر وفها ١٧٠٦٩ ليرة وباعلاها قنطرة اخرى انفق فيها ٨٠٠٠ وكانت اولاً فى غيضة صان جامس فنقلت وبلغت مصاريف نقلها ١١٠٠٠ وفى هذه الغيضة ترى كبرآها وعظماها فى احسن المركوب والملبوس والحشم وخصوصا من شهر نيسان الى تموز واكثر النبلاء يسكنون هناك • قال فينا بعض الفرنسيين صور لنفسك سهلا فسيحا ذا اشجار وبرك وحقول ومرج ترح فيه الثيران والساء سربا سربا كأنك فى اقليم دوقشير الانيق فتلك صفة هيد بارك ثم صان جامس بارك وهو المتصل

بقصر الملكة ومع ان المظنون من وضعه، وصفته ان يكون متاب ذوى الفضل
والشان فهو مجمع الخدمة والحرافيش والاولاد ثم كرين بارك وريجنيت بارك
وبارسي بارك وفكطوريا بارك وهو اخسها كما ان فكطوريا ثياطر هو اخس
الملاهي وما عدا هذه الغياض ثم حديقتان احدهما لتبيت النباتات كبستان
النباتات في باريس غير ان دخولها مقصور على اصحابها او على من يؤذن له
منهم • والثانية للحيوانات الحية واليثة والاداء على دخولها شلين وفي
ضواحي لندرة ايضا متنزعات يتابها الناس في الصيف وذلك كريتشموند وكير
وهمستد وكرافزان وهمبطون كورت واحسنها كريستل پالس في سدنام وهو
القصر الذي نقل من غيضة هيد بارك وهو يعز عن النظر • وقد حان الآن ان
اتكلم على احوال لندرة الخصوصية ممهدا لذلك بمقالة قالها بعض الفرنسيين
ثم اشرح جميع ما يتعلق بها قال « اما لندرة فان كل ما فيها انما جعل للتمتع به
داخل الديار واما باريس فان طيب عيشها انما هو في الاسواق والشوارع وان
الاولى تحير الناظر باحتنان حالاتها وبكثرة ما فيها من الدكاكين وبترفيه الاعيان
والعظماء واسرافهم وان الثانية تسحر بتفنن شؤونها واختلاف المشاهد فيها
وبما يتنعم به اهلها من العيش الذي يحكى عيش النور (الجنكة) المتنقلين من حال
الى حال وفي الجملة فان لندرة تحكى خلية العسل وباريس تحكى منهلا عذبا لكل وارد
وما احسب جود الانكليز الذي يصفهم به اهل باريس الامن هذه الحالة التي
لا تفاوت فيها اه • وقال آخر ليس في لندرة مطاعم انيقة ومحال قهوة فاخرة كما في
باريس فيلزم الغريب ان يأكل في المنزل الذي يسكنه او في بيوت الاكل
وهي عبارة عن مواضع مظلمة لا تألق في فرشها ولا في مطابخها واذا دخلت
احدها مما يتردد اليه وجوه الناس احضر لك الخادم في وقت الغداء خمس
صحاف مغطاة باغطية مفضضة فتحسب ان فيها شيئا يفتح منك اللهي فاذا كشفت
عن احدها ظهر لك الشواء ويليه البطاطة ثم الخبز على حدتهما ثم خمسة
وفي الخامسة زبدة مذابة مع آيسة الابازير واذا شئت اتفنن احضروا لك سمكا
مسلوقا اما الشراب فالجعة لانك لو اردت ان تشرب الخمر لزم ان يكون دخلك
في العام دخل امير في غيرها اه • قلت قد اشرت في وصف باريس الى بعض
ما بينها وبين لندرة من الفرق في السكنى والمعيشة والآن استوفى ذلك بناء على
ما

ما قال الفرنسيون من ان طيب العيش في لندرة انما هو داخل الابواب وفي باريس بخلاف ذلك فاقول ان اهل الاستطاعة في لندرة كالتجار وغيرهم يستأجرون بيوتا ويستقلون بها وذلك لصغرها خلافا لديار باريس فلهذا كان صاحب العيلة يؤثر النعم في بيته مع اهله على الخروج اما الغريباء الذين ينزلون في الديار فيكون لاحدهم حجرة او حجرتان فيمكنهم ان ينالوا طعامهم صباحا ومساء في منزلهم وذلك بان يشتروا لهم ما يريدون اكله، ويأمرؤا الخاتمة بطبخه، ويعطوها شيئا زهيدا في مقابلة خدمتها وذلك اولى من انهم يأكلون في المطاعم بل هو انظف وارخص وفي هذه الخطة تفضل لندرة باريس فان الغريباء في هذه لا ينزلون الا في منازل كبيرة مشاعة فيضطرون وقت الاكل الى الخروج الى احد المطاعم فان الاكل في المنازل غال جدا وهناك مزية اخرى وهي ان الزيل في لندرة يستأجر الحجرة في الاسبوع وفي باريس يستأجرها مشاهرة وان كان مياومة لزم ان يدفع الضعف ضعفين وايضا فان صاحب الدار في لندرة يعطي الزيل مفتاح داره ليتمكن ان يدخل ويخرج ايان شاء وفي باريس لا بد من قرع الباب بعد نصف الليل ليفتح له البواب غير ان الزيل في ديار لندرة لا يمكنه ان يخلو بالنساء في حجرته وفي باريس لا حرج في ذلك فان طلوع المرأة الى حجرة الزيل فيها اهون من طلوع رغيف الخبز كما ان طلوع المرأة في لندرة اليه اصعب من طلوع الفرن بناره وهذا شذوذ عن الاصل المتقدم ان قلنا بانه من طيب العيش الا ان اكثر المنازل هنا يقوم بخدمتها نساء حسان يغنين الزيل عن الخروج ولأصحاب هذه المنازل غالبا عادة ذميمة وهي انهم يستولون على مفاتيح عديدة متنوعة يفتحون بها صناديق السكان حتى اذا عاوا ان ليس في صناديقهم ما يقوم باجرة المسكن اندروهم الخروج وهناك طريقة اخرى للسكنى في كلتا المدينتين وهي ان من شاء ان يمكث طويلا يستأجر حجرة او حجرتين في دار من غير اثاث ويؤثنها كما احب وان كان يلزمه في لندرة ان يفتح الباب لقاصده وينور له في الدرج وفي باريس لا يلزمه ذلك هذا ولما كان ارباب الحكومة في لندرة لا يعنون بما فيه تحسين المدن وتنظيم ديارها كانت ديار لندرة بالنسبة الى ديار باريس حقيرة جدا اذ كل انسان يبني داره كما تقتضيه حاله فنهها ما كان مستملا على دابنتين فقط ومنها على ثلاث دابنات من دون مراعاة رونتها وخدمتها ومساواتها او يقال

ان الديار هنا كانت عرضة للغرق فكان هم صاحب الملك مجرد الانتفاع بالبناء دون الزخرفة ونهايك ان في لندرة ٢٢٦٠ دارا مشرفة على السقوط وما عدا ذلك فان من يكون قاعدا في حجرة يرى مبلطها يهتز به كلما مرت عجلة من تحتها فحاسب لندرة كلها متصورة على الحوائت فاذا رفعت نظرك ما فوقها قابلك سواد الحيطان وحجارة الطوب وتفاوت انطباعان وخساسة المداخل البارزة من السطوح من الخزف وضعة البناء وما اشبه ذلك واعظم ما يشعر الناظر بهذا ما اذا قدم من باريس فانه يرى الفرق عظيما جدا وخصوصا اذا اتفق قدومه في يوم الاحد حين تكون الحوائت مغلفة فيحسب نفسه انه في قرية صغيرة الا ان في داخل الديار هنا مرافق لا توجد في باريس منها حسن المواعد وقد سبقت الاشارة اليه وكونها مستقلة على صهاريج الماء على طايه وفي باريس يلزم الساكن ان يشتري الماء من السقائين على ردايته ومنها قلة درجها وذلك نتيجة كونها غير شاهنة ولعل صاحب العيلة اذا استأجر دارا من بابها يهشء العيش هنا اكثر مما يهشء في باريس على كثرة ما يوجد في هذه من البدائم فان الغيور على عرضه لا يهون عليه اذا كان نازلا في الدرج يخرج الى محترفه ان يرى آخر صاعدا محاررا له ولهذا تقول الانكليز ان هنا هم جوتى وان ديارهم ادعى الى السكون والهناء من ديار غيرهم واذا سكن هنا في الدار ٢ او ٣ واتفق تلاقحها في الدرج فما احد يكلم صاحبه واذا زاره اخوه او اخذ، واطالا المكث عنده الى نصف الليل فما يدعوهما الى المبيت عنده * اما قوله باحتسان حالاتها وبكثرة دكاكينها وبترفعه الاعيان والعظماء فيها فاحتسان حالاتها هو كون جميع الازمنة والامكنة فيها متساوية اما في الازمنة فليس عند الانكليز في ايام السنة كلها يوم للحظ واللاهو فلا تعرف فيها رأس السنة من ذنبيها وليس عندهم ايام للبطالة ما عدا ايام الاحاد سوى عيد الميلاد ويوم الجمعة الكبيرة ولكن يوم البطالة هنا هو يوم الانقباض والاكتئاب اذ لا ترى شيئا يفر العين فقد اسلفنا ان جميع الحوائت تكون يومئذ مغلقة ومن العجب هنا انه يؤذن اباعة التبغ في قمع دكاكينهم يوم الاحد ولا يؤذن لباعة الخبز واللحم فكان التبغ الزم للعيشة من غيره ثم لا مشابة للناس ينسبطون بهما سوى التردد على تلك الغياض وهي خالية من المطاعم والمنابر

والمشارب وآلات الطرب على قلة ما فيها من المقاعد: وهي في الغالب بعيدة عن سكنى العامة والوسط وإنما هي بمجوعة لحظ الكبرياء القاطنين في الديار النجاورة لها فإن كل شيء هنا معنى به اسم العلية وقد مرت الإشارة الى هذا نعم ان في صباح الاحد في لندرة لذة لا تقدر ولا تنظر بالنسبة الى نحس الايام الاخر وهي قلة قرعة العجلات وسائر المراكب فقد كنت احسب نفسي في صباح كل احد اني ساكن في الريف فاما في سائر الايام فان توالي هذه القرعة داهية من اعظم الدواهي فمن لم يتعود عليها لن يهتدء نوم ولا قعود ولن يمكنه ان يجمع افكاره في رأسه واذا مشى اثنان في الطريق لزم المتكلم ان يديرخ باعلى صوته لئلا يسمعه الآخر فاعوذ بالله من ذلك فاما كثرة الحوانيت فقد تقدم ذكرها في اول الكلام على لندرة وبني هناك افول انك في جميع حوانيت لندرة تجد ما يلزم للملبوس والمفروش ناجزا عتيذا فاذا دخلت مثلا حانوت اسكاف وجدت عنده عشرة آلاف زوج نعال معرضة للبيع فاخترت منها ما شئت وقس على ذلك سائر اصناف الملبوس ومن شاء ان يفرش صرحا في ثلاث ساعات وجد كل ما ينظر بهاله من الادوات والوانى ونحو ذلك حوانيت باريس فإني هذا من البلاد التي لا تجد فيها حاجتك الا بعد ان توصى عليها فاذا حضرت وجدتني على غير المراء فتغصك ذلك وافضى بك الى القيل والقال • واعظم طريق في هذه المدينة هي ريجنت سركوس ويدكر غالبا باسم ريجنت ستريت وهو على خط منحن نحو نصف دائرة طوله ١٧٣٠ ذراعا وهو يشتمل على دكاكين فاخرة بهية اكثرها مشرف بشعار الملك وذلك ان الملكة اذا اشترت شيئا من صاحب الدكان ساغ له ان يضع عليه صورة الاسد ووحيد القرن وادى الى الميرى شيئا عليه في كل سنة وتم ترى الثياب الفاخرة من كل سنن ولون ومن كل سقع ومكان وقد يكون طول لوح الزجاج في عرض الحانوت نحو ست اذرع فاكثر وعرضه نحو ذراعين فيكون العرض كله من اعلاه الى اسفله لوحين او ثلاثة وثمان اللوح نحو عشر ليرات وديار هذه الطريق مبيضة الخارج او يقال نصفها ابيض ونصفها اسود وتم ترى اجل نساء لندرة يخطرن بالديباج والثياب الفاخرة ويجررن اذيالهن على الارض جرا ولا سيما ليلة الاحد وهي ليلة السبت عندهم فاذا رأيت واحدة منهن جازمت بانها اجل

من رأيت ثم ترى اخرى فتجزم بانها اجل من تلك وهلم جرا وكذلك هن في كافن سترت وهامى ماركت والواقع ان هذه الليلة في جميع اسواق لندرة هي ليلة البهجة والتصوف والفرح وهي ابهج الليالى اما عند العلية فلعلهم ان اليوم التابل هو يوم الانقباض فينصبون فيها الى اللهو والخلاعة في جميع الاماكن المقصودة واما عند السفلة والفعلة فلكونهم يأخذون اجرتهم في مساء كل سبت فتى انصرفوا من المشاغل اقبلوا على الحانات والحوانيت لشراء مونة يوم الاحد فتري جميع الدكاكين غاصة بالرجال والنساء وكثيرا ما يتفق ان الرجل حين يقبض اجرته يذهب الى الحانة وينفقها فيها فيرجع الى اهله صفر اليدين فيقوم النار بينه وبين زوجته او ان يعطيها الزوجته فتذهب هي وتنفقها في المسكرات ففي هذه الليلة ترى النساء يتضاربن بعضهن مع بعض او مع بعولتهن او مع غيرهم وكذا شان الرجال وكثيرا ما رأيت النساء يغلبن الرجال ويمجرونهم بنواصيهم وكذلك ما ترى امرأة مشرومة الانف او مبلوقة العين او مخلوعة اليد او صرعى في الطريق من الحر والضرب كل ذلك من بركات هذه الليلة ولولا ان اصحاب الحانات مشروع عليهم ان يقفلوا حوانيتهم في نصف الليل ومن خالف ذلك يغرم خمس ليرات لبقوا وبقين على الجن والروم والجمعة الى الصباح والواقع ان العملة من الانكليز وذوى الحرف اقرب الى مزينة الكرم منهم الى البخل فانهم في تلك الليلة ينفقون انفاق من لا يخاف الفقر ويشترى قطع لحم كبيرة ويتخذون حمراء من الفسكهة وغيرها وفي يوم الاحد يشربون القهوة بفناجين مخصوصة وبالسكر الابيض المكرر وهلم جرا واما عند اصحاب الدكاكين فلعلهم ان يوم الاحد ليس فيه بيع ولا شراء فيطيلون المكث في دكاكينهم رجاء ان يكسوا شيئا زائدا يكون عوضا عن بغالة الاحد فلهذا ترى للطرق والاسواق في تلك الليلة بهجة لا تراها في سائر الليالى وكذلك ليلة عيد الميلاد وبعض ليالى قبلها فان الدكاكين تبقى فيها مفتوحة وبعضها يكون مزينا وفيها تسمع آلات الطرب من جهات شتى وترى الناس في اقبال وادبار ومرح وارتياح • ودون الطريق الذى مر ذكره في الغنى والرونق طريق اكسفورد الا انه اطول واقدم وهو يفضى الى هيد بارك وطوله ٢٣٠٤ اذرع وقد ترى في هذه الطريق وفي غيره عشرين دكانا للبرانيط ومثلها للنعال ومثلها للكتب ونحوها

للخز ولا ترى من مطعم واحد او نصف محل للقهوة • ثم الطريق الذى يقال له
استراند طوله ١٣٦٩ ذراعا وهو اكثر الطرق ملاءمة فيه فرع من المالك
الكبير عنده جرس ذو مادة كهربائية يدل على اوقات البلدة وعليه تضبط
مواقف سكك الحديد والساعات والافقات وفى الساعة الحادية بعد الظهر يهبط
عن مركبه بنفسه • ثم بيكاديلى طوله ١٦٩٤ ذراعا ثم نيورود
اى الطريق الجديد طوله ١١٥ رة ولكنه ليس من الطرق المثابة ونحوه
ستى رود وطوله ١٦٩٠ ثم نيوبون ستريت فيه دكان جوهري رأس ماله خمسمائة
الف ليرة وتحت يده من الصاغة والصنائع ما يزيد على خمسمائة رجل
وهو اغنى جميع صاغة المملكة وكثيرا ما تستخدمه ملوك الافرنج من جميع الاقطار
فى صوغ آنية لقصورهم ثم هوبرن وهو اوسع الطرق لكنه غير طويل فيه
دكانان للبز والحرير لا ينقص عدد المستخدمين فى احدهما عن مائة نفس ومن
هوبرن فصاعدا نحو الشمال بنى فى سنة ١٦٠٧ وفى زمن الملكة اليصابات
منع من تكثير البيوت وامر بان كل عيلة تسكن فى بيت واحد • ثم هلوى ول ستريت
مشهورة بالدكاكين التى يباع فيها كتب الفسق وصور النساء وما اشبه هذا
ثم طرق اخرى حسنة ايضا ولكنها ليست نظير هذه وعدد الطرق المبلطة
فى لندرة يبلغ ٥٠٠ رة وتمتد اكثر من ٢٠٠٠ ميل ويوجد فيها نحو ٥٠
طريقا باسم كين ستريت اى طريق الملك ومثلها كوين ستريت اى طريق الملكة
ونحو ٦٠ طريقا باسم وليام ستريت ومثلها جون ستريت واكثر من ٤٠
طريقا باسم نيو ستريت • وقد تذاكر الناس هذه السنة فى انشاء سكك الحديد
فى قلب لندرة بدل الخوافل فان جعل هذه يبلغ فى السنة ٣٠٠٠٠ ليرة والسير
فى الاول لا ينفق فيه اكثر من ٣٠٠٠٠ ليرة فقط وجميع اسواق لندرة وشوارعها
وازقتها تنور بجمال النساء عامة الليل وناهيك انه فى محلة واحدة وهى
محلة مارى لابن من جملة نحو ٦٠ محلة يوجد ٢٠٠٠٠ مومسة منهن ٢٠٠٠
لهن بيوت خاصة بهن وحيثما تكثر انوار الغاز يكثر ترددهن ولكثرة الانوار
فى الدكاكين والطرق تكون المدينة فى الليل شتاء أدفا منها فى النهار
وكذلك مدينة باريس والغاز فى طرق لندرة يوضع فى فوانيس على عمد قائمة من
حديد فهى من هذا القبيل احسن من باريس لان كثيرا من فوانيس هذه

تجعل في الحائط الا انه ليس في طرق لندرة شجر ولا محال للقهوة على نسق ما في باريس لان الشرطة لا يأذنون لاحد في ان يضع كرسيًا في الطريق ويقعد عليه • ثم ان اختراع الغاز هو من اعظم البركات التي يتنعم بها الانسان في الليل ومن اقوى الوسائل المعينة على الامن والسلامة ولا سيما في المدن الكبار فان لندرة منذ مائة سنة كانت ممنية باللصوص والنهاب في مسالكها بعد العتمة حتى ان السالك فيها كان يعرض نفسه اما للقتل واما للسلب وكانت الاولاد تحمل بايديهم مشاعيل ويمجرون بها بين يدي المارين ويأخذون منهم شيئًا وفي ايام الملكية ماري كان العسس يستحبون اجراسا يضربون بها للتنبيه والتحذير وذلك لقلة الانوار وفي سنة ١٧٦٢ وضعت الفوانيس واوقدت بالزيت فقلت اللصوص واول من جرب استخراج الغاز قسيس اسمه ككلاطون وذلك في سنة ١٧٣٩ الا ان تجربته هذه لم يعمل بها وفي سنة ١٧٩٢ تصدى لهذه العملية رجل من كرنوال اسمه مردوك وفكر في انه اذا صان الغاز المستخرج من الفحم او الحطب في وعاء ثم اجراه في قصب من الحديد يكون مغنيا عن المصابيح والشمع وفي سنة ١٧٩٨ اتم تجربته هذه واجراها في بعض المعامل في برمنهام الا انه كان يعرض لها بعض الخلل احيانا وفي سنة ١٨٠٢ انتبه الناس الى احكام ذلك وتعميم منفعته وبعد هذا التاريخ بسنة واحدة نور ملهى ليسيوم في لندرة بنور الغاز وفي سنة ١٨٠٤ وما بعدها وسع مردوك دائرة مشروعه هذا في منشستر وزعم الفرنسيون انهم هم مخترعوه الا ان هذا النور لم يعرف عندهم الا في سنة ١٨٠٢ وكان ذلك في باريس وقد عرفت ان مردوك صنع قبل هذا الوقت بعدة سنين ومن سنة ١٨٠٢ الى سنة ١٨٢٢ اشتهر استعمال الغاز وأعجب جميع الناس حتى ان رأس المال الذي جمع لتوفير لندرة فقط بلغ ازيد من ١٠٠٠٠٠٠ ليرة وشغلت قصبات الغاز في ايصال النور الى محال مختلفة مسافة ١٥٠ ميلا وبعد ذلك بسنين قليلة اشتهر في سائر مدن المملكة لتوفير الطرق والخوانيت والديار وهو على بقاءه وعدم نقصه خلافا لنور الشمع والزيت ارخص سعرا واخف كلفة فان رطل الشمع الدون مثلا يساوي ثلاثة ارباع شلين ومدة اتقاده لا تزيد على اربعين ساعة وان غالونا من الزيت يساوي شلينين وينير ما تنير ستمائة -

ستمائة شمعة في ساعة واحدة والشمع العال اغلى من الشمعى بثلاثة اضعاف
والف مكعب من الغاز يساوى تسعة شلنات فتحصل من ذلك ان ما قيمته مائة من
الشمع العال يكون خمسة وعشرين من الشمعى وما قيمته خمسة من الزيت يكون من
الغاز ثلاثة وبالجملة فانه من الزم الاشياء ولا يعلو عليه نور الا نور الشمس (١)
واذا اوقدت نوراً منه فلا ينطفئ الا اذا اطفأته وذلك بان تدبر لولبه الى جهة
الشمال واذا اردت ابقائه ادرته الى اليمين واديت النار من فوهته فيبقى كذلك الى
ما شاء الله وكيفبة تنوير الطرق في لندرة هو ان يرتقى الرجل في سلم الى
الفاوس وفي باريس يجعل الرجل النور في عود طويل ثم يديه من فوهة
الفاوس من دون ان يرتقى اليه ولا يخفى ان ذلك اسهل واسرع • واما قوله
بترفه الاعيان والعظماء واسرافهم فقد سبقت الاشارة الى ذلك عند الكلام
على اخلاقهم واحوالهم وانما نقول هنا ان هؤلاء الاماجد يسكنون في
حارات معلومة من المدينة فرارا من الزحام ومن اختلاطهم بالاوباش فترى
بقعة فسحة عظيمة في لندرة ليس فيها سوى ديار متصافة متصافة وهى
بالنظر الى وسط المدينة موحشة اذ ليس فيها حوانيت ولا مطاعم ولا
ملاهى لكنها نظيفة سالمة عن تكاثف الاحوال وضغط السائرین وقرقة
العجلات ومعها هم فيه من البهجة فيها والتعم والانفراد فلا بد وان يكون لكل
منهم دار في الخلاء يسكنها في الصيف ففي هذا الصقع الجليل تسطع انوار
السعادة من ابراجهم العلوية وهناك ترى الخدم والحشم والحيل المطهمة
والعواجل النفيسة وهناك تميد الموائد بها عليها من الاطعمة الفاخرة المجلوبة
من جميع البلدان وهناك تنبه الكلاب على كثير من بنى آدم ممن يتضورون
جوعاً ويهلكون من الوحش والبرد والعري ومن اكل اللحوم المنتنة في ازقة لندرة
القدرة فليس بين الجنة والجحيم في هذه المدينة بعد ما بين الجنة والجحيم
في الآخرة وهاك مثالا على سقر لندرة قال في بعض الصحف ان مائة وثمانين نفسا
ما بين رجل وامرأة وولد يسكنون في اربع وثلاثين حجرة وفي اخبار الكون

(١) في سنة ١٨٨٠ نور كثير من طرق باريس ولندرة وغيرهما من طرق
مدن اوربا بالنور الكهربائى

كان يملك في حجرة واحدة من اربعة عشر نفسا الى عشرين ليلا ونهارا
 وكان يسكن في حجرة اخرى رجلان مع زوجيهما وارملتان وثلاث بنات وعزب
 وثلاثة اولاد فحملتهم اربعة عشر نفسا قد جعلوا انفسهم عيلة عيلة كل عيلة
 تبوأ زاوية من الحجرة وفي موضع آخر يسمى ساحة فلتشر حجرتان لا تزيدان
 على سبع اقدام عرضا في عشر طولا وقد اشتملتا على ثمانية وعشرين نفسا
 ما احد منهم يعرف القراءة وليس تحتهم وطء سوى التبن الا واحدا منهم ولا
 غطاء لهم في الليل سوى ثيابهم التي يلبسونها في النهار ومع ذلك فان هذين
 المحليين اذا قيسا بغيرهما من البيوت المجاورة لهما كان لهما حرمة فانه وجد
 فيها ٢٠٨ اولاد قد ادرى ولم يدخل منهم المكتب سوى ثمانية وثلاثين
 فقط وهم غارقون في الفساد والحساسة والقذر والوباء وفي هي هوبرن ثلاثون
 بيتا يسكن فيها مائة وثلاث وثلاثون عيلة كل ثلاث عيال او اربع في حجرة
 واحدة وقد تناهوا في السكر والسفاهة وفي كل نوع من الرذائل اهـ * وكثيرا ما
 ترى النساء يمشين في الشتاء حافيات ويلتقطن الجذور وفئات الخبز وغير مرة
 رأيت رجلا على ذراعه طفل وامرأته يجانبه صفراء منجردة على عتبة احدى
 الديار في اشد ليالى الشتاء بردا وفي كل سنة يبقى الوف من ذوى الحرف معطلين
 ففي سنة ١٨٤٩ كان ١٤٠٠ خياط و ٩٠٠ اسكاف بلا عمل وكان ٧٠٠ اسكاف
 يعملون بنصف الاجرة وكذا الصاغة وصناع الجلود وقس على
 ذلك وفي لندرة ٢٢٦٠ دارا مشرفة على السقوط والحاصل انه لا فقير اشقى من
 فقير لندرة كما انه لا غنى اترف من غنيها وكما ان طرف لندرة من جهة الشمال
 موسوم بمحضرة الكبراء كذلك كان طرفها الجنوبي مختصا باهل الضعة والخمول
 فلا ترى هناك شيئا يعجبك غير حسن النساء فان الله تعالى جعل لهن هذا النصيب
 تاما * واما قول الآخر انه ليس في لندرة مطاعم انيقة الخ فهو في محله الا انه لم يذكر
 سبب ذلك وهو جهل الانكليز بصناعة الطبخ اما في البيوت فيمكن للواحد ان
 يعتذر عنهم بقوله انهم لا يتأقنون في الطبخ حرصا على الوقت ان يضيع في
 الحشو والتكبيب وما اشبه ذلك الا انه لا يمكن الاعتذار عن اصحاب المطاعم
 العمومية الذين لا شغل لهم الا اطعام الناس وما عدا ذلك فان المنتقد لم يذكر
 انه لا شيء في لندرة مما يؤكل او يشرب الا وهو مغشوش مخلوط مشوب او ليس
 من

من العار على اهل هذه المدينة مع كونهم اغنى الناس واقدرهم واتجرهم ان
يرخصوا لواحد من الاجانب في ان يفتح دكانا في اعظم الطرق ويبيع فيه نحو
الجبين ولحم الخنزير والحردل واللبن ولا آخر في ان يبيع المثلوج والحلواء ولا آخر
في ان يبيع الخل والزيت ولا آخر في ان يفتح محل قهوة تغنى فيه نساء بلده
ونحو ذلك مما يمكن لكل احد ان يصنعه فهل لهذا من تأويل آخر سوى انكم
يا اهل لندرة خرق حق او غشاشون غبانون وفي الواقع فان كل شئ يصنعه
اهل فرنسا هو مفخرة للانكليز فان الحرير الفرنسي للستات من الانكليز
نصف جالهن و النصف الآخر من الشريط والجوارب والكفوف والقيطان
ونحوه ونصف ادبهن هو التكلم باللغة الفرنسية والنصف الثاني العزف
على البيانو وداياخوا امرآء الانكليز انما هم فرنسيس و كذا شرابهم
وجل تحفهم واهل الحوانيت يكتبون على كل شئ انه فرنساوى كما مر ذكر
ذلك فامعنى اتساع لندرة اذا وكثرة دكاكينها وسعة طرقاتها وتعدد مراكبها
وزحامها وضجيجها وجلبتها وليس فيها من يحسن عمل الحردل وليس في
مطاعمها مرقعة في الشتاء ولا سلاطة في الصيف ولا ارز ولا عدس ولا حص
ولا فول ولا مقر وانما هو الشواء والبطاطس او شئ من البقل مسلوق سلقا
ومن الغريب انهم اذا طبخوا البطاطس مع اللحم سموها اداما ارلانديا وملؤه من
الفلفل والابازير حتى يحرق اللسان واذا جلس احد فيها للغداء رأى بينه
وبين جيرانه حاجزا من خشب حتى لا يقع التعارف بينهم وهو اشبه بحاجز
الحيوانات التى يجمعونها في بستان النباتات وترى ككلا منهم قد جلس
للطعام ويده صحيفة اخبار يطالعها واذا اراد اخذ شئ من بين يديك تلقفه
من غير ان يستأذنتك فيه خلافا لما تفعل الفرنسيس وغيرهم على ان كثيرا
من هذه المطاعم يأكل الناس فيها وهم وقوف فكأنما هم جماعة يهود
ياكلون خروف الفصح فاما محال القهوة فاكثرها مجتمع الاراذل فترى فيها واحدا
راقدا وآخر سكران وآخر وسخا واذا طلبت فحجان قهوة خلطوا القهوة
بالحليب والسكر في محل لا تراه وقدموه لك هكذا فلا تدري ما وضع فيه
فيا النى الف ونصف الف الف من الناس متى تعيشون في هذه الدنيا الصغيرة
عيشة مائتين ونصف مائة من سكان القرى في فرنسا وايطاليا والشام وبر مصر

بان تأكلوا خبركم غير مخلوط بالبطاطس والشب وجبس باريس ولحمكم طريثا سليما
لا من حيوان اصابه داء فذبح ولا مما يرد اليكم من امير يكا موضوعا في الثلج ولا مما
نخم وانتن قحشون به المصارين والحوايا فاعمر الله ان كان هذا الغش نتيجة
التمدن والترقى في العلوم فلاجهل خير فان اهل بلادنا والحمد لله على جهلهم ما
يعرفون شيئا من هذه الفنون الكيماوية والاخلاط الغير المتناهية التي توجب على
الشارى ان يستصحب معه مرآة من المرايا المكبرة ليرى بها تلك الاجزاء والمركبات
فيما يؤكل ويشرب في وطنكم هذا السميد او ما كفى ان هواءكم مخلوط بالدخان
وشتاؤكم يدوم ثمانية اشهر تقضى بالاصطلاء على نار الفحم الحجري وما ادراك
ما الفحم الحجري وبخوض الوحول ويستنشق الضباب حتى زدتم على هذا البلاء
الطبيعى بلاء صنائعا تعافه الحيوانات فان الكلاب والسنابير تأبى اكل هذه
الجباجب التي تحشونها بالمحومهن ثم اقول او لم يكف ان نسا جيكهم ونياطيكم
واسا كفتكم وصاغتكم وصباغيتكم وسائر اهل الصنائع منكم ينشون ويموهون ويلبسون
ويشبهون ويضلون ويغوون فما يدرى الحرير عندكم من القطن ولا الجديد من
القديم المصبوغ ولا المخيط من الملتصق وان المؤسسات يتطاولن على الرجال ويشتمنهم
المسبت ثم يسرقنهم والمراد بالاست هنا الدواء الذى يقال له كلوروفورم او اثير قبل
ان خاصيته كانت معروفة عند الكيماويين الاقدمين وذلك من سنة ١٦٨١ واول
من عثر عليه في التاريخ المذكور كنيكل واول من عرف خاصيته في الاسعاط
توماس مرطون من بوستان في اميريكام ثم استعمله دكتور سيمصون في ايدنبرغ
ومن بعده دكتور جامس روبنصون في انكلترا ثم شهر في سائر الممالك ونشأ
عنه الموت بعض الاحيان وفأثته تغيب الموضع عن حس ما يؤلمه حتى انه يمكن
للجراح ان يقطع عضوا منه او يحرقه ولا يشعر به وقد استعملته الماكة عند
ولادتها غير مرة وان منكم نباشين للقبور يسرقون ككفان الموتى ويديعونها
وان الاولاد يختلسون في كل طريق مظلم وفي كل زحام وان سفلكم عارون عن
الادب والحياء ودابهم التعدى على الغريب والاساءة اليه وان كثيرا من بيوتكم
القديمة وحيطانكم العهيدة تهدم وتسقط على الناس فتهلكهم وانه قد يمكث
الانسان عندكم شهرا ولا يرى الشمس الا مرة او مرتين وان ربيعكم ابرد من
شتائكم وصيفكم امطر من خريفكم وانه لا فرجة عندكم ولا مشهد ولا موسم

ولا ملهى الا ويغص باللثام الطعام والابواب والاراذل حتى
 عدتم الى افساد ما خلقه الله من الماكول والمشروب طيبا مزيثا أفليست لكم ألسنة
 تذوق هذا الرجز وتنطق بالحق وحلق تستبشع ذلك الحبيث من الطعام كما
 تستفزع حروف الحلق فان كان خلوا لغتكم عنها هو مسبب من استطيا بكم لهذا
 الحبيث فنهاها الله بضمي ما في لغتنا منها أهكذا علمكم اهل الشرق ان تختبروا الخبر
 مخلوطا بصناف شئ أهكذا علمكم اهل فرنسا ان تطبخوا هذه اللحوم المنتنة في
 مطاعمكم وتخفوا فسادها بكثرة الفلفل والافخاء أهكذا علمكم باسكت الرومي في
 سنة ١٦٥٢ ان تصنعوا القهوة مخلوطة بجميع انواع الحبوب فما معنى كثرة
 دكاكين الكتب والمؤلفات التي لا عدد لها عندكم في كل فن وصناعة وانتم
 لا تحسنون ان تطبخوا بضعة من اللحم بويقة من البتل فكل لحم مشوى وكل
 بقل مسلوق ويا ليت كان ذلك اللحم لحما وذلك البقل بطلا فاعجب ايها القارى من
 ان هؤلاء الناس الذين يملكون ما يذيف على ٢٠٠٠ ره باخرة منها ما هو اكبر من
 فلك نوح كما زعموا وعندهم اكثر من ٢٠٠٠ صحيفة للاخبار منها ما يطبع في كل
 يوم ومنها في كل اسبوع لا يعرفون ان ياكلوا وليس لهم ذوق يعرفون به الطيب
 من الحبيث من الطعام ويرضون ان ياتيهم رجل من فرنسا او ايطاليا ليعيهم الخردل
 والحل والجبن مما يجلبه من بلاده وليس منهم في تلك البلاد احد يعلم اهلها شيئا من
 صناعة الطبخ فكل شئ دخل في حلوقهم طاب استراطه وكل ما عرض للبيع في
 حوانيةهم حل يبعه وشراؤه بحيث يؤدي عليه مكس للدولة وانى لا عجب كيف
 انهم لا يختبرون خبرا من البطاطس وحدها او من الشعير وحده او من الاسماك
 كما في ايرلاندا وكيف لا يتجرون في طين الارض القريبة من المسكوب الذي يقال
 انه يختمر مع الدقيق • وقد حان لى الآن ان اختم الكلام على لندرة فيما يؤول
 الى الماكول والمشروب واذكر ما فاقت به سائر مدن العالم في ما يطبع فيها من
 صحف الاخبار والكتب فاقول ان اول جرنال في الدنيا باسرها هو الجرنال المسمى
 تيمس ومعنى هذه اللفظة الاوقات ومعنى الجرنال يومية وهى لفظة فرنساوية
 وهذه الصحيفة تحوى جميع اخبار المسكونة الا انى رأيت فيها عيبا كبيرا وهو عدم
 استقصاء اخبار البلاد الشرقية وسائر الممالك الاسلامية فاذا كان فيها خبر عنها
 فانما هو مخصوص بالتجارة ولها عدة كتاب وكاتب جلها السياسية نعد من اعظم

ادباء الانكليز ومرتبته في السنة اكثر من الف ليرة وهذا الجرنال هو لسان
الامة والدولة ويليه الجرنال المسمى مودرن ادفريتسر ومعناه معان الصباح وهو
لسان الرعية وكأنه تقيض ذلك وفي لندرة اكثر من ٣٢٠ جرنالا للاخبار الطارئة
والادبيات والعلوم ووزن ما يطبع منها في كل يوم وكل اسبوع يبلغ في الاسبوع
من ٢٥٠ طنا الى ٣٧٠ وفي باريس ٣٥٠ صحيفة للاخبار الا ان كتابها مقيدون
عن الجرى في مضمار الكلام فليس لهم حرية كما لكتاب الانكليز فان هؤلاء
يشهرون في اخبارهم كل ما استحسنوه واستقبحوه وليست هذه الرخصة لاصحاب
جرنالات فرنسا وكذلك يشهرون كل ما حدث في مجلس المشورة من المذاكرات
والمفاوضات بان يبعث كل رئيس جرنال كاتبه الى المجلس ويكتب ما يقال فيه
حرفا حرفا ولهم في ذلك طريقة غريبة يسمونها اليد القصيرة فان الكلام يكتب
مختصرا بنوع من الاشارة ولولا ذلك لم يكن ممكنا للكتاب ان يستوعب جميع
الاقوال وكل ما حدث شيء في قصر الملكة بطبعونه حتى انهم لا يتحاشون ان
يكتبوا انها حبل وانها تلد في الشهر الفلاني وفي بعض هذه الصحف ان الملكة
اهدت الى احد العسكر منديلا من حرير وفيه رقعة مضمونها انه مكفوف بيد
ابنتها الكبيرة ولو كان مثل ذلك يشاع في بلادنا لاصبح مشغلة للالسن كما سبقت
الاشارة اليه والحش ما يكون من تلك الجرنالات الجرنال المسمى پول برى قرأت
فيه في عدد ١٦ ما نصه ان كان الله قد قصد ان منحه في هذا الامر تكون غير
مستعملة فلم منحنا اياها وان كان انما قصد ان تكون مستعملة من المتزوجين فقط
فلم آتاها غير المتزوجين ايضا ام يقول قائل لا خشية له من الله انه اعطانا
اياها ليلبونا بها أفليس هذا يفضي الى ان نجعله متمننا الا اني لا ابرئ المتزوجين
في استعمالهم هذه المنح في غير محلها اما الاقتران الطبيعي بين الرجل والمرأة
وهما غير متزوجين وليس من عائلة واحدة فخلال شرعي والحاصل ان شرائعنا
الادبية حائدة عن الصواب وان الفضيلة على ما تفهمها العامة شين وتديس
الى ان قال « فكل امرأة غير متزوجة يحل لها على مذهبي ان تخالط ايا شاءت
من الرجال من دون خوف من ان توسم بالعار والفضيحة او الخروج عن الادب
ولو جرت العادة بان تعيش الرجال مع النساء من دون زواج لا غنانا ذلك عن
كثير من الشرور التي تحدث بين المتزوجين كالسهم والقتل ونحوه بل عن كثرة
المومسات

المومسات وعما يقاسين من الموبقات والردائل وفي بعض الجرنالات من بعض العامة الى كاتب الجرنال ما نصه اسمع لرجل مسكين ان يقول كلاما وجيرا على امر موجب لشكوى الانكليز فاقول انا معاشر اهل انكلترة ما برحنا معنين بما لقينا من مصاريف الحرب الاخيرة ومن المـكـوس التي لاتطاق ومع ذلك فقد خطر الآن ببال بعض اهل الدولة طريقة اخرى لافقار الرعية وهي امداد مملكة اجنبية بمال سمى جهاز ابنة الملكة وناهيك ان ملاكتنا لما تزوجت احضرت الى رعيته رجلا لا ثروة له وان ملك البلجيك رتب له وظيفة تجرى عليه من اهل هذه المملكة وما ذلك الا لكونه تزوج بنت الملك جورج فصارت بلادنا موردا لصيادى البخت والجدة وانها لتبقى كذلك ما دام جلب المال هينا على طالبه او ليس للمكتنا من الايراد الجزيل ما يقدرها على ان تقوم بمؤنة ذريتها ولو انها قترت على نفسها قليلا لامكنتها ان تجهزهم ان كان لا يوجد من كرام الناس من يتزوجهم لمجرد المحبة وكيف كان فى الظلم الواضح ان يكلف اهل بلادنا اغناء بلاد اجنبية ألا ترى ان لى زوجة وعشرة اولاد وان ارادى كله لا يزيد على ١١٠ ليرات اؤدى منها لتنظيف البلدة شيئا ولأجل الفقراء شيئا وللكنيسة شيئا وبغيرها شيئا فهل اذا اردت ان ازوجهم يجهزهم اهل الشورى عني الخ وثن هذه الجرنالات كلها معما فيها من الاخبار والفوائد ومع حسن طبعها وورقها لا يفي بثن الورق فقط وانما يكسب اصحابها من الاعلانات التي يطبعونها للتجار وغيرهم وعلى كل سطرين او ثلاثة من هذه الاعلانات خمسة شلينات واول طبع بالبخار ظهر في مطبعة التيمس وذلك في سنة ١٨١٤ واول جرنال طبع في بلاد الانكليز كان في اكسفورد وذلك في سنة ١٦٦٥ وكان ديوان الملك يومئذ هناك لأجل الطاعون الذى وقع في لندرة فلما رجع الى لندرة سمي ذلك الجرنال كازت وذلك بعد التاريخ المذكور بسنة واحدة وبقي هذا الاسم خاصا بالجرنال المستمل على اخبار الدولة والمصالح الملكية فلا معول فى اخبارها الا عليه فهو بمنزلة المونيتور فى باريس واصل اسم الكازت انه فى سنة ١٦٢٠ طبع فى صحيفة فى فينيسيل اخبار مختلفة وكانت تشرى بقطعة من الدراهم تسمى كازتة فلزمها هذا الاسم وكان اشتهار الجرنال فى فرنسا سنة ١٦٣١ وفى جرمانيا سنة ١٧١٥ وفى دبلين سنة ١٧٦٧ واول جرنال اشتهر فى هولاند كان فى سنة ١٧٣٢ وفى اميريكا سنة ١٧١٩ وعدد جرنالات

هذه ٨٠٠ منها ٥٠ جرنالا تطبع في كل يوم وجملة نسخها ٦٤ مليون واول ما يصح تسميته بجرنال لأشتماله على اخبار عمومية في بلاد الانكلير هو ما طبع في سنة ١٦٦٣ وبقى كذلك نحو ثلاث سنين ثم خفي بظهور الكازت وفي زمان الملكة اليصابات وذلك سنة ١٥٨٨ شهر ايضا شئ مثله ولكنه لم يكن على هذا النسق واهجب العجب كثرة اوراق التعريف والاعلان في هذه المدينة في كل موضع يباح فيه الصاقها وقد يستخدم بعض التجار خدمة مخصوصين ليطوفوا بها ويفرقوها على المارين مجانا وما احد يريد ان يأخذها ومنها ما يطبع بحروف فاحشة الكبر حتى يمكن قراءتها من مسافة بعيدة • اما صناعة الطبع فقد اختلفت الاقوال في مخترعها فبعض المؤرخين نسبها الى منتر وبعضهم الى استرابورغ وهارلم وبعضهم الى فينيسيا ورومية وبعضهم الى فلورنسه وباسيل وفي رواية ادريان جونيوس ان مخترع الطابع هو يوحنا كستر من هارلم طبع على خشب كتابا فيه حروف وصور على وجه واحد وذلك في سنة ١٤٣٨ قال وفي سنة ١٤٤٢ انشأ يوحنا فوست مطبعة في منتر وطبع فيها كتابا وزعم بعض ان اول كتاب طبعه كان كتاب المرامير وقال آخر لاشك ان الطبع على قطع الخشب كان معروفا عند اهل الصين وذلك قبل تاريخ النصرى باحقاب عديدة وكذلك كان معلوما عند الرهبان في بلاد الانكلير وفي غيرها من بلاد اوربا فانهم كانوا ينقلون الكلام من ورقة الى اخرى على الخشب ولكن كان ذلك قليلا فاما استعمال هذه الحروف مصفوفة واحدا بعد واحد فلم يعرف الا في متأخر الزمن قال ولم يكن احد في الزمن القديم يشتغل بالعلم وبترجمة الكتب والنسخ الا الرهبان فهم الذين ادخلوا التمدن والمعارف في بلاد الافرنج وكانت رومية وبلاد اليونان معدن الكتب والعلوم وكان الصكصونيون آباء الانكلير يسافرون مسافات بعيدة في طلب العلم وتحصيل بعض تلك الكتب النادرة ويشترونها بثمن غال وعند رجوعهم يترجونها الى اللغة الصكصونية وكانت الناس تنافس فيها لندرتهما غاية المنافسة وكان للاسقف ولغيره نسخة من كتاب الانجيل مكتوبة بحروف من ذهب على ورق ارجواني فكان يضعها في صوان من ذهب مرصع بالجواهر النفيسة وما عدا الرهبان فلم يكن احد من العامة من يحسن الكتابة غير افراد قليلين وناهيك ان توقيع ويليترد ملك كنت على مجلة كان علامة الصليب وامر كاتبه بان يكتب تحتها ان الملك انما رسم تلك العلامة بيلا

بدلاً من اسمه لجهله الكتابة ولولا تخريب الدانيزيين وتدميرهم لكان العلم بين
الصكصونيين قد تقدم كثيراً إلا أن ملوك البحر أولئك كانوا على جانب عظيم
من الجهل والجفاء وكانوا وهم على اصنامياتهم ينظرون إلى الصكصونيين
المسيحيين كأنهم مرتدة لأنهم كانوا أولاً مثلهم عبدة أوثان ولهذا كانوا يرون
أن فروض دينهم توجب عليهم إبادة أديار الرهبان وكتبهم وما كانوا يعرفون
شيئاً من جهة السماء سوى أنهم يشربون فيها المزر في جحاجم أعدائهم ويأكلون
من مأكل لا ينقص الأكل منه شيئاً مهما أكل فن ثم اتلفوا كتباً كثيرة
كانت كافت الصكصونيين اتعاباً عظيمة في تحصيلها ولو أنها بقيت لنا لكننا
ندري منها أموراً كثيرة فجهلها في تاريخ جميع البلاد قال واتفق في القرن الخامس
عشر أن شاباً اسمه جون غانسفلاش ويعرف بغاتنبرغ من سقع سلغيلوش سافر
إلى استراسبورغ وكانت مشهورة حينئذ بأنها سوق الكتب فأخذ يفكر في أحداث
طريقة لتكثيرها فخطر بباله أنه إذا صنع حروفاً تتركب وتحل يبلغ بها أربعة ثم
رجع إلى ماينس واجتمع برجل اسمه فوست فتواطأ على إبطال نسخ الكتب
لما فيه من المشقة بطريقة الطبع بتلك الحروف فسبكها كما خطر لهما وكان
ذلك في سنة ١٤٤٠ إلا أن علمهما هذا لم ينتج فائدة إلا بعد عشر سنين ويطن
أن تلك الحروف كانت من رصاص أضيف إليها بعض أجزاء كيمياوية لجعله صلباً
متحملاً للعمل المراد ثم دخل في شركتهما بطرس شوفر ثم طبع غاتنبرغ عدة كتب
من جملتها التوراة المعروفة الآن بتوراة مازارين وقد راج بيعها واشتهارها
كثيراً حتى أنه كان يقال أن طبعها من عمل الشيطان وفي سنة ١٨٣٧ نصب له
مثال على قبره أكراماً له وأرسلت نواب من جميع دول الأفرنج لحضر مشهده
ولما تفرق الذين كانوا مستخدمين في مطبعته ذهب بعضهم إلى سويسرا في
إيطاليا فاشتهرت هذه الصناعة فيها في سنة ١٤٦٥ ثم سرت إلى باريس وذلك
في سنة ١٤٦٩ وبعد سنة اشتهرت في إسبانيا وبعد نحو خمسين سنة عمت جميع أوروبا
ويظهر مما قاله بادان أحد مشاهير الطباعين في باريس في أوائل القرن الخامس
عشر وكذا مما قاله شكولوكر الانكليزي أن الامهات والابهاث في تلك الحروف
لم تختلف كثيراً عن المستعمل منها الآن وكانت العادة إذ ذاك أن سبك الحروف
مخصص بالطباعين فقط وفي سنة ١٦٣٧ صدر حكم من ديوان الانكليز بأن لا يزيد

عدد الطباعين على اربعة نفر وانه اذا مات منهم احد لا يقوم آخر في محله الا باذن رئيس اساقفة كنتربرى وفي سنة ١٦٩٣ حين صدرت المجلة باقرار حقوق الاهلين بطل هذا الحكم وكانت الكتب سابقا تفحص قبل ان تطبع ثم يكتب على صفحة عنوانها « تطبع » وفي سنة ١٧٩٥ اطلعت الحرية في الطبع من دون فحص وامر بان تطبع اسماء الطباعين في اوائل الكتب واواخرها واول من شهر الطبع في بلاد الانكليز كاكسطون وذلك نحو سنة ١٤٧٤ وكان قد سافر الى البلاد الواطئة وحصل معارف كثيرة واول كتاب طبعه كان تاريخ طرودة ترجمه من اللغة الفرنسية وكان جامعا لثلاث خصال جليلة وهي كونه مؤلفا وطباعا وناشرا وبسعيه ومعارفه حصل في ادب لغة الانكليز تقدم عظيم الا ان هذه الصناعة الجليلة كانت غير عامة المنفعة عندهم وخصوصا انهم كانوا يشترون الحروف من بلاد اوربا القارة ولا سيما من هولاند الى ان قام كسلون في اوائل القرن الماضي وسبك حروفا حسنة وكثر الادوات وفي سنة ١٧٣٠ استخدمته الجمعية المعروفة بجمعية انتشار المعارف المسيحية في سبك حروف عربية ثم اشتهر نصيبه في الآفاق حتى صار اهل البلاد القارة يستمدون منه فلما مات باعت زوجته ما كان عنده من الحروف لجمعية العلوم في باريس فكانوا يطبعون بها اجل المؤلفات في الادب والعلم ثم قام دكطرفرى وسبك حروفا في جميع اللغات المشرقية ويقال انه سبك في مسبك برسكف اربعمائة شكل من الحروف الهجائية وان بروبكائند رومية مع شهرتها ليس فيها اكثر من ذلك وسبك ايضا في معمل ديدو في باريس ابدع ما يمكن صوغه من الحروف في العالم باسره حتى ان بعضها لا يمكن قراءته الا بالزجاجة المكبرة وكيفما كان فان طباعى الانكليز في عصرنا هذا لا يعلمون انهم احد ثم ان احد النمساويين واسمه هركونك رأى ان الطبع بالبخار غير مستبعد فعرض رأيه على اهل بلاده فاعرضوا عنه فقدم الى بلاد الانكليز واسعفته جماعة منهم لاجراء ما قصده فصنع آلة صغيرة طبع بها الف صحيفة في ساعة واحدة بمساعدة ولدين فقط فلما تحقق صحة استعمالها عزم على اتخاذ آلة كبيرة لطبع الاخبار فرآها صاحب جرنال التيمس فواطأه على ان يصنع له آلتين مثل تلك ولكن اكبر منها وفي سنة ١٨١٤ طبع في ذلك الجرنال اعلان بانه مطبوع

بقوة البخار ثم قام جماعة وحسنوا هذه الآلة فكان يطبع بها على الوجهين في كل ساعة من ثمانمائة صحيفة الى تسعمائة وكانت الآلة المفردة تطبع على وجه واحد في كل ساعة الفا واربعمائة صحيفة ثم قام مستر تيل واخترع آلة مزوجة يطبع بها في الساعة من عشرة آلاف صحيفة الى اثني عشر الفا وفي بلاد امريكا مطبعة تطبع في الساعة عشرين الف صحيفة ما بين جرنال وغيره وفي الحقيقة فان جميع ما اخترع من الصنائع في هذا العالم هو دون صناعة الطبع نعم ان الاقدمين بنوا اهراما ونصبوا اعلاما وشادوا هياكل وحصنوا معاقل وحفروا خلجانا واقنية للماء ومهدوا مسالك للعساكر الا ان صنائعهم تلك بالنسبة الى صناعة الطبع ان هي الادرجة ترق فوق درجات الهمجية فانه بعد اشتهار الطبع لم يبق احتمال لاضاعته المعارف التي ذاعت وشاعت اولفقد الكتب كما كانت الحال حين كانت تكتب بالتم وقد قيل ان المعرفة قدرة فان المتصفين بالمعارف وهم الاقل يتولون الامور ويسوسون الجمهور وهم الاكثر اه اما احداث الورق فقال فلتير انه كان في القرن الحادى عشر الا انه كان مشهورا في الصين من عهد لا يعلمه الا الله وهو ابيض رقيق يتخزنونه من اليبو المغلى او من قصب السكر قال وقد عرف استعمال الزجاج عندهم من النى سنة وقال آخر ان احداث الورق في الصين عرف في سنة ١٧٠٠ قبل الميلاد وفي سنة ١٠٠٠ بعد الميلاد كان يصنع من القطن وفي سنة ١٣١٩ صار يصنع من الخرق واول من صنع الورق الابيض الحسن في بلاد الانكليز رجل نمساوى وذلك في سنة ١٥٩٠ وقبل وليم الثالث كان الانكليز يشترونه من فرنسا وهولاند فكانوا يصرفون كل سنة في ثمنه ١٠٠٠٠٠ ليرة فلما قدم بعض الفرنسيين الى هذه البلاد للاستئمان علموا الانكليز صناعة الورق وكانوا من قبل ذلك يصنعون ورقا خشنا اسمر وفي سنة ١٦٩٠ صنعوا الورق الابيض باليد واتخاذها بالآلة كان من مخترعات لويس روبرت ثم باعها لطباع اسماء ديدو فجاء بها هذا الى بلاد الانكليز ومن ثم شهر استعمالها وفي سنة ١٨٣٠ صنع بها طلمية بلغ طولها ١٣٨٠٠ قدما وعرضها اربع اقدام اما الورق المنقوش الذي يلصق على الحيطان فكان احداثه في اسبانيا وهولاند في سنة ١٥٥٥ فاما البابيروس وهو الورق المتخذ من القصب فكان يصنع في مصر والهند الى ان عمل الرق وذلك

في سنة ١٩٠ قبل الميلاد وكان بتولومي قد منع اخراجه من مصر وعليه كتب تاريخ يوسفوس وهي نسخة جليسة ثينة اخذها نابوليون الاول من جليسة ما اخذ وبعث بها الى باريس وفي سنة ١٨١٥ ردت الى موضعها •

﴿ فصل في الستى ﴾

قد تقدم الكلام على هذا الخط من حيث اشتغاله على اعظم المباني الكائنة في لندرة فان البنك والبوسطة والبورس وديوان الضابط وداره ودار السكة وكنيسة ماربولس جميعها فيه وهو في الواقع لندرة القديمة وما بنى من بعده فهو حادث وبقي الآن هنا ان اقول ان هذا الخط الفريد هو مركز الاشغال العظيمة والمبايعات الجسيمة لاغتيا تجار الانكليز فاما من بناء فيه الا وهو مصدر للعركة والعمل وما احد يخطو فيه الا للكسب والشغل ولا يتحرك به لسان الا للنفع والفائدة ولا تطلع عليه شمس ولا يوقد فيه نور الا للسعي ولا يخلج صدر مخلوق خاطر الا للحصول والاقتناء فترى كل واحد من اهله فاتحا عينيه وفيه لاكل الدنيا وما فيها وكثيرا ما ترى في مسالكه مصحبين يمدثون انفسهم فيما هم فيه من المباشرة للاعمال فهنا تجدد الغلام شيخا في معرفة الادارة والشيخ غلاما في النشاط والاستعداد والشاب قبيلا وكثيرا توجهت وايضا سلكت رأيت نهم الخلق وحرصهم شاغلا لحواسهم الباطنة والظاهرة بالحرث والادخار وليس من قطر في الدنيا الا ويمده اهل هذا الخط بالبضاعة والمهمات وهو وان خلا عن الحوائث الرحيبة البهيجة مما يرى في سائر شوارع لندرة الا ان الارباح التي تجنى هنا في يوم واحد لا تجنى في غيره في شهر لان العقود الخطيرة والمراسلات الجزيلة انما تصدر عن هذا المشغل الحافل ولا يخفى ان التاجر الذي يرسل تجار البلاد الاجنبية ويبعث لهم ويحلب من عندهم يربح أكثر من التاجر الذي يقعد في حانوته وينتظر شاري شقة من الحرير او ثوب من الخز ومن هؤلاء التجار من يكسب في السنة نحو مليون ليرة كذا قيل ومنهم من له عدة سفن تجرى في البحر من بلد الى بلد ومنهم من يستخدم في ادارة مصالحه مئة شخص وقد ذكرنا سابقا ان واحدا من هؤلاء له محل في ارلانده فيه

اربعة الاف من الرجال والنساء لعمل القمصان لا غير وان تاجرا مات وخلف
سبعة ملايين ليرة ولا بد لكل منهم من ان يكون له كتاب وحساب وصير في
وما اشبه ذلك والغالب ان يكون له محترف يستعمل على ثلاث حجات احداها
للاشغال الخاصة به والثانية للكتاب والثالثة مشتركة ا لهم ولوضع الرواير
والتاع ونحوه ولا شك ان تجار لندرة عوما وتجار هذا الصقع خصوصا اغني
من جميع تجار اوربا الا انهم دونهم في الطرف والكياسة وعبارتهم ركيكة
بمخلاف تجار فرنسا فانهم مشاركون لذوى العلم والدراية وعبارتهم وان تكن
دون عبارة علمائهم الا انها بالنسبة الى كلام تجار الانكليز عالية كما ان عبارة
هؤلاء بالنسبة الى عبارة تجار بلادنا في غاية الفصاحة ولعمري ان تاجرا يكتب
لقى اي لا وقضه اي الامضاء والسالى اي الثالثة ومتقول اي نقول واعرض عن
هذا الشئ اي عرض هذا الشئ والحصارة اي الخسارة وينتدى بحسابا جديدا
وبخير او عافية والسارره وغث علينا وحظونا على وفولابت ونحو ذلك لجدير بان
يستحي من حرفه ومن العجيب هنا ان العالم قد يسهو احيانا ويغلط ومثل هؤلاء
التجار لا يغلطون ابدا في نأدية عبارة واحدة على حقها فقد قرأت أكثر من اللى
رسالة وردت منهم فلم ارفيها ولا جملة واحدة تدل على فكر لهم ورويه فمثل
هذه الحال يدخر قول الانكليز في التوبيخ ألا تستحي من نفسك نعم ان التاجر
لا يطلب منه ان يكون شاعرا او رئيس ديوان الانشاء ولكن عار عليه ان
يصرف ادراكه كله في معرفة الثوب الخشن من الزرفع ويرتدى بلباس الغفول
عن اشرف ما ميز الله به الانسان عن البهيمة وهو النعاق بل ليت هؤلاء يكتبون
كما ينطون فاني لا احسب عجزهم في الكلام بالغيا الى هذا الحد ولعمري ان
صاحب الذوق السليم يمكنه ان يكتب عبارة رائقة من دون ان يدرس كتاب
سيبويه او فقه اللغة للنعالي والمتفصح من هؤلاء من يخلط العربية بالتركية
او الطليانية فيكتبون مركب يالكان وعلام مور وبرمق وجناير وماكنه وبريمو
وياليتهم يكتبونها على حقها فياليت شعري ما سبب هذا العدول عن لغتهم الى
لغة العجم وما سبب هذا القصور عن نأدية عبارتهم بالفاظ متعارفة او عن
سبك معانيهم في كلام معجب مفصح وما عسى ان يقال في تاجر فرنساوى يكتب
رسالة ويحشوها بالالفاظ القبيحة والاغلاط الفاحشة في التركيب ورسم الخط

وما يكون قدره عند اقرانه ومعارفه وعند اصحاب الجرائد والصحف وخصوصا ما يطبع منها للضحك والتهكم الا فليحمدوا البلاد التي خلت عن هذه الصحف وعن رعاية حرمة العلم ثم ان تنافس الانكابر في حصولهم في خط السرى سواء كانوا تجارا فيه او كتابا او غير ذلك هو كتنافس القبط في استخدامهم في قلعة مصر وقد ذكرت سابقا ان جميع الحوافل مكتوب عليها اسم البنك لانها جميعها ترد اليه الا ما ندر و بهذا تعلم ما يكون ثم من الزحام والتوارد وفي الحقيقة فان دوى المراكب في مسالك هذه البقعة لما يذهب بالصبر وما اظن احدا من سكانها يمكنه ان يعمل فكره في شئ الا فيما هو بين يديه من الشغل وفي هذا المورد الوخير قدر الله لي ان اولف هذا الكتاب لا في مروج ايطاليا النضيرة ولا في رياض الشام الانيقة فاخال ان بين كل كلمتين منه دخانا متصاعدا وظلاما متكاثفا وكنت كلما خرجت من حجرتي الى هذا الموضع اوجس ان يصيبني سوء اما من تراحم الناس او الهائم او من رداءة الطعام الذي يوكل في مطاعمها فاذا عدت الى منزلي اجد نفسي كأنى نجوت من خطر غرق او نار ومن يخرج من هذا الحبس الى جهة ريحنت سترت كان كن خرج من لندرة الى باريس لانه يرى هناك بعض الناس يمشى على مهل فيستشعر ان من الخلق من يخرج للتفرج والتعم وبعضهم يدخن بالتبغ وهو ماش وبعضهم يتكلم وهو ضاحك او مبتسم وقد يسمع بعض آلات الطرب فيأنس بان هناك ما ينفس عن القلب ويوذن بالسرور وان من اوقات العمر ما يخص للراحة واللذة بخلاف شوارع السرى فان الله تعالى لم يخلقها الا للسعى والشغل الشغل ليس الا السغل العمل العمل ان دين القوم العمل فهم لا يستريحون منه الا اذا استراح هو منهم وناهيك ان فيه دارا واحدة تشتمل على خمسمائة محترف وعدة سماسرة تبلغ نحو الف ومع ان موقع هذا الخط سافل بالنسبة الى سائر اخطاط المدينة وطرقه ضيقة وبيوته حقيرة فان اجلاله عند الانكابر جعله ارفع و اسرف من غيره حتى انهم اذا شخصوا منه الى محل اعلى منه يقولون انا نهبط الى موضع كذا وليس في هذا الخط كله ملهى ولا نزهة ولا شئ آخر يبسط النفس فلن ترى فيه الا وجوها كالحة وزحام عواجل وحوافل ومحامل وعجلات متبلة ومديرة وطرقا ضيقة وحلة وجدران سودا ومسالك خاصة بالناس

- تمت الطبعة الثانية من هذا الكتاب * بحمد الملك العلي ملهم الصواب *
- ومجزل الثواب * اما الطبعة الاولى التي طبعت في تونس قلم تكن تامة اذ حذف منها بعض اقوال سديدة * واخبار مفيدة * فلما رأينا ذلك اثبتنا في هذه الطبعة ما حذف من تلك واضفنا اليها ايضا اشياء اخرى من قبيل *
- * الاحصائيات التي زادت اذ لا يخفى ان احوال اوربا تغيرت بعد *
- * تأليف الكتاب وقد بذلنا الوسع في ضبط هذه النسخة وفي *
- * تحريرها وتهذيبها على قدر الامكان * فجاءت بحمده تعالى *
- * نمونجا على الاتقان * وكان الفراغ من طبعها في *
- * اواخر شهر محرم الحرام سنة ١٢٩٩ في ايام سلطانتنا *
- * المعظم * الخليفة الاعظم * مولانا وسيدنا *
- * السلطان ابن السلطان * السلطان *
- * الغازي عبد الحميد خان * ابد الله *
- * سلطنته * وايد دولته وسلطته *
- * والحمد لله رب العالمين *
- * والصلاة والسلام على *
- * نبينا سيد المرسلين *
- * وعلى آله وصحبه *
- * اجمعين *



﴿ معارف نظارت جليله سنك رخصتيله طبع قلمشدر ﴾

مَطْبُوعَاتُ الْجَوْلِ ثَبِّ

﴿ هذه أسماء بعض من الكتب التي طبعت بمطبعة الجوائب ﴾

﴿ كتاب كنز الرغائب في منتخبات الجوائب اعتنى بجمعها مدير الجوائب ﴾

﴿ يحتوي على سبعة اجزاء ﴾

قرش

- | | | |
|------------------|---|----|
| ﴿ الجزء الاول ﴾ | يشتمل على ما في الجوائب من الفصول اللطيفة والمقامات الطريفة والمقالات الادبية | ٢٠ |
| ﴿ الجزء الثاني ﴾ | يحتوى على تفصيل ذكر حرب جرمانيا مع فرنسا من اولها الى آخرها | ٢٠ |
| ﴿ الجزء الثالث ﴾ | يشتمل على بعض القصائد التي نظمها محرر الجوائب في الاستانة وهي التي ادرجت بالجوائب وهو جزء من ديوانه | ١٥ |
| ﴿ الجزء الرابع ﴾ | يشتمل على القصائد التي نظمها افاضل العصر من العلماء والادباء في مدح محرر الجوائب | ١٠ |
| ﴿ الجزء الخامس ﴾ | يشتمل على جميع ما في الجوائب من الحوادث التاريخية و الوقائع الدولية التي حدثت في الممالك العثمانية وفي الدول الاجنبية من جللتها الاوامر والفرامين السلطانية وغير ذلك من المعاهدات التي صدرت في الخطوب الشهيرة | ٢٥ |
| ﴿ الجزء السادس ﴾ | يشتمل على ما في الجوائب من الحوادث التاريخية والوقائع الدولية من جللتها الاوامر والفرامين السلطانية التي صدرت في الخطوب الشهيرة وغير ذلك من الفوائد التي يحتاج اليها كل اديب اريب ويرتاح اليها كل مؤلف لبيب | ٢٥ |
| ﴿ الجزء السابع ﴾ | يشتمل على ما في الجوائب من الحوادث التاريخية والوقائع الدولية من جللتها الاوامر السلطانية التي صدرت في الخطوب الشهيرة وغير ذلك من الفوائد التي حدثت من سنة ١٢٩٥ الى غرة ربيع الاول سنة ١٢٩٨ | ٢٥ |

﴿ كتب اخرى طبعت في مطبعة الجوائب ﴾

- قرش
- ٢٠ غنية الطالب ومنية الراغب في الصرف والنحو وحروف المعاني (طبعت في مطبعة الجوائب)
- ٢٠ الموازنة بين ابي تمام والبحتري للشيخ العلامة ابي الحسن بن بشر بن يحيى الأمدى (هذا الكتاب لم يطبع بعد في غير مطبعة الجوائب)
- ٠٧ بديع الانشاء والصفات في المكاتبات والمراسلات للشيخ الامام مرعى ابن الشيخ الامام يوسف بن ابي بكر احمد المقدسى
- ٠٢ لوعة الشاكى ودمعة الباكي
- ٠٢ تعليم المتعلم طريق التعلم للامام الزرنوجى
- ٠٤ ترجمة القانون الاساسى والخط الهمايونى الشريف الى اللغة العربية
- ٠٣ ترجمة نظمات مجلسى الاعيان والمبعوثان الى اللغة العربية
- ٠٢ رسالة فى المكايل والمقاييس العلمية بالديار المصرية تأليف عزتلو محمود بك الفلكى
- ٢٠ الطبعة الثانية من مجلة الاحكام العدلية تحتوى على ستة عشر كتابا و ١٨٥١ مادة
- ٠٤ القانون الاساسى بالتركى والعربى
- ١٢ رسائل ابي بكر الخوارزمى
- ١٢ ديوان ابي الفضل العباس بن الاحنف اليمامى الشاعر المشهور وفى آخره ديوان جمال الدين يحيى بن مطروح المصرى
- ٠٥ مجمع الحمام فى مدح خير الانام لشمس الدين محمد الصالحى الهلالى شيخ شهاب الدين الحفاجى على عدد حروف المعجم
- ٠٥ مقامات جلال الدين عبد الرحمن السيوطى وهى اديبة طيبة
- ١٢ رسائل ابي الفضل بديع الزمان الهمذانى
- ٠٦ مقاماته
- ٠٧ تسع رسائل فى الحكمة والطبيعات للشيخ الرئيس ابي على الحسين بن عبد الله بن سينا وفى آخرها قصة سلامان وابسال ترجمها من اليونانى حنين بن اسحاق

- ٠٤ ثلاث رسائل احداها النقود الاسلامية للعلامة تقي الدين احمد بن عبد القادر المقرئ المؤرخ المشهور والثانية الدرارى فى الدرارى للشيخ جمال الدين عمر بن هبة الله بن العديم الحلبي والثالثة مجموعة حكم وآداب واشعار واخبار وآثار وفقر انتخبها الكاتب المشهور ياقوت المستعصمى
- ٠٨ نثار الازهار فى الليل والنهار للامام العلامة محمد بن جلال الدين الخزرجى الافريقى الملقب بابن منظور صاحب لسان العرب
- ١٠ نزهة الطرف فى علم الصرف للشيخ الامام الاوحد ابى الفضل احمد بن محمد المبدانى صاحب مجمع الامثال ويليده الانموذج للعلامة جارا الله الزمخشري وقواعد الاعراب لابن هشام كلاهما فى علم النحو وقد طبعت هذه المجموعة باحرف كبيرة على شكل حسن غريب بحيث لم يسبق لها نظير وقد ضبط كثير من الفاظها بالحركات تسهيلا للنعم والتعليم

﴿ كتب اخرى طبعت فى مطبعة الجوائب وهى من تأليف الشهم الهمام ﴾
 ﴿ الامير السيد محمد صديق حسن خان بهادر ملك بهوپال المعظم ﴾

- ١٧ لقطة العجلان مما تمس الى معرفته حاجة الانسان وفى آخرها خبيثة الاكوان فى افتراق الامم على المذاهب والاديان
- ١٠ حصول المأمول من علم الاصول
- ١٠ البلغة فى اصول اللغة
- ٠٥ غصن البان المورق بمحسنات البيان
- ٠٦ نشوة السكران من صهبااء تذكاء الغزلان
- ٠٤ العلم الحفاق من علم الاشتقاق

﴿ كتب تركية طبعت فى مطبعة الجوائب ﴾

- ٠٥ حقوق ملل مترجم من اللغة الفرنسية
- ٠٤ اخلاق حيمه للاديب محمد سعيد افندى
- ٠٦ ديوان المرحوم صبرى شاكر الشهير
- ٠٣ تخميس قصيدة البردة للمرحوم نخبى افندى
- ١٠ تاريخ امريكا وتفصيل اخبار كشفها

﴿ كتاب كنز الرغائب في منتخبات الجوائب اعنى بجمعها ﴾
﴿ مدير الجوائب ﴾

قرش	
٢٠	﴿ الجزء الاول ﴾ يشتمل على ما في الجوائب من الفصول اللطيفة والمقاسمات الظريفة والمقالات الادبية
٢٠	﴿ الجزء الثاني ﴾ يحتوي على تفصيل ذكر حرب جرمانيا مع فرنسا من اولها الى آخرها
١٥	﴿ الجزء الثالث ﴾ يشتمل على بعض القصائد التي نظمها محرر الجوائب في الاستانة وهي التي ادرجت بالجوائب وهو جزء من ديوانه
١٠	﴿ الجزء الرابع ﴾ يشتمل على القصائد التي نظمها افاضل العصر من العلماء والادباء في مدح محرر الجوائب
٢٥	﴿ الجزء الخامس ﴾ يشتمل على جميع ما في الجوائب من الحوادث التاريخية والوقائع الدولية التي حدثت في الممالك العثمانية وفي الدول الاجنبية من جللتها الاوامر والفرامين السلطانية وغير ذلك من المعاهدات التي صدرت في الخطوب الشهيرة
٢٥	﴿ الجزء السادس ﴾ يشتمل على ما في الجوائب من الحوادث التاريخية والوقائع الدولية من جللتها الاوامر والفرامين السلطانية التي صدرت في الخطوب الشهيرة وغير ذلك من الفوائد التي يحتاج اليها كل اديب اريب ويرتاح اليها كل مؤلف لبيب
٢٥	﴿ الجزء السابع ﴾ يشتمل على ما في الجوائب من الحوادث التاريخية والوقائع الدولية من جللتها الاوامر السلطانية التي صدرت في الخطوب الشهيرة وغير ذلك من الفوائد التي حدثت من سنة ١٢٩٥ الى غرة ربيع الاول سنة ١٢٩٨